دراسات في الإرث الجبراني

المجلد الأول
الآباء والأبناء، طريق السماء

الدكتور: إميل كبّا

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار
الفكر اللبناني
للطباعة والنشر

كورنيش بشارة الخوري - بيروت - لبنان
هاتف: ٦٣٠٩٠٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣٠٧٥٧
ص. ب: ٤٦٩٩ أو ٥٤٩٠/١٤

الطبعة الأولى ١٩٩٥

الجزء الأول
الآباء في الأدب الجبراني

تصدير..

إذا كان التواصل، بمعنى التعاقب والاستمرار وحتّى التوارث، هو أحد وجوه الحياة الساعية في سداها داخل الزمان والمكان، الإطارين الظاهرين للوجود، فإنّ من علامات هذا التواصل انتقال الحدث الإنساني بتراكماته من جيل إلى جيل، فيتسلّم الأبناء من الآباء خبراتهم، بنوعيها النفعيّ الاستهلاكيّ والمعنويّ الروحيّ غير المنظور، يضيفونها إلى مسعاهم هم، على الطريق ذاتها التي سُبقوا إلى عبورها، مزوَّدين بتنبيهات من تاريخ الجامعة البشريَّة، وترافقهم صيحات متتالية من داخل ذاتهم العامّة، تُثني وتثيب، أو تزجرهم وتعيب. وكأنّما الوجود، في معناه الأخير، وفي أبسط تعريفاته ومختزلاته، محاولات لإتقان لعبة الحياة والموت، على نسق غامض تحذقه أعماقنا، وإن لم تتبيَّن تفاصيله عاقلاتنا والقلوب.

ومن نتيجة هذا التواصل أنّ الآتي من الأيّام أرضٌ تُبذر فيها خصال ومزايا وقيمٌ وفضائل وأشواق، وتنمو في مساكب الأجيال عيوبٌ وعاهات ونقائص ورذائل، وتتفتّح غرائز، فيستمرّ الذي كان، بشكل من الأشكال، ويُستعاد ما مضى عبرَ أدواتِه، نحن، أجيالاً معقوداً على سعيها كلُّ هذا الوجود الذي من عناوينه الكبرى.. التحوُّلات، وليس زوال أو انقراض أيّ شيء على الإطلاق.

وإذا انتقلنا إلى ميادين الفنّ، نُواجه أيضاً بمثل هذه المتوارثات التحوّلات، ونستنتج معنى العبور الذي للحدث المائت في الزمان والمكان،

وصولاً إلى النأمة أو اللون أو النغمة أو الخطوة أو الشكل أو الحركة الباقية في دنيا الخلود. وكم نرى ذاتنا العامة تلك، ونواتئ وجودنا ومجمّعاتنا وتفاصيل فضائلنا والرذائل، بل مشتهياتنا كلّها، دنيئها والسامي، تخطر أمامنا على مسافة تنهيدة من أسفنا، أو في مدى دمعة وابتسامة من مشاركتنا الإنسانية؛

فنفرح، وحتّى في الحزن نفرح، لأنّ ثمّة شاهداً على كلّ ما عبر، ولأنّ ما ظننّاه، من تراثنا الشخصي خصوصاً، قد سقط ومات في هوّة النسيان، ينبعث من جديد، علامةً من علامات البقاء، هاجسنا اليوميّ في غربة المسعى داخل المتغيّرات الفاجعة من حيواتنا المهرولة نحو انقضاء.

لذلك.. نرانا نسمع في كلّ أدب أصداءً من الذي عبر، سواء فوق أرضنا أم فوق أرض سوانا. وكم تتشابه ممتلكاتنا في النهاية! فيحيلنا الموقف الجمالي في الشعر والقصّة والمسرح والأنشودة واللوحة والتمثال وغيرها، على مختزنات ذاكرتنا الرهيفة، بقدر ما يلفتنا إلى القابل من مرتجلات الحياة وهي تتكوّر في أرحام المستقبلات.

ونفوز بأننا هذا المتكاثر يومياً في حقول الأيام، تكاثر الحبة في حقول السنابل، ونفوز بأنّنا، مرة أخرى، هذا القديم المتجدّد، بخيره وشرّه، بانتصاراته وخيباته، برضاه وتململه الملحاح، ما دام في العيش مدى يُستطاع، وعلى دروب الإنسانيّة سلام داخليّ يلوّح لنا عبر دخان النقمة وضباب الحروب.

وجبران خليل جبران، سادن الكلمة الجميلة لوقت في شرقنا المتعب، بل عالمنا المرهق بثقل ما يحمل من غرائز وأشواق، يقدّم لنا أدبه تلك الومآت البليغة إلى مكتسبات الأجيال من حظوظ الدنيا، ومدَّخرات آمالها عبر العصور، بل يعرض لنا أدبه الإنسانيّ هذا تمايزات الناس في الشريحة الاجتماعية الواحدة، وحتى داخل الطبقة أو الفئة من الآدميّين ذاتها، على نحوٍ يُشعرنا أحياناً بأنّ كلّ شيءٍ، بعدُ، في مكانه، وأنّ الإنسان لم يتغيّر قيد أنملة، وإن اختلفت مواقيت سعيه، والألوان المحدقة بأمكنة تواجده في يوميّات عبوره.

فنقع داخل هذا الأدب على آباء وأبناء، بفئاتهم الكثيرة التي لا حدّ لها، أياً تكن مفاهيم ومعايير تمايزهم والفروقات، يبارك بهم قيماً وفضائل، أو يلعن مثالب ورذائل، أو نعاين، عبر ميولهم والرغبات والأشواق، جوانب من العطش الإنساني الهائل إلى تلك الغبطة الداخليّة، مآل كلّ الناس إبّان مرورهم فوق بلاط الزمن الأجرد، والعاري من كل دفء، يشعرهم بالطمأنينة والثبات.

وإذا كان للأدب الجبراني مثل تلك القدرة على إحياء ما عبر، واستحضار ما همد في قعر الذات العامّة للكائن الآدمي، فإنَّ فعلَه لا يعدو كونه ائتلافاً أو محاولة توفيق بين ما يُرى في هذه الذات، وما يرجوه هو طرازاً أعلى في الخليقة، ومثالاً أكمل للإنسان المتوقّل جبل الحياة في سعي مضنٍ إلى شكلٍ نهائيّ من ألوهة بعيدة، إلى الله.

لذلك. . تبدو التجربة الإنسانية المنتقلة في أدب جبران من جيل الآباء إلى جيل الأبناء، فإلى الأحفاد وسائر الأنسال من جديد، مجموعةً من الأحداث المحكومة بظروفها الواقعيّة، مستقاةً من راهن الأفعال الاجتماعية، وهو حيّ، وكصورة لاشتباك المصالح بين الأشخاص تضارباً وتناغماً، وُلكنّها متوجّهة كلّها بجاذب من رؤياه الحياة سفراً إلى الكمال، وبحرص منه على الوقوف فوق ناصية الأيام لتبشير وهداية، متوجّهة، قلنا، نحو هدف بعيد هو الانخراط في موكب النظام الأشمل للكون، كمثل ما تتحرّك الكائنات اختلافاً في الظاهر، وهي على اتفاق في الباطن، فراراً من البؤس والموت، واقتراباً من كل ما يُسعد ويُبقي، حتّى ليبدو أن لا ظاهر ولا باطن في عالمه، لأنّ كليهما واحد في النهاية أمام المستحقّات الآتية في كلّ حال.

وفي سبيل دراسة هذه التجربة الإنسانيّة، محمولة بجيل الآباء وجيل الأبناء في أدبه، نرى لزام التقيّد بخطّة ثنائيّة التوجّه في منهجها العام، فنفرد جزءاً أوّل للآباء داخل الآثار الجبرانيّة، يليه جزء ثانٍ للأبناء، توصُّلاً إلى ما يجمع الجيلين، في جزء ثالث، عند نقطة أو غاية، غالباً ما تكون في أدب جبران خارجة عن إرادة الجيلين معاً، لأنهما معه مؤتمران بها ائتماراً كيانياً يكاد

يكون قدرياً، بتوجيه من قوى ما ورائية، هي، في البعد الأخير لحقيقة الفلسفة الجبرانيّة، قوى الكائن ذاته منضوياً في الموكب الشامل للحياة، «السائرة بعظمة وجلال في فضاء اللانهاية إلى غير المتناهي»[1]، كما جاء في «النبيّ»، كتابه الخالد.

ولئن تشابه جيلُ كلّ من الآباء وجيل كلّ من الأبناء داخل فئة كلّ منهم، جذباً للنَّسَم المحيي من الأوَّلين إلى جسد العدم، واستجابة من البنين في حمل الوديعة الإنسانيّة استكمالاً لرحلة الكمال في المعتقد الجبراني، فإنّه لمن الثابت أنّ كلاًّ من الفئتين، في الإطار البيئي داخل زمنها الصغير الخاص بها على دروب اللانهاية، قد تفرّع إلى مجموعات تُوحّد بين أفرادها منطلقات أو أقدار أو خصال أو أهداف، الأمر الذي يؤهّلها لأن تُدرس على حدة، في فصول مستقلّة تتكامل لإماطة اللثام عن حال كلّ من جيل الآباء والأبناء في أثناء سفره المجدّ وراء الحقائق الكونيّة.

وقد عوَّلنا، عند اعتمادنا سلَّم أولويَّات لدراسة هذه المجموعات، على بدايات مُهر بها الجيلان، أمانةً للتقاليد والسائد المتردّد من أخلاق البشر، وصولاً إلى ثوريّة لديهما لخلع ما بلي من الموروثات، عقليَّات وأعرافاً، أو ابتعاداً بالمألوف شيئاً فشيئاً نحو قمم الوجود الأعلى، حيث غاية الغايات لكل كائن في عقيدة جبران، فتزول الفوارق وتبطل التصنيفات.

عليه.. ماذا تكون فئات الآباء واهتماماتهم في الأدب الجبراني؟ ثم ما هي خصال الأبناء في آثاره، طالعين من رحم الأسرة بمتّجهات شخصيَّة لاستقلاليّة في الرأي والتصرف؟ ومن ثمَّ، في جزء ثالث أخير، أيّ جامع بين الفئتين في الدرب الطويلة المفروضة على الآدميّين، فوزاً بهدف أسمى يتعدّى الكائن إلى ذات الكون بأسره؟

أجزاء ثلاثة لرأي أخير في إنسانيّة وعالميّة هذا الأدب الفريد.

*

(١) راجع دراستنا «النبيّ»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

الإهـداء . .

إلى روح أبي، آنَ في كل وقت، مقلّدًا ومجدّداً،
عطوفًا وقاسيًا، له في عمري الوفاء.

إميل

المقدّمة..

يقول توفيق الحكيم بمقدّمة كتابه «مسرح المجتمع» في التطابق بين مسرحه والحياة: «... وإن الحقيقة لتقتضي التصريح بأنه ما من قصةٍ هنا خلا منها مشهد، على الأقل انتزع بالفعل من واقع الحياة... حتى ما قد يبدو أحياناً أنّه عجيب. إنّ الحياة أجرأ من الفنّان»(١).

ونحن مع اعتقادنا الكامل بأنّ كلّ عمل قصصي هو اتفاق، حيث قدر الأبطال والشخوص يصنعه إنسان كاتب(٢)، مهما تسامت لديه درجة الموضوعية التي يقتضيها الفنّ القصصي.

وعلى الرغم من إيماننا بأنّ كل قصة تشكّل وحدة عضوية لا علاقة لها، من حيث المبدأ، مع سابقاتها أو لاحقاتها من أعمال جبران؛

فإنّ هذين الاتفاق والقدر المصنوع يتداخلان مع الأحداث المستمدّة من الواقع الاجتماعي والسياسي والحضاري، منبت جبران نفسه، فنضطر إلى قياسهما داخل أدبه عملاً بقاعدة التماثل والتواصل بين الفن والحياة.

---

(١) توفيق الحكيم: «مسرح المجتمع»، (مكتبة الآداب بالجماميز)، المقدّمة.

(٢) يقول المسرحي السويسري فردريك ديورنمات: «المسرحيّة لي هي عمل فنّي يصنعه إنسان كاتب، ويشاركه في إعداده أناس، ويتوجّه إلى آخرين».

(«Le Théâtre», E.D.M.A., Le livre de poche, 4461, 1976).

هكذا نعي أنّ الآباء في الآثار الجبرانية لا كينونة تاريخيّة خاصة بهم، فكينونتهم هي كينونة فنيّة من حطام عالم قديم، هو عالم جبران وعالمنا نحن الآدميّين، نتوارثه كل يوم، ما دامت الحياة على حركتها وتناميها بناءً وهدماً، بين ولادة وموت، وخير وشرّ، وسائر المتضادات التي تشكّل الأطر لسعينا الإنساني.

فما نقع عليه في أدب جبران هو عالم جبران نفسه، آن يقف على ناصية الأيام مراقباً تسلسل أحداثها ووقائعها، باحثاً لنفسه من خلالها عمّا يترجم ما يتتابع في أعماقه بفعل التأثّرات. والقاعدة هنا هي قاعدة الإنسان الذي ينطبع في الأشياء[١]، لأنّ الفكر النشط لا يحرّره إلّا الغرض أو الشيء، فيتراءى عمل الكاتب كأنه حياة خارجيّة في الظاهر، وهو تمثيل لحياته الداخليّة في حقيقة الأمر وفي أكثر المظاهر خصوصية.

إذاً.. شرعية التحدّث عن فئات الآباء في الأدب الجبراني أمر يحتّمه التداخل الحاصل بين الفنّ والحياة، وتالياً التواصل الأكيد بين الكاتب العضو الاجتماعي ذي الاهتمامات في زمن ومحيط من جهة، وشخصيّات أدبه من جهة ثانية.

ولكن.. أيّ أنواع من الآباء نعالج، ووفق أيّ هرميّة للبحث؟

إنّ خير خطة تسهّل الخوض في الموضوع تقضي بالنظر إلى الآباء في الأدب الجبرانيّ داخل أطرهم الاجتماعية ـ المهنيّة والخلقيّة أحياناً، باعتبارهم عيّنات أو شرائح سكانيّة تتحرّك في زمنها الخاص، زمن الأثر الفنّي، إطار أحداثها، والزمن العام كصدى من أصداء التاريخ وحركة الآدميين، رفقاء الكاتب في سكناه.

وانطلاقاً من هذه الفرضية لم أرَ أصلح من فئة التقليديين المنتفعين من الآباء فاتحةً لفصول أربعة مفصّلة في تصميمها كالتالي:

---

(١) Alain, «Eléments de philosophie»

ـ تقليديّون منتفعون.
ـ عاطفيون خاضعون.
ـ قساة مستبدون.
ـ مجترئون مجدّدون.

وما العلاقة الداخليّة المتنامية بين هذه الفصول الأربعة إلاّ من حركة الحياة ذاتها في الكائن الآدمي: يبدأها مقلّدةً منقولة لغاية انتفاع، ثم يتدرّج بها معقولة لخضوع أو لرفض، فمتسامية نحو التجديد والتغيير باجتراء من شخصيّته لاستقلال وابتكار.



الفصل الأوّل

آباء.. تقليديّون منتفعون..

وفئة الآباء هذه هي في جملة ما اشتمل عليه أدب جبران من جماعات إنسانيّة وثيقة الصلة بالحياة. ونرى وجودهم في أدبه لم يأتِ مصادفة أو عن طريق التلقائيّة المرتجلة، فعمليّة اختيار الموضوع الأدبي بعامّة، والقصصي بشكل خاص، ليست وحياً وإلهاماً، ولا حدساً أو رؤيا غيبيّة، بل هي يقظة ضمير على قضيّة، وانقشاع غفلة عن مبدإ تأثّر بحدث من الأحداث.

فتفاصيل هؤلاء ودقائق حيواتهم وتشابك مصالحهم مستعادةٌ في أدبه، على نحو ينبئنا بغائيّة ما، هي غيرها إمتاع قرّائه وحسب، لأنّها تتعدّى الإدهاش بالفنّ وروعته إلى فكرة الإصلاح، وتتخطّى السرد والحوار المضيئين للمواقف إلى نوع من بناء الحياة على نحو جديد، يستعيدها من مستنقع المجتمع الآسن ليعرّيها من الشوائب، ويطهّرها بالفنّ.

بهذا المعنى، يجعلنا جبران نترجّح بين النقد الفنّي لأدبه كتعبير جمالي، ونقدٍ يتناوله من وجهة نظرٍ تاريخيّة حضاريّة كوسيلة من وسائل المشاركة في النضال الاجتماعي والإنساني، ويضع بين أيدينا «خبز المعرفة وملحها»[1]، ولا يقتصر دورنا حينئذ على معاينة قدر هذا أو ذاك من أبطاله وشخوصه، لأننا نكون

---

(١) تعبير لـ «جان فيلار» Jean Vilar، الممثل والمخرج الفرنسي (١٩١٢ - ١٩٧١). وراجع بهذا المعنى أطروحتنا «النزوع الطبقي في مسرحيات توفيق الحكيم»، بيروت، ١٩٨٦.
وراجع: Bernard Dort: «Théâtre public», Seuil, 1967.

قد اكتشفنا موقعنا من الكون، وعدنا بواسطة الفن إلى الحقيقة التي ليست قضاء فقط ولا قدراً فقط، بل هي فرصة أخرى لإمكانيّة تحرّر جديد[١].

ما يجب أن يسترعي انتباهنا في هذا الفصل الأوّل، إلى جانب الغاية الإصلاحية التي تكمن وراء استعراض جبران لفضائل أو رذائل شريحة من شرائح المجتمع، والموقف الفنّي بحدّ ذاته انتخاب واعٍ لموضوعات كثيرة يضجّ بها الواقع، هو قراءة في العمق لشخصيات هذه الفئة من الآباء، بدوافعها البيئيّة وحتى النفسيّة أحياناً، فنتمكن، بعدها، من إيجاد أرضيّة رئيسيّة واحدة لهؤلاء، تتضمّن مبادئ أساسيّة تتردّد بحذافيرها تقريباً في ظروف متشابهة[٢]، انطلاقاً من اعتقادنا بأنّ العقلية الإنسانيّة تبقى واحدة على الرغم من الاختلافات السطحيّة في مسعاها[٣].

ولا شكّ في أن نظرة إلى هؤلاء الآباء، بعد مراعاتنا التسلسل التاريخي للآثار الجبرانيّة، تصنّفهم، بادئ ذي بدء، في عداد المحذوفين من خريطة الآدميين صانعي الحياة بوجهها الخيّر، عن قصد حيناً أو من دون قصد.

■ فوالد سلمى في كتاب «الأجنحة المتكسرة»، وهو فارس كرامة، يقدّمه جبران كشيخ «شريف القلب، كريم الصفات، ولكنّه ضعيف الإرادة، يقوده رياء الناس كالأعمى، وتوقفه مطامعهم كالأخرس».

لكننا، بعد معاينتنا الأحداث المرافقة لسعيه في الأسرة والمحيط، ووقوفنا على الدوافع، ما استتر منها وما خفي، لا نجنّبه الشبهات. فنراه، على سبيل المثال، يتنازل عن ابنته الوحيدة، ومعها عن ثروته للمطران، وكأنه والد لوقت عابر، وثريّ بالوكالة، يؤدّي دور إيصال الحمل إلى الجزّار ثم يرحل؛ أو

---

(١) «النزوع الطبقيّ في مسرحيّات توفيق الحكيم»، ع . س.

(٢) من قول لكاردنر ولينتون Kardiner et Linton.

راجع: J. Poirier, «Histoire de l'éthnologie», P.U.F., 1338, 1974.

(٣) قول لـ «أدولف باستيان» Adolf Bastian، المرجع نفسه.

هي رغيبة الكاتب، ذي النزعة الذاتيّة الغنائيّة، على حساب الموضوعية الواجبة في كل قصص اجتماعي، أملت عليه افتعال صراع بين الموروث والمحدث، القديم والجديد في كلّ شأن، متمثّلين هنا على التوالي بالمطران ومعه فارس كرامة الذي من جيله، وبجبران ومعه سلمى، حبيبته التي على اسم إنسان آخر[١].

إنَّ فارس كرامة في كتاب «الأجنحة المتكسّرة» رمزٌ للسلطة الأبويَّة في التقاليد الشرقيّة، تخضع ابنته «لإرادته الواهنة»[٢]، دونما تعليل أو تقييد بمبادئ، وهو «شيخ يمثّل بيتاً قديماً هدمه الطوفان».

وكم نراه على مقدار من الأنانيَّة، حتى لا يبصر في لحظة الاحتضار سوى الاستمرار في وحيدته فلا تنساه، وفي تمنّيه خيانةٌ لمأساة سلمى في بيتها الزوجي وتغييب لها، «وافرحي لأنني سأبقى بك حيّاً بعد موتي»[٣]، يقول لها.

وقد تضعنا شخصيّته في حيرة من أمرنا. فما إن تقنعنا أحداث «الأجنحة المتكسّرة» ولوحاتها بأنه في عداد التقليديّين من الآباء، والمنتفعين من فرص الأجداد وامتيازاتهم بالسلطة والنفوذ والهيمنة عن طريق الأعراف المتوارثة في الشرق المقعد، حتى يجبهنا، وهو على فراش الموت أيضاً بما يدنيه من الثوّار الذين أرجأوا انتفاضتهم في آخر لحظة. يقول لابنته وهو في الرمق الأخير، ولجبران، حبيبها الواقف إلى جانبها: «... ولا تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي لأنّ تعازيمه لا تكفّر عن ذنوبي إن كنتُ مخطئاً، ولا تسرع بي إلى الجنّة إن كنتُ بارّاً. إنّ إرادة البشر لا تغيّر مشيئة الله... أمّا بعد موتي، فليفعل الأطباء والكهّان ما شاؤوا...»[٤].

---

(١) راجع دراستنا «الأجنحة المتكسّرة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

فلمَ أذعن فارس كرامة طوال حياته لطاغوت المطران، فتنازل عن ابنته الوحيدة لمنصور غالب، ابن أخيه، مع أنّه الغني القادر على الاستغناء والمجابهة في آن؟ هل خاف على ثروته من سلطان الإقطاع الديني فاحتفظ بها بتقيّة ونباهة الممتعضين ولكنْ المتأصّلين في تربة التقليد بدرجة لا يصغون معها إلى أكثر من صوت أمانهم؟

إنّنا، متى أسقطنا احتمالاً معقولاً مؤدّاه أن وجود فارس كرامة في «الأجنحة المتكسّرة» هو وجود اتّفاقيّ تأثيريّ يزيد من حرج المواقف وجهومتها، حتى ليرتسم علامةً كالمسافة الفاصلة بين المبادئ المتصارعة على تباين؛

عندها، لأمكننا القول: إن الشيخوخة ـ وقد تكون الكهولة في حاله ـ هي التي أبرزت لديه اختلالات وعيوباً من مثل البخل والحرص أو الحذر وسواها. والسبب الطبيعي لذلك، برأينا، هو تدنّي الثقة بالنفس، فتأتي هذه العيوب وسائل سلوكيّة تُعيد إليه أمانه المفقود إذ ترهف شعوره بالتملّك[١].

■ ولكنَّ العقليّة التقليديّة في الآباء الجبرانيّين لا يحدّدها انتماؤهم الطبقي إلى هذه أو تلك في هرميّة المجتمعات الإنسانيّة فحسب[٢]، فثمّ آباء ينتسبون إلى الفئة ذاتها، على الرغم من الفوارق التي تباعد بينهم على صعد الثروة والمنزلة والاهتمامات.

ففي كتاب «المجنون» صاحب دكّان وزوجته يفرحان لأنّ ثلاثة رجالٍ في

(١) راجع: Adler «Le tempérament nerveux», payot, (P.B.P.), 151, 1976.

(٢) والنتيجة واحدة، لأنّ الروابط الاجتماعيّة بين الناس ليست ماديةً فقط، كما لا يمكن أن تنتج فقط عن مجاورة أو قرابة. فهي نفسيّة أيضاً، وقد يكون سببها وحدة في العقلية أو تشابه. راجع بهذا الصدد:

G. Bouthoul, «Traité de Sociologie», Payot, Paris, T.I, 1949.

حانهم ينفقون بتبذير بعد أن أصابوا مالاً بميت، وهم حائكٌ ونجّار وحفّار قبور. ويلتمس الزوجان من الله أن يرزقهما كلّ ليلة بمثل هؤلاء، ليُعفى ابنهما الوحيد من خدمة الحانة ويصير قسيساً[١].

واللوحة، على قسوتها وتعميمها المفارقة على مسيرة كونٍ بأسره، انطلاقاً من إيمائها بأن كل قداسة أو صلاح في الرهبان والقساوسة إنّما هو نتاج عنصر الشرّ المساهم في قيامة الخير، وإقرارها بأنّ الأحداث تتناسل دمعاً وفرحاً، هذا من ذاك، وبالتناوب ربّما، على نحوٍ يضع بين أيدينا كوناً لا يعقل، فيصير الإنسان مجنوناً بجنونه؛

هذه اللوحة على قسوتها تحضن نذيراً بأنّ الحدث الإنساني المتهيّئ في بال الزوجين سوف يكمل طريقه يوماً عبر ولدٍ يرتقي من حالة الانتفاع من فتات طبقة، إلى نوع من السرقة المشروعة بالتمادي لحقوق الآدميين، ولو تحت ستار الصالحات: «فقالت المرأة لزوجها: حبّذا لو يسعدنا الحظُّ في كلّ يوم بمثل هؤلاء الزبائن الكرماء الشرفاء، فإنّنا نتمكّن وقتئذٍ من إعفاء ابننا الوحيد من خدمة هذه الحانة القذرة، ونستطيع تعليمه ليصير في المستقبل قسيساً»[٢].

والزوجان، هنا أيضاً، ضرورةٌ، تُسرّب عدوى الاختلال على المستوى الكونيّ، فتتناسل الأجيال عيوباً ومثالب. وهما، على ما يظهر، يمتلكان وعياً طبقيًّا مدركاً موقعهما في المجتمع والحياة، فيكافحان للاستمرار في اطّراد تقدّمٍ وإثراء، إذ ينظر كلٌّ منهما إلى عشيره من الطبقة ذاتها، ومعاً يختبران الظروفَ نفسها[٣]، وتتناهى إليهما من المجتمع أوبئة واحدة في الرؤية الاجتماعية والأخلاق، من وصوليّة ورشوة وسرقة وتملُّق وسواها، فتتخمّر هذه المعطيات في هذا وذاك، لتغدو علامةً في طبقة وعنواناً لعصر. والقاعدة في هذين التحرّك

---

(١) راجع دراستنا «المجنون»، «الطموح»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.
(٢) المصدر نفسه: «الطموح».
(٣) Adler, «Connaissance de l'homme», P.B.P. N°. 90, 1976.

والسلوك هي التقليد، وهو القاعدة الأقدم في الظاهرة الاجتماعيّة[1].

■ وهذا النوع من جيل الآباء يأتمر بنداء من العصبيّة بشكل عام، مصغياً إلى هتاف الطبيعة فيه. فينتقل معه ثبات القوى الكيانيّة المتوارثة والمنزلة أساساً في طبعه، إلى نطاق المجتمع، وبما يشبه النظرة الأحاديّة تتحدّد رؤيته الحياة، ويُقوّم الأشياء.

دليلنا من كتاب جبران «رمل وزبد»، حيث تقول امرأة: «كيف لا تكون الحرب مقدّسة وقد مات فيها ابني؟»، وحيث نصغي إلى استفهام من الكاتب في موضوع الأمومة: «وهل كانت محبّة أمّ يهوّذا أقلّ من محبّة مريم ليسوع؟!»[2].

فالمرأة الأولى عرّت الحرب من بشاعتها وفواجعها، لتغدو محطة قداسة، كالجمعة العظيمة في التراث الديني المسيحي، أو الكربلائيّات في الإسلام، تطأطئ الهامات لحضورها، ولو قاتلةً ماحقة.

وأمّ يهوّذا هي وجه الأمومة المعهود في الحضارة الإنسانية المتوارثة، لا احتكام معه لمفاضلة بين الأبناء، ولا لقياس خلقي في إيثار بعضهم على بعض.

وكلتاهما من ذاك الصنف التقليدي لجيل الآباء، ولو أمّهات، عبره تستمرّ الحياة، وإن عن طريق التمنّي، بإنجازاتها في ميادين العاطفة والعلاقة بالآخر والحرص على الذات، قبل أيّ شيء آخر، عند اقتحام مجاهيل الزمن.

---

(١) حتّى إن التربية نفسها ليست إلّا شكلاً فنياً غايته تعليمنا الطرق الصالحة لإتقان هذا التقليد منذ الطفولة.

(Dr E. Claparède, Cité par Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», Librairie Armand Colin, Paris, 1971).

(٢) راجع دراستنا «رمل وزبد»، الفقرتان 232 و 315، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

والحقيقة أننا، متى بحثنا عن الغاية الأساسية التي تتمحور حولها جهود هاتين، نلفاها في الحاجة إلى الاحتماء المرادفة في بعدها الأخير للشعور بالكفاية، بغية مكافأة النفس على دور أمومتها المكتملة، وللانتفاع بالاستكانة والطمأنينة والهدوء، إذ هما على أبواب الشيخوخة.

فهاتان الوالدتان في جيل الآباء تتوقان إلى الأمان مدفوعتين بشعور بالنقص[١]، نتيجة إحساسهما بهروب الزمن بعد موت الولد، وتجذّر موقعهما في موكبه الساعي، فنراهما تارة وديعتين وتارة معترضتين، راضيتين ومتذمّرتين في آن معاً، كما هنا، تبعاً لدرجة شعورهما بالقلق على مصيرهما[٢].

■ وفي «يسوع ابن الإنسان» صفحات أيضاً يقف فيها آباء والدون حدًّا فاصلاً دون اقتبال زمن تغيير، فلا يواكبون الحياة بتراقيها، ويوسمون بعلامة محافظَة وتقليد.

فهذه أرملة الجليل بشهادتها غير المؤمنة بيسوع تبغض القاسي فيه، لأنه فصل عنها ابنها الوحيد فتبعه. وتفرح لأنّ الرومانيين والكهنة قد أمسكوا بالمعلّم وصلبوه. وهي تبغضه لأنه أنسى وحيدها ثدييها في سبيل ينبوع لم يذقه بعد[٣]. وتقول: «إنّني أعرف أن ابني لن يرجع إليّ، فقد رأيتُ ذلك في عينيه، ولأجل

---

(١) A. Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٢) يرى «أدلر» أن بنيتنا النفسيّة تبدو قبل كلّ شيء آلة للدفاع وللهجوم في آن، وقد تشكّلت بدافع من الحدود الضيّقة التي نجد حياتنا مسجونةً في نطاقها، والتي تحول دون الإشباع السهل لرغباتنا.

A. Adler, Ibid.

(٣) راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

هذا أبغض يسوع الناصري الذي سبّب وحدتي في هذا الحقل غير المفلوح وهذا البستان الذابل»[1].

هي طراز من الآباء التقليديين المحافظين، راغب في حاضره، منتمٍ إليه بقوّة، لأنه يشكّل الركيزة الأساسية لاستمراره في الحياة على نمطٍ معيّنٍ من المنعة والثبات، ولأنه كذلك فهو لا يوفّر وسيلة للمحافظة على مكتسباته وللتمادي في توسيع رقعة انتشاره، ولو تمَّ الأمرُ باحتواء الأبناء.

وبهذا المنظار نفسّر سلوك المرأة في لوحة «سيبورية أمّ يهّوذا» من الكتاب عينه. فهذه، في معرض وصفها ابنها وأطواره، تتباهى باستقامته ووطنيّته وكرهه الرومان. ثمّ تبرّئ ساحته وقد بلغها انتحاره، وترفض أن يكون قد سلّم يسوع، لأنه أحبّ أبناء جنسه، ولم يبغض أحداً غير الرومانيّين، وضالّته الوحيدة كانت مجد إسرائيل. وتعترف بأنّها لامته يوم تركها وتبع يسوع، لأنه خلق ليكون متبوعاً لا تابعاً. ولم يصغ لنصائحها. ومع ذلك أحبَّته وسوف تحبّه إلى الأبد. «ولو كانت المحبّة في اللحم لكنت أُحرقه بالحديد الحامي وأحظى بسلامتي، ولكنها في النفس فلا يُبلغ إليها» تقول[2]. فسيبورية أمّ يهوذا مدركة تماماً أن عافيتها الإيمانية وخلاصها يكونان بعدم التعرُّض لحتميّة الثورة الكونيّة التي اجترحها يسوع، ولكنّ حبّها ولدها في النفس، وكيف الوصول إلى ما في نفسها؟!

إنّها، هي الأخرى كامرأة الجليل، عيّنة من الآباء، من إنسانيّة معتاقة بقشرة صلبة من السلوك المحكوم بطبيعة الكائن فيها؛ ترى في الأبناء فرصةً لامتداد حياتها، بمعناها الصرف الخالي من الإضافات، فتحرص عليها، حرص البائس المصاب بجوهر آدميّته، فيما يشبه العيش لمجرّد العيش، مع ما يحتملُ ذلك من تنازل للفكر واستقالة من الوجود[3].

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Gilbert Bosetti, «Pirandello», Bordas, N° 802, U.L.B., 1971.

■ و «التائه»، الكتاب الصادر بعد موت جبران، وهو موقف حيرة في خطوطه الكبرى يقفه إنسان في مواجهة مفارقات الحياة الدنيا، فتتجاذبه تعقيداتها المتداخلة الحلول؛ تطالعنا لوحةٌ فيه، هي «المجنون»، بشاب في حديقة المارستان يسأله الكاتب عن سبب وجوده في المصحّ، فيجيبه ذاك بعد تمنّع بأنّه لقي في هذا المكان ما يردّ إليه السلامة والعافية، بعد أن حاول كلٌّ من أبيه وعمه وأمّه وأساتذته، وحتى أخته، أن يجعله على مثال صورة في رأسه، «. . . فأنا أستطيع به أن أكون إيّاي، لا غيري، على الأقلّ»[1]. وإذ علم أن الكاتب زائر، فهم أنّه من المارستان القائم وراء الجانب الآخر من الجدار.

فهؤلاء، والده وعمّه وأمّه وأساتذته، جيل الآباء، يؤكّدون ملامحهم بشكل جهير، فيمتلكون زمنهم الهارب، ويؤمّنون على بقائهم إلى بعيد بعاداتهم والمعتقدات. والمجنون هنا ليس الشاب، بل العالم المجنون، يتوارث فيه الناس الغباء، ويتواصل بعضهم في بعض حرصاً على استمرار أثرة، فيُحافظ على التراث العائب، ويرتدي المقلّدون حلة الحداثة في الزمن الجديد المستحدث.

و «اللعنة» لوحةٌ أخرى من الكتاب عينه، فيها أنّ بحّاراً خطف له آخرُ ابنته. فيروح يخبر كيف أنّه لعنهما في قلبه فغرق مركبهما وماتا. ثم شعر بالندم والذنب، ويرجو مغفرة الله وهو في طريقه إلى القبر. ولكنّ لهجته كانت تنمّ عن زهو وافتخار بقوّة لعنته.

فتبدي شخصيّة الأب البحّار في الحقيقة تعارضاً بين ما هو ثابت في أعماقه من رغبات الحرص والاستمرار صوتاً وحيداً قادراً على التحكّم بمصير الأبناء، هذا هو الثابت؛ وبين ما حرمه إيّاه الحدثُ المتطفّل الدخيل من خارج

(١) راجع دراستنا «التائه»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

دائرة نفوذه، وأدّى إلى خطف ابنته على يد بحّار آخر. «ولكن لهجته كانت تنمّ عن زهو وافتخار، ويبدو أنّه لا يزال فخوراً بقوّة لعنته»، يقول جبران[١].

ونراها من الكاتب سبراً لأغوار الكائن، الوالد هنا، مستضيئاً بإنجازات مدارس التحليل النفسي، فيُبديه قادراً على إيقاف كلّ حدث ومسعى يتعارضان مع رغبة عنده في الامتداد وتجاوز حياته المحدّدة بزمان وطاقة مقيّدة بعمر ومقدرة، ولولا ذاك لما أخبر ما أخبر، ولما استمرّ فخوراً بقوّة لعنته.

وإذا حاولنا أن نوجد قاسماً مشتركاً بين نماذج هذه الفئة من الآباء يشكّل الرابط الجامع لنوازعهم، فإننا نلقاه في نشدانهم جميعاً للأمان كقضيَّة مصير، وليس إحقاقاً عمليًّا لرغبات فرديَّة[٢]. فالتحوّلات الطارئة على المجتمع في نسقه الدائم الصيرورة تولّد لدى الإنسان شعوراً غامضاً بفقدان الطمأنينة يُطرد معه بعيداً عن «حرارة مكتسباته في التراث» والحضارة، معرَّضاً لصقيع وجود قد تحوّل إلى فتات[٣].

لذلك نبصر هؤلاء الآباء يكافحون للاستمرار في اطّراد تقدّم وإثراء، بإصغاء إلى هتاف في طبائعهم وائتمار بنظرةٍ أحاديَّة إلى الحياة، محكومة بطبيعة الكائن في كلّ منهم، ومستجيبين لطباع كيانيَّة ركّبت فيهم، عند كل عمليَّة تقويم للأشياء.

وقد نجد نشدان الأمان هذا متموّهاً بالمحافظة على المكتسبات ولو احتواءً للأبناء من جانب هذا الصنف من الآباء. فيمنح الواحد منهم نفسه، وبالسلوك غير الواعي أحياناً، فرصةً لامتداد حياته داخل عالم مجنون يتوارث

---

(١) «التائه»، ع. س.

(٢) Paul Ricoeur: Finitude et culpabilité, T.I, Aubier, Philosophie de l'esprit, 1977.

(٣) Philippe D'Iribarne: «La Politique du bonheur», du Seuil, 1973.

فيه الناس الغباء دونما التفات إلى المراحل التي تكون قد حملتهم إليها أزمنتهم الجديدة.

لكّنهم، كلّهم، يبحثون عن شيء واحد، وإن بطرق مختلفة. وهذا الشيء إن هو إلاّ السعي وراء نجاحات متلاحقة، مصحوباً بخوف من الفشل وهواجس الشكّ في وصول[1]. وهو معهم النضال ضد الخوف، خوفاً من الحياة، من المستقبل ومن الموت[2].

وقد نجد تفسيراً لمنحى الرأي هنا في أنّ حضارتنا الإنسانيّة تقدّم إلى الطفل، فيما تقدّم من سيّئ الإيحاءات، والآباء أطفال قد كبروا، مظهر السلطة الأبويّة كنموذج يتداخل مع مفهوم القوة والاكتفاء وما يرافقه من استمتاع بامتلاك القدرة، فينشأ الطفل متعطّشاً إلى التفوّق، نهماً في التعويض عن مركّبات النقص المحصّلة لديه بسبب التفاوت بينه وبين الأقوياء في عالم الراشدين، حتى لا يمكننا استبعاد فكرة التفوّق عن أذهان أطفالنا[3].

ومن بعدُ تأتي السلطة بمفهومها السياسي والاجتماعي ممثّلة بالدولة. فتستفيد من الرصيد النفسي الذي تكون السلطة الأبويّة قد هيّأته في وجدان الطفل[4]، لذلك قال هتلر Hitler: «العائلة هي الوحدة الصغرى ولكنّها تبقى الأهمّ في بنية الدولة»[5].

وإذا كانت هذه الفئة من الآباء في الأدب الجبراني مقيّدة بعقد كيانيّة فيها، تصنّف أفرادها في عداد المعتاقين العاجزين عن السّير في جديد الحياة المجدّة إلى أمام؛

---

(١) Philippe D'Iribarne, «La politique du bonheur», op. cit.

(٢) Guy Dingemins, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٣) A. Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٤) R. Osborn, «Marxisme et Psychanalyse», P.B.P., N°99, 1974.

(٥) راجع: André Nicolas, «Wilhelm Reich ou la révolution radicale», Edition Seghers, Paris, 1973.

أفما نقع في هذا الأدب على فئات أخرى تضيء لنا جوانب من مسعى هؤلاء الآباء في المدى الاجتماعي، وتفضح انتماءاتهم الحقيقيَّة إبّان صراعاتهم مع المحيط؟

سؤال نتوخّى له الجواب، في مرحلة أولى، داخل الفصل الثاني من هذه الدراسة، وهو تحت عنوان: آباء.. عاطفيّون خاضعون.

*

الفصل الثاني
آباء.. عاطفيّون خاضعون

هم وجوه من الحياة تذكّر بملحمة الإنسان في صراعه مع القـدر، ولكنّه صراع خفيّ غير واعٍ إلّا نادراً. فهؤلاء الآباء، جيل الوالدين، غالبـاً ما يجرون في قنوات الرحيل المستمرّ مأخوذين بزمن متجـزّئ تبعاً لخصب مواردهم أو نضوبها، فتارةً لهم وتارةً عليهم، في أبسط مقوّمات العيش، حتى لينحصر وجودهم بين استقبال يوم وحدث ورغيف، وترقّب أخرى، فتفرّ الأيّام وهم على أبواب انتظارات دائمة لآمال لم يتحقق منها إلّا القليل.

ومن نتيجة هذا السعي الدؤوب أن يعيش الإنسان من هؤلاء بين دفّتي الحاضر، يوماً يوماً، بانحناء كلّي للواقع الراهن واستسلام لمشيئة خفيّة، فتبدو أعمارهم مرتجلةً ارتجالاً دونما تخطيط أكيد واعٍ لما بعد لحظتهم اللاهثة.

ولكنّ هذا لا يعني انتفاء نقاط ارتكاز نادرة في حياة هؤلاء، أو علامات نزوع تعويضيّة تنتشلهم من رتوب أيّامهم وتمدّهم بعزم المتابعة، كمثل رشوة من الحياة نفسها، فيستكملوا أدوارهم فيها، خصوصاً أنّ الرغبة في التقدّم وتحسين الأوضاع، وأمل النجاح في أبسط شؤون ومظاهر الوجود، هي أساسية في الطبيعة الإنسانيّة[١]. وإلّا فما معنى استمرار هؤلاء في شروط لعبة لا يمتلكون منها نصيباً للفوز في ناحية من النواحي؟!

---

(١) Guy Dingemans, «Pschanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

■ بهذه القناعة نطلّ على أوّل الوجوه في إنسانيّي هذه الفئة من جيل الآباء داخل الأدب الجبرانيّ: أم يوحنّا المجنون، في كتاب «عرائس المروج». فولدُها ثار في وجه الرهبان بدير أليشاع النبيّ، ووقف وسط جموعهم كالقائد الخطيب، ناسباً إليهم صنوف الرياء والشرور، ومتَّهماً إياهم بالانحراف عن جادة المسيح. وينقضّ عليه الرهبان، بأمر من رئيسهم، ويقودونه مكتوفاً إلى حجرة ضيّقة وينهكون جسده بخشونة أكفّهم ورفس أرجلهم، وهو في غبطة كبيرة لأنّ أيدي الرهبان لم تمسّ عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري[١]. وأتت أمُّه العجوز إلى الدير مستعينةً بعصاها، وترامت على قدمي الرئيس تذرف الدموع وتقبّل يديه ليرحم ابنها، «ثم نزعت قلادة فضيّة من عنقها ووضعتها في يده قائلة: ليس لديّ غير هذه القلادة يا أبتاه، فهي عطيّة والدتي يوم اقتراني، فليقبلها الدير كفّارة عن ذنوب وحيدي». ثم خرجت بأمر الراهب تبدأ صلوات من أجل ابنها المجنون، «لتشفيه السماء وتُعيد إليه صوابه»[٢].

والدة يوحنّا المجنون هذه، وجهٌ من وجوه التفرُّس في الحاضر، دونما رفضٍ ولا حتّى اعتراض. وهي، مع أنها على مقربة من كل خللٍ في شؤون الدين والمجتمع، وتشهد بأمّ العين كيف يتلذّذ الرهبان بثمار الحقول وخمور الكروم، فلم يزوروا مريضاً، ولم يتفقدّوا سجيناً، ولم يطعموا جائعاً، ولم يؤووا غريباً ولم يعزّوا حزيناً[٣]؛ لا نرى أمّ يوحنّا هذه إلاّ مشيحةً عن ثورة المقهورين كلّهم وقد بدأها ولدها. والصوت الضعيف الذي يخفضه الذلّ

---

(١) راجع دراستنا كتاب «عرائس المروج»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

الموروث والانكسار الأليم[1]، كاد أن يكون مجلجلاً بالحقّ لولا انحناؤها، هي الأخرى، للحلف القائم في الأقصوصة بين رجال الدين وقوى الإقطاع على صعيد الممارسة للمظالم، فعلَ سواها من المتلكّئين الخاضعين لأقدارهم[2].

■ وإلى هذا الصنف من جيل الآباء تنتمي والدة سلمى كرامة في كتاب «الأجنحة المتكسّرة». ومع أنّ هذه الأمّ لم تظهر في اللوحة القصصيّة إلاّ خبراً على لسان الأبطال الرئيسيين، فإن لموقعها من الأحداث ومشتبكات أيّام الشخوص وأحلامهم والذكريات ما يفيد بعاطفيّة ما وخضوع، العنوانين الكبيرين في طبيعة هذه الفئة من الآباء.

فالأمّ هذه قد فقدت أباها، وسلمى طفلة رضيع، فحوّلت «قواها الحيويّة إلى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضّة مكان الغصن المقطوع»[3]، ثم ماتت ولمّا تبلغ سلمى الثالثة من عمرها.

فما الذي خلّفته تلك المرأة الأمّ وراءها على صفحة الأيّام، وداخل زمن الأثر الفنّي، في نطاق أصغر؟ لا شيء سوى الخضوع ومتابعة السّير لتستمرّ بها وبمثلها الحياة، وتتبادل الأجيال بعض الخبرات بسببها، وفي جوّ هادئ. ولولا انحناءتها تلك في هيكل الوجود لسُنَّته النافذة، دونما اعتراض وحتى من دون أيّ انحراف عن مسعاها الأمومي، أقلّه في الزمن الفنّي للأقصوصة، كردّة فعل على حدث الموت المُعنّي؛ لولا تلك لما نمت سلمى كرامة ثانيةَ طاهرَين هما،

(١) من قول لجبران في أقصوصة «مرتا البانيّة». راجع «عرائس المروج»، ع. س.
(٢) لعلّ صمت يوحنّا في خاتمة اللوحة القصصية، تشبُّهاً بالمسيح أولاً إبّان محاكمته، وتعبيراً عن استياء الثائر فيه لنبيّ يكذّبه حتى أقرب الناس إليه، هو إيذان من جبران بأن قوى الماوراء قادرة يوماً على إظهار الحقيقة، ومدّ الضعفاء بقدرة الكفاح في سبيل انتصار، حتى ولو تلكّأ ضعيفو الإيمان وسقطوا على حافة الطريق المفضية إلى جبل الحريّة.
(٣) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

إليها، جبران؛ ولما جاءت «أشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيّلة الكاتب»[1].

إن أمّ يوحنّا المجنون ووالدة سلمى كرامة علامة في هذه الفئة من جيل الآباء، ويبدو وجودهما وسيطاً لحوار، وكأنهما بعواطفهما السامية صمّام أمان لكل احتقان في المدى الاجتماعي، وعبرهما نفهم دور الأسرة، والأمّ خصوصاً، في تهذيب كل ما هو وحشيّ بالولادة في الإنسان[2].

ومع ذلك نرى أن الحاجة إلى الاحتماء، المرادفة في بعدها الأخير للشعور بالكفاية بغية التمتّع بالحياة، أو، أقلّه، عدمِ مواجهتها أو الدخول مع أشيائها، ناسها وأحداثها، في تصادميَّة عدائيَّة؛ هي الغاية الأساسية التي تتمحور حولها جهود هاتين المرأتين.

ومهما يكن من أمر، فإنّ سعيهما الحياتي على هذا الشكل الوديع المحافظ، بل الخاضع في وجهيه الخلقي والاجتماعي، إنّما قد تمّ بالإرادة. أوتكون الإرادة أكثر من مباشرة للميل إلى تجاوز شعور بعدم الكفاية، إلى آخر ينافسه[3]؟

■ وقد نقع على مثل هذا الخضوع للواقع في الأدب الجبراني موسوماً بعلامة التقوى والتسليم لإرادة ربّ السماء. وليس أدلّ على هذه الناحية من

---

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٢) يرى أوغست كونت أن الإنسان الفرد مجنون بطبيعته، وجنونه بسبب سيطرة الذاتية على كينونته، وتصبح الأسرة، من هذا المنطلق، هي الدواء الشافي لوصمته الكيانية.
راجـع: Jean Lacroix. «La Sociologie d'Auguste Comte, (S.U.P.), No 21, France, 1967.

(٣) A. Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

ثلاثة مشاهد قصصيّة في كتاب «دمعة وابتسامة»، تقدّم أرملتين مع طفليهما وفقيراً في أسرته.

فالأرملة الأولى في «الأرملة وابنها» تطمئن قلب ولدها المضطرب بسبب من ثورة العناصر والأرياح، بما ينسب إلى الطبيعة ثنائيّة الفرح والحزن، واللذّة والعذاب. ففي كلّ حدث من أحداثها ما يُحيي وما يُميت. ثم تدعو طفلها إلى مشاركتها صلاة للفقراء واليتامى والمتعبين: «قل معي يا ولدي: أشفق يا ربّ على الفقراء واحمهم من قساوة البرد القارس... انظر إلى اليتامى النائمين في الأكواخ... اسمع يا ربّ نداء الأرامل القائمات في الشوارع بين مخالب الموت وأظفار البرد... إرفق يا ربّ بالجائعين الواقفين أمام الأبواب في هذا الليل الظلوم»[1].

والأرملة الثانية في «طفلان»[2] نموذج آخر من جيل الآباء المضعوفين في أرضهم، باختيار ورضى أحياناً، لأنهم الخاضعون مؤمنين بعدالة السماء. ففي اللوحة أنّ الأمير رزق طفلاً هلّلت له الجموع، وكذلك الأرملة التي أمات رفيقها الضعيف ظلمُ هذا الأمير القويّ. وبكت المرأة وراحت تحدّث وليدها «بصوت تتصدّع له الصخور: لماذا جئت يا فلذة كبدي من عالم الأرواح؟... صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت في أوكارها آمنة، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغتبطة، وأنت، يا ولدي، ليس لك إلاّ تنهّداتي وضعفي». وينتهي المشهد بأَنْ ضمَّت الأرملة الطفل إلى صدرها، «ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت: ارفق بنا يا ربّ»[3].

وفي «بين الكوخ والقصر» مقابلة بين قصر فيه الرقص والخلاعة، وكوخ فقير عامل حيث صِبيةٌ حول مائدة خشبيّة يلتهمون الطعام مع والديهم بسكينة وأمان. وفيما يُضحي الأغنياء الأقوياء في النوم، يهبّ ذلك الفقير مع الفجر،

---

(١) راجع دراستنا كتاب «دمعة وابتسامة»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

ويأكل مع صغاره وزوجته قليلاً من الخبز والحليب، ثم يقبّلهم ويحمل على كتفه معولاً ضخماً ويذهب إلى الحقل «ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه أولئك الأغنياء الأقوياء». وتستمرّ الحياة في دورتها، على الرغم من الاختلال الحادث فيها ثواباً وعقاباً، ومعها «مأساة الإنسان المستتبّة على مسرح الدهر وقد كثر المتفرّجون المستحسنون وقلّ من تأمّل وعقل»[1].

أسرةٌ خاضعة يسيّجها الحاضر تسييجاً من كل جانب، فتخشوشن الطفولة وتزهق نسمتها البريئة في يوم[2]، على الرغم من مظاهر السكينة التي يكلّل بها جبران مسعى أفرادها. وينطوي عمر الشباب، في المرأة قبل الرجل، وتتهاوى أحلام كبيرة على مذبح الآن والكسب الفوري، حذرَ الغد غير الواضح المعالم، ولو تقنّع الجهد بالقناعة أو تنزّه عن البدل بترفُّع وسموّ. وما الفرح الذي تطالعنا به اللوحة الأخيرة إلاّ من طبيعة العمل نفسه، حصانةِ المتروكين بلا معين على أبواب الحياة وأرصفتها، وعقليّة تتوارثها أُسر الفقراء المؤمنين بالجهد الإنساني، في انتظارات لعدالة كونيّة مؤجّلة على الدوام، في الإثابة والاقتصاص.

لذلك، نرانا نشعر، في الكلام الجبراني كلّه داخل اللّوحات الثلاث، وعياً

---

(١) «دمعة وابتسامة»، ع. س.

(٢) الصبية في اللوحة الثالثة، كالطفل في لوحة «الأرملة وابنها»، سوف تفرزهم الحياة يوماً شبّانًا من الشعب ولكن بتطلّعات الأغنياء والبورجوازيين. فما لم يُقل هنا تتجمّع جزئياته من الأخبار والمواقف كافة، فنخرج بنتيجة مفادها أن «التمرّد هو أحد الأبعاد الأساسية في الإنسان، وهو حقيقته التاريخيّة» كما يقول ألبير كامو.

(راجع: A. Caussat, M. Lalliard, Rebelles et révoltés, Hachette, 1973).

وعبر هذا التمرّد سوف يحاول هؤلاء الأبناء بخلاف آبائهم، إيجاد قيم بديلة تكون مرتكزات لوجودهم. ونتذكر بذاك قول سارتر في غير مناسبة ودوافع: كنّا إنسانيين على حسابهم، وها هم يصنعون إنسانيتهم على حسابنا.

(راجع: A. Decouflé, Sociologie des révolutions, P.U.F., Que sais-je? 1278, 1970)

وفيه قول سارتر في تقديمه لكتاب: Frantz Fanon, «Les damnés de la terre».

لموقع من هؤلاء الآباء، وارتقاباً لأذى يحفّز فيهم ردّاً مسبقاً عليه، بالخضوع اليوميّ لمصائرهم عبر النضال الكادح الدؤوب، أو الإيمان بالحلّ الماورائي على حدّ سواء[1]، ويستوقفنا تسارعٌ منهم إلى تغييب حقوقهم كي يبقوا ضحايا عالمٍ ظالم، ولولا استعداء الكاتب كلَّ قوى الخير للوقوف إلى جانب قضيّتهم، بوعدِ إصلاحٍ خلقيّ عميم، لمرّوا في هذا الكون دون أن يشعر بهم أحد.

■ وقد يبلغ خضوع هذا الجيل من الآباء حدّ الانهزام والتسليم الراعب، فيتحوّل إلى انتظارات على شفا سكّين هو الجوع في يد قوى غير منظورة مستبدّة، ولا يُعرف، من بعد، فرقٌ بين روح القطيع في الناس وروحه في السائمة المنقادة إلى الموت.

ففي كتاب «العواصف» قطعة «في ظلام الليل» التي كتبت أيّام المجاعة في لبنان مطلع هذا القرن. تدعو فيها أمٌّ ولدها الصارخ جوعاً في الهزيعين الأول والثاني من الليل، إلى أن يتصبَّر ثم تصدقه الخبر بأن ليس لديها خبز. «وفي الهزيع الثالث يمرّ الموت بالأمّ وطفلها ويصفعهُما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق. أمّا الموت فيظلّ سائراً محدّقاً إلى الشفق البعيد»[2].

فيبرز جبران مأساة الآباء الخاضعين مع أبنائهم، نابعةً من وجع التضاد بين ضعف في بلاده يستثير الشفقة وساديّة في كل مكان تحفّز في الرائي روح انتقام. فالموت ينفّذ قدراً مرسوماً على ما يبدو، نواجهه باللوعة وهو يضحك. وبذلك يستعدينا الكاتب على سنن دهرٍ لا يرحم، مُقرّاً في الوقت نفسه بحتميّة ما

(١) هذا التسليم للّه ولقدره، يشيع عند المؤمن، المسلم خصوصاً والإنسان الشرقي عموماً، سكينة نفسية ثابتة، إذ يلقي بتبعات وجوده وحضوره الإنساني على من بين يديه هذا الوجود وهذا الحضور.

راجع: Raymond Charles, «L'Ame musulmane», Flammarion, Paris, 1958.

(٢) راجع دراستنا كتاب «العواصف»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

يجري، فتستمر مسيرة الموت، محدّقاً إلى الشفق البعيد: «في ظلام الليل، وليس لظلام الليل نهاية، نناديكم أيّها السائرون في نور النهار، فهل أنتم سامعون صراخنا؟»[١].

■ حتى إذا قرأنا «بين هجعة ويقظة» من كتابه بالإنكليزية «المجنون»، بلغ الخضوع حدّه الأقصى لأنه مقترن بمعنى القبول الذي لا بديل منه ولا خيار سواه. فالأم وابنتها تمشيان وهما نائمتان، وفي النوم ترفض الواحدة الأخرى وتراها عدوَّة. «وفي تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معاً من نومهما وهما بعد في الحديقة ماشيتان. فقالت الأم بلطف: أذاكَ أنت يا حمامتي؟ فأجابت الإبنة بحلاوة: نعم أنا ابنتك يا حنونتي»[٢].

فتغرق الأشياء الحميمة، كما المعلن منها، في الجنون، وهو هنا ليس سوى وجه آخر للحقيقة الضائعة التي تبدو كأنها تضحك من جديّاتنا في النور الصراح. ويقينُنا أن جبران قد تأثّر في هذه اللوحة بإنجازات الفرويديّة وفتوحات علماء التحليل النفسي في تفسيرهم السلوك الإنساني. ونراها مذاهب تقوّي قناعة جبران بأنّ العالم يجري في غفلةٍ منّا، ونحن لناموسه خاضعون، حتّى إذا دخلنا دائرة اليقظة والإلمام والمعرفة، لا نجد بديلاً من إيثار الغفلة، مرة

---

(١) «العواصف»، ع. س. ونشير هنا إلى أمرين: الأوّل أن قمة الانتماء إلى وجع الأمة هي بهذا المتكلم المجموع، فيُسقط الشكل اللغوي مسافات وأسفاراً. وهي من جبران همسة النفس إلى النفس بأنه من هذه الأرض مهما باعدت بينها أمصار ومطارح ومطامح. والأمر الثاني: هو رمزية التعبير في قوله «السائرون في نور النهار»، وتقضي بأن يُعنى بهؤلاء سكّان السماء، أولياء وقدّيسين، وقد يعني بهم من ابتسمت دنياهم من أُمم الأرض.

(٢) راجع دراستنا كتاب «المجنون»، ع. س. ونشير إلى أن جبران يتعدّى بقوله «صاح الديك» مسألة التوقيت المسطح للأحداث. ففي صياح الديك إحالة على نبوءة يسوع بإنكار بطرس معرفته، ثم على ندمه وبكائه إذ فعل (راجع متى ٢٦: ٣٤، ٧٤ ـ ٧٥).

جديدة، حفاظاً على مختزناتنا العاطفيّة واحتفاظاً بعمارة حضارتنا الإنسانية في منأى من الانهيار[1].

هكذا تتنامى درجات الخضوع في فئة الآباء هذه، من مفهوم الوعي الغامض للواقع الراهن باتجاه نوع من اللاعقلانيّة على مستوى الوجود. ونسجّل، إجمالاً، في شأنه ألواناً:

- أنّه نوع من الاستقالة من كلّ جهد يُبذل للحدّ من الاختلالات الاجتماعيّة والسياسيّة والخلقيّة المواكبة لهؤلاء الآباء عبر مسعاهم الحياتي؛

- وأنّه نوع من الاستجابة لمنطق الزمن يتّخذ منهم صمّام أمان لكل احتقان في المدى الإنساني لمسيرة الأجيال؛

- وأنّه، عند بعضهم، نوع من التسليم التقيّ لربّ الكائنات، فعلَ كلّ مضعوف منهم لا نصير له ولا ظهير؛

- وأنّه استباحة من الحاضر، مع آخرين، لكلّ لحظة اعتراض، فتتهاوى أحلامهم على مذبح الآن المحاصر بكرور الأيام المتشابهة، على الرغم من مظهر الفرح والسكينة في سلوكهم. وتطول انتظارات لعدالة كونيّة مؤجّلة على الدوام؛

- وأنّه نتيجة ظلم وسقوط تحت ربقة القوى غير المنظورة، تطحن ضعفهم بساديّة من سنن دهرٍ لا يرحم؛

(١) يرى أدلر أن ما يجري في حقل أفكارنا أثناء النوم ليس أكثر من بناء جسر يصل يوماً بغد. ففي الحلم شروع بموقف حيال الحياة، وهو مؤشّر إلى أن الحالم يهتمّ بمسألة منها[1]. ولو أُعطي البشرُ وصفاً صادقاً لأحلامهم، لأمكننا قراءة أخلاقهم خيراً ممّا لو ظهرت على وجوههم[2]. أما فرويد فيرى في الحلم تنفيذاً مقنّعاً لتمنٍّ مكبوت.

1 - A. Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

2 - A. Adler, «Tempérament nerveux», op. cit.

3 - Freud, cité par R. Osborn, «marxisme et psychanalyse», op. cit.

ـ وأنه خضوع مقترن بمعنى القبول أحياناً، على مرارته، إذ لا بديل منه ولا خيار سواه، استبعاداً لفكرة الغفلة يحجب ظلامها كلَّ إمكانية الحضور الواعي عن الإنسانيّة البائسة.

وإذا كانت الصفة الطاغية في الآباء المنتفعين التقليديين، موضوع الفصل الأول من هذه الدراسة، هي الاستمرار بإنجازات الحياة في ميادين العاطفة والعلاقة بالآخر والحرص على الذات، قبل أيّ شيء آخر، عند اقتحام هؤلاء لمجاهيل الزمن، فيستمر الآباء على نمط معيّن من المنعة والثبات اكتساباً للأمان، ولنجاحات متلاحقة في ملحمة الصراع الإنسانيّ ضد الخوف؛

فإنّ العلامة الأبرز في فئة العاطفيّين الخاضعين من الآباء الجبرانيين تبقى الإذعان القدريّ، وهو نوع من أنواع الهروب بطوباويّة حيناً وإعلان اللاجدوى من المقاومة أحياناً، في مرجإٍ دائم لكل قرار قادر على التغيير.

لكننا نرى أن الفئتين كلتيهما تلتقيان عند نقطة القهر الكامن وراء كلّ سلوك من الآباء الجبرانيين جميعاً، في إطار من العيش داخل الزمان والمكان، في حالتي التقليد عن رضى، والإذعان القدري المفروض عليهم، سواء بسواء.

لذلك. . لا يسعنا إلاّ أن نرتقب لأبناء هؤلاء الآباء تمرّداً على صعيدين مختلفين: فيثور الولد، مكان أبيه[١]، ككائن آدميّ أولاً ضدّ القدر المخبّإ للإنسان[٢] على نحو محدّد وسط أحداث ظالمة ومآس تتذايل؛ ويثور ككائن اجتماعيّ ضدّ أنواع القمع التي مارسها آخرون على أبيه، واعتاقت بغير حقّ وجه حريته وإمكانيّات حصوله على السعادة، وما دامت المظالم مستمرّة في هذا

---

(١) وسلمى كرامة مثل. فهي أولى الثائرات في «الأجنحة المتكسّرة» على رموز القوة في الكون والمجتمع، قدراً ورجالاً أغنياء وكهّاناً إقطاعيين.

(٢) H. Berr, «En marge de l'Histoire universelle», Ed. Albin Michel, T.I., 1953.

العالم فلسوف يبقى للتمرّد شعور يلاقي الصدى العميق والواسع في النفوس الإنسانيّة[1].

ونحن، وإن افترضنا أنّ بعض هؤلاء الآباء يأتمرون بهاتف دفين في أعماق عقلهم الباطن أحياناً، إذ الحياة المدركة الواعية لا تمثّل في الحقيقة إلاّ الجزء اليسير من الكينونة الإنسانية، وإذ لأعمالنا اليوميّة، في معظم الأحيان، أسباب غامضة[2]؛

فإننا لا يسعنا في الوقت نفسه إلاّ افتراض نسبة من التماثل أو التباعد وعلاقة تقليد أو اعتراض بين الإنسان والآخر، خصوصاً في نماذج الفئات من الآباء داخل الأدب الجبراني، وكلٌّ آخر إنّما يقوم بدور المثل في حياة فرد من الأفراد أو دور الهدف أو الشريك أو المنافس[3]، في مجتمع مكشوف المساحة، ومباح القسمات للعين تجتدي، تنسخ أو تقلّد.

من هنا انتقالنا من فئة العاطفيّين الخاضعين في الآباء الجبرانيّين إلى دراسة الفئة الثالثة فيهم وهي فئة القساة المستبدّين، انتقالاً قد يبدو، لوهلة أولى، من النقيض إلى النقيض، وهو في الحقيقة مرحلة أخرى من مراحل اكتشاف الجوامع المشتركة لهؤلاء الآباء الجبرانيّين كلّهم، طالعين من شرنقة واحدة في رؤيتهم الحياة والكون، وإن اختلفت مساراتهم في اجتراح الأحداث المفضية إلى هدفهم الواحد الأخير.

*

---

(١) من كلام منسوب إلى بول كلوديل، الكاتب والدبلوماسي الفرنسي.
Voir: A. Caussat, M. Lalliard, «rebelles et révoltés», op. cit.

(٢) Gustave Le Bon, «Psychologie des foules», 28e édition, Alcan, 1921.

(٣) Freud, «essais de psychanalyse», Payot, 1977.

الفصل الثالث

آباء.. قساة مستبدّون

القسوة والاستبداد هذان ننعت بهما هذه الفئة من الآباء انطلاقاً من قضاياهم الخاصة متقاطعةً مع قضايا السّوى في المدى الاجتماعي الوسيع، وليس استجابة للمفهوم التربويّ الملازم لعلاقة الآباء بأبنائهم.

ولكنّ هذا لا يعني إسقاطاً من جانبنا لعامل التنشئة الذي رافق سعيهم أطفالاً حتّى سن البلوغ، وأسهم في مشاكلة شخصياتهم، كباراً، لأنماط من القسوة والتسلّط تحتلّ زمنها بجرأة وقدرة فاعلة في محيطهم والأبناء.

ذلك أنّ ما تطالعنا به الآثار الجبرانيّة من هذه الزاوية هو نماذج من الآباء، في طباعهم التزمُّت والظلم والتحصُّن داخل قشرة صلبة من السائد المستمرّ المتردّد، والتوقُّف عند حاجز الأمس الذي مضى، بعقليّة من يبقى إلى بعيد، ومحاولة التفرّد في كل حال، فلا يتنازلون لسواهم عن بقعة يحتلّونها بألقهم الاجتماعي، حتّى للأقربين أبناءً ومستشارين.

وقد تلتبس على الدارس الرائي مواقعهم في زحمة الأحداث التي تزجّهم الظروف داخل حلبتها متواطئةً مع الكاتب، فلا نتنبّه إلى فروقات، بين أفراد هذه الفئة من الآباء ومن درسنا في الفصلين السابقين، تتناول، ليس فقط منطلقاتهم الاجتماعية، وفي هؤلاء الملك والأمير والتاجر والأرملة الغانية في شبابها، بل نزوعهم المَرضي على تفاوت، بفعل عوامل من مختزنات عقولهم الباطنة ربّما، وتأثيرات طفولاتهم المضطربة على سلوكيّة كلّ منهم في عالم الراشدين يوم تسلّموا مقدّراته.

طريقنا إلى ذلك معاينة حواضرهم وقياس ما تقترفه أيديهم القادرة في من وما جاورهم من ناس وأشياء، ثم الاطّلاع عن كثب على المرتقب من نتاج تأثيرهم في هؤلاء جميعاً.

ونراها طريقاً موفيةً بتبيان خطورة هذه الفئة من الآباء على المقبل من آتي الأفراد والأمم، وتالياً لنا بغية استنزالهم على حدة، كشروط متسبّبة في ثورات محتملة داخل وجدان من يدور في أفلاكهم، حتى ليبدو أنّ في مثل هؤلاء، وبسبب منهم في كلّ حال، قد قيل: «الثورات تكون جاهزة قبل أن تنفجر»[1].

■ والحقيقة أنَّ طغيان هذه الفئة من الآباء على الأدب الجبراني يعود حتّى إلى بدايات المرحلة العربيّة من عهده بالكتابة. ففي «دمعة وابتسامة»، لوحة «طفلان»[2]، حيث الأمير رُزق طفلاً هلّلت له الجموع، وكذلك أرملة[3] كان الأمير قد قتل زوجها، فوقف على شرفة قصره يهنّئ البلاد ويبشّر الجموع بأنّ الأميرة قد وضعت غلاماً يُحيي شرف عائلته المجيدة، «فصاحت تلك الجموع وملأت الفضاء بأهازيج الفرح متأهّلةً بمن سوف يربى على مهد الترف ويشبّ على منصّة الإعزاز ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقاً برقاب العباد، ضابطاً بقوّته أعنّة الضعفاء، حرّاً باستخدام أجسادهم وإتلاف أرواحهم»[4].

فإذا بجبران يضع إزاءنا آباء يتوارثون المظالم وهم معزّزون، وكأنما سلالتهم لتتناسل الشرور والقباحة فتنمو وتتكاثر في الأرض، ولا تمتلك الرعيّة

---

(١) يقول شارل مورّا Charles Maurras: الثورات تكون جاهزة قبل أن تنفجر.
(cité par André Decouflé, «Sociologie des révolutions», P.U.F., 1298, 1970).

(٢) راجع دراستنا «دمعة وابتسامة»، ع. س.

(٣) وقد عالجنا مسألة انتمائها إلى فئة العاطفيين الخاضعين من الآباء الجبرانيين. (راجع: الفصل الثاني من هذه الدراسة ص ٣١).

(٤) المصدر نفسه.

أكثر من حق العياذ بالله تزفره مع تنهّدات تلك الأرملة المسكينة: «ارفق بنا يا ربّ».

وإذا كانت دراستنا هذه النماذج الإنسانيّة من الآباء تتمّ انطلاقاً من علاقة كلّ منها مع محيطه[1]، فإنّ حرصاً لدينا يفرض استجلاء لبواطنها في ذاتها، ولو بعجالةٍ، على ضوء الشرط النفسي الكامن وراء تصرّفاتها بشكل عام.

فهذا الأمير المستمرّ مع ميراثه السياسي والخلقي غير الشرعي، استلاماً من أبيه وتسليماً لولده، هو ربيب نشأة مضطربة على الأرجح، خضعت لنواميس قاسية في التربية الشرقية، فتلتقي عندها قناعاتنا مع ما ذهب إليه ريخ Reich من أن النظام التربوي العائلي الذي شيّدت عليه مجتمعاتنا، من شأنه أن يكرّس النمط العنفي القمعي حلاًّ أفضل في كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية. «فالطفل في الطبقة الرائدة في المجتمع يتعلّم أوّل ما يتعلّم طاعة والده لأنّه ممثل السلطة في الأسرة، ومن ثمّ يتعمّم بواسطته موقف الإخضاع هذا، منتشراً مع كلّ من تؤول إليه السلطة»[2].

وهو قول يؤيّده ما يُؤثر عن أنّ الأفراد الذين يقومون بدور ناشط فعّال في السياسة، هم الأكثر تعاسة في طفولتهم، فيُقدمون كباراً على ما يسمّيه الفرويديّون التمرّد على الأنا المثالي (Sur-moi) المتمثّل بآبائهم، ويبحثون في الحياة السياسية عن منافذ لعدائيّتهم المبيّتة[3].

وبهذا المعنى نفهم كيف أنّ المآسي شائعة في كلّ مكان من الدنيا قبل أن

---

(١) Adler «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٢) Wilhelm Reich: médecin et psychanalyste autrichien (1897-1957), cité par M. Cattier, «Ce que Reich a vraiment dit», Marabout université, No 254, 1974.

(٣) R. Osborn, «marxisme et psychanalyse», op. cit.

ونشير إلى أن الأمير هو أحد هؤلاء الناشطين بدليل أهازيج الفرح التي قابلته بها الجموع.

تبصرها العين فوق خشبة المسرح أو أي لوحةٍ فنيّة أخرى، ولم تكن السعادة في يوم مفهوماً اقتصادياً أو علمياً[١]، وهي بالتالي لا تُقاس بمعيار السلطان والنفوذ السياسي.

ووالد العروس في لوحة «مخبّآت العصور» من الكتاب نفسِه[٢] قاسٍ ومستبدّ آخر من الأدب الجبرانيّ. فلقد جمع بالقران بين ابنته ورجل «شريف غنيّ»، ولكنّه غير «الرفيق الحقيقي، نصف المرأة، المخلوق لها منذ الأزل وإلى الأبد»، فصارت أدرى النساء بأغراض النفس وميول القلب، عندما وجدت أن خيول بعلها المطهّمة، ومركباته البديعة، وخزائنه الطافحة، وشرفه الرفيع، لا تساوي نظرة واحدة من عينيّ ذلك الفتى الفقير الذي جاء هذه الحياة من أجلها، وجاءت من أجله. وهو ما كان ليقدمَ على فعلته لولا رغبته في «تعزيز المال بالمال مخافة الفقر، وضمّ الشرف إلى الشرف هرباً من ذلّ الأيّام»[٣].

طراز آخر من الآباء يسعى إلى امتلاك حاضره، الصورة الحيّة لعمره، وهو محكوم بالهرولة في عصر موسوم بعدم الاستقرار؛ تضربه رياح التغيير على كل صعيد، وتفترسه الحركة[٤].

ونراه، حيال هذا التسابق بين عناد الوصول إلى ما يليق بالحياة وبأحلامه فيها أهدافاً ومطامح، والتباطؤ في تحقيق ذلك أو إرجائه لعوامل اجتماعيّة أو بيئيّة أو سواها، تصبح اللحظة الراهنة هي المقدّمة عنده، وفي إطارها ابنته، مقتناه الشرقي المملوك امتلاكاً شبه قدريّ. وفي مدى هذه اللحظة، وليس في الزمن، يقع كلُّ شيء وعبرها يجري[٥].

---

(١) Henri Gouhier, «L'Essence du théâtre», Présences, Plon, Paris, 1959.

(٢) دمعة وابتسامة، ع. س.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) Michel Corvin, «Le théatre nouveau en France», P.U.F., No 1072, 1974.

(٥) Georges Poulet: «Etudes sur le temps humain», II, La distance intérieur, Paris, Plon, 1952, chap, I, Marivaux.

■ وفي كتاب «البدائع والطرائف» تقدّم لوحة «في سنة لم تكن قطّ من التاريخ» مشهد أميرة أحبَّت فتى، ومعاً هربا «تجمعهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباح الظلمة»[1]، فهو لها نصفها الجميل أيضاً، وقد انفصلت عنه عندما حُكم عليها بالمجيء إلى هذا العالم. ثم ابتعدا إلى البريَّة البعيدة عن الإنسان.

ومع أن العنوان الذي اختاره الكاتب لهذه القطعة، «في سنة لم تكن قطّ من التاريخ»، هو إقرار منه بأنّ هذا الاحتمال في الحب غير وارد في زمن الناس، ومع أنّ في الحبّ الجبراني وجه المقدّر المكتوب منذ أبعد الدهور، حتى لتبدو الحياة إخراجاً لفكرة أزلية إلى الزمان والمكان الإنسانيّين، إتماماً للخليقة الكاملة واستكمالاً لرحلة التسامي في المعتقد الجبراني[2]؛

فإنّ هرب الحبيبين قد جاء تنفيذاً لحلم بثورة على صورة استبداد حادثة في الأمير قبل قيام حدث الحب، وفكرة بطش لا يتميّز عن ذاك الذي عُرف به أمير «طفلان» من كتاب «دمعة وابتسامة» إلاّ بمقدار الوحشيّة[3].

إنّ هذه الفئة من الآباء الجبرانيّين يلازم أفرادها وجه قسوة واستبداد، حتى منذ ما قبل ولادتهم، لأنهم مقدّر لهم، في الرؤية الجبرانيّة، أن يحملوا أقنعةً هي جزء من عالم آخر[4] غير ذاك الذي يعيشونه في داخلهم أحياناً، وكأنهم في حفلة تنكّرية فُرض عليهم فيها أن يخفوا هويّاتهم وحقيقة أهدافهم ومطامعهم،

---

(١) راجع دراستنا «البدائع والطرائف»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) راجع دراستنا مجموعتي جبران، العربية والإنكليزية، انطلاقاً من الفهارس المدرجة في خاتمة كل كتاب منها.

(٣) راجع ص ٣٩.

(٤) Voir M. Bakhtine, «L'oeuvre de François Rabelais et la culture populaire au M.A. et sous la Renaissance» traduit du russe, E. Gallimard. France, 1978.

ليضطلعوا بدور واحد وحيد في غمرة الزمن الجاري، قد شاءه لهم الكاتب وأمر بأن يُعرضوا عن سواه.

وفي «العهد الجديد»، من الكتاب ذاته، موكب من عجائز محدودبي الظهور، يسيرون متوكّئين على العصيّ العوجاء، ويلهثون منهوكين مع أنهم ينحدرون من الأعالي إلى المنخفضات. إنهم «المغاور عمياء لا ترى، وطرشاء لا تسمع»، وطوائف كثر عددها، «ولكن في الغصن المزهر ما ليس في غابة يابسة»[1].

هؤلاء من جيل الآباء، التيّار السلفيّ في كلّ حقل من حقول السياسة والتجارة والدين والصحافة والحكم والاجتماع والعلم والفن، رجال الأمس، وسدنة الفكرة القديمة الغالبة، بعد، مع أنّها منهوكة القوى محلولة العزم.

فأيّ قتال ضارٍ يخوضونه ضدّ رجال الغد، موكب الفتيان الذين «يتراكضون كأنّ في أرجلهم أجنحة»[2]؟! وكم سوف يرافق سعيهم ومحاولاتهم للتشبُّث بالبقاء، طواغيت في دوائر الضوء، من دماء وضحايا قسوة واستبداد؟! فيولّد الشرّ الشرّ، وتُملأ الأرض خلّاً ومرًّا وزؤاناً ونواحاً.

إن هؤلاء من جيل الآباء، وهم في أعلى الهرم الاجتماعي، يشكّلون لأنفسهم وإدراكها الطراز الأعلى للشخصيّة الإنسانيّة، لأنّ وجوههم وحواسهم كلّها مسمَّرة في اللّحظة التي تتراءى لهم ثابتة داخل أوقيانوس الزمن الهارب، وتتراءى لهم تلك الجزيرة أرضيةً صالحة لمكانة تبيح لهم في قراراتهم، وبغير قصد منهم أحياناً، فرص الكسب والتقدّم والاستئثار، ولو عن طريق الشراسة واغتصاب الحقوق والكرامات، فيبقون في الشرق، كل واحد منهم يبقى السيد الذي «يأمر وينهى ويطاع»، مكان «فتى الربيع»[3] الساكت بسكوت النواميس والأنظمة، الهادئ بهدوء الحقّ، مع أنّه «بصيرة مشعشعة وراء بصرنا، وشوق

(١) البدائع والطرائف، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

عذب في قلوبنا، ورؤيا ربّانيّة في غيبوبتنا»[١].

■ وقد نقع على هؤلاء الآباء فريسة أقدار لا اقتدار لإنسان على ردّها، فتكتنفهم المأساة ويُضحّى بهم على مذبح إله بيده الكون وسوط ناموسه الخفيّ. والشاهد من كتاب «السابق»، ولوحة «الخلافات» بوجه خاص[٢].

ففيها أن ملك «عيشانا»[٣] يأتيه رسول يبشّره بموت عدوّه «محراب»، ملك البترون، وبعده يدخل طبيب البلاط يزفّ إليه بشرى طفلٍ ذكَر رُزقه فيخلفه على العرش. فسُرَّ وأحضر نبيًّا حقًّا بين يديه ليخبره بمستقبل ابنه. فأنبأه ذاك بأن روح عدوّه لم تمكث على متن الرياح سوى ليلة، لأنها هبطت تطلب جسداً تأوي إليه، فلم ترَ أفضل من جسد ابنه، فقطع الملك رأس النبيّ بسيفه. ومرّت السنون، وحكماء «عيشانا» يتسارّون أن مدينتهم يحكمها عدوّها.

وبصرف النظر عن أنّ القطعة هذه من الفكر السياسي المتداخل والرؤية الكونيّة: ـ في السياسة: ينبئنا جبران بمجيء حكام لا يحرّكهم أيّ حسّ وطني أو التزام بإسعاد أُممهم؛ ـ في الرؤية الكونيّة: يحيلنا على الغفلة الإنسانيّة التي تتمّ في فيئها أحداث الحياة، حتّى لكأنّ عالماً محاذياً لعالمنا هو النافذ، أمّا خاصتنا فهو المسرحيّة التي سرعان ما يُسدل عليها الستار[٤]؛

فإنّ «الخلافات» تقدّم لنا نموذجاً من الآباء في الأدب الجبرانيّ يشعّ ظلماً على محيطه، وكأنه غرسة الشرّ، ما إن تعلق بالتربة المناسبة حتى تتسرّب جذورها في كل ناح وتعمل على ألّا تخلو الأرض من سلالتها ذات المتّجهات الأنويّة. ولكنها فئة ذات ظلم تاعس شقيّ يحمل في النهاية معنى العدالة

---

(١) البدائع والطرائف، ع. س.

(٢) راجع دراستنا «السابق»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٣) هل يكون الاسم رمزاً للعيش والحياة؟

(٤) راجع قسم «أضواء» من دراستنا الكتاب، رقم ٤٦.

السوداء، به يتساوى ظالم ومظلوم داخل اغتراب زمنيّ لا أوبة منه إلى ما يُعيد إلى الكينونة الإنسانيّة اعتبارها عن طريق الحريّة.

■ أمّا أم سالومة في لوحة «سالومة إلى صديقة لها» من كتاب «يسوع ابن الإنسان»، فعيّنةٌ أخرى من جيل آباء، ولكنّ لمهمَّة انحراف «حجباً للنهار»[1] عن وجوه أبنائهم.

ففي اللوحة، وعنوانها الآخر هو: رغبةٌ لم تتحقّق؛ تحكي سالومة إعجابها بيسوع وحبّها له. فتظهر توبة على ما اجترمت إذ قتلت صديقه «يوحنّا». وكانت واثقة من أنها كانت ستنال غفرانه لو أنها ذهبت إليه، ولكنّ أمّها كانت تقطّب حاجبيها احتقاراً كلّما مرّ بدارهم، وتأمرها بالتحوّل عن النافذة إلى غرفتها. وقالت: «إن هو إلاّ مستهزئٌ خائن، ومشاغب يتعيّش بإثارة نيران العصيان، لسلب صولجاننا وتاجنا، وحمل الثعالب وبنات آوى من بلاده اللعينة لتعوي في قصورنا وتجلس على عرشنا. إذهبي واحجبي وجهك من هذا النهار، وانتظري يوم يسقط رأسه ولكن ليس على طبقك»[2].

موقف يكشف، إلى جانب أن الحياة النفسيّة للمرأة تدور في الأطر والمبادئ التي لأيّ آدمي آخر[3]، لوناً من ألوان الاستبداد الأنثوي، في حالةٍ تتدثّر في خلالها شخصية المرأة ثياب الرجل[4]، وتبدو على رجولة أنثوية.

---

(١) راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٤) قد نعزو هذا الاستبداد الأنثوي إلى بعضٍ من بقايا حق تاريخي في الذاكرة الجماعية للأمة. يقول لوبون Le Bon إن المرأة كانت الحاكمة المطلقة في بيتها زمن المصريين القدامى، ويزعم نقلاً عن ديادور Diadore أن الرجل كان ملكاً لها، لدرجة أن بعض عقود الزواج كانت تنص في ما تشتمل عليه أن يطيع الرجل زوجته. فهل ما نعمت به =

فأمّ سالومة محكومة بخوف بدائيّ دفين مشترك بين الأحياء جميعاً، استيقظ بحكم وجودها في مجتمع يقدّس الذكريّة[1] ولضعفٍ في طبيعة تكوينها الجسدي، فاحتاجت إلى من تتوكّأ عليه في حياتها، وهو ابنتها هنا، ويبقى في تصرّفها، ضمن علاقة سيطرة تضمن لها نقطة ارتكاز، حمايةً لها من القلق[2].

ونراها، بتوجيهها ابنتها نحو الغواية والانحراف، قد ربطت الحياة الجنسيّة بالمال وبالنفوذ، المفترق إلى كلّ قوّة. ومن تبعة هذا الارتباط الانحطاط بالحياة إلى درك الحيوانية[3]، مع استمرارها لسالومة، ابنتها، موضوعاً للتقليد في رحلتها هي الأخرى باتجاه السيطرة والقوة والاحتماء من الخوف[4].

وبمزيد من إنعام نظر في العلاقة القائمة بين الأم وابنتها، نبصر في شخصية أم سالومة طاقة كمونيّة[5] من ذكريّة تستوجب وعاء، وهو هنا ابنتها سالومة المنصرفة عنها إلى «النّهار الجديد»[6]، وقد نلمح في تصرّفها مازوشيّة[7] يظهرها وهمُها بأنّ يسوع مشاغب يتعيّش بإثارة نيران العصيان لسلب

= هناك تسرَّب إلى أرض إسرائيل عن طريق العدوى بين الشعوب؟

Voir: G. Le Bon, «Les premières civilisations», Bibliothèque Camille Flammarion, Paris.

(١) آثرتُ هذا التعبير لما يعادلهُ في الفرنسية لفظة Virilité، على الرجولة أو الرجولية، وذاك استبعاداً للالتباس بين ما هو وصفٌ لنسق حضارة، وما هو خاص بجنس الرجال.

(٢) Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٣) Reich, «La révolution sexuelle», Plon, 1969.

(٤) يرى ماركس «أن المال يستبدل بالأمانة الخيانة، وبالحب كراهيةً، ويجعل الفضيلة عيباً، والخادم سيّداً، والغباء ذكاء، أو هذا مكان ذاك».

(Voir: G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et civilisations», op. cit.).

(٥) Ibid.

(٦) يسوع ابن الإنسان، ع. س.

(٧) يرى فرويد في المازوشيّة غريزة فرعيّة متمّمةً للساديّة، أو هي الساديّة المنقلبة ضدّ الأنا. =

صولجانها وتاجها وحمل الثعالب وبنات آوى لتعوي في قصورها. فنراها تعوّض عن قلقها بجشع تملُّك وجموح حصار.

فهذه الأم، وهي من الآباء النساء ـ الرجال، تمتلك على الأرجح في عقلها الباطن مثلاً أعلى مستمدّاً في خطوطه الكبرى من شخص والد أو أخ أو من لدن شخصيَّة تاريخية، ويرمي إلى الخفض من قيمة الحقيقة الراهنة. فتأتي التوجّهات النفسيَّة في سلوكها لتنتج بملامحها غير الأنثوية علامات ذكريَّة كالخيانة والابتعاد عن العفَّة، وهو حالها في ذاكرة التاريخ، وسواهما، أما الهدف النهائي لها فهو طلب التساوي بالرجل[1].

لذلك نعتقد أن الأدب الجبراني، في ناحية من نواحيه، قد مثّل المأزق الإنساني بكل أبعاده، فعرض شخوصاً آباء هم على واقع نفسي اختلالي مغلّف بمظهر مطامح ومطامع وسكون، تُوهم بغير أسبابها الحقيقيّة الدفينة في أعماق كياناتهم القلقة. وأم سالومة إحداهم، تعمل على إنماء بذرة ذاتها في ابنتها، وهي في الأصل موجودة، ولا تحتاج هذه الإبنة إلى أكثر من إضافات نابعة من ظروف خاصة لتستقلّ بشخصيّتها عن والدتها[2].

فالأم صانعةُ ابنتها سالومة، ولكنها هي صُنعت أساساً على صورة الطغيان الذي جاورها، فبدتا معاً كوعائين متّصلين، في كلّ منهما بعض الآخر، كمَّا

(Freud, «Essais de psychanalyse, op. cit.)

= وهو أمرٌ يعيدنا إلى مبدإ السيطرة وانتفاضة المرأة ضدّ قدر الطبيعة الذي يكبّلها في ديار الرجال.

(١) Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٢) يرى ألان Alain أن الفرد يبقى حيواناً على شكل إنساني إن لم يتّبع طقوس الأموات الكبار، وقوة البشرية تكمن في هذا الحشد منهم الذي لا يموت.

ويرى أوغست كونت A. Comte أن البشرية هي مجموعة لإنسانيين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وعدد الأموات فيها يفوق عدد الأحياء.

Voir: Jean Lacroix, «La sociologie d'Auguste Comte», op. cit.

ونوعاً، حتى لتكشف رؤية أحدهما ما عند الثاني، ولا ينفع مع البنت، من بعدُ، إشراق نهار.

وفي كرّة نظر عجلى إلى شخصيّة هذه الفئة من الآباء، نسجّل في خطوطهم الكبرى:

- أنّهم يحرصون على توارث المظالم بسعيٍ فيهم إلى تكريس النمط العنفي في التعامل مع الآخر، وكلٌّ آخر هو دونهم في المنزلة والسلطان، وكأنَّهم يفرجون عن عدائيّة مظلمة مبيَّتة في أعماقهم، ولا سماح، لأنَّ المحبّة والعدالة ونزعة الخير ليست من المخلوقات التي تعيش في الظلام؛

- وأنَّهم محكومون بالهرولة في عصر موسوم بعدم الاستقرار، لذلك نراهم يستوقفون لحظة يُنزلون في داخلها كل مقتنياتهم والمعتقدات، ويقبعون سدنةً لها وعبيداً؛

- وأنّهم مسيَّرون بإيحاءات من الجزء غير المنير في شخصيَّاتهم، ولذلك يبرزون على جدار الفن بقناع لا تأتلف قسماته مع ما يضمرونه في سرائرهم من أهداف ومطامع، ويأتمرون بالدور الملتصق به، بيدٍ من الكاتب، وتحامل في أحايين كثيرة؛

- وأنّهم يشكّلون لأنفسهم وإدراكها الطراز الأعلى للشخصيّة الإنسانيّة، ويُجوّز لهم هذا المعتقد استباحة فرص الكسب والتقدّم والاستئثار حتى عن طريق الشراسة واغتصاب الحقوق والكرامات؛

- وأنّهم يتساوون مع ضحاياهم أحياناً باغترابهم القدري في كونٍ يسيّره ناموس خفيّ يسخر من الإنسان فيه، يراه معتقداً الحاضرَ في دائرة قدرته، في حين أنه الهزأة للقوى الخفيّة في مدى اللانهاية، وضحيّة من ضحايا الغفلة في كلّ ما يتعلّق بجوهر وجوده، تثير الشفقة ضحكاً حتّى البكاء؛

ـ وأنّهم على صورة من محيطهم، كالغرسة تكتسب أدواءها والعافية من طبيعة الأرض التي نبتت فيها، وكمثل ما تتواصل الشجرة في النواة استمراراً للنوع وللخصال.

وإذا اعتبرنا أنّ هؤلاء الآباء ينتصبون في أزمنتهم قدوةً لمن هم دونهم بالمقدرة الخطرة، ومرايا تختزن رؤية ضعفاء للحياة وللمجتمع في آن، وتعكس تطلّعات المقهورين ونزعاتهم على كل صعيد؛

وإذا انطلقنا من مبدإ التقليد المضاد[١] الذي انتهجته هذه الفئة من الآباء عن قصد، بشكل إرادي أو من دونه، فخالفت مثالاً وقاعدةً وقانوناً خلقيًّا خيّراً[٢]؛

عندئذ يمكننا الانتقال إلى دراسة نقيض هؤلاء، من زاوية المفهوم الخلقيّ الصرف، وذاك في ما ارتأينا تسميته: مجترئون مجدّدون.

*

---

(١) تعبير لتارد G. de Tarde عالم الاجتماع الفرنسي.

Voir: G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٢) لا بأس في أن نستدرك هنا، فنفسّر انحراف هذه الفئة من الآباء القساة المستبدّين بأن المبادئ الخلقية القاسية على إنسان تستتبع لديه مواقف انتقاميّة، وكل انتقاص من قيمته أمام نفسه يحفّز لديه سعياً للتساوي بالآخرين، أو لإلحاق الهزيمة بمن يتوهّمه خصماً.

(Voir: A. Adler, «Le tempérament nerveux, op. cit.).

الفصل الرابع

آباء.. مجترئون مجدّدون

هم الآباء الثوّار بالمعنى المغالي للكلمة، سابقو أزمنتهم بالقول حيناً وبالعمل. يتوقون إلى التغيير أو يباشرونه بالسلوك والسعي مع أقرانهم، كرؤيا تجديدية مجترئة قياساً بالظروف المرافقة لولادتها، يخوضون بهدي من بوصلتها بحار الأزمنة والتقاليد والمعتقدات المتوارثة، مجذّفين عكس التيّار كلّ حين، باصطدام يوميّ مع رموز الإرث العفن والتراث المحنّط في كل ميدان من ميادين المجتمع والدين.

هؤلاء، طالعين من الأوجاع ومتعطّشين إلى خلاص، طهّرهم الألم، وجلا بصائرهم بإسقاطه قشور أعمارهم الإنسانية، وهيّأهم للأسفار البعيدة، فهم يمثّلون معاً هذا المدى من التراقي الخلقي أولاً، ثم الحضاري، يتوق إليه الناس في مختلف الطبقات والفئات، لأنّ كل واحد منهم يوحي لمحيطه وزمنه بالجهد الخاص، ولكن الكبير، الذي بذلته أجيال في ملحمة صراعها مع الحياة والقدر والشرائع لتصنع منه نموذجاً، حكيماً بشكل من الأشكال، يفهم في كل ما يمتّ إلى الحقيقة بمعناها الخلقي والحضاري، فتشعّ من داخله إشعاع المصباح بما يكتنفه من مساحات ظلام.

والمجدّدون هؤلاء، من جيل الآباء، قوّتهم في قدراتهم المعنوية، ولكنها قدرات قد تؤهّلهم في المقبل من الأيام، متى استمرّت فيهم وفي أسرهم، لكي يشكّلوا الواجهة في الأمة، أقلّه على الصعيد التمثيلي الحضاري، ليتوسّع

انتشارهم من بعد فيحتلّوا الصفوف الأولى في التخطيط السياسي والقيادي بشكل عام.

ولعلّ القوة الأساسية لهؤلاء أنهم يكتفون في حاضرهم باتخاذ المواقف ولا ينخرطون في مؤسسات حزبيّة أو ثوروية، وإن انتموا فلكَي تصبح هذه الوعاء الاجتماعي الضروري لإسماع أصواتهم، وعبرها طرازاً أعلى للتجرُّد المرادف للمثل العليا في البعد الشعوري للكلمة، ويتبوّأوا لاحقاً سدّة الريادة داخل الأمة في سعيها التاريخي.

ولئن كان جبران قد قدّم في أدبه طرازاً من الآباء مكبّلين بقيود اصطنعتها لهم الحياة بأشواكها وعوائقها، فإننا لنرى فيهم مجتمعين، إيماءات مهموسة أو مجهولة، بحالات انتقامات مستقبليّة تتهيّأ خلف سجُف الأيام. فهم، على الرغم من مزاياهم التي تعطيهم لون الفرادة في مجتمع يتحرّك نحو الحضارة، وإنْ بخطى وئيدة، نراهم يعيشون حالات من السخط العام أو الرفض الإجمالي[١] بتعبير لأندره مالرو André malraux.

فالجامع الوجودي لهؤلاء الآباء هو الرفض[٢] للمتاح اليومي المتردّد، بحيث يوحي بحالة سخط عام تواكبهم مجترئين مجدّدين، وتحثّهم على تخطّي اللحظة انتهاباً واستفادة، كمثل التسابق بين الحياة والموت، والصراع بين حاضر مملوك ومستقبل تُخشى بوادره، أو البحث عن قيم أخرى تُنال بأشكال مختلفة من السلوك الإنساني.

---

(١) Cité par G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٢) هذه الحالة الرفضيّة قد تتناسب وتعبير آخر لأندريه مالرو: الوهم الغنائي illusion lyrique، فتتعطش نفوس هؤلاء إلى ما وراء حدود الرتوب اليومي في نزوع خفيّ إلى الكمال. ونتذكر بالمناسبة قولاً لهيلد برند، النحات الألماني H. Hildebrand: الكائن الكبير الذي يحيطنا ويخترقنا نشقّ طريقنا إليه بمستقبل عظيم يُفضي إلى الكائن الكامل.
Cité par Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

أما عن الأسباب فلعلّهاعقدة الدونيّة في المراحل الأولى من حيوات هؤلاء والشعور بالغبن وبالحرمان نتيجة التربية القمعيّة في مجتمعنا الشرقي، وضيق ذات اليد بسبب من التفاوت الطبقي ومحدوديّة القدرة لدى بعض الأُسَر المتوسّطة والفقيرة[1]. وهذا الشعور بالحرمان يتسبَّب في نشأة روح العدوانيّة؛ ولمّا كان من الصعب بل من المستحيل أن يهاجم المحروم الدافع الأساسي لإحداث هذا الشعور، فإنّ البحث عن البدائل يبقى وارداً في كلّ حين، ومنها أن تتحوّل هذه القوى الدفينة إلى طاقات مجتمعيّة، تمنح حاملها الديناميّة الكافية لتحقيق ذاته في الوجود[2].

■ فهذه هي مرتا البانيّة في كتاب «عرائس المروج» علامة من علامات القهر بمعناه الإنساني الصرف، وشاهد على شرائع خلقية تستند أحكامها إلى مظهر الفعل وليس إلى جوهره، فتخطئ في التمييز بين الجاني والمجنيّ عليه. إنها بريئة مظلومة، بعد أن أغواها فارس غنيّ فسقطت، ويتيمة ساقطة شريفة، في فمها إدانة للتقاليد الاجتماعيّة وكذلك للطقوس الدينيّة[3].

ولئن كنّا نرى أن جبران يروي في «مرتا البانيّة» رؤيته الحياة والمبادئ،

---

(١) قد يكون آباء الآثار الجبرانية هؤلاء، مقترحات فنيّة نابعة من معاناة جبران نفسه في طفولته والحداثة داخل بيئته الشرقية المضطربة. فهم يشكّلون معاً ما يسمّيه غولدمن «الحقيقة الجزئيّة» التي لا يمكن أن تبلغ مداها التفسيري الكامل إلاّ إذا انتظمت في مكانها المناسب من مجموعة الحقائق العائدة لمسألة من المسائل، فيشرح الكلّ الجزء، وتؤدي الأجزاء في تناميها دورها المضيء لهذا الكل، انطلاقاً من أنّ «كلّ عمل أدبي أو فنّي كبير هو التعبير عن رؤية كونيّة».

Voir: Lucien Goldman, «Le Dieu caché», Gallimard, 1959.

(٢) J.L. Villa, «médecine et Hygiène», 5 novembre, 1969.

(٣) راجع دراستنا «عرائس المروج»، ع. س.، وحتّى الكهنة لم يرحموها بعد موتها، فرفضوا الصلاة على جسدها.

ويبدي وجهة نظر خاصة في العلائق بين الناس والطبقات، انطلاقاً من أنّ شخوصه هم الأطر في الزمان والمكان لكلّ معتقد لديه، فإننا لواجدون لهذه الأم من جيل الآباء، في الوقت ذاته، جزئيّات ضائعة لحقيقة ناصعة ساطعة، أدّت بها أولاً إلى كتابة رفضها بالإثم، ومن ثمّ إلى الانطلاق من الواقع الجديد المُحدث، ليس لحمل معول الهدم لحضارة ومظاهر إقطاع ومعتقدات، بل لاستعداء السماء على أقوياء الأرض، ولاستنهاض الضعفاء فيهبّون هبّة الرجل الواحد مدفوعين بشفقة الآلهة على «النعجة تفترسها الذئاب في ظلمة الليل».

وإذا كنّا نقرّ، بنظرة أولى صرف خلقية، أن هذه المرأة زانية تثير بشذوذها عواصف الاستهجان وتستتبع نقمةً ومقتاً في محيطها، كونها متمرّدة على دستور خلقيّ اتّفاقي في بعده الأخير[١]؛

فإننا نرى أن اختيارها طريق الشرود محكوم بشوق، وكلّ إرادة تحرّكها الرغبة[٢]، بحيث نصغي في المبتغى أو المحبوب إلى صوت ينادينا[٣]، كاشف في الوقت نفسه لأعماقنا وما يخطر داخلها من اهتمامات مبيّتة. وما تماديها بالإثم إلاّ لرغبة عندها في الانتقام من الرجل استعادة للثقة بالنفس، ومظهر من مظاهر الاستقلاليّة أيضاً، على نحوٍ يُهجر معه زمن يمتلكه رجل مخادع، إلى آخر تصنعه المرأة المخدوعة بنفسها، ولو جرّها الأمر إلى الرذيلة[٤].

إنّ مرتا البانيّة تذكرنا بأولئك الذين ينتقمون من الحياة بالحياة، فينغلقون

---

(١) لا ننسَ أن «الحرام» Tabou ليس عصاباً بل هو تكوّن اجتماعي.
Voir: Freud, «Totem et Tabou», P.B.P., 1977.

(٢) تعبير لأرسطو.
(راجع: Paul Ricoeur, «Finitude et culpabilité», op. cit.)

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ويرى أدلر أنّ الخيانة الزوجيّة نفسها «هي في كل الحالات عمل انتقام في أبسط وجوهه».
Voir: «Le tempérament nerveux», op. cit.

في رقعة الحاضر[١]، دونما التفاتٍ إلى فرص شريفة في المستقبل تعيد إليهم الحياة بهيّةً ألقة متفائلة. وما تماديها في تقصّي اللذائذ إلاّ استمرار منها في الابتعاد عن القاعدة الخلقيّة هنا، خوفاً من أن تُجرح في كبريائها[٢].

فاسمعها تقول لجبران: «... إن الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد إليّ طهارتي، ولا تمحو عيوبي، ولا تزيل يد الموت القوية عن قلبي، أنا منفيّة بحكم تعاستي وذنوبي إلى هذه الأعماق المظلمة، فلا تدع شفقتك تدنيك من العيوب. أنا كالأبرص الساكن بين القبور فلا تقترب منّي، لأنّ الجامعة تحسبك دنساً وتقصيك عنها إذا فعلت»[٣].

فإذا بهذه المرأة من جيل الآباء الثائرين حقاً، ولكنّها فريسة ذنب كبير، لا نقاء بعده ولا خلاص. وكأنها، باقترافها الذنب الأرضي في زمنها، قد وعت ذنب الخليقة في الزمن الوسيع، وتعاني الأمرَّين[٤].

وقبيل لفظها أنفاسها الأخيرة، وبعد سكينة عميقة، رفعت عينيها المحجوبتين بظلّ المنيّة وقالت بهدوء: «أيها العدل الخفيّ، الكامن وراء هذه

(١) كأنما مرتا البانيّة قد وعت في أعماقها حتمية الموت، فقبلتها، وبهذا الإقرار احتملت الحياة.

(٢) Voir: Freud, «Essais de psychanalyse», op. cit.
Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

أو تشعر هذه المرأة في قرارتها بأنها مضطهدة بدلاً من أن تحبّ، والرقابة الاجتماعية، كالشرط الخلقي وسواه، تمثّل في مقاييس السلطة هذا الأب ـ الفلاح الذي ربّاها، وهي تحبّه وتكرهه في آن، عملاً بمنطوق الثنائية في الكائن البشريّ، فتعمل على مخالفته كمظهر اعتراض على فراقه.

Voir: Freud, «Essais de psychanalyse», op. cit.

(٣) «عرائس المروج»، ع. س.

(٤) وفي وجه آخر للموضوع: إذا كانت الحياة في المذهب الجبراني هي رحلة البرء والخلاص من الذنب الأول، فإن البطل الجبراني، وهو جبران في كل حين، يتضاعف ألمه لأنه يشعر بالنفس شاذّة عن موكب الإنسان، مخالفةً لمنطق الرحلة الخلاصية. (راجع الجزء الثالث من الآباء والأبناء في الأدب الجبراني).

الصور المخيفة، أنت أنت السامع عويل نفسي المودّعة ونداء قلبي المتهامل، منك وحدك أطلب وإليك أتضرّع، فارحمني وارعَ بيمناك ولدي، وتسلّم بيسراك روحي»[١].

فتتسلّح مرتا بإرادة ما ورائية قادرة على إظهار الحقيقة ومدّ الضعفاء بقدرة الكفاح في سبيل انتصار. وما فشل الضعف الماديّ الطبقيّ الإنسانيّ في تحقيقه، قد تحقّقه الشفقة، وهي قوّة روحيّة تفعل فعلها في الأجيال، فتستعجل الفجر وتطلع الشموس.

هي الثورة من هذه الأم، الطراز الجاهز من الآباء لولدها اللقيط فؤاد، ولكنّها ثورة تأكل ذاتها، في تطاول على نظمٍ وتحدٍّ لأعراف؛ اندفقت في الحيّز العملي للحياة مخالفاتٍ يوميّةً لنسق حضارة ومنوال عادات؛

ثم استُمهلت في رجعة إلى أُوارها، بيدٍ من الكاتب، وتعليل يزرعه في فم بطلته مرتا، ربطاً للنتائج بأسبابها الظاهرة، فينقذ ما يمكن إنقاذه على الصعيد الخلقي.

ونرى، انطلاقاً من إيماننا بالعامل الذاتي[٢] في حركة التاريخ، وبعد اطّلاعنا على الأحوال الحياتيّة لهذه المرأة، وهو الشكل المناسب لدراسة الناس[٣]، أن لشخص مرتا البانيّة خطراً مستقبليًّا في صناعة ولدها الإنسان[٤] ومن هم من جيله، وهو خطر نحدسه حدساً[٥]، كما تُومئ الأرض بجمع كفّها

---

(١) «عرائس المروج»، ع. س.

(٢) العامل الذاتي: تعبير لريخ (Voir: M. Cattier, «Ce que Reich a vraiment dit», op. cit.)

(٣) ويرى ماركس وانغلز أن الشكل المناسب لدراسة الناس تحدّده أحوالهم الحياتية. Ibid

(٤) ففؤاد، وحيدها، وثمرة الإثم في المعتقد الاجتماعي، طفلٌ يدرج في ملاعب الكبار وينسى عمره. ومن يدري؟ فقد تدفعه الحياة إلى رجولة مبكرة يحصّن بها نفسه، يقيها الشرّ والأذى، أو يندفق حمم بركان تقوّض معالم الأمام، في ثورويّة التغيير غير الهادئ. (راجع دراستنا «عرائس المروج»، ع. س.).

(٥) الحدس يسمح بفهم الحياة التي هي حركة، في حين أن العقل يشلّ الموضوع فلا يقبض إلاّ على طبيعته الميتة. =

إلى نوعيّة النبتة التي تتحضّر في وعد بذرة.

وفي «يوحنا المجنون» من الكتاب ذاته طراز من الآباء الجبرانيين مجترئين مجدّدين، هو والد يوحنّا[١]. ومع أنّ الأقصوصة هذه تعلن بشكل مخيّب للآمال فشل ثورة النقاء وانتصار الدَّجل والبطل، بعد إخفاق يوحنّا في أن يموت ميتة ربّ التاريخ، ولانزوائه راعياً ضعيفاً كالنعجة التي تفترسها الذئاب، فإنّ في موقف الوالد الفلاّح ما يمدّ بحثنا بروافد تساعد في استجلاء الأرضيّة المشتركة لهذه الفئة من الآباء إبّان انغماسهم بالمسعى الحياتي.

يقول جبران في يوحنّا: «وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده، ثمّ يفتح الخزانة الخشبيّة ويأتي بكتاب العهد الجديد، ويقرأ منه سرًّا على نور مسرجة ضعيفة، متلفّتاً بتحذّر بين الآونة والأخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لأن الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من «نعم الكنيسة» إذا فعلوا. ثم يجعله يسمع والده يهمس في أذن أمّه: «كم عارضتني، يا سارة، عندما كنتُ أقول لك إن ولدنا مختلّ الشعور. والآن، أراك لا تعترضين لأنّ أعماله قد حقّقت كلامي، ورئيس الدير الوقور قد قال لك اليوم ما قلته أنا منذ سنين»[٢].

تراها ثورة من هذا الوالد، انقطع دفقُها في اللحظة الحاسمة، بعدما أُفرج عنها من حبسة الجبين إلى حيث يفرض الواقع تصارعاً لإلغاء وبقاء؟

إنّ والد يوحنّا يحمل في الحقيقة الكثير من خصال التهاون والخنوع، وإن

= (Pirandello, cité par G. Bosetti, «Pirandello», op. cit.).

(١) نذكر هنا أن جبران قد وقع في التناقض عند عرضه شخصيّة والد يوحنّا، ففي أول الحكاية، رقم ١، أظهره ثائراً على رجال الدين، ثم أبداه مترفّقاً بأمورهم، مقدّراً لمواقفهم في آخر الرقم ٢، ونهاية الحكاية. وفي مثل هذه المخالفة إغراب نرى سببه في منطق اللحظة الفنيّة، رفيق جبران الرسّام، حيث تُقتطف أحداث وكائنات داخل إطار محدّد، في مصطلح خاص من الفكر والرؤيا.

(٢) «عرائس المروج»، ع. س.

أضمر في أعماقه حلمَ الشعب المسحوق في أن يقوم من بين الأموات، منتصراً على الإقطاع بوجهيه الديني والسياسي. وما تمرّده في مستهل الأقصوصة إلاّ مظاهر تمرّد في أحكام مجتزأة على الحاضر، سلبيّة في حقيقة توجّهها على ما يبدو، لأنها أحكام لا تخلق شيئاً ولا تغيّر في رؤية.

ولكننا، مع ذلك، نراها موحية إلى ولده الثائر يوماً بحالة غامضة من السعادة المفقودة. فلقد حفّزت لديه انتباهاً، وهيَّأته لإيجاد قيم بديلة تكون مرتكزاً جديداً لوجوده. يقول يوحنا في عظته أمام الرهبان: «... ولمّا استعطفتكم باسم يسوع واستحلفتكم بأيام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي كأنّي لم أتكلّم بغير الحماقة والجهالة... وليتكم تكتفون بما لديكم وتقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم فأنتم تمدّون أيديكم كما تمدّ الأفاعي رؤوسها، وتقبضون بشدّة ما وفَّرته الأرملة من عمل يديها وما أبقاه الفلاّح لأيام شيخوخته»[1].

فإذا بثورة يوحنّا هي ثورة أبيه الفلاَّح، وما اتهاماته إلاّ لتحيلنا على موضوعات نقاش كثير بين الوالد وابنه، يقولها الأوّل ويحبسها معه في زنزانة الواقع، وينتصر بها الثاني إذ يقولها في سفر الحلم والأسطورة سعياً وراء المثال، ولكنّه انتصار حزين[2]، يعمّق الشّرخ بين جيله وجيل أبيه، كمثل ما يتنابذ المثال والواقع ويتجاذبان في عالم الحضور الإنساني.

إن والد يوحنّا المجنون، بإقدامه والتهاون، يبدو كأنه قد حاول بالحلم مجداً ورقيًّا سرعان ما تهاوى بلمسة نسائم مداهمة. فهو لقيود تكاد تكون ما ورائيّة، ولأنامل خفيّة تعمل من وراء ستار الوجود وتجعل منه سجيناً في

---

(١) «عرائس المروج»، «يوحنا المجنون»، ع. س.

(٢) يرى أرسطو في تحديد للذة أنها نوع من الاستراحة المؤقتة، وإذا امتلكت الإنسان من بعد عواطف الكآبة يكون ذاك بسبب حالة نفس تعيش نقصاً في إتقان.

(Voir: P. Ricoeur, «Finitude et culpabilité», op. cit.).

الأرض[1]، فلا يصنع وجوده لأنه مستسلمٌ مسبقاً إلى نهائيات فيه لا تتغيّر، ويغدو الزمن، زمنه، هو المدة الفارغة من كل حدث، لكنّه يبقى الشاهد الوحيد على استمرار حياته في الخفية، برضاها وقلقها وخورها وأحلامها العاثرة.

■ وفي «الأرواح المتمرّدة» والد اجترأ فاخترق قوانين وأنظمةً، فخلّف وراءه شهاب نار، علامة اندفاق في المدى بشعَّةٍ تكسر رتوباً وتضيء مستقبلات. إنّه المجرم الثالث بل الشهيد في «صراخ القبور»[2]، زوج فقير سرق من الدّير حفنات دقيق ليصمت بها جوع أولاده الخمسة، وهي في الأصل جنى تعبه لسنوات في حقول الرهبان قبل أن يطردوه لمرض أصابه. تقول أرملته لجبران[3]: «ففي ليلة، وقد برّح العوز بنا حتى صار أطفالنا يتلوّون جوعاً على التراب، والرضيع بينهم يمصّ ثديي ولا يجد لبناً، تغيَّرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام ودخل قبواً من أقبية الدّير حيث يخزن الرهبان غلة الحقول وخمر الكروم، وحمل زنبيلاً من الدقيق على ظهره وهمّ بالرجوع إلينا. ولكنه لم يسرع بضع خطوات حتى استيقظ القسس من رقادهم وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً وشتماً، وعندما جاء الصباح أسلموه إلى الجند. . .».

هي ثورة الجوع في هذه اللوحة، ولكنّها ثورة تقيَّدت وحُوكمت زوراً،

---

(١) من قول في عالم صموئيل بيكيت S. Beckett الكاتب الإرلندي.

(Voir: B. Dort, «Théâtre Public», op. cit.).

(٢) راجع دراستنا كتاب «الأرواح المتمردة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧.

(٣) التجربة الفنية الذاتية مع جبران ترتبط إلى بعيد بالتجربة الاجتماعية الحياتية. لذلك نراه، في قلب الفعل الإنساني، وداخل الأحداث، يقحم العين والضمير يسجّل ويقيس، ولكن دائماً بمقاييس ذاته المنفعلة ومشتهياته المثالية. إنه هنا العين المراقبة، كأنه محقّق الأبدية، وسادن الحقيقة. يسأل ويُجاب، ثم يصرخ صرخته العظيمة ناعياً القيم والفضائل.

فسقط العدل في نهايتها مضرّجاً في باب السلاطين، لأنه يُرى بحجر العقل والعين، ولا يُرأف به بخفقة قلب ورقّة جناح.

ولئن رأيناها تواطؤاً بين جبران والشهيد الثالث وأرملته، فيدحرون، عن طريق الفنّ، رموز القوّة والغلبة في البيئة الشرقيّة متمثّلة بالراهب الذي انحرف عن طريق المصلوب لمنحى يرومه التراب فيه؛

فإن الحياة لا بدّ مكملةٌ دورتها، على الرغم من إعلان الكاتب، بملء الفم، وأْدَ القيم في ساح المظالم. لقد صرخ بأعلى صوته ثم غادر، وعادت الأرملة إلى الأمير وجنوده، إلى الرهبان والإقطاع من جديد. وما الذي يبقى؟

أغلب الظنّ أنّ شهاب النار الذي ارتسم في سماء الفنّ قد جعل الثورة أمراً ممكناً. وما الأتباع في اللوحة القصصيّة، وهم الأولاد الخمسة الذين سوف يتضوّرون جوعاً مرةً أخرى، ومعهم القرّاء الأطهار الأصفياء المتألمون معهم بفعل مشاركة إنسانيّة[1]؛ ما هؤلاء إلاّ الشرط الغائب الخفيّ من الحضور الزمني للكائنات المظلومة، وللحقيقة، يمنحها فرصة الوصول في جولات أخرى من الصراع على مسرح الدهر لاصطناع عالم أفضل بديل، تنقّح معه نسخة الكون ويُعاد النظر في ترتيب موجوداته، أو يؤدّب فيه النقيض النقيض، ليسهل بعدئذ استخلاص الناتج الوسطي واختيار الحلّ المعتدل[2].

إن المجرم الثالث في «صراخ القبور» والدٌ اجترأ فجدّد عافية الأزمنة المغلقة على الخور والخنوع، فأحيا في قلوب الضعفاء أمل القيامة من

(١) ويصحّ أن يُقال في هذه المشاركة أن بها الحنين إلى «الأشياء العظيمة التي أنجزها الشعب بأجمعه في الماضي» (قول لمازّيني، المناضل الإيطالي mazzini) فحقوق الإنسان في الحق والخير والعدالة تظلّ مرسومة في قلب الشعب وإن أُذلّ في التاريخ. (من قول لروبسبيير، رجل الدولة الفرنسي.

Voir: Fouad matar, «La souveraineté populaire dans l'héritage de J.J. Rousseau, Thèse pour le doctorat du 3ème cycle, Paris Sorbonne, 1973).

(٢) راجع قسم «أضواء»، من دراستنا «الأرواح المتمردة»، ع. س.

الأحزان، وأتاح لأقرانه من عشّاق العدالة والخير أن يقلّموا أظافر التسلّط بإعلانهم المخالفة، فعلَ جبران فوق منابر المثقفّين، آن للكلمة ضياء الله في قلوب المتألمين والقدرة على طيّ المسيء واحتوائه في خسوف.

وما أُقعدت في ساحه ثورة الأب المجترئ المجدّد من «صراخ القبور»، تجاوزته امرأة من جيل الآباء أُولئك في «خليل الكافر» من كتاب «الأرواح المتمرّدة» ذاته.

فراحيل، أرملة سمعان الرامي الذي قتله الشيخ عبَّاس، إقطاعي المنطقة، غيلة وغدراً، عضَّت على جرحها خمس سنوات فما استطاعت أن تجهر بحقّها حتى أتاها المنقذ، خليل الكافر أو الأخ مبارك، الثائر على رهبان دير مار قزحيا، ملتجئاً إلى كوخها في بريَّة الثلج، وهو مثخن بالجراح، فأنقذته مع ابنتها مريم، ثم روى لهما صوراً من ماضيه المعنَّى مع الرهبان. وحين قبض الشيخ عبّاس على خليل الكافر، بسعاية من الخوري الياس، سار ووراءه راحيل الأرملة وابنتها مريم «نظير بنات أورشليم خلف يسوع على طريق الجلجلة»[1].

وأمام الجموع في ساحة القصر العظيمة، وقف خليل واعظاً في مواجهة الشيخ الديَّان، يلقي الخطب الناريَّة داعياً إلى الثورة على الإقطاع بوجهيه السياسي والديني[2]. وإذ يهمّ الشيخ عبّاس بإعمال السيف في عنقه[3]، يعترضه شخص قويّ البنية، ويتصدَّى له رجل آخر وامرأة، ثم يفكّ شاب قيود السجين المنتصر بقدرة الشعب.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) وكثيراً ما نراه في هذه المواقف بعباءةٍ نبويّة، ثورةً وطريقة كلام، وقد يشابه المسيح في منحه ذاته لطالبيه من الجنود، ولكنه يختلف عنه في رفضه الصمت إبّان محاكمته، وتحريضه على الثورة بخطابيّة وعظيّة حادّة، حتى انتصاره كمثله على قوى الشر، ولكن انتصاراً بشريّاً.

(٣) مع ما في ذاك من اتهام للتراث الإنساني بالتواطؤ على الضعفاء. هكذا لا يُفرّق جبران، مرة أخرى، بين ما هو سياسي وما هو ديني، لأن موازينه هي موازين خلقية، محكومة برهافة مثالية وبحسّ جمالي يستعيد خلق الحياة عن طريق الفن فتتطهّر وتتصفّى.

وتنتهي الحكاية بحبّ هادئ طاهر بين خليل ومريم، ويموت الشيخ عباس بعد نزع موجع لعلّةٍ في نفسه شبيهة بالجنون، ويبقى الخوري الياس، يحاول أن يتقرّب من الفلاّحين متزلّفاً إليهم، «ليّناً كالشمع بعد أن كان صلباً كالرخام»[1].

راحيل هذه، أرملة سمعان الرامي، «كانت مثل جميع الأرامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء. فكانت تخرج أيّام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل، وفي أيام الخريف كانت تجمع فضلات الأثمار المنسية في البساتين، وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخيط الأثواب لقاء دريهمات قليلة أو مكيال من الذرة. وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء»[2].

وتشجّعت بعد احتجاب، فقالت للشيخ عبّاس المستشيط غضباً بعد خطبة خليل النارية: «إن هذا الشاب يتكلّم بألسنتنا ويتظلّم عنّا، ومن يريد به شرّاً يكون عدوّاً لنا»[3].

لقد انتفضت راحيل الأرملة، متخذةً برهانيّتها من عناصر الكبت والامتعاض في حياتها الشخصية. فالشرط الخلقي مفقود داخل مجتمعها، والمخالفة واقعة منذ بعيد في القطاعين الدينيّ والمدنيّ في ما يشبه الانفصام بين العقيدة والممارسة. ورأيناها تجاري الكافر منذ لحظة انضمامه إليها مع ابنتها في بريّة الثلج حتّى تصدّيه لرموز القوة والقهر في مجالي العقيدة والسياسة، فتسترجع، مع خليل وبتأييد من ابنتها، هذا الدين إلى قلب المجتمع والعالم، فيسهم في الجهد العام لبناء الغد المشرق للشعوب، وبواسطته يغدو الخلاص خلاصاً روحياً وتاريخياً في آن.

(١) بقي الخوري الياس، لأن اقتلاعه من الحكاية، ولو رمزياً، يُعتبر إسقاطاً للدين، أمّا بقاؤه فإبقاء على الأمل بتغيير الوجوه. الخوري الياس باقٍ يصرّف الأعمال حتى ذاك اليوم المنتظر.

(٢) «الأرواح المتمرّدة»، ع. س.

(٣) المصدر نفسه.

ولعلّها، وقد أدرجناها نموذجاً على حدة في فئة الآباء المجترئين المجدّدين، ومن منطلق قناعتها الماديَّة وحرمانها العاطفي، كانت في بحثٍ دؤوب مضنٍ عن معنًى جديد للحياة يكسر رتوبها ويمدّها بعزم المتابعة في العيش. ووجدته، هذا المعنى، في التحدّي، وهو معنى كاد يفقدها الحياة نفسها.

إن موقف راحيل هذا، وهي في ذروة تفتّحها الإنساني واستغنائها الاجتماعي، يُشير إلى علامات في زمنها وكل زمن مشابه: أدوات كاملة لأهداف غامضة[1]، وكلّها يستوجب من قبل الإنسانية إعادة نظر في طرائق تفكيرها إن رغبت أن تستمر في الحياة.

ولكنْ، ومع ذلك، وحيال الأشواط الهائلة التي تنجزها البشرية العاملة عبر آدميّيها كل يوم، وإزاء الحركة الشاملة للمجتمع وللكون في اصطخاب الحياة داخلهما، وتجاه التداخل اليومي بين مصالح الناس، أُسراً وطبقات، بشكل طبيعي ظرفيّ عابر أو آخر قهريّ ثابت فاجع؛

فإننا نرى أنّ هذه كلّها لا يمكن إلاّ أن يتولّد ويمتزج أثرها بالتنامي التكويني للإنسان روحاً ومادة، فيشقّ له درباً إلى عالم آخر يكون أكثر استجابة لرؤاه وأمانيه وأحلامه.

فماذا يكون هذا العالم الآخر لراحيل، أرملة سمعان الرامي؟

إنه التّيه، برأينا، وكفى؛ حتى لا تدري بعد تحقّق مناها أين الحقيقة في بحثها عن علّة للوجود. يقول جبران في خاتمة «خليل الكافر»:

«ولمّا جاءت أيام الحصاد خرج الفلاحون إلى الحقول وجمعوا الأغمار على البيادر، ولم يكن الشيخ عبّاس هناك ليغتصب الغلّة ويحملها إلى أهرائه

---

(١) تعبير لألبير أنشتاين، الفيزيائي الألماني.

(cité par G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit).

ومخازنه، بل كان كلٌّ من الفلاّحين يستغلّ الحقل الذي فلحه وزرعه، فامتلأت تلك الأكواخ من القمح والذرة والخمر والزيت»[١].

فهذا الانتظام في سيرورة الحياة، والتتابع في تطوّر آليّة العمل قد يؤدّيان إلى تطوّر موازٍ في قطاع الخيال[٢]، فتعود راحيل، من جديد، إلى حالات نكدها والتعس المرافقة للكائن الإنساني، ما دام طريد هذا النزوع الغامض الذي يملأ حياته، ويجرّده من سلاح القناعة وحتى الرجاء أحياناً، حتى لنردّد، بعدَ عارفين، أنّ كلّ دارسي الإنسان إنّما هم مهووسون بصناعة هناء البشر قسْراً عنهم[٣].

■ وهذه التشاؤمية المحتملة يوماً في شخصية راحيل، لفراغ لا يمتلئ في ثنايا الكائن نفسه، تحيلنا على مثيلها المختلف بوجوه في كتاب «العواصف»[٤]، وأقصوصة «حفّار القبور» بوجه أخصّ.

في هذه أن جبّاراً يعظ «عبد الله»[٥] ـ الكاتب باطّراح الخوف، ويسخر من إيمانه وحرفة الشعر التي يمتهنها، ويعرض عليه اتخاذ حفر القبور مهنة ليلحد الأحياء الأموات. ففعل وأشرك في مهنته الجديدة أطفاله الثلاثة، فأعطى كلّ واحد رفشاً. ولكن الأموات كثيرون وعدد الحفّارين لا يكفي ليُوارى هؤلاء في التراب.

---

(١) «الأرواح المتمرّدة»، ع. س.

(٢) تعبير لأندريه مالرو.

(cité par G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations, op. cit.).

(٣) A. Sauvy, d'après un interview de l'Express, n° 870.

(٤) راجع دراستنا «العواصف»، ع. س.

(٥) انطلاقاً ممّا يختزنه اسم «عبد الله» من رموز إيمانية، تعتبر الفكرة هنا إشارة من جبران إلى توارث الإنسان دين آبائه، محمولاً إليه بطغيان التقاليد.

يقول جبران في مستهلّ الحكاية: «في وادي ظلّ الحياة، المرصوف بالعظام والجماجم، سرتُ وحيداً في ليلة حجب الضباب نجومها، وخامر الهول سكينتها».

فإذا بالوادي والليل والوحدة والانطواء كلمات تشير إلى موقعه النفسي إبّان كتابته اللوحة، أي خطوه الأوّل في عالم المعتقدات والحركة والأحداث. إنّه «عبد الله»، الحلقة الأولى في سلسلة الوالدين الجدد، في أسفل السلّم الحياتيّة تراتبيًّا، ولو بالإحساس. وفي ذاك ما يفسّر ثورته بعد حين.

ويقول له الجبّار موضحاً مرشداً ومعلّماً: «ـ إنّ الميت يرتعش أمام العاصفة، أما الحيّ فيسير معها راكضاً ولا يقف إلاّ بوقوفها»[1].

فيحذق «عبد الله» رؤية، ويكتسب سلوكاً. وما العاصفة هنا إلاّ لون من الطبيعة لمدلولات اجتماعية خلقية وسواها. فهي المصائب وأشكال العنف، وهي الشرور في وجوهها المختلفة. والميت هو الجبان، أمّا الحيّ فهو الثائر المكابر المتحدّي[2].

وتتراءى مشتهيات «عبد الله»، شرنقة الوالدين الجدد في الأسرة الجبرانيّة، عبر ما يحمّل الجبّار من إيماءات إلى ما يخطر في أعماق نفسه:

«قلت مستغرباً: ـ ليس للجن حقيقة فلماذا تخدعني؟

فقال: ـ ما أغباك فتى! ليس لغير الجن حقيقة. ومن لم يكن من الجِنّ كان من عالم الريب والالتباس»[3].

فإذا في طليعة هذه المشتهيات، الخارقة والتحدّي والنزعة إلى التفوّق،

---

(١) «العواصف»، ع. س.

(٢) واضح هنا أثر «فردريك نيتشه» في جبران، خصوصاً في موضوع النزعة إلى التفوّق، والمخالفة المفضية إلى العظمة.

(٣) المصدر نفسه.

تسجيلاً لعهود لا يقوى على اجتراحها إلاّ الأقوياء.

ويقول «عبد الله» إفصاحاً عن دينه: «ـ أؤمن بالله وأكرّم أنبياءه، وأحب الفضيلة ولي رجاء بالآخرة»،

فيجيبه الجبّار: «ـ هذه ألفاظ رتّبتها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك. أمّا الحقيقة المجرّدة فهي أنّك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها...»[1].

وكأنّما «عبد الله»، بما ينسب إلى الجبّار، يغري ذاته بأن يكون صانعاً لتاريخ آخر وعلامةً جديدة لإنسان وعصر، فيغدو الهادم الباني غير المنطلق في دعوته من ميراث وتراث.

ويبلغ المشتهى الجبراني الأسود أقصاه بردّ الإله المجنون:

«فقلت: ـ وماذا تفعل في هذه الأودية الوعرة وكيف تصرف أيامك ولياليك؟

قال: ـ في الصباح أجدف على الشمس، وعند الظهيرة ألعن البشر، وفي المساء أسخر بالطبيعة، وفي الليل أركع أمام نفسي وأعبدها»[2].

فيُبرز الوالدين الجدد نقيضاً لمخلوق الله، مخلوقاً يمزّق صفحة الخلق باللعنة والخطيئة والمخالفة على أنواعها، كمن ينتحر بالعزلة أو ينعزل ليتفرّد بين أقرانه.

ويقترب الموقف من سمة الفكاهة السوداء، فيعكس روح التشفّي والانتقام من تاريخ البشر المنهزمين. وفي اللوحة:

«فقلت: ـ وماذا تأكل وماذا تشرب وأين تنام؟

---

(١) «العواصف»، «حفار القبور»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

قال: ـ أنا والزمان والبحر لا ننام ولكننا نأكل أجساد البشر ونشرب دماءهم ونتحلّى بلهاثهم»[١].

فإذا نحن مع «حفّار القبور» إزاء طراز من الآباء يختصر المسألة، اجتماعيّة ودينيّة وحتى وجوديّة، بصرخة اعتراض أو انتقام أو شماتة؛ فيعلنها من دون أن يوجد حلاًّ لها. يقول «عبد الله»: «وفي اليوم التالي طلّقت امرأتي وتزوّجت صبيّة من بنات الجنّ. ثمَّ أعطيت كلّ واحد من أطفالي رفشاً ومحفراً، وقلت لهم: اذهبوا وكلّما رأيتم ميتاً واروه في التراب»[٢].

فتحتمل القطعة في نهايتها سؤالاً بمعنى: وبعد؟ ما الذي سوف يجري؟ ولكنّها تواجهنا، في الآن نفسه، بأنَّ لهذه الفئة من الآباء الجبرانيين قدرة على إثارة أكثر ممّا قُدّر لها من همّ الحياة ومعضلاتها، فتشعر، أنت القارئ التائق إلى ما يفسّر مستغلقات كثيرة في أعماقك، أن الجواب اليقين هو كالحقيقة في معانيها العميقة، غامض ومؤجّل وغيبيّ كل حين[٣].

ونراها من «عبد الله» ـ جبران ثورة تهدم العالم بإغراقه في انتحار إرادي جماعي فيتناقص بالتمادي.

جيل آباء طريدي هواجس، أسرى وعود، يصبح الحاضر معها ثقلاً يكبّل سعيه، وفي مربّعه تخبط حياته خارج أُطر مرتجاها المفيد المفرح. ومن هنا هذا التّوق لديه بوجهه التائه الحالم، المدرك الواعي ونقيضه، إلى زمن آخر، وعالم آخر، وإنسان آخر، ولو ملحوداً تحت التراب، بهم يتواصل ما في خارج النفس مع ما في داخلها، فيستكنّ الصراخ وتستريح مسالح الكينونة الإنسانيّة المناضلة أبداً لتحسين شروط عيشها ووسائل تمتّعها بالحياة.

---

(١) «العواصف»، «حفار القبور»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) و «العواصف» في النهاية وسيلة من وسائل الاتصال بالآخرين، وحاجة هجرة بمعنى من المعاني من الذات باتجاه العالم. فهو كلام في بعده الأخير، وكل كلام من هذه الناحية يبدّد غربة وصقيعاً داخليّين.

إن «عبد الله» ـ الحلقة في سلسلة الوالدين المجترئين المجدّدين هو غرسة مجتمع يروّض الإنسانيّين في الحقيقة، فيعلّمهم تصرفات مختلفة، ولكنه ينطلق دواماً من الحوافز(١) والتعليلات ذاتها في ما يروّض. إن هي إلّا محاولة احتلال الزمن بكلّ ما أوتوا من شوق إلى السيطرة، أمّ الوسائل للتمتّع بالحياة.

ولكن قطعة «حفّار القبور» سرعان ما تدخل زمن الضعف الإنساني على الرغم من مظهر القوّة المستعادة. يقول «عبد الله» ـ جبران: «ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات، غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني»(٢).

وإذا بالقوة والجبروت والنزعة إلى التفوّق قد عادت حلماً بعد محاولة، وعاد الوالد «عبد الله» إلى التعب الإنساني من جديد.

ومرّة أخرى، هو الكائن الضعيف بل المستضعف مسكوناً بشعور مأساة(٣)، يبطن ثورة على الحياة بشعارات الحقّ في الحياة نابعةً من عميق الإحساس بالدونيّة والخوف، وتنتقل عدواه منه إلى أطفاله(٤) محتوى تربوياً سلوكياً باتجاه سيطرة، كمثل ما ينعكس الشعاع في المرآة ليصير ينبوعاً للشعاع. وهؤلاء، الوالدون في أزمنة أخرى، يبقون واحداً كلّ حين، على تنوّع انتماءاتهم وطبقاتهم، واختلاف أوضاعهم وشخصيّاتهم، فلا يفقدهم التكاثر شبههم الأساسيّ(٥).

---

(١) Philippe D'Iribarne, «La politique du bonheur», op. cit.

(٢) «العواصف»، «حفار القبور»، ع. س.

(٣) cité par André Decouflé, «Sociologie des révolutions», op. cit.

(٤) يقول فرويد ما معناه: إنه لمن الجيّد أيضاً أن نعلم بأن كلّ ما نفترضه منسياً ليس كذلك.
(Voir: Freud, «Psychopathologie de la vie quotidienne», P.B.P., 1776).

(٥) Voir: Gaston Berger, «Caractère et personnalité», Collection S.U.P., P.U.F., N° 8, 1971.

■ وفي كتاب «رمل وزبد» علامة أخرى من علامات القهر الإنساني آن هذه الفئة من الآباء مسكونة بشعور مأساة مستمرَّة. يقول جبران: «كن شكوراً لأنك لست مرغماً على الحياة بصيت أبيك أو مال عمّك. ولكن كن شكوراً أكثر من هذا إذا لم يكن لك من يعيش بصيتك أو بثروتك»[١].

فنشتمّ من المخاطب، وهو جبران الذي في نجوى مع النفس على سبيل التجريد، لوناً تشاؤميّاً نسمع له صدى في قول أبي العلاء المعرّي: «هذا جناه أبي عليّ/ وما جنيتُ على أحد». وتخرج من المقولة وقد سوّد ناظريك لون من تشاؤميّة غير واضحة الخطرات.

فالإنسان هنا، جيل الآباء، يُعاني من وصمة اعتياق تذكّرنا بلعنة الخطيئة الأصليّة في الأديان السماويّة وتتحوّل الحياة بسببها فرصة تُمنح، على غير طائل، لاستعادة نقاء يبدو مستحيلاً. ويغدو هذا الإنسان عيناً في الأرض والأخرى في الماوراء، موزَّعاً شقيًّا، متردّد الخطى، يحيا حياته بالانتماء ولا يرتضيها بإيمانه وقناعاته الأخيرة.

إنّ في رؤية هذا المخاطَب، من جيل الآباء، كلَّ آتٍ على هذا الشكل، يأساً من كل تغيير. فالجديد على قديمه، كمثل الدوّامة المستديمة، ولا شاهد على الحياة إلاّ كرور الزمن. وهو في هكذا معطيات تأمليّة وكونيّة لا يستطيع أن يموت لأنه لم يعش أساساً، ولا أن يعيش لأنه لن يتمكّن من الموت مرَّتين. إنّه القلق! وقفة انتظار بلا محتوى، وفراغ قاتل، وضجر هو أب لكل نوع من المصائب والفواجع[٢]. فوحده الشغوف بالحياة يستطيع أن يتحمَّل همومها، لأنه يشعر في أعماقه بكونه جزءاً لا يتجزَّأ منها، وعلى اتصال وتواصل معها. وأنَّى الشغف لمن فرغت جعبته من مغرياتها وارتكن عند هامشها يُعاين انقضاء

(١) راجع دراستنا كتاب «رمل وزبد»، ع. س. رقم 275.

(٢) G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

أمجادها الباطلة وانتشار ثرواتها على دروب السّراب؟!

■ وعلى النقيض من جيل الكاتب مخاطباً ذاته على سبيل التجريد في «رمل وزبد»، يطالعنا كتاب «يسوع ابن الإنسان» في شهادة «سمعان بطرس» بلون آخر من هؤلاء الآباء المجترئين المجدّدين، فيبدون على علاقة بالحياة في التزام قدريّ معها وعناية من سماء.

في اللوحة ـ الشهادة أن يسوع مرّ بسمعان بطرس وأخيه اندراوس، وهما يلقيان الشباك ولا يفلحان في صيد. فدعاهما ليصبحا من صيَّادي الناس. فتبعاه. ودعاه سمعان ليحلّ ضيفاً عليه في بيته، ففعل. هناك رحّبت به زوجته وحماته وابنته، وخررن أمامه ساجدات. ثم كسر الخبز وسكب الخمر. وبعدُ. . تبعوه وجلسوا حواليه تحت مظلّة الدّوالي حيث تكلّم على المجيء الثاني للإنسان، والمتسامي شوقاً إلى السماء. ثم دعا سمعان وأخاه ليحملا نيره؛ وحماته وزوجته تبكيان، أما ابنته فعند قدميه تضمّهما إلى صدرها. وإذ طلع البدر، دعا التلميذين إلى النوم، وآثر أن يبقى تحت مظلّة الدّوالي[١].

«ثم دعانا كلاًّ باسمه وقال: إذا تبعتماني فإنّي أقودكما إلى مدخل في الشاطئ حافل بالأسماك[٢]. وإذ نظرت إلى وجهه سقطت الشبكة من يديّ، لأنّ نوراً أشرق في أعماقي فعرفتُه».

فتبدو هذه المعرفة، والكتاب ككلّ هو رؤية جبران ليسوع كما وعاه إيمانه وحدسه الشعري، إشراقاً سماويًّا مستجيباً لانتظارات هائلة في أعماق النوع

---

(١) راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، ع. س.

(٢) لا يخفى ما في القول من رمزية عميقة، وقد أوضحها بعد أسطر بقوله: «فاجعلكما صيّادي الناس، ولن تكون شباككما فارغة. (راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، «سمعان بطرس»، ع. س).

البشريّ لمخلّص قدوة يقود البشر إلى الكمال[١].

ويتابع جبران بلسان سمعان بطرس: «فتركنا سفينتنا وشباكنا وتبعناه. أما أنا فقد تبعتُه مسوقاً بقوّة غير منظورة كانت تسير معه جنباً إلى جنب. كنتُ أمشي إلى جانبه منقطع النفس والعجب آخذ منّي كلّ مأخذ، وكان أخي اندراوس وراءنا متحيّراً منذهلاً»[٢].

إنّه زمن الآباء مسكوناً بكل الأزمنة، وتوقٌ من أعماق الكائن الآدمي إلى ما يصمت في داخله هاتفاً ملحاحاً تصيح به آلاف الحناجر المنطوية في قلب وعاءاتنا المكانيّة الزمانيّة منذ بعيد.

وإذا كنّا نرى سمعان بطرس منقطع النفس، والعجبَ آخذاً منه ومن أخيه كلّ مأخذ، فلأنّه، وهو بحضرة هذا الجديد الهابط عليه إشراقاً، قد دخل دائرة طيرة[٣]، بعدما جاء من يُدخله، بما يشبه السحر، حالة من الازدواجيّة والتعارض بين الشرط الخلقي الاتفاقي المفروض عليه في محيطه الاجتماعي، والعطش العميق النابع من كيانه استجابة للغريزة الحياتية فيه المحرّرة من كل قيد[٤]، ارتقاءً نحو ما يُخمد ضجيج العالم في كيانه ونداءات الأبعاد الكبيرة.

---

(١) والإنجيل، في المفهوم الجبراني، ليس عملاً مكتوباً لمرّات كثيرة فحسب، أو نزيل أشخاص وأحداث غير ثابتين فحسب، أو الهيًّا منزلاً فحسب، بل يبقيه مهيًّأ لكل إضافة في كل جيل، ما دام في وسط الكون وكمحور له ذاك الذي دعا نفسه بابن الإنسان، فاجتذب إلى شخصه الزمن والحياة، وأضحى مثار اهتمام البشر، ملحدهم والمؤمن.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) هذه الطيرة، في عرف فرويد، هي ترجمة عملية لتمنّيه الأذيّة للآخرين، في وقت من الأوقات. وهو تمنٍّ كبته سمعان الإنسان في لاوعيه، فتحوّل إلى خوف دائم من مصيبة مداهمة عقاباً له على رداءته العارضة.

(Voir: Freud, «Psychologie de la vie quotidienne», op. cit.

(٤) مستوحاة من قول في بعض شخوص بيراندلو.

(Voir: G. Bosetti, op. cit.).

هكذا يغدو سلوك هذا الجيل من الآباء شكلاً من أشكال إيقاف الحقيقة على قدميها[1]، ومعه أدب جبران، ليس أدب عصرٍ من العصور بل هو العصر مولوداً في أدبه[2]، على حدّ تعبير جان بول سارتر في شرحه مهمّة الأدب والأدباء.

ومع ذلك، لا نرى الأمر يتمّ دونما اعتراض. يقول سمعان بطرس: «وفيما نحن نمشي على الرمل تشجّعتُ وقلت له: يا سيد، أنا وأخي سنتبعك، وحيث سرت فنحن نسير معك، ولكن إذا حسن لديك أن تذهب معنا إلى منزلنا في هذه الليلة فإنّنا نتبارك بزيارتك. إنّ بيتنا ليس كبيراً وسقفنا ليس عالياً، وسنأكل طعاماً حقيراً فيه. بيد أنك إذا دخلت إلى كوخنا فإنّه يصير قصراً في عقيدتنا، وإذا كسرتَ الخبز معنا فإنّ أمراء الأرض يحسدوننا على جلوسنا في حضرتك»[3].

شكل من أشكال استعادة الحلم الخلاصي على صورة الأرض، وجعل الإله يتجلّى في التاريخ، من قلبه وليس من خارجه، دورة كاملة للحياة بوجه من الوجوه: في كل نهاية لها علامة ابتداء، ولكل بداية وعدٌ بتكامل فاكتمال، ويُورَّط يسوع توريطاً بمسائل الإنسان، حتميّ الطلوع من قلب الجنس البشري، ولا فكاك[4].

ويتابع سمعان جبران: «فقالت له حماتي: قد أعددنا لك فراشاً في المنزل فأتوسّل إليك أن تدخل وتستريح. فأجابها قائلاً: إنني حقاً أريد الراحة، ولكن ليس تحت السقوف، فاسمحوا لي أن أنام الليلة تحت مظلّة الدوالي

---

(١) تعبير يقوله برخت Brecht في التحريض أو الاستفزاز.

(Voir: Bernard Dort, «Théâtre public», op. cit.).

(٢) Cité par Alexandre Beaujour, «littérature et engagement», classiques Hachette, 1975.

(٣) «يسوع ابن الإنسان»، «سمعان بطرس»، ع. س.

(٤) ويسوع لجبران هو الحلقة الأخيرة في نهائي المسيرة الإنسانيّة عبر الأديان والمعتقدات باتجاه نهاياتها العظيمة. (راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، قسم غاية الكتاب).

والنجوم[1]. فأسرعت وأخرجت الفراش والوسادة واللحاف، فنظر إليها مبتسماً وقال: ها أنا أتكئ على فراش قد أُعدّ مرّتين[2]! وحينئذ تركناه ودخلنا إلى البيت...».

فإذا بسمعان بطرس وأخيه أندراوس والزوجة والحماة من جيل آباء مجترئين مجدّدين داخل المسيرة الإنسانيّة، وكأنهم الإنسان الواحد باستجابتهم للحقيقة النفسيّة الواحدة عند الناس[3]، توقاً وعطشاً، مع الاحتفاظ بحدةٍ لكل منهم، إيماناً منّا بالكثافة النوعيّة للبشر، أولى مسلّمات علم الاجتماع[4].

هؤلاء الآباء الجبرانيّون، مجترئين مجدّدين، يتكرّسون في الأدب الجبراني مُثلاً عليا في السعي التاريخي للأمم والأفراد.

وهم، والسخط العام أو الرفض الإجمالي كامن وراء مسعاهم، يختزنون ديناميّة هائلة في الغالب، تدفعهم إلى تحقيق ذواتهم، بنزوع إلى الكمال أو البكاء على استحالته، في حالتي الإقدام والإعراض على حدّ سواء.

وهم إنسان واحد في النهاية، لا فرق بين أحدهم وبين مثيله في الفئة ذاتها بسوى ضيق الأفق أو اتساعه أمام عينيه للهدف المشترك المنشود. أو يكون هذا الهدف غير القوّة في سبيل السيطرة، المفترق الأساسي للذائد؟

ونراهم بهذا المعنى:

- يستَعْدون السماء على أقوياء الأرض، منتقمين بالحياة من الحياة، بثورة لا تأكل إلّا ذاتها؛

---

(١) في هذا الاختيار ارتضاء من يسوع بالانتماء إلى الكون، وهو ما سبق أن عبّر عنه جبران في أكثر من موقف داخل أعماله السابقة. (راجع دراستنا كتاب «النبيّ» و «حديقة النبيّ»: داخل ملحقاتهما المناسبة).

(٢) يقصد: بحدبٍ من الكون ورعاية من الإنسان.

(٣) Abel miroglio, «La psychologie des peuples», Que sais-je, P.U.F., N° 798, 1971.

(٤) Voir: Guy Dingemans, «La psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

ـ أو يحاولون بالحلم مجداً ورقيًّا سرعان ما يتهاوى بلمسة نسائم مداهمة؛

ـ أو ينتفضون باجتراء في ردّة فعل على الجوع، ومعهم تصبح الثورة أمراً ممكناً، ومعها فرصة الوصول إلى عالم أفضل، وإن سقط العدل من أجلهم مضرّجاً في أبواب السلاطين؛

ـ أو يشتهون، دون جدوى، الخارقة والتحدّي والنزعة إلى التفوّق، وقد يمزّقون صفحة الخَلْق باللعنة والخطيئة والمخالفة، إذ يفشلون؛

ـ أو يقفون في قلقهم وقفة انتظار، بلا محتوى، وفراغ قاتل، فيغمر وجودهم لون من تشاؤميّة غير واضحة الخطرات؛

ـ أو يستجيبون لنداء سماء، يصغون في أعماقه لانتظارات هائلة في توق النوع البشريّ بأسره إلى مخلص قدوة يقود البشر إلى الكمال.

وهؤلاء... مهما تكن رغائبهم وموضوعاتها، فإنّما تغلّف شعوراً بمحبّة الذات[١]، تبعاً لهذه التوجُّهات، ولا يقدرون بالتالي إلاّ ما يتطلّبه هذا الهدف المنشود[٢]، حتى لتبدو السعادة، على استحالتها، نعمةً لجميعهم[٣]، دواءً لسخطهم الكياني وبلسماً لوجودهم المعتاق بديمومة الامتعاض، وبدون هذه النعمة تتحتّم واجباً إنسانياً مرتبطاً بحقيقة الحياة.

*

(١) Paul Rocoeur, «Finitude et Culpabilité», op. cit.

(٢) A. Adler, «connaissance de l'homme», op. cit.

(٣) Louis Pauwels, «Lettre ouverte aux gens heureux et qui ont bien raison de l'être», Albin Michel, éd. 1971.

خاتمة . .

تلكم هي الفئات من الآباء الجبرانيين في مدى فصول أربعة، وهي فئات تشكّل في الواقع جُزيئات الحقائق الإنسانيّة والخلقية، متعاقبة في مجرى حضارة تتصنَّع تباعاً على مدّ العصور.

وفي نظرة أكثر اقتبالاً للمظاهر الاختلالية لهذه الفئات، على ضوء المثاليّ منها نحدسه حدساً في أعماقنا ولا نراه؛

وعلى الرغم من اقتناعنا، كما بيّنّا، بأنّ سعيها كلّه والسلوك إنّما هما نتيجة آنيّة أو مؤجَّلة لنوع من سخط عام أو امتعاض من اللحظة الراهنة، من الحاضر الساعي، من الآتي غير المقنع بثباته واستقراره؛

وإيماناً منّا بأنَّ هذا الإنسان الذي يواجه الحياة كفريق، كونه مدنيًّا بالطبع، لا يعانيها في الواقع إلاّ منفرداً وحيداً، وما من ألم إلاّ من جرح، أو ابتسام إلاّ من ثغر؛ ولذلك يبذل هذا الإنسان جهده لينطبع في مادَّتها، مسخّراً إياها لرغبة فيه عنوانها الأكبر: السعادة، بها حُكم أصلاً، لاعتياق في كينونته، فيجوس الأزمنة والأعمار والأحداث والمواقع، جادّاً وراء طيفها، باحثاً عن كفاية وكفاف أخير، كمثل ما يبحث كلّ هذا الجنس الآدمي عن فردوسه المفقود، حتّى من دون أن يدري؛

لهذه كلّها . . نفترض أنَّ الآباء في الأدب الجبراني كلّهم، بفئاتهم الأربع، إنَّما يعيشون نمطاً صراعياً من أجل البقاء، وهم، بوجه من الوجوه، على نسقٍ

صداميّ خفيّ مع الزمن غير الباقي لكائن، تشبُّثاً بالمقتنى، عينيًّا ومعنويًّا على حدّ سواء، وفكاكاً من مأزق وجود يجري في شكل يتعارض مع مرتجياتهم والمنى.

وهم، في ما يتراءى لهم حلولاً لمعضلاتهم في أعمارهم التي هي أحجام واهية في الحقيقة لعاقلاتهم، قياساً بذاك الكبير المسطح على نحو مخيف واسمه المتعاقب المتحوّل العارض غير الباقي من كل شيء يحيط بهم؛ إنّما يتسبّبون في مشاكل أخرى على النطاق الكوني، وقد يجرحون القيم ويعتاقون الركب الحياتي القويم، أو ينحرفون به عن جادَّته الخيّرة؛

فإذا بالتقليديّين من الآباء الجبرانيّين يقتعدون اللحظة باختيارهم الركون إلى محيطهم الآمن، وسعيهم وراء النجاحات المتواصلة بأقلّ كلفة من ذواتهم المتواكلة، فيحرمون الإنسانيّة قسماً كبيراً من طاقاتها الضرورة الفاعلة في تسريع موكبها المتوقّل للذرى؛

وإذا بالعاطفيّين الخاضعين من الآباء الجبرانيين محبطون قدريًّا، وفي أعماقهم جذوةُ قهر لا يعملون على إطفائها، فكأنّهم قد استقالوا من كلّ جهد للتغيير، فاعتاقوا بدورهم ديناميّة العمل الكوني العظيم، بانكفاء الحركة المناضلة المتحدّية بداخلهم، وهي ضرورة لارتقاء؛

وإذا بالقساة المستبدّين من الآباء الجبرانيّين يقلّصون رقعة الخير في الإنسانيّة المتميّزة حتّى تخوم غائيّتهم، سجينة الأثرة الشرهة، ويقزّمون المدّ العظيم للحضارة المتسامية إلى الأوج المقدَّر لها عن طريق الأديان وقيم الحق والخير والجمال؛

وإذا بالمجترئين المجدّدين من الآباء الجبرانيين يجرحون أديم الاستكانة والوداعة فيما هم يباشرون باسترداد حقوقهم الضائعة أو إثبات شرعيّتها أمام محكمة التاريخ والضمير، فيبدون على احتمال انحراف يوماً، وكلّ خلل ممكن في الإنسانيّة المعتاقة، لتعويض ما فاتهم من طيّبات الحياة ومباهجها.

لهذه الأسباب، تبدو الأبوّة في الأدب الجبرانيّ معضلةً من المعضلات، فهي محكومة أبداً بالتمادي والشّطط، بسلبيَّاتها وإيجابيَّاتها، ابتعاداً عن الحقائق الخالدات واقتراباً، حتّى لتغدو، في واقع عرضها، بلا حلّ يُرضي الإنسان، حاملها، ولا يغضب العدالة بمعناها الكوني.

ولكن. . هل هذه الأبوَّة في الأدب الجبراني هي كذلك؟ أي تلك الصرخة الضائعة في المدى يطلقها إنسانيّون معتاقون، تسيّرهم إيحاءات من الأجزاء غير المنيرة في شخصيّاتهم؟!

ثمّ أليس لهؤلاء الإنسانيّين من غايات إلاَّ ما تعقله فرديّاتهم الغارقة في ظلمات اليوميّ التافه، أو المقيّدة باهتمامات المحيط والمجتمع والأمجاد على أنواعها، إفرازات الحضارة الإنسانيّة بمعناها الرحيب؟

وبعد. . إذا كان هؤلاء لفئات في مفهوم الأبوّة المصطدمة يومياً ومستقبلاً بمآزق مختلفة من أجل الاستمرار، أما يكونون كأبنائهم يوماً، وقد سبقوهم بتسطير إعاقتهم الإنسانيّة هذه على صفحة الوجود، حتى ليتواصل الأصل في الفرع، والشجرة في البذرة الجديدة، حصاد كلّ مقبلٍ على وعد البقاء؟!

أسئلة ـ أصول بل شرانق للجزئين التاليين، الثاني والثالث، من ثلاثيّتنا «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني».

* * *

مسح سكّاني للقصص الجبراني

(يشمل أسماء الأشخاص في قصص الآثار العربيّة والمعرّبة، على ضوء البيئة أو المهنة أو الطبقة التي ينتسبون إليها)

ملاحظة أولى:

وقفتُ للنساء القسم (١٢) من هذا العمل لأسباب منها:

ـ تسهيل البحث بتبسيط منطلقاته.

ـ الاستجابة لواقع البيئة والمناخ العام الذي وضعت فيه هذه اللوحات القصصيّة، وهي بيئة شرقية، ومناخ لم يتساوَ فيه الجنسان في السلوك الاجتماعي والممارسة المدنيّة.

ملاحظة ثانية:

ـ أنزلتُ الحيوان في قائمة من رأيت أنه يرمز إليه من الإنسانيين، ومثله النبات والكائنات العلويّة، في كل ما يسمّى قصصاً خرافياً.

ملاحظة ثالثة:

ـ اعتبرت رجال الدين، بشكل عام، من فئة «الساسة وأهل السلطان»، بسبب التلازم الذي كان قائماً، زمن جبران، بين السلطة الدينية والإقطاع السياسي.

١ ـ الأطباء :

- ـ الأجنحة المتكسّرة : الطبيب .
- ـ السابق، الخلافات : طبيب البلاط .
- ـ التائه، الطريق : الطبيب .

٢ ـ الأغنياء وأصحاب النفوذ :

- ـ عرائس المروج، مرتا البانيّة : الفارس .
- ـ الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني : رشيد بك نعمان .
  الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس : عريس ليلى .
- ـ الأجنحة المتكسّرة : فارس كرامة .
- ـ دمعة وابتسامة، في مدينة الأموات : الغنيّ .
  دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة : الغنيّ .
  دمعة وابتسامة، بين الكوخ والقصر : أهل القصر .
  دمعة وابتسامة، مخبَّآت الصدور : الأب، الزوج .
  دمعة وابتسامة، منيّتان : الغنيّ .
- ـ العواصف، السرجين المفضَّض : سلمان أفندي .
  العواصف، السمّ في الدَّسم : فارس رحّال .
  العواصف، الصلبان : جلال باشا .
- ـ النبيّ : الغنيّ .
- ـ يسوع ابن الإنسان، لاوي غني بجوار الناصرة : لاوي .
  يسوع ابن الإنسان، بطرس : الغنيّ .
  يسوع ابن الإنسان، جاورجيوس البيروتي : جاورجيوس .
  يسوع ابن الإنسان، أفراييم من أريحا : أفراييم .
  يسوع ابن الإنسان، يفتاح في قيصرية : يفتاح .
  يسوع ابن الإنسان، رجل غنيّ : الغنيّ .

ـ التائه، الخمرة العتيقة العتيقة: الغنيّ.
التائه، تلك التي كانت صمّاء: الغنيّ.
التائه، المبادلة: الغنيّ.

٣ ـ أهل المهن والصناعات:

ـ المجنون، العدالة: الحائك، الصيرفي، الإسكاف.
المجنون، الطموح: الحائك، النجّار.
المجنون، اللغة الأخرى: العرّاف.
المجنون، الفلكيّ: الفلكيّ الأعمى.
ـ السابق، الخلافات: النبيّ العرّاف.
ـ النبيّ: الفندقيّ، البنّاء، الحائك، التاجر، الفلكيّ.
ـ يسوع ابن الإنسان، الصيدلي اليوناني: فيلمون الصيدلي.
يسوع ابن الإنسان، نتنائيل: الصيارفة.
يسوع ابن الإنسان، برقا التاجر الصوري: برقا.
يسوع ابن الإنسان، إسكاف في أورشليم: الإسكاف.
يسوع ابن الإنسان، ملاخي الفلكي البابلي: ملاخي.
يسوع ابن الإنسان، آحاز صاحب الفندق: آحاز.
ـ التائه، الشرائع: الكاتب.
التائه، أحلام: العرّاف.
التائه، الفيلسوف والإسكافي: الإسكاف.
ـ حديقة النبي: البحّار.

٤ ـ الجنود:

ـ الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور: القائد.
ـ دمعة وابتسامة، بنات البحر: الجنديّ.
دمعة وابتسامة، السّلم: الجنديّ.

دمعة وابتسامة، رجوع الحبيب: ابن الصعبي.
ـ السابق، البهلول: الجنود.
ـ يسوع ابن الإنسان، كلوديوس قائد المئة: كلوديوس.

٥ ـ الخدم والعبيد:

ـ الأجنحة المتكسّرة: خادم المطران، الخدم في دارتي فارس كرامة ومنصور بك.
ـ العواصف، الصلبان: الخادمة.
ـ البدائع والطرائف، سفينة في ضباب: خدم محافظ البندقيّة.
ـ السابق، بنت الأسد: العبيد الأربعة.
ـ يسوع ابن الإنسان، برقا التاجر الصوري: الخادمان.
يسوع ابن الإنسان، بطرس: الخادم.
يسوع ابن الإنسان، كاهن شاب في كفرناحوم: الطبقة المكدونة.

٦ ـ الساسة وأهل السلطان:

ـ عرائس المروج، رماد الأجيال: ناثان (علي الحسينيّ بعد أجيال).
عرائس المروج، يوحنّا المجنون: الحاكم، رهبان دير أليشاع النبيّ.
ـ الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور: الأمير.
الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس: الكاهن.
الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر: رهبان دير مار قزحيا، الشيخ عباس، الخوري الياس.
ـ الأجنحة المتكسّرة: المطران بولس غالب، الكهّان.
ـ دمعة وابتسامة، بين الخرائب: الخيال الأوّل.
دمعة وابتسامة، طفلان: الأمير.
دمعة وابتسامة، المجرم: الأمير.
دمعة وابتسامة، رجوع الحبيب: الزعيم.

ـ **العواصف، على باب الهيكل**: الكاهن (ذو الملابس السوداء).

العواصف، السرجين المفضّض: فريد بك دعيبس.

العواصف، الشيطان: الخوري سمعان.

العواصف، الشاعر البعلبكي: الأمير.

العواصف، السمّ في الدَّسم: الخوري أسطفان.

ـ **البدائع والطرائف، سفينة في ضباب**: محافظ البندقيّة.

البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قطّ في التاريخ: الأمير.

ـ **المجنون، الكلب الحكيم**: كبير السنانير.

المجنون، العدالة: قره قوش.

المجنون، الملك الحكيم: الملك، الوزير.

المجنون، اللغة الأخرى: الكاهن.

ـ **السابق، البهلول**: القاضي.

السابق، الملك الناسك: الملك، الوزير.

السابق، الذات العظمى: نفسيبعل.

السابق، الحرب والأمم الصغيرة: النسران.

السابق، ملك أردوسة: الملك، الوزير.

السابق، الخلافات: الملك.

ـ **النبيّ**: شيوخ أورفليس، الكهّان فيها، القاضي، الخطيب، أحد الشيوخ في الخير والشرّ، الكاهن السائل في الدين.

ـ **يسوع ابن الإنسان، حنة أم مريم**: ملوك الشرق.

يسوع ابن الإنسان، عسَّاف الملقّب بخطيب صور: عسّاف.

يسوع ابن الإنسان، منسّى المحامي الأورشليمي: منسّى.

يسوع ابن الإنسان، مانوس من بومبي إلى يوناني: مانوس.

يسوع ابن الإنسان، يوسف الذي من الرامة: كهنة أورشليم، القياصرة.

يسوع ابن الإنسان، بيلاطس البنطي: بيلاطس.

يسوع ابن الإنسان، قيافا رئيس الكهنة: قيافا.

يسوع ابن الإنسان، أوريّا الشيخ الناصري: أوريّا.
يسوع ابن الإنسان، حنانيا رئيس الكهنة: حنانيا.
يسوع ابن الإنسان، سابا الأنطاكي: شاوول الطرسوسي.
ـ التائه، النّسر والقبّرة: النّسر.
التائه، الملك: الملك، الوالي، الأسقف.
التائه، الهدايا الثلاث: الأمير، المطران.
التائه، الضفادع: السياسي، الكاهن.
التائه، الشرائع: الملك.
التائه، بناة الجسور: الملك أنطيوخوس الثاني.
التائه، الراقصة: الأمير.
التائه، الصولجان: الملك.
التائه، وميض البرق: الأسقف.
التائه، الملاكان الحارسان: الملاك الأعلى.
التائه، المبادلة: ملاك الطريق.
التائه، البدر الكامل: الكلب.
التائه، الطريق: الكاهن.

٧ ـ الشعراء، الكتّاب وأهل الفنّ:

ـ الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني: الشاعر.
ـ دمعة وابتسامة، موت الشاعر حياته: الشاعر.
دمعة وابتسامة، أمام عرش الجمال: جبران.
دمعة وابتسامة، زيارة الحكمة: جبران.
دمعة وابتسامة، مناحة في الحقل: الكاتب.
دمعة وابتسامة، بيت السعادة: الكاتب.
دمعة وابتسامة، مدينة الماضي: الكاتب.

دمعة وابتسامة، الحيوان الأبكم: الكاتب.
- **العواصف، حفَّار القبور**: الراوي.
العواصف، على باب الهيكل: الشاب حامل القيثارة.
العواصف، السرجين المفضّض: أديب أفندي.
العواصف، الشاعر البعلبكي: الشاعر.
العواصف، الصلبان: بولس الصلبان، سليم معوّض.
- **المجنون، اللغة الأخرى**: الكاتب المجنون.
المجنون، الليل المجنون: المجنون.
- **السابق، الشعراء**: الشعراء الثلاثة، الشاعر الرابع.
السابق، الصحيفة البيضاء: صحيفة الورق.
السابق، العالم والشاعر: الحيّة.
- **النبيّ**: الشاعر السائل في الجمال.
- **يسوع ابن الإنسان، رومانوس الشاعر اليوناني**: رومانوس.
يسوع ابن الإنسان، نيقوديموس الشاعر: نيقوديموس.
- **آلهة الأرض**: الشاب المرنّم.
- **التائه، الرمانات**: الرجل.
التائه، أغنية الحب: الشاعر.
التائه، جسد وروح: الشاعر.
التائه، التمثال: الشاري.
التائه، القصيدتان: شاعر زوش، شاعر الطفولة.
التائه، المبادلة: الشاعر.
التائه، الفأرة والهرّ: الشاعر.
التائه، الموت والفراشة: الشاعر.
التائه، سبعون: الشاعر.

٨ ـ الصبية والأولاد:

ـ **عرائس المروج، مرتا البانيّة:** فؤاد.
ـ **الأجنحة المتكسّرة:** ابن سلمى.
ـ **دمعة وابتسامة، الأرملة وابنها:** ابن الأرملة.
دمعة وابتسامة، طفلان: ابن الأمير وابن الأرملة.
ـ **العواصف، حفّار القبور:** أطفال الراوي.
العواصف، على باب الهيكل: الطفل ابن الخمس.
ـ **المجنون، كيف صرتُ مجنوناً:** الفتى.
المجنون، الطموح: ابن صاحب الحان.
المجنون، المدينة المباركة: الأطفال.
ـ **السابق، البهلول:** الأولاد.
السابق، الخلافات: ابن الملك.
ـ **يسوع ابن الإنسان، سمعان بطرس:** بترولينة ابنة بطرس.
يسوع ابن الإنسان، آحاز صاحب الفندق: ابنة آحاز الفندقي.
ـ **التائه، التائه:** أولاد الراوي.
التائه، القصيدتان: الطفل.
التائه، النبيّ والغلام: الغلام.

٩ ـ عامة الشعب، الرعاة والفلاحون:

ـ **عرائس المروج، رماد الأجيال:** عليّ الحسينيّ (ناثان قبل أجيال).
عرائس المروج، مرتا البانيّة: والد مرتا بالتبنّي.
عرائس المروج، يوحنّا المجنون: والد يوحنّا.
ـ **الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور:** الشاب الشهيد، الكهل الشهيد.
الأرواح المتمردة، خليل الكافر: سمعان الرامي، القويّ البنية، الشاب الذي فكّ القيود.

ـ الأجنحة المتكسّرة: والد جبران، حفَّار القبور.
ـ دمعة وابتسامة، حكاية: الزرَّاع عاشق الأميرة.
دمعة وابتسامة، في مدينة الأموات: الفقير.
دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة: الفقير.
دمعة وابتسامة، الأمس واليوم: الراعي.
دمعة وابتسامة، بين الكوخ والقصر: الفقير.
دمعة وابتسامة، مخبّآت الصدور: العاشق الفقير.
دمعة وابتسامة، منيّتان: الفقير.
دمعة وابتسامة، الحيوان الأبكم: الكلب.
ـ العواصف، البنفسجة الطموح: البنفسجة.
العواصف، الصلبان: حبيب سعادة.
ـ البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قط في التاريخ: الفتى.
ـ المجنون، اطلبوا تجدوا: مريم العذراء.
المجنون، الطموح: حفَّار القبور، صاحب الدكَّان.
ـ السابق، الحرب والأمم الصغيرة: النعجة، الحمل.
السابق، الأثمان: الفلاَّح.
ـ النبيّ: الفلاّح، الشعب من أبناء أورفليس.
ـ يسوع ابن الإنسان، فيلمون الصيدلي: السوريُّون.
يسوع ابن الإنسان، راع في جنوب لبنان: الراعي، غملائيل.
يسوع ابن الإنسان، سمعان القيرواني: سمعان.
يسوع ابن الإنسان، سركيس الراعي اليوناني: سركيس.
ـ التائه، النسر والقبّرة: القبرة، السلحفاة.
التائه، الهدايا الثلاث: الفقير.
التائه، بناة الجسور: البغال.
التائه، الخمرة العتيقة العتيقة: الفلاَّحون.
التائه، الفأرة والهرّ: الفلاَّح.

١٠ ـ الغافلون، التائهون والمتسكّعون:

ـ **الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس**: سليم حبيب ليلى، الكهل المخمور.
ـ **الأجنحة المتكسّرة**: منصور بك غالب.
ـ **دمعة وابتسامة، حكاية صديق**: الشاب.
دمعة وابتسامة، المجرم: المتسوّل.
ـ **العواصف، على باب الهيكل**: الكهل، الهرم المنحني الظهر، الأعمى.
العواصف، فلسفة المنطق: سليم أفندي.
العواصف، السم في الدّسم: نجيب مالك.
العواصف، ما وراء الرداء: الكاهن.
ـ **البدائع والطرائف، سفينة في ضباب**: المنقطع عن الدنيا.
البدائع والطرائف، بالأمس واليوم وغداً: هو، صديقه.
البدائع والطرائف، البحر الأعظم: المتشائم، المتفائل، المتصوّف، الخياليّ، الدهريّ، التقيّ. (وردت في المجنون).
البدائع والطرائف، إرم ذات العماد: زين العابدين النهاوندي.
ـ **المجنون، كيف صرتُ مجنوناً**: الكاتب.
المجنون، الله: الكاتب.
المجنون، الناسكان: الكهل، الشاب.
المجنون، الكلب الحكيم: الكلب.
المجنون، أطلبوا تجدوا: الرجل.
المجنون، الثعلب: الثعلب.
ـ **المجنون، اللذة الجديدة**: الكاتب.
المجنون، الرمانة: الكاتب.
المجنون، القفصان: الأسد، الزرزور.
المجنون، النملات الثلاث: النملات الثلاث، الرجل النائم.
المجنون، على درجات الهيكل: الرجلان.

المجنون، وريقة عشب وورقة خريف: الورقتان.

المجنون، العين: العين، الأذن، اليد، الأنف.

ـ **السابق، البهلول:** البهلول.

السابق، القدّيس: اللصّ.

السابق، الطمع: الوحش.

ـ **السابق، الناقدون:** الناقدون.

السابق، دوارة الريح: دوّارة الريح.

السابق، المعرفة ونصف المعرفة: الضفادع الثلاث.

السابق، العالم والشاعر: الحسّون.

السابق، البحار الأخرى: السمكتان.

السابق، التوبة: السارق.

ـ **النبيّ:** الرجل السائل في معرفة النفس، رجل الصداقة.

ـ **يسوع ابن الإنسان، يعقوب بن زبدى:** يهوذا، توما، سمعان بطرس.

يسوع ابن الإنسان، باراباس: باراباس.

يسوع ابن الإنسان، سوسان الناصرية جارة مريم: ابن سوسان.

ـ **التائه، ملابس:** الجمال، القبح.

التائه، دموع وضحكات: الضبع، التمساح.

التائه، اللؤلؤة: المحارتان.

التائه، السلم والحرب: الكلاب الثلاثة.

التائه، المجنون: الشاب.

ـ **التائه، أمس واليوم وغداً:** الصديقان.

التائه، اللعنة: البحّار الوالد.

التائه، تلك التي كانت صماء: الشاب.

التائه، العثور على الله: الرجل الآخر، الرجل الأوّل.

التائه، التمثال: الرجل.

التائه، على الرمل: الرجل الأوَّل.

التائه، الملاكان الحارسان: الملاك الأول، الملاك الثاني.

التائه، أحلام: الرجل الحالم.

التائه، حقل زاآد: المسافر، الرجال الثلاثة.

التائه، الحزام الذهبي: الرجل الماهر.

التائه، البدر الكامل: الكلاب.

التائه، النبيّ الناسك: الرجال الثلاثة.

التائه، الليدي روث: الرجال الثلاثة.

التائه، الله والآلهة العديدة: الرجال الأربعة.

التائه، المسألة: الفيلسوفان.

التائه، السلم يعدي: الغصنان، العصافير.

التائه، الظلّ: العشب، الظلّ.

التائه، النهر: الجدولان.

التائه، الصيَّادان: الصيَّادان.

التائه، التائه الآخر: التائه، التائه الآخر.

١١ ـ المثقّفون والمصلحون:

- **عرائس المروج، مرتا البانيّة:** جبران.

  عرائس المروج، يوحنّا المجنون: يوحنَّا.
- **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني:** جبران.

  الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور: جبران.

  الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر: خليل.
- **الأجنحة المتكسّرة:** جبران.
- **دمعة وابتسامة، بين الخرائب:** الخيال الثاني.

  دمعة وابتسامة، رؤيا: جبران.

دمعة وابتسامة، الدهر والأمة: الشيخ.

دمعة وابتسامة، اللقاء: فتى لبنان.

دمعة وابتسامة، حديث الحبّ: الشاب العاشق.

ـ **العواصف، حفَّار القبور**: الجبّار.

العواصف، على باب الهيكل: الرجل ذو الوجه الصبيح.

العواصف، رؤيا: الكاتب، الأشباح الثلاثة.

العواصف، مساء العيد: الكاتب، يسوع.

العواصف، العاصفة: يوسف الفخري.

العواصف، الصلبان: يوسف مسرَّة، خليل بك تامر.

ـ **البدائع والطرائف، البحر الأعظم**: هو ونفسه.

البدائع والطرائف، إرم ذات العماد: نجيب رحمة.

ـ **المجنون، اللعين**: اللعين، الكاتب.

المجنون، الذوات السبع: الكاتب.

المجنون، حفَّار القبور: الكاتب، حفّار القبور.

المجنون، المدينة المباركة: الشيخ، جبران.

المجنون، الليل المجنون: اللّيل.

المجنون، المصلوب: المصلوب.

المجنون، عندما ولدت كآبتي: الكاتب.

المجنون، عندما ولدت مسرَّتي: الكاتب.

ـ **السابق، القدّيس**: الناسك.

السابق، الذات العظمى: الرجل العاري.

السابق، الناقدون: المسافر.

السابق، ملك أردوسة: الشيوخ.

السابق، المعرفة ونصف المعرفة: الضفدعة الرابعة.

السابق، الأثمان: المشتري.

ـ **النبيّ**: المصطفى، المشترع، المعلّم، العالم، الناسك السائل في اللذة.

- **يسوع ابن الإنسان، عسَّاف الملقب بخطيب صور**: يسوع.
يسوع ابن الإنسان، يوحنا بن زبدى: يوحنًّا.
يسوع ابن الإنسان، نتنائيل: نتنائيل.
يسوع ابن الإنسان، يوثام الناصري: يوثام.
يسوع ابن الإنسان، يوسف الملقب بيوستوس: يوسف.
يسوع ابن الإنسان، يعقوب بن زبدى: يعقوب.
يسوع ابن الإنسان، فيلسوف فارسي في دمشق: الفيلسوف.
يسوع ابن الإنسان، لوقا في المرائين: لوقا.
يسوع ابن الإنسان، العظة على الجبل: متّى.
يسوع ابن الإنسان، يوحنّا المعمدان: يوحنّا.
يسوع ابن الإنسان، يوسف الذي من الرامة: يوسف.
يسوع ابن الإنسان، كلاوبا البتروني: كلاوبا.
يسوع ابن الإنسان، رجل من الصحراء: الرجل.
يسوع ابن الإنسان، فيلسوف: الفيلسوف.
يسوع ابن الإنسان، بنيامين الكاتب: بنيامين.
يسوع ابن الإنسان، في مصير يسوع: زكّا.
يسوع ابن الإنسان، برثلماوس في أفسس: برثلماوس.
يسوع ابن الإنسان، فيلبّس: فيلبّس.
يسوع ابن الإنسان، يعقوب أخو الرب: يعقوب.
يسوع ابن الإنسان، يسوع الخارجي: المقدّم المنطقي.
يسوع ابن الإنسان، داود أحد أتباعه: داود.
يسوع ابن الإنسان، سابا الأنطاكي: سابا.
يسوع ابن الإنسان، نعمان الغداريني: استفانوس، نعمان.
يسوع ابن الإنسان، توما: توما، جدّه المشترع.
يسوع ابن الإنسان، بين زنابق المياه: يوناثان.
يسوع ابن الإنسان، رجل من لبنان: جبران.

ـ **التائه، التائه**: التائه.

التائه، اللؤلؤة: السرطان المائي.

التائه، حبّ وبغض: الرجل.

التائه، المجنون: الكاتب.

التائه، الضفادع: الضفدعتان.

التائه، الشرائع: الحكماء الألف.

التائه، بناة الجسور: الشاب.

التائه، العثور على الله: الناسك.

التائه، الراهب والوحوش: الراهب.

التائه، النبيّ والغلام: النبيّ.

التائه، على الرمل: الرجل الثاني.

التائه، الفيلسوف والإسكافي: الفيلسوف.

التائه، حقل زاآد: الرجل العجوز.

التائه، الحزام الذهبي: الرجل غير الماهر.

التائه، التراب الأحمر: الرجل.

التائه، النبيّ الناسك: الناسك.

التائه، الليدي روث: الرجل العجوز.

التائه، المسألة: الغريب الساذج.

التائه، النهر: النّهر.

التائه، الصيّادان: السرور، الحزن.

ـ **حديقة النبيّ**: المصطفى، تلاميذه التسعة ومنهم: حافظ، سركيس، مأنوس، فردروس، وربّان السفينة.

١٢ ـ النساء:

● **التائهات والغافلات:**

ـ عرائس المروج، مرتا البانية: مرتا.

ـ **الأرواح المتمردة، مضجع العروس**: ليلى، نجيبة.
ـ **الأجنحة المتكسّرة**: سلمى.
ـ **دمعة وابتسامة، مخبآت الصدور**: الزوجة الصبيّة.
ـ **العواصف، على باب الهيكل**: المرأة الكئيبة.
العواصف، السرجين المفضض: فهيمة أرملة بطرس نعمان.
العواصف، السمّ في الدّسم: سوسان زوجة فارس رحّال.
العواصف، ما وراء الرداء: راحيل.
ـ **البدائع والطرائف، بالأمس واليوم وغداً**: المرأة.
ـ **المجنون، بين هجعة ويقظة**: الأم، ابنتها.
ـ **النبيّ**: المرأة السائلة في الفرح والترح، المرأة السائلة في الألم.
ـ **يسوع ابن الإنسان، راحيل إحدى التلميذات**: راحيل.
يسوع ابن الإنسان، حنة من بيت صيدا سنة ٧٣: حنّة.
يسوع ابن الإنسان، كاهن شاب في كفرناحوم: نساء أورشليم، بنات المزارع.
ـ **التائه، الأميرتان**: أميرة شواكيس.
التائه، تلك التي كانت صمّاء: الزوجة الصمّاء.
التائه، في السوق: الفتاة.
التائه، وميض البرق: المرأة.
التائه، الطريق: الأمّ الثكلى.
التائه، الحوت والفراشة: المرأة المسافرة.

● **الحالمات**:

ـ **عرائس المروج، رماد الأجيال**: الصبيّة (حاملة الجرّة بعد أجيال).
ـ **الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور**: الصبيّة الشهيدة.
الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر: مريم بنت سمعان الرامي.
ـ **دمعة وابتسامة، حكاية**: الأميرة عاشقة الزرّاع.
دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة: الفتاة.

دمعة وابتسامة، اللقاء: ابنة مصر.

دمعة وابتسامة، السلم: الصبيّة.

- **العواصف، على باب الهيكل:** الصبيّة المورّدة الخدّين.
- **البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قط في التاريخ:** الأميرة.

البدائع والطرائف، إرم ذات العماد: آمنة العلويّة.

- **المجنون، على درجات الهيكل:** المرأة.
- **النبيّ:** المطرة، العرّافة الثانية.
- **يسوع ابن الإنسان، حنّة أم مريم:** مريم.

يسوع ابن الإنسان، إحدى المريمات: إحدى المريمات.

يسوع ابن الإنسان، بربارة اليمونيّة: بربارة.

يسوع ابن الإنسان، سمعان بطرس: زوجة بطرس، حماته.

يسوع ابن الإنسان، رفقة عروس قانا: رفقة.

يسوع ابن الإنسان، رئيسة كاهنات صيدا: فومية.

يسوع ابن الإنسان، حنة من بيت صيدا سنة ٧٣: عمّة حنّة.

يسوع ابن الإنسان، بيلاطس البنطي: زوجة بيلاطس.

يسوع ابن الإنسان، يوناثان: حبيبة يوناثان.

يسوع ابن الإنسان، امرأة من جارات مريم: الراثية.

يسوع ابن الإنسان، امرأة من جبيل: المرأة.

- **آلهة الأرض:** الراقصة الحسناء.
- **التائه، التائه:** زوجة الراوي.

التائه، الطريق: العجوز.

التائه، سبعون: الأميرة.

- **حديقة النبيّ:** كريمة.

● **النساء - الرجال:**

- **السابق، بنت الأسد:** الملكة.
- **التائه، الملك:** الأميرة.

التائه، الليدي روث: الليدي روث.

● **العاملات والخادمات:**

- **الأجنحة المتكسّرة:** القابلة.
- **دمعة وابتسامة، الدهر والأمة:** الراعية.
- **المجنون، اللغة الأخرى:** المرضع.
- **يسوع ابن الإنسان، مريم المجدلية:** الجواري، الوصيفة المصرية.
 يسوع ابن الإنسان، أوريًّا الشيخ الناصري: العاملات في الكرم.
 يسوع ابن الإنسان، سوسان الناصرية جارة مريم: سوسان، القابلة مرتا.

● **الغانيات:**

- **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني:** الأرملة، عشيقة الشاعر.
الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس: المرأة التي تغامز رجلاً، المرأة المنتهزة سكر زوجها.
- **يسوع ابن الإنسان، مريم المجدلية:** المجدليّة.
 يسوع ابن الإنسان، سالومة إلى صديقة لها: سالومة، أمُّها.
- **التائه، أمس واليوم وغداً:** المرأة.
 التائه، الراقصة: الراقصة.

● **المتحرّرات:**

- **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني:** وردة.
الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس: سوسان.
الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر: المرأة التي تحدَّت الشيخ.
- **دمعة وابتسامة، بنات البحر:** حبيبة الجندي.
 دمعة وابتسامة، أمام عرش الجمال: ابنة الأحراج.
 دمعة وابتسامة، زيارة الحكمة: الحكمة.
- **العواصف، الصلبان:** الآنسة هيلانة.
- **يسوع ابن الإنسان، يونا امرأة حافظ هيرودوس:** يونا.

ـ التائه، **الصولجان**: الملكة.

● **المحافظات**:

ـ **عرائس المروج، يوحنّا المجنون**: أم يوحنّا.
ـ **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني**: نساء يُشرين بأموال الأغنياء.
الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور: خطيبة الشهيد الأوّل، المرأة الضعيفة أرملة الكهل.
الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر: راحيل.
ـ **الأجنحة المتكسّرة**: والدة سلمى.
ـ **دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة**: الفتاة حبيبة الفقير.
دمعة وابتسامة، الأرملة وابنها: الأرملة.
دمعة وابتسامة، طفلان: الأرملة.
ـ **العواصف، الصلبان**: مريم أخت هيلانة.
ـ **المجنون، الطموح**: زوجة صاحب الحان.
المجنون، اللغة الأخرى: الأمّ.
ـ **النبيّ**: المرأة التي تحمل طفلها.
ـ **يسوع ابن الإنسان، حنّة أمّ مريم**: حنَّة.
يسوع ابن الإنسان، أرملة الجليل: الأرملة.
يسوع ابن الإنسان، سيبورية أمّ يهوذا: سيبورية.
ـ **التائه، الأميرتان**: صديقة الأميرة.
ـ **التائه، حبّ وبغض**: المرأة.
التائه، الضفادع: المرأة الثرثارة.
التائه، أغنية الحب: المرأة.
التائه، جسد وروح: المرأة.
التائه، الراهب والوحوش: الفهدة.
التائه، النبيّ والغلام: المربّية.

*

مسرد الأعلام

ويشمل أسماء نساء ورجال فنّ وأدب ونقد وتاريخ ودين ومجتمع وسياسة
وأسماء صحف وبلاد ومواقع وجمعيّات.

ـ هـ ـ

ـ ي ـ

*

ثبت بالمصادر والمراجع
(ويشمل)

أ ـ المصادر: كتب جبران خليل جبران.

ب ـ المراجع: عربيّة وأجنبيّة.

ج ـ الصحف والمجلّات والمعاجم والموسوعات.

أ ـ المصادر

١ ـ جبران، جبران خليل: ـ الموسيقى، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٢ ـ جبران، جبران خليل: ـ عرائس المروج، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٣ ـ جبران، جبران خليل: ـ الأرواح المتمرّدة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٧.

٤ ـ جبران، جبران خليل: ـ الأجنحة المتكسّرة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٧.

٥ ـ جبران، جبران خليل: ـ دمعة وابتسامة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٦ ـ جبران، جبران خليل: ـ المواكب، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٧ ـ جبران، جبران خليل: ـ العواصف، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٨ ـ جبران، جبران خليل: ـ البدائع والطرائف، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٩ ـ جبران، جبران خليل: ـ المجنون، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

١٠ ـ جبران، جبران خليل: ـ السابق، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١١ ـ جبران، جبران خليل: ـ النبيّ، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٢ ـ جبران، جبران خليل: ـ رمل وزبد، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٣ ـ جبران، جبران خليل: ـ يسوع ابن الإنسان، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٤ ـ جبران، جبران خليل: ـ آلهة الأرض، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٥ ـ جبران، جبران خليل: ـ التائه، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٦ ـ جبران، جبران خليل: ـ حديقة النبيّ، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

ب ـ المراجع

● العربيّة:

١٧ ـ جبر، جميل: ـ جبران: سيرته، أدبه، فلسفته ورسمه، دار الريحاني، بيروت.

١٨ ـ جبر، جميل: ـ رسائل جبران، دار بيروت، ١٩٥١.

١٩ ـ جبر، جميل: ـ مي وجبران، بيروت، ١٩٥٠.

٢٠ ـ الحكيم، توفيق: مسرح المجتمع، مكتبة الآداب بالجماميز.

٢١ ـ الصايغ، توفيق: أضواء جديدة على جبران، بيروت، الدار الشرقيّة، ١٩٦٦.

٢٢ ـ كبا، إميل: ـ تحقيق المجموعتين الجبرانيّتين العربية والإنكليزيّة، مكتبة صادر، بيروت.

٢٣ ـ كبا، إميل: ـ النزوع الطبقي في مسرحيات توفيق الحكيم، أطروحة دكتوراه من جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

٢٤ ـ كرم، أنطوان غطّاس: محاضرات عن جبران خليل جبران، القاهرة، معهد الدراسات العربيّة العالية، ١٩٦٤.

٢٥ ـ نعيمة، ميخائيل: جبران خليل جبران، بيروت، مكتبة صادر.

● الأجنبيّة:

٢٦ ـ Adler, Alfred: Connaissance de l'homme, (P.B.P.), N° 90, 1976.

٢٧ - Adler, Alfred: - Le tempérament nerveux, (P.B.P.), 151, 1976.

٢٨ - Alain: Eléments de philosophie, 1941.

٢٩ - Bakhtine, Mikhaël: L'oeuvre de François Rabelais et la culture populaire au M.A. et sous la Renaissance, traduit du russe par A. Robel, n.r.f., E. Gallimard, France, 1978.

٣٠ - Beaujour, Alexandre: Littérature et engagement, classiques, Hachette, 1975.

٣١ - Berger, Gaston: Caractère et personnalité, collection, S.U.P., P.U.F., N° 8, 1971.

٣٢ - Berr, H.: En marge de l'histoire universelle, Ed. Albin michel, T.I., 1953.

٣٣ - Bosetti, Gilbert: Pirandello, Bordas, No 802, u.l.b., 1971.

٣٤ - Bouthoul, G.: Traité de Sociologie, Payot, Paris, T.I., 1949.

٣٥ - Cattier, M.: Ce que Reich a vraiment dit, Marabout université, N°254, 1974.

٣٦ - Caussat, André: Rebelles et révoltés, classiques Hachette, 1973. Lalliard, michelle.

٣٧ - Charles, Raymond: L'âme musulmane, Flammarion, Paris, 1958.

٣٨ - Corvin, Michel: Le théâtre nouveau en France, P.U.F., Que sais-je? 1072, 1970.

٣٩ - Decouflé, André: Sociologie des révolutions, P.U.F., Que sais-je? 1278, 1970.

٤٠ - Dingemans, Guy: Psychanalyse des peuples et des civilisations, Librairie Armand Colin, Paris, 1971.

٤١ - D'Iribarne, Philippe: La politique du bonheur, Edition du Seuil, 1973.

٤٢ - Dort, Bernard: Théâtre Public: Essais de critique, Pierres vives, Edition du Seuil, France, 1967.

٤٣ - E.D.M.A.: Le théâtre, Le livre de poche, 4461, 1976.

٤٤ - Freud: - Essais de psychanalyse, P.B.P., 1977.

٤٥ - - Psychopathologie de la vie puotidienne, P.B.P.,1976.

٤٦ - - Totem et Tabou, P.B.P., 1977.

٤٧ - Goldmann, Lucien: Le Dieu caché, Gallimard, 1959.

٤٨ - Gouhier, Henri: L'Essence du théâtre, «Présences», Plon, Paris, 1959.

٤٩ - Lacroix, Jean: La Sociologie d'Auguste Comte, (S.U.P.), N° 21, France, 1967.

٥٠ - Le Bon, Gustave: - Les premières civilisations, Bibliothèque Cammille Fammarion, Paris.

٥١ - - Psychologie des foules, 28èd.,Alcan, 1921.

٥٢ - Matar, Fouad: La souveraineté populaire dans l'héritage de J.J. Rousseau, Thèse pour le doctorat du 3è cycle présentée à Paris - Sorbonne, 1973.

٥٣ - Miroglio, Abel: La psychologie des peuples, Que sais-je? P.U.F., N° 798, 4è éd., 1971.

٥٤ - Nicolas, André: Wilhelm Reich, ou la révolution radicale, Ed., Seghers, Paris, 1973.

٥٥ - Osborn, R.: marxisme et psychanalyse, P.B.P., N° 99, 1974.

٥٦ - Pauwels, Louis: Lettre ouverte aux gens heureux et qui ont bien raison de l'être, Albin michel éd., 1971.

٥٧ - Poirier, Jean: Histoire de l'Ethnologie, P.U.F., Que sais-je? N° 1338, 2è éd., 1974.

Poulet, Georges: Etudes sur le temps humain, II, La distance ـ ٥٨
intérieure, Paris, Plon, 1952.

Reich: La révolution sexuelle, Plon, 1969. ـ ٥٩

Ricoeur, Paul: Finitude et culpabilité, T.I., Aubier, Philosophie de ـ ٦٠
l'esprit, 1977.

*

ج ـ الصحف والمجلّات والمعاجم والموسوعات:

٦١ ـ Express: N° 870.

٦٢ ـ Médecine et Hygiène: 5 novembre, 1969.

٦٣ ـ صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، جزءان، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٦٤ ـ عبد النّور، جبّور، إدريس، سهيل: المنهل، قاموس عربي ـ فرنسي، دار العلم للملايين ـ دار الآداب، الطبعة الثامنة، ١٩٨٥.

٦٥ ـ Encyclopédia universalis: vols: 4,5,9,12,13.

٦٦ ـ Encyclopédie Larousse: Histoire générale des peuples, Tome I

* * *

فهرست الجزء الأوّل

الصفحة

الصفحة

* * *

الجزء الثاني
الأبناء في الأدب الجبراني

الإهـداء..

إلى أحفادي يوماً..

آنَ جيلُنا قد غيَّبه فوق دروب المسافة.. غبار.

إميل.

المقدّمة..

رأينا في «الآباء»، الجزء الأوّل من ثلاثيّتنا «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني»، أربع فئات من جيل الآباء الجبرانيّين ساعين عبر سلوكيّتهم نحو أهداف أقلُّها، وهو ظاهر للعيان، تفسّره أحداث ومصالح هؤلاء متداخلة مع أحداث ومصالح محيطهم، وأكثرها، وهو ما تضمره السيرورة غير المظفّرة للحياة الإنسانيّة[1]، يتراءى عن كثب كأنه الجهاد الدؤوب في سبيل الحصول على القدرة، يكتسبها الشخص الإنسان من أولئك حمايةً لنفسه أوّلاً من مداهمات مجهول متهيّئ باستمرار لصنوف مختلفة من المفاجآت، وتحقيقاً، من جهة ثانية، لتقدُّم نوعيّ في الزمن والمكان يشبع النزعة الغريزيّة فيه إلى اللذّة والسعادة[2].

---

(١) الجماعات الإنسانيّة تأتمر بهاتف دفين في أعماق العقل الباطن لأفرادها، لأنّ الحياة المدركة الواعية لا تمثّل في الحقيقة إلّا الجزء اليسير من الكينونة الإنسانيّة، فوراء أعمالنا اليوميّة، في معظم الأحيان، أسباب غامضة مجهولة.

Voir: Gustave Le Bon, «Psychologie des foules», 28ème édition, Alcan, 1921.

(٢) والأعمال الإرادية للإنسان محكومة بشعور اللذة والكدر. والبحث عن الأولى وتفادي الثاني يبدو الاهتمام الأول والميل الرئيسي للنفس الإنسانية.

Voir: Adler. «Le tempérament nerveux, P.B.P., 151, 1976.

وغوستاف لوبون يرى هذا الميل في طبيعة المصري، ويردّه إلى بنيته القوية وعذوبة المناخ في بلاده. أفلا يمكننا أن نعمّم فننعت إنسان لبنان به واستطراداً إنسان ما يُسمَّى جغرافيّاً الهلال الخصيب؟

Voir: Gustave Le Bon, «Les premières civilisations», Flammarion, Paris.

وخلصنا في حينه بأنّ الآباء في الأدب الجبراني كلّهم، بفئاتهم الأربع، إنّما يعيشون نمطاً صراعيًّا من أجل البقاء، وأنّهم، بوجه من الوجوه، على نسق صداميّ خفيّ مع الزمن غير الباقي لكائن، تشبّثاً بالمقتنى، عينيًّا ومعنوياً على حدّ سواء، وفكاكاً من مأزق وجود يجري في شكل يتعارض مع مرتجياتهم والمنى.

وفارقناهم داخل حيواتهم الاتفاقيّة في القصص الجبراني[١] وهم يتسبَّبون في مشاكل أخرى على النطاق الكوني، إبّان اضطلاعهم بما يبدو لهم حلولاً لمعضلاتهم في أعمارهم، وهي أعمار بأحجام واهية في الحقيقة لعاقلاتهم، قياساً بذاك الكبير المسطّح على نحوٍ مخيف، واسمه المتعاقب المتحوّل العارض غير الباقي من كل شيء يُحيط بهم؛

حتّى لتظلم الدنيا في عيون قارئيهم، ونتأكّد من «أنّ ثمة شيئاً لا يتمّ بشكل طبيعي»[٢] على الرغم من مظهر الانسياب الرخيّ لحياة تهرول هرولةً إلى أمام من دون أن يعتاقها ما يؤخّر استكمالها مسافاتها المرسومة.

ولكنّنا، متى أنعمنا النظر في أحياء الأدب الجبراني، فقارنّا حركة آدميّيه ورموزهم بسلوكيّتهم حيال الأهداف الخفيّة تلك، الجاذبة للكائن نحو الأبعاد

(١) القصص في مفهومه المطلق هو اتفاق، حيث قدر الأبطال والشخوص يصنعه إنسان هو الكاتب. ولا بأس في أن نقيسه بما يقاس به المسرح الذي هو قصص في جوهره.

- يقول المسرحي السويسري فردريك ديورنمات: «المسرحية لي هي عمل فني يصنعه إنسان كاتب، ويشاركه في إعداده أناس، ويتوجه إلى آخرين».

E.D.M.A., «Le théâtre», «Le livre de poche», 4461, 1976.

- ويرى مسرحيون ومخرجون أن العمل المسرحي ليس قياماً بنشاط أو بفن يمكن إدراكه، فهو ببساطة ممارسة للحبّ مع شخوص وهميّين، أو كاتب مات منذ عصور، بل مع جمهور. العمل المسرحي هو فعل حب تُستنفد قواه وهو يستهلك.

Bernard Dort: «Théatre public», Seuil, 1967.

(٢) P.D'Iribarne, «La politique du bonheur», Edition du Seuil, 1973

البعيدة قد خطّها ناموس أعظم للكون[1]؛

وإذا اعتمدنا مبدأ المماثلة في مسعى الإنسانيين جميعاً، حقيقيّين في الزمن والمكان، أو اتفاقيّين في زمن الأثر الأدبي وأمكنته، مؤتمرين بهاجس نابع من أغوارهم الغامضة، هو ذاك الشيء المشترك بين البشر جميعاً[2]، الذي كأنه السَّبب الحقيقيّ كامناً وراء هؤلاء الإنسانيّين، أحياءً وأمواتاً، في بحثهم «عن شيء ذي أهميّة خارقة» وقد نسوا ماذا يكون[3]؛

وحين نقرّ بأنّ في العلاقات بين الناس، ولو من أجيال مختلفة، أو مؤقّتة وعابرة، ما يشبه «العقد المتواضع»[4]، يصغي بموجبه مستمع ابن إلى ما يقوله محدّثه، أبوه أو سواه الذي من جيله، فيكيّف فائدته وهو يصغي بمقتضى فكرة هذا الآخر المتحدّث، وهذا الإصغاء للحظات، طالت أو قصرت، يمثّل في الحقيقة محاولة مقاربة بين شخص وشخص، وهو شروع في تقليد تفرضه حتميّة الانتساب إلى الحياة الاجتماعية في أبسط وجوهها؛

وإن عمّمنا ما نعرف من مبادئ العلوم الفيزيائية والكيميائيّة من أن لا شيء يضيع ولا آخر يخلق، ونقرّ بأن المظاهر المنحرفة عن طبيعتها الأصليّة لدى شخص من الأشخاص، لا بدّ أن تظهر بالضرورة بشكل آخر في أثناء حياته الجارية[5]، ونعترف تالياً بحتميّة تأثّر هذا الإنسان بالظروف المرافقة لسعيه

---

(١) هذا الناموس الأعظم يشكّل جوهر العقيدة الجبرانيّة، والغاية التي تلتقي عندها جهود الآباء والأبناء في اغترابهم الهائل نحو الكمال. (راجع الجزء الثالث من مجلّد «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني»).

(٢) تعبير لجان لوي بارو، المسرحي الفرنسي.

Voir: M. Corvin, «Le théâtre nouveau en France», P.U.F, N° 1072, 1374.

(٣) تعبير ليونسكو.

Voir: Eugène Ionesco, «Présent passé, Passé présent», cité par Yves Alain Favre, «L'écrivain et son moi», classiques Hachette.

(٤) Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations, Librairie Armand Colin, Paris, 1971.

(٥) Ibid.

الحياتي، فيحمل شيئاً من حاضره وإنسانه وعقليّته وأشواقه؛

عندئذ يمكننا الانتقال إلى جيل آخر من الآدميّين، نابتين في مساكب الآباء الذين درسنا، هم الأبناء في انجذابهم أيضاً إلى تلك الأصقاع القصيّة، قطب آبائهم من قبلهم، تحقيقاً لذواتهم ولاشتياقات النوع الإنساني إلى الانتصار، في ملحمة مغالبته الزمن والحياة.

ولكنّ هؤلاء الأبناء، مع اعترافنا المبدئي بأنهم واحد في اغترابهم الزمني منطلقين من مرافئ آباء نحو آفاق تحدّدها لهم ظروف حيواتهم المتحوّلة غير الثابتة، ومع اعتقادنا الراسخ، من نظرة أولى، بحتميّة اشتمالهم على مزايا عامة ملزمة لكل واحد من جيلهم[1]، نتيجة انعكاس حيوات آبائهم في مراياهم، أي الجيل ذاته الذي طلعت منه بذورهم؛ هؤلاء الأبناء نراهم في وحدتهم المبدئيّة لأنواع وفئات داخل الأدب الجبراني:

- فهؤلاء، منهم من يعيش في ظلّ آبائه، وهو فتيّ، طريّ العود، فنحدس حدساً أنّه لن يبلغ أشدّه إلاّ كما يجدّد النوع نفسه، دونما مفارقات أو تجاوز، فترسل الموجة الآدميّة ذاتها عبر التي أفسحت لها في مجال التقدّم، ويستمرّ الأب في بنيه،

ومنهم من في عمره، ولكنّه واعد، وهو في ظلّ آبائه، بانقلابات جذريّة تستعيد حقوقاً أو تملي، على مقبل الأيام، تصحيحات في مسار القيم والاستحقاقات الاجتماعية.

---

(١) يقول أدلر: إن المسائل الإنسانية كافة تقتضي حلاًّ يمتّ إلى موضوع وحيد هو تمنّي القدرة.

Adler: «Le tempérament nerveux», op. cit.

وكان جول ميشليه، المؤرخ الفرنسي، يقول: فرنسا هي شخص واحد. وبهذا المعنى يصبح الشخص خلاصة طبقته وشعبه وأمته.

Voir: Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

ـ وبعض هؤلاء الأبناء حائر في أيّ مسلك يسلك، فيهيم داخل جزيرة الحاضر، حركةً دائرية في دوّامة، حتى لا يجد مناصاً من الاعتراف بالهزيمة إزاء الاختيار، والاكتفاء بالانفعال في محيطه بدلاً من الفعل.

ـ ونوع آخر نراه قد ثار، بعد اصطدامه بالواقع، فسعى إلى حلم ذاته يحقّقه:

● بانتماء ثوريّ ولكنه غامض، لا يُلمح إلاَّ خلل مبادئ العدالة والخير والجمال، وبدعوة مثالية دامعة العينين فيما تحاول أن ترسم الغد الباسم للإنسان؛

● أو بانكفاء ثوروي هو الآخر، ولكنّه سلبيّ بفراره من الواقع، فيرجئ المواجهة أو يُسقط إلى الأبد واجب المغالبة والاقتحام بغية انتصار.

إذاً.. فصول ثلاثة للأبناء، الجزء الثاني من ثلاثيّتنا «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني»، تصميمها كالتالي:

ـ **الفصل الأوَّل**: أبناء في ظل الآباء:

● لاستمرار وتخوير.

● لتثوير وتغيير.

ـ **الفصل الثاني**: أبناء حائرون في الانتماء.

ـ **الفصل الثالث**: أبناء ثوّار:

● لتقويض وبناء.

● طافرون لانكفاء.

وهي فصول ثلاثة، نراها متّجهات واقعيّة للأبناء الجبرانيّين في زمن الفنّ، تُطابق واقع الحال في أرض الأحياء، إذ يعبرون إلى البلوغ والاستقلال بالرأي، عقلاً للوجود والتزاماً به، من طفولة قاصرة، ولو بالغين بالمعنى النظري للكلمة، إلى اضطلاع راشد بشؤون وشجون الحياة، مغالبةً في مواجهة مكشوفة، أو اندحاراً في انتظار جولات أخرى قد تسمح بها الأيّام.

الفصل الأوّل
أبناء في ظلّ الآباء

إذا كان الإنسان الفرد والمجتمع اثنين في كلّ لا يمكن تجزئتُه[1] فإنه لمن البديهيّ القول في الاتجاه التناقصي لسلّم المجمّعات البشريّة: إنّ الآباء والأبناء نواة قد أفرخت فسائل من الطبيعة ذاتها، وتعدُ، آن يأتي أوان إزهارها، بأزهار أكثر اقتراباً من أشواق نوعها إلى الرقيّ والتكامل.

والحقيقة أنّ كلاًّ من الآباء والأبناء يبدون، في المدى الكوني للجهاد الإنسانيّ، كالنقاط المتلازّة في خطّ دائم السيرورة، ما امتدّت بالحياة رغبات الاستمرار، وما دام في فناء الزمن شهيّة عمرٍ لم تُشبع، وهاجس شكّ لم يقنع[2].

---

(١) Henri Baruk, «La psychiatrie sociale». P.U.F., Que sais-je? N° 669.

(٢) لن نذهب مذهب الملحدة في تفسيرنا استمرار الحياة بأسباب كامنة في صلب المادة غير المستهلكة لذاتها وقواها. ونشير في الوقت نفسه، ومن زاوية العقيدة الجبرانية، إلى أن نسبيّة الأشياء في زمنها الضيّق والحاضر الشخصي الراهن للإنسان الفرد، هذه لا احتساب لها، نظراً للانقطاع بين التراث الآدمي وحكمة الحياة، ولاكتفاء هذا الإنسان بالمنظور من تاريخه. فالعامل الذي مع عمله نغمة مستقلة حقاً، ولكنها مؤتلفة في آن والعمل الشامل للكون. وكل إنجاز على صعيد الفرد إنّما يسرّع الموكب الشامل للحياة باتجاه نهاياته السعيدة. وكل شوق لم يشبع أو لحظة شك لم يصمت إلحاحها تستدعي حيوات أخر لتتلف النقص الذي فيها، وتتواصل بذاك رحلة الحياة المظفّرة، حتى بلوغ الناموس الكوني تمامه.

(راجع دراستنا المجموعتين العربيّة والمعرَّبة، في قسم «أضواء»، والمقدّمات =

هكذا تتواصل أمراجنا عبر العصور، ويأخذ بعضنا بأيدي بعضنا الآخر، متزوّدين في كلّ مرّة، وكرّةَ كلّ انطلاق، بما اكتسبته أجيال سابقة، ومُنانا أبداً حيث الحلم الأقصى، ترسمه أديان ومذاهب على مرايا عطشنا، أو تومئ إليه قيم الحضارة الإنسانيّة بوجهي التراب والروح فيها على حدّ سواء.

ولكننا، وعلى الرغم من وحدة المصير المشترك لهؤلاء الآباء والأبناء، وأحاديّة الهمّ الوجودي يعانيه نوعنا في المبتدإ من كلّ خطوٍ فوق مسافة المدّ العظيم للحياة، نرى ثمة تمايزاً بين الإنسانيين، آباء وأبناء، وحتّى بين أفراد الفئة ذاتها، سببه الأول اختلاف في ردّات الفعل تسجّلها كياناتهم الفرديّة إبّان اندفاعهم في غمار الأحداث، والآخر أنّ التمايز بين أفراد الفئة الواحدة محكوم بمدى شعور كلّ منهم بالمشاركة الإنسانيّة وبدرجة ميله إلى القوّة[1].

ولهذا السبب، نجدنا هنا أيضاً، على غرار ما فعلنا في الجزء الأول من هذه الدراسة، ملزمين معالجة حال هؤلاء الأبناء الذين في ظلّ الآباء، أو الفسائل في مساكبها الأصليّة، بمراعاة لفروقات أساسيّة في فئاتهم بادية للعيان، إبّان اصطدامهم بوقائع من عالم آبائهم، فتستمرّ بهم وعبرهم عقليات ومزايا، أو يرتقب لها تغيّر بنزعة تثويريّة في خصالهم، تتيح للحياة وللحقيقة فرصة تصحيح مسارهما بما يحفظ للأولى عدالتها، ويُعيد للثانية الاعتبار.

عليه.. ماذا من هؤلاء الأبناء داخل الأدب الجبرانيّ، وهم في ظلّ آبائهم؟ سؤال نجيب عنه في قسمين اثنين:

أ - لاستمرار وتخوير.

ب - لتثوير وتغيير.

= من دراستنا «النبيّ» و «يسوع ابن الإنسان» و «حديقة النبي» بوجه خاص).

(١) Adler, «Connaissance de l'homme», P.B.P., N° 90, 1976.

أ ـ أبناء في ظلّ آبائهم: لاستمرار وتخوير:

في الشكل الظاهري لمرمى الكلام، تبدو هذه المجموعة من الأبناء ممثّلة للحالة التوازنيّة الإنسانيّة، متوسّطة بين شرود وطوباويّة. فبهؤلاء يتواصل الاستمرار الاجتماعي على نحو متشابه، فلا شذوذ عن النّسق المعهود في العيش داخل مجمّعاتها، ولا انكماش، بل موقع حياتي من سلوك وأحداث وعقليّات تتغلّف بقشرة صلبة من تقليد ووراثة[1].

ولكنّ هذا الصنف من الأبناء المتشابهين في الإطار العام للشخصيّة يتضمّن هو الآخر معنى الوحدة المتنوّعة، حتّى ليمكننا الوقوع على تمايز طفيف بين ابن وابن، تبعاً للزاوية التي ينظر في خلالها إلى الموضوع.

■ وأوّل الأبناء أولئك في ظلّ والديهم نستمدّه من كتاب «الأجنحة المتكسّرة». إنه منصور غالب، زوج سلمى كرامة وابن أخي المطران بولس غالب، وقد بدا في القصة يداً للظلم، وحجراً في قلبه، حتى لا يتنهّد ولا يذرف دمعة. يقول جبران معرّفاً به: «ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تنقلب العقارب والأفاعي على جوانب الكهوف

---

(١) قد يتبادر إلى الأذهان أنّ هذه الاستكانة، انجرافاً مع الزمن الجاري في ما يشبه الارتجال اليومي للحياة، هي من ظاهر في صالح الهدوء الاجتماعي وسلامة قيمه وفضائله. ولكنها في الحقيقة إشباع في الخفية لنزوات طبقة، وإغلاق لمنافذ التهوئة الضرورة لتجديد الحياة، فضلاً عمّا تسبّبه هذه الاستكانة من فراغ اجتماعي[1]، هو بمعناه الحقيقي ثمرة شعور الفرد بإهمال المجتمع له متروكاً على رصيف الأيام.

١ ـ تعبير لـ R, Bastide.

(Voir: Guy Dingemans, «Psychanalyse des Peuples des civilisations», op. cit.).

مع العلم أن لا سلامة لكائن حيث التعتيم والاكتفاء بالمحصّل من عناصر الاستمرار داخل الجامعة الإنسانية.

والمستنقعات»[١]، وسوف ينتصب عمُّه المطران يوماً رافعاً بيده الأثيمة إكليل الزواج فوق رأسه ورأس سلمى كرامة «جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماويّة بذات ترابيّة واضعاً قلب النهار في صدر الليل»[٢].

وماذا يمكن أن تكون «عناصر المفاسد والمكاره تلك» بعد أن عرض جبران المطران بولس غالب كقوّة شرّ غير منظورة في الكتاب، وكرمز للإقطاع الديني، ولخطإٍ فادح لا تعترض عليه الجماعة؟

لا شكّ في أنَّها الموروثات داخل طبقته، يعمل المطران على إخصابها في محيطه الأدنى فيستمرّ أمانه في لحظته، بامتلاكه ناصية الدروب المؤدّية إلى إشباع نزوعه، وهذا النزوع كان كامناً لديه على شكل تمنٍّ منفتح على كلّ محتمل[٣]، وانطلاقاً من واقع فراغه، وربّما إخفاقه في دعوته الكهنوتيّة، كان مطلباً للسعادة أكثر من كونه رغبةً في العيش[٤].

فهذا المطران لم يطلب مقابلة فارس كرامة في تلك الليلة المقمرة «ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بأمور الأرامل والأيتام، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه»، فتكفل «بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعده بأملاكها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والأشراف»[٥].

هي من المطران، رجل الدين في زمان ومكان مبتعدين عن آلام الناس وآمالهم في وقتٍ يدّعي معه خدمتهم، حالة عزلة تحيلنا على طموح دفين في نفسه، مظهره الابتعاد عن الآخرين إظهاراً لتميّزه عنهم[٦]، فاجتمعت في موقفه

---

(١) راجع دراستنا «الأجنحة المتكسّرة»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) P. Ricoeur, «Finitude et culpabilité», T.I., Aubier, 1977.

(٤) Ibid.

(٥) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٦) Voir: Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

سلبيّة حيال المجتمع، تسكنها وتتحضّر داخلها عداوة صراعيّة، سرعان ما رأيناها تتفجّر لصالح ابن أخيه الذي من الممكن أن يعوّض لعمّه المطران قهره السابق؛

وهي من منصور بك حالة انصياع واستسلام[1]، فيبقى كل شذوذ على أوده أمام الدهر الشاهد، وخورٌ كمثل ما يشيح الإنسان بوجهه عن صعوبات الحياة، في ما يبدو في الظاهر، إذعاناً لرغبة المطران وقبولاً بهذا الزواج، كأنه يسعى إلى احتماء ما عن طريق الكسب الإضافي[2].

ونرى هذا الإبن في ظلّ جيل أبيه سائراً في خطاه بعنايةٍ منه وتعهُّد ودربة، محققاً لرغبات عمّه، وهو له فرصة امتداد للعمر خارج عتمة العزلة التي فرضتها دعوته على وجوده، فيشع في القطاع المدنيّ إشعاعه هو في قطاعه الدينيّ بعد خروجه نظريًّا من دائرة الخير والتضحية الكهنوتيّة إلى مدى النفوذ بمعناه الزمنيّ. فلقد تزوّج منصور من سلمى وسكنا معاً، يقول جبران «في منزل فخم قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والأغنياء»[3]، فاستمرّ على يده ما هو حاصل بالفعل وتأمّن بخطوتِه في النطاق العمليّ، ولعمّه قبل سواه، ذاك التجاور بل التلازم القائم في زمنه بين الإقطاعين السياسي والديني.

منصور بك غالب من جيل أبناء في ظلال والديهم، وهو في فئتِه لهؤلاء الوالدين كالوحدة الضرورة في نظام الأوعية المتَّصلة، به يتواصل مستوى

---

(١) يقول أدلر ما معناه: إن الشكل الذي يستسلم فيه إنسان للحياة، ليس إلاّ محاولة لوضع حدّ لارتيابه حيالها، ولفوضى انطباعاته عنها، أو يكون هذا الاستسلام نقطة ارتكاز لتجاوز صعوبات هذه الحياة.

Adler: «Le tempérament nerveux», P.B.P., 151, 1976.

(٢) ويرى أدلر في ذلك أيضاً علامة من علامات حبّ الظهور.

Adler: «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٣) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

العيوب والعاهات على معياره، استئثاراً وتجاوزات، ولا يبتعد قيد أنملة عن المخطّط له والمتوارث ليؤدّي دور الغريم اللدود للقيم الإنسانية الخالدة.

ولكنّ هذا لا يعني التسمُّر في حدود الموروث، والاكتفاء بنصيب من الواقعة السوداء متنقّلة من جيل إلى جيل، على تقليد في اجتراح الأذى وتخديش القيم، وكمثل ما يتناسل الشرّ شروراً. فصاحب «الأجنحة المتكسّرة» قد أظهر منصور بك غالب بطموح كالح، سليلاً لجيل من الآباء المفسدين، يحمل في مداه رجعاً من مكتسبات حيوات شبَّت على الحرام، وعايشته حتى غدا من مستلزمات وجودها. «فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كلّ ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائماً إلى ما ليس لهم، وهكذا يظلّون معذَّبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم»، وكان شبيهاً بعمّه المطران بولس غالب، «وكانت أخلاقه كأخلاقه، ونفسه صورة مصغرة لنفسه، ولم يكن الفرق بينهما إلاّ بما يفرّق الرياء عن الانحطاط»[١].

فإذا بالرجل، وإن تكرّس في التصنيف الجبراني نقيضاً للبطل، ولما حملت سلمى كرامة من رؤاه، هذا الرجل كأنه لمأساة صامتة غير واضحة بشكل جليّ، فيها عبوديّته لنزواته، وانصرافه عن كل تفاؤل أو نسائم تغيير قد يحملها إليه الزواج[٢].

فمنصور بك، مع أنّه «يصرف جميع أيّامه متاجراً بنفوذ عمّه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة»، وعلى الرغم من كون المطران «لصاً يسير مختبئاً بستائر الليل»، وكونه هو «محتالاً يمشي بشجاعة في نور النهار»[٣]، على ما يقول جبران، ويتنقّل من انتصار إلى انتصار على الصعيد العملي إنفاذاً لرغباته السوداء، وتوقُّلاً لسلالم الأمجاد الباطلة؛

---

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٢) راجع دراستنا الكتاب أعلاه في قسم المقدّمات.

(٣) المصدر نفسه.

منصور بك هذا نراه من صنف الأبناء في ظلال آبائهم، يسعون إلى استغلال واقعهم الاجتماعيّ الموروث، ارتشاءً واختلاساً وإغواءً، ويرفضونه في أعماقهم مع استسلامهم لفوضى أقدارهم بأسى يقرب من العبثيّة. وهو، في ممالأته عمّه بكل ما يريد ويملي، إنّما ينصاع كمثل من ينتهز فسحة انتظار، يستعيد في خلالها توازناً وزخماً، لينقضّ من جديد على ما يزاحم به عمّه، فيتقن وسائل امتيازه، وهو «أناه المثالي»[1] وغريمه في آن معاً[2].

ونبصره متمادياً في حمأة المفاسد والشرور، على نحوٍ تحامليّ من جانب الكاتب أحياناً، مبالغة منه في إظهار المظالم وإماطة اللثام عن عيوب طبقة بأسرها. يقول بلسان سلمى كرامة: «إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيّامي، فهو مشغول عنّي بأولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهنّ الفاقة إلى أسواق النخّاسين فيتعطّرن ويكتحلن ليبعنَ أجسادهنّ بالخبز المعجون

(١) يقول ولهايلم ريخ: «الطفل في الطبقة الرائدة في المجتمع يتعلّم أول ما يتعلّم طاعة والده لأنه ممثل السلطة في الأسرة، ومن ثمّ يتعلم موقف الإخضاع هذا، منتشراً مع كل من تؤول إليه السلطة.

(Voir: M.Cattier, «Ce que Reich a vraiment dit», Marabout université, N° 254, 1974).

ولكنّ الوالد الحقيقي لمنصور بك غالب لم يُلمح في كتاب «الأجنحة المتكسّرة»، فظلّ قدراً غيبياً، وهو، حيًّا، لعبة على الأرجح في يد أخيه المطران الأكثر منه اقتداراً في نطاق الأسرة، ومع احتمال موته تؤول أبوّته الفعلية إلى أخيه ويتعاظم خطرها لتجسيدها «الأنا المثالي» sur-moi، كما يسمّيه الفرويديّون، الجاهز للترسّم والاحتذاء لوقت، ثم يبحث هذا الولد في بلوغه عن منافذ لعدائيّته المبيّتة عبر النجاحات السياسية والاجتماعيّة.

R. Osborn, «marxisme et psychanalyse», P.B.P., N°99, 1974.

(٢) عملاً بثنائية فرويد المشهورة. يقول ما معناه: كل علاقة عاطفية حميمة بين شخصين في الزواج أو الصداقة أو القرابة تخلّف وراءها بقايا مشاعر عدائية لا يمكن التخلّص منها إلا بالكبت.

(Voir: Freud, «essais de psychanalyse», P.B.P., 1977).

بالدماء والدموع»[1]. وكلُّها من هذا الإبن المحكوم بهيمنة صاخبة من عمِّه، رمز السلطة المتعاظمة بقدرتيها الدينية والدنيوية، أشكال ووسائل يتجسّد بواسطتها نهمه إلى السعادة، ليس فقط بمعناها الاكتفائي الآنيّ الذي يشارك به أقرانه من وجهاء حاضره وأعيانه، بل بمعنى تلك الفسحة من الغبطة التامة المحتملة والممكنة في الزمن أي في المستقبل[2].

ونرى أَن تماديه هذا في تقصّي اللذائذ، مستأثراً بها أو متاجراً بأجساد بائعاتها، هو استمرار منه في الابتعاد عن القاعدة الخلقيَّة، خوفاً من أن يُجرح في كبريائه[3]، أو هو يشعر في قرارته بأنه مضطهد بدلاً من أن يُحبّ، والرقابة الاجتماعيَّة، كالشرط الخلقي والديني في حاله وسواه، تمثّل في مقاييس السلطة هذا الأب، المطران الذي يحبّه ويكرهه في آن، عملاً بمنطوق الثنائية في الكائن البشري، فيعمل على مخالفتِه كمظهر اعتراض على فراقه[4].

حتى إذا خرج الطبيب باكياً من غرفة سلمى التي وضعت، وتبدَّلت تهاليل المهنّئين بالصراخ والعويل، لم يصرخ منصور بك «ولم يتنهَّد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس الشراب»، وفي المقبرة قال أحد الواقفين: «تأمّلوا بوجه منصور بك فهو ينظر إلى الفضاء بعينين زجاجيّتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد». وقال آخر: «غداً يزوّجه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة وأقوى جسماً»[5]؛

استعيدت لحظة، عقل في خلالها الجنونُ لسان ذاك الماديّ كالتراب والقاسي كالفولاذ والطامع كالمقبرة[6]، وتبدّد أمام عين يقينه حلم الدواء

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س. ولا يخفى ما في هذا القول من مبالغة في إظهار المظالم، وإشفاق على الساقطات والخطأة بروح إنجيلي.

(٢) Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٣) Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٤) Voir: Freud, «essais de psychanalyse», op. cit.

(٥) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٦) الوصف لجبران.

الشافي يأتيه عن طريق تحقيق رغبته المتعاظمة بابن يرث اسمه وسؤدده[١].

منصور بك غالب لم يُعطَ فرصة للخروج من سجن عمّه، فظلَّ ولداً في ظلّ أبيه لاستمرار وتخوير، وبصمته، وتماديه فيه، عربدة المخالفة في فلك عمّه المطران. ولو عاش ولده[٢]، من يدري؟ لكان رسم تحوّلات كبرى في حياته، ولأصبح منحة البرء من الأوصاب الاجتماعية والخلقيّة التي دُفع دفعاً إلى تيّارها بحكم انتمائِه الطبقيّ وموقعه بين أقرانه[٣].

أما موت سلمى بعد محاولتها إنقاذ زواجها بانقطاعها عن حبيبها[٤]، فإيذان بمرّة أخرى يغلّ في خلالها الولد منصور بظلّ عمّه يُريد عنه ويملي، أو ينصرف إلى المسكرات بالكأس التي ظلّ قابضاً عليها[٥]، وفي كلا الحالين تغييب لذاته وتخوير لشخصه، وإفساح للمخالفة، في مداها الاجتماعي والإنساني، طريق الفوز والاستمرار والانتصار على حساب عمره واختياراته.

---

(١) يرى أوغست كونت ان الإنسان الفرد مجنون بطبيعته، وجنونه بسبب سيطرة الذاتية على كينونته، وتصبح الأسرة، من هذا المنطلق، هي الدواء الشافي لوصمته الكيانيّة.
(Cité par Jean Lacroix, «La Sociologie d'Auguste Comte», S.U.P., N° 21, France, 1967).

والأسرة المقصودة هنا هي التي رتّبها بنفسه وكان من الممكن أن تشعّ توازناً وسلامة على حياته.

(٢) الطفل، ابن سلمى، أراده جبران الموت الحسّي الذي نتج عن زواج جاء موتاً معنوياً، وكأنّما الشرّ لا يُعقب إلاّ شرّاً من مثله.

(٣) فاحتياجات منصور بك غالب ما كانت لتكون لولا مستوى حياته. فالاحتياجات ذات وجه اجتماعي بحيث تتعاظم تبعاً للقدرة الإنتاجية كما يقول ماركس.

K.Marx, «Principe d'une critique de l'économie politique», cité par P.D'Iribarne, «La politique du bonheur», Edition du Seuil, 1973.

(٤) وانقطاع سلمى هذا عن حبيبها يبدو لنا من منظار صرف تقني إنقاذاً للقصة من رتابة المشاهد الغنائية والتفجّعات العاطفية، وتقريباً لموضوعها الفرد من استحقاق أخير.

(٥) التعبير لجبران.

■ وإذا كان «الأجنحة المتكسّرة» يقدّم لنا نموذجاً من الأبناء في ظلال والديهم، تعتمل في داخله ترسّبات الكبت والقهر النفسي نتيجة خضوعهم القسريّ لنمط حياة مضطربة ونسق تربية ضاغطة؛ فإنّ في «دمعة وابتسامة» ما يضيء الخلل الفاضح في التعامل بين الطبقات، على مظهر استكانة من سياسة، وتواصل في أمر واقع، خلقياً واجتماعياً، مسيء في النهاية إلى الإنسان وإلى الحقيقة بمعناها الكوني المطلق[1].

ففي لوحة «طفلان» أن الأمير رزق طفلاً هلّلت له الجموع، وكذلك أرملة كان الأمير قد قتل زوجها[2].

قال الأمير مخاطباً الجموع المزدحمة في حديقة قصره: «أبشّركم وأهنّئ البلاد، فالأميرة قد وضعت غلاماً يحيي شرف عائلتي المجيدة، ويكون لكم فخراً وملاذاً ووارثاً لما أبقته أجدادي العظام. افرحوا وتهلّلوا فمستقبلكم صار مناطاً بسليل المعالي»[3].

وجه جديد ليربى «على مهد الترف ويشبّ على منصّة الإعزاز ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقاً برقاب العباد»[4]، في وسط يقدّم إلى الطفل، فيما يقدّم من

---

(١) هكذا في معظم قصصه استخلاص نظري لصراع قائم حقاً في المجتمع، بين أجيال تتزاحم على أرض واحدة، وتتصايح في ميادين النفوذ، وفيه الإصغاء إلى نداء القلب وإسقاط، أحياناً كثيرة، لما عداه في مطالبة ملحاح للتعرّي أمام الحقيقة وعدم تزويرها. إن هو إلاّ نسخة منقحة عن هذه الحقيقة، أو هو مقترح خلقي فنّي يحيي في قلوب الضعفاء أمل القيامة من الأحزان، ويقلّم أظافر التسلط بإعلانه المخالفة فوق منابر المثقّفين.

(٢) راجع دراستنا كتاب «دمعة وابتسامة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٣) «دمعة وابتسامة»، «طفلان»، ع. س.

(٤) المصدر نفسه.

سيّئ الإيحاءات، مظهر السلطة الأبويّة كنموذج يتداخل مع مفهوم القوة والاكتفاء وما يرافقه من استمتاع بامتلاك القدرة بمعناها النظريّ أولاً، ثم العمليّ في حال هذا الطفل الأمير، يسترضيه الأتباع والأعوان ملَقاً أو تقرّباً من أبيه. فينشأ هذا الطفل، نشأة الأمير من قبله، نهماً في التعويض عن مركّبات النقص المحصّلة لديه بسبب التفاوت بينه وبين الأقوياء في عالم الراشدين[١]، وتستمرّ دورة الحياة في عالمه لمخالفة وانتقاص من القيم الخالدات؛ وممّا يجعله يتمادى في خوره واسترخائه وترهّله الخلقي فوق النعيم أنها مدينة يمجّد سكّانها «القويّ ويحتقرون ذواتهم ويتغنّون باسم المستبدّ»، فيما الملائكة تبكي على صغرهم[٢].

أمّا الصبيّة التي كتبت لها الأيام فقراً، والفقر شقاء، والتي أهملها بنو الإنسان فقد وضعت طفلها على حضنها وقالت بصوت تتصدّع له الصخور: «لماذا جئت يا فلذة كبدي من عالم الأرواح؟ أطمعاً بمشاطرتي الحياة المرّة؟ أرحمة بضعفي؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الواسع وأتيت إلى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلّة؟»[٣].

وجه آخر ليربى في الخنوع، وقد لا يمتلك من وسائط الكفاح غير التشكّي والنواح واستئخار الحلول، معيدة الحقوق إلى نصابها، والعدالة إلى كفاءتها فوق منابر الإنسانيّين. فأمُّه من جيل والدين لإحناء رقبة، وهو في ظلّها، ولا ما تمدّه به غير الضعف والتنهّدات، لشعور منها بدونيّة وصغار انحداراً حتى مرتبة أدنى ممّا قسم للحيوان من حظوظ الدنيا. قالت له وهي تبكي بكاءها المرّ: «صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت في أوكارها آمنة،

---

(١) بهذا المعنى يقول أدلر: «لا يمكننا استبعاد فكرة التفوّق عن أذهان أطفالنا».

Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٢) الكلام لجبران في المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغتبطة، وأنت يا ولدي ليس لك إلاّ تنهّداتي وضعفي»[1].

فيشبّ هذا الطفل يوماً، وفي خلاياه وجعُ أمّه حقاً، وثأره المكبوت من ناحية أبيه حقاً، ولكنّ في فعله كلّ الخور الواجب لاستمرار المظالم، وكذلك انتفاء الجهد لعدم وعيه أهدافه الحقيقيّة[2]، حتى ينهض من طبقته ربّما من يطلق من خزّان ذاته قواها المحصورة المعطلة، فتندفق لتجرف مع سواها معاقل الفساد وتدكّ عروش حماتها من أهل الطغيان.

وقد اختار جبران بالفعل حلّ بقاء هذا الطفل في ظلّ أمّه. يقول في خاتمة «طفلان»: «حينئذ ضمّت الطفل إلى صدرها بشدّة كأنّها تريد أن تجعل الجسدين جسداً واحداً، ورفعت عينيها نحو العلاء، وصرخت: إرفق بنا يا ربّ!»[3] لتنتهي اللوحة القصصيّة بانسكاب أشعة لطيفة من القمر على جسدين هامدين في ذلك البيت الحقير[4].

لقد أُرجئت لحظة المواجهة مرة أخرى، واستقال البطل الجبراني، والداً وابناً على حدّ سواء، من واجب التصدّي بالنضال، وقبع عند حائط مبكى، هو الباقي الوحيد من أرض ميعاده المخطوفة.

---

(١) «دمعة وابتسامة»، «طفلان»، ع. س.

(٢) يقول أدلر في حتميّة استمرار الطفل في كلّ منّا: «لا يمكننا أن نتصوّر أو نستخدم شيئاً دون أن يكون ثمة هدف محدّد يحثّنا على ذلك، وهو حاضر في الأعماق المظلمة للإنسان منذ مرحلة الطفولة، ويطبع بتوجّهه كل تفتّحه النفسي.

Voir: Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٣) «دمعة وابتسامة»، «طفلان»، ع. س.

(٤) نشير هنا إلى أن هذه الأرملة لا تختلف كثيراً عن أرملة «صراخ القبور» في كتاب «الأرواح المتمرّدة» بصرف النظر عن عمرها وسبب ترمّلها. (راجع دراستنا «الأرواح المتمردة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧). ثم الموت الذي اختاره لها جبران هنا مع طفلها يعمّق الفاجعة، ويعطي المقابلة التي أرادها بعداً خلقياً من شأنه أن يؤلب الناس على قضيّة العدالة المفقودة.

■ وهذا الانكفاء البنويّ، بل الجمود والتقوقع، يتجلّى بأجلى مظاهره في كتاب «العواصف» ولوحة «أبناء الآلهة وأحفاد القرود» على وجه التحديد[1]. وما أحفاد القرود أولئك إلاّ السلفيّون المخوّرون، سكن أجدادهم المغاور، وهم تسكنهم مغاور التاريخ وينقادون بظلامه. يقول جبران مخاطباً إيّاهم: «هل سرتم خطوة واحدة إلى الأمام منذ انبثقتم من شقوق الأرض؟ أم رفعتم أبصاركم نحو الأعالي منذ فتحت الشياطين أبصاركم؟ أم تلفَّظتم بكلمة من سفر الحق منذ قبّلت أفواه الأفاعي أفواهكم؟ أم أصغيتم هنيهة لأغنية الحياة منذ أغلق الموت آذانكم؟»[2].

وإذا كان للأشياء أن تُعرف بأضدادها، فإنّ هؤلاء الأبناء، أحفاد القرود، هم المتأخرون عن الوقوف مع جماهير أبناء الآلهة على باب التغيير الكبير، والمتلكّئون، بخلافهم، عن الإصغاء لنفير الانتفاضات العظيمة يدعوهم «نحو قمم الجبال حيث تكمن العواصف الشديدة وتتولّد البروق اللامعة والرعود القاصفة»[3]، والمشيحون عن حقوقهم بأن يكونوا شركاء في مغانم الحياة، فيما أبناء الآلهة لا يحرقون بخوراً إلاّ لنفوسهم، ولا يقدّمون ذبيحة لغير ذواتهم، لأنّ أعظم الآلهة وأبهاهم جمالاً قد جعل هيكله في صدورهم[4].

---

(١) هذه اللوحة، في الأساس، مقالة بخواطر جبرانيّة. لذلك أنزلناها في خانة الخواطر عند دراستنا الكتاب. (راجع تحقيقنا «العواصف»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨). ولكنّ اشتمالها على تعاقبيّة سرديّة واستعراضها أحداثاً من تاريخ الجامعة البشريّة دفعانا للتمثّل بأحيائها من أبناء القرود، في دراسة هذه الفئة من الأبناء الجبرانيين الذين في ظلال آبائهم.

(٢) «العواصف»، «أبناء الآلهة وأحفاد القرود»، ع. س. ونشير إلى أن الموت المقصود هنا هو موت المطامح، وتمثيل لقعود الهمّة ولكلّ جمود وتقوقع.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

إنْ هؤلاء الأحفاد إلّا أبناء في ظلال آبائهم يتوارثون مع الخمول آفات مجتمعاتهم المقعدة بقبول وانكسار. فهم نماذج إنسانيّة من الصف الثاني، لا قدرة لديهم على التغيير، تافهون لأنّ همّهم في الحياة طمأنينة أسريّة يسلكون في طريقهم إليها من عبوديّة في منازلهم إلى عبوديّة للعمل[1]. يقول في تعداد مثالبهم: «منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلّبون كالحشرات في زوايا الكهوف، ومنذ سبع دقائق نظرتُ من وراء بلّور نافذتي فوجدتكم تسيرون في الأزقّة القذرة وأبالسة الخمول تقودكم وقيود العبوديّة تتمسّك بأقدامكم وأجنحة الموت تصفّق فوق رؤوسكم»[2].

هؤلاء أبناء في ظلال آبائهم، وعلى أرضهم ومدارج سعيهم عينها، تمهر نشاطاتهم جميعاً بطابع موحّد، أقلّه اطمئنان إلى الحدّ الأدنى من العيش في رواتب ثابتة، ونسقٍ لا يتغيّر يحمل إليهم زهواً باستمرار، وتباهياً بنفوذ وهميّ كلّ حينٍ بسبب هذا الثبات.

■ ويطالعنا الأدب الجبراني بسوى هؤلاء الأبناء في ظلال والديهم، ولكن من غير المطمئنّين إلى حاضر، وغير الثابتين في حلم استمرار مرضٍ، وإن على حساب ذواتهم الإنسانية، فيتعدّى الموقف البنويّ حالة الاستسلام والتخوير والخنوع، ويغدو موضوعاً للتواطؤ بين قوى غيبيّة عليه، وعلى نحو فاجع. والمثل قطعة «في ظلام الليل» من كتاب «العواصف» أيضاً: «في الهزيع الأوّل من الليل ينادي الطفل أمّه قائلاً: يا أمّاه أنا جائع. فتجيبه الأم قائلة:

---

(١) من المؤكد أن الوظيفة، كإطار اجتماعي وقانوني هام في الحضارة، تترك في شخصيّات الناس وحضورهم الإنساني آثاراً كبرى، هو تأثير على قدم المساواة مع العصر والتعلّم والمحيط الاجتماعي، التقليدي المغلق في حال هؤلاء الأبناء، فيصبح الإنسان عندئذ كمن يؤدي دوراً اختاره، أو فرضته عليه الحياة.

Voir: Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٢) «العواصف»، «أبناء الآلهة وأحفاد القرود»، ع. س.

اصبر قليلاً يا ولداه. وفي الهزيع الثاني ينادي الطفل أمّه ثانية قائلاً: يا أمّاه أنا جائع فأعطيني خبزاً. فتجيبه: ليس لديّ خبزٌ يا ولداه»[١]؛

فهي أمّ لم تثر لتسرق، لتقتل، أو تندفق شراهة عينين حيث اعتراض أو شتيمة أو رغيف، فانتقل عجزها أمام القوى غير المنظورة، من جيلها إلى جيل ولدها، وإذا بالأبناء في الأدب الجبراني، كوالديهم، يدفعون إتاوة حياة بائسة أملت ظروفها إرادة لا تُعقل، ولا يقابلون إلاّ بجبروت موت ينفّذ قدراً مرسوماً بساديّة ما ورائيّة قاهرة، يمرّ «بالأمّ وطفلها ويصفعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق»، ويظلّ سائراً محدّقاً إلى الشفق البعيد[٢]؛ وكهذا المرور يمرّ في المساء برجل وزوجته وصغاره فيجدهم راقدين، وقد ماتوا موتاً، فيضحك ثم يسير محدّقاً إلى الشفق البعيد. ويختم جبران اللوحة: «في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأمّ ابنها والزوج زوجته والمحبّ حبيبته. وعندما تتمازج أصواتنا وتتعالى إلى كبد الفضاء يقف الموت هنيهة ضاحكاً منّا مستهزئاً بنا ثم يسير محدقاً إلى الشفق البعيد»[٣]؛

حالة بنويّة في ظلّ أهلين، بيدهم تبعة كلّ حدث يصيب أبناءهم، ولكنها تنزل الإنسان، مالك قدره في الظاهر، والداً وابناً على حدّ سواء، منزلة الفاعل والممثل في آن، ينتج ويمثّل مأساته بمعايشته متناقضات وضعه[٤] حتى انفجار

---

(١) كتبت أيام المجاعة، في الحرب الكونية الأولى. وهي كسابقتها «أبناء الآلهة وأحفاد القرود»، مقالة بخواطر، ولكنها كمثلها بسرديّة قصصيّة، انتمى بها الكاتب إلى وجع الأمة بصيغة المتكلم المجموع، فأسقط الشكل اللغوي مسافات وأسفاراً، وكانت القطعة همسة النفس إلى النفس بأن الإنسان، كل إنسان، من هذه الأرض، مهما باعدت بينها أمصار ومطامح.

(٢) «العواصف»، «في ظلام الليل»، ع. س.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الكلام لجان بول سارتر.

Voir: Robert Lorris, «Sartre Dramaturge» Nizet, 1975.

شخصه باختياره الجنون حلاً للصراع[1].

هكذا يتساوى والدون وأبناء داخل مسرح الحياة، بمرّة البؤس الإنساني على جراحهم، وبنوع من الاعتياق في الكائن نفسه، وهو مغشيٌّ عليه أمام القوى الجبّارة غير المنظورة، تهزأ من وجوده وجهاده، آن «كل ما هو من الإنسان سيأتي إلى مائدة الآلهة الخالدة»[2].

■ وفي «المجنون» نموذج بنويّ آخر مستسلم في المدى الكوني لمثل هذه القوى غير المنظورة، كامنةً في أغوار الكائن. تقول الإبنة لأمّها في «بين هجعة ويقظة»، وهما نائمتان: «أيتها المرأة الممقوتة والحيزبون الأنانية الرثة القائمة بيني وبين ذاتي الطليقة، يا من تودّ أن تكون حياتي صدى لحياتها الرثة البالية! ألا ليتك تهلكين!» وإذ يصيح الديك وتفيقان من نومهما وهما بعد في الحديقة ماشيتان، تقول الأم بلطف: «أذاك أنت يا حمامتي؟» فتجيب الإبنة بحلاوة: «نعم أنا ابنتك يا حنونتي!»[3].

هو الوجه الآخر للحقيقة الضائعة، تستمر متراثية، ولا صراح، متوارثة من غير أن تدخل دائرة الضوء أو يطولها تعليل. وإذا في مداها هروب ممّا يشبه الانفصام بين القول والفعل، وهو واقع بالفعل بسبب غفلة كليّة من جانب

---

(١) والاختيار جاء بواسطة جبران نفسه، وبصيغة المتكلم المجموع، فجمع المأساة والملهاة فوق خشبة واحدة، وكلتاهما مادّتها في تلك الرغبة الإنسانية في الارتفاع فوق حدود الذات والآخرين لاكتساب قيمة ما، وكلتاهما تعرفنا على أن هذه الجهود آيلة إلى الفشل، إلاّ أن الوجه المأساوي هنا يركّز على عظمة هذه المحاولات الفاشلة، في حين أن الوجه الملهاوي يبرز المضحك فيها والادعاء. إنه المضحك المبكي.

(Voir: François Germain, «L'Art de Commenter une comédie», Foucher).

(٢) من كلام الإله الأول في كتاب جبران «آلهة الأرض». (راجع دراستنا إيّاه في منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨).

(٣) «المجنون»، «بين هجعة ويقظة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

الكائن. وهي عاهة يعيشها الولد، كما أبوه، وفي ظلّه، اعتياقاً كيانيًا ملازماً لنسم الحياة، بصرف النظر عن حضوره في نطاق الوعي أو عدمه.

وهذه الإبنة تكبت في أعماقها مشاعرها الحقيقيّة حيال الأمّ، هي من تنشأ في ظلالها مغيّبة الشخصية، ومقيّدة بأسلاك من عاطفتها المستأثرة بها فرصةَ حياة جديدة تمنحها علاوة الامتداد في الزمان والمكان؛ فتحاول نائمة تبيان معالم الطريق التي تسلكها، محافظةً منها على تقديرها لشخصها[١].

■ والابن الوحيد في «الطموح»[٢] لمثل هذه النشأة في ظلال الوالدين. فما إن يرى أبواه، وهما صاحب الحان وزوجته، تبذير الحائك والنجّار وحفّار القبور، حتى يلتمس هو وزوجته من الله أن يرزقهما كلّ ليلة بمثل هؤلاء، ليعفى ابنهما الوحيد من خدمة الحانة ويصير قسّيساً.

حالة بنويّة يُقرّر معها إعلان الخطإ أساساً لكلّ ذي قيمة في الحضارة المعاصرة، وهي ردٌّ لكلّ قداسة أو صلاح في الرهبان والقساوسة إلى عنصر شرّ يسهم في قيامة الخير فيهم. وهكذا يستمرّ الكون غير معقول، ويتمادى جنون الإنسان بجنونه، محمولاً إلى جيل الأبناء بجيل آباء يحرصون على أن يرسموا بأنفسهم غد أبنائهم.

والعقلاء الوحيدون، ربّما، في هذه القطعة، هم الثلاثة: الحائك والنجّار وحفّار القبور، ينفقون المال من غير حساب، ويرقصون طرباً ثم ينصرفون وهم يغنّون ويضجّون. فهم للقناع، الوجه الآخر، يخفي في حاضرهم رصانة الحياة

(١) آدلر يرى عكس ما يراه فرويد في تفسير الحلم، فهو له، ليس تحقيقاً لرغبات طفولية، بل هو محاولة بسيطة مهيَّأة لاكتساب الأمان، أو هو إظهار للطريق التي على الإنسان أن يسلكها للمحافظة على تقديره لشخصه.

Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٢) «المجنون»، ع. س.

وجهومة الفكرة الاجتماعيّة[1]، فيرافق جلساتهم تهريج، ومهازل هي تغييب في الحقيقة للحدث الواقع، فلا يُواجهون بوازع خلقي يصدر من أعماق نفوسهم إذ هم يتاجرون بالموتى.

■ و «اللغة الأخرى» من الكتاب عينه شاهد آخر، وفيها أن المجنون المولود رفض، بلغة العالم الذي أتى منه، كلاماً من المرضع في اليوم الثالث من عمره ينسب إليه السعادة، وكلاماً من الكاهن بأنه أصبح مسيحيًّا، وادعاء العرّاف بأنّه سيصير زعيماً. ولكنّ هؤلاء لم يفهموا كلامه الذي هو لغة العالم الذي جاء منه. وفي الثالثة والثلاثين لاقى العرّاف أمام الهيكل، وأعلمه بأنه انخرط في سلك الموسيقيّين. فنسب ذاك إلى نفسه نبوءته بذلك. فصدّقه المجنون لأنه هو نفسه قد نسي لغة العالم الذي أتى منه[2].

فإذا بالمجنون، قُبيل تشبُّث جذوره بأرض العمر، هو والدنيا على طرفي نقيض، لأنه بلغته وحزنه وديانته واختياره يصغي إلى اللغة الأخرى، ويعمل بهديٍ من معرفة سابقة. ولكنّ ترعرعه في عالم الحضور السفلي[3] هو الموت حتى نسيانه اللغة، لغته الأصلية، وانجراره في سبل الناس، آبائه، مدفوعاً بمعارفهم الجاهلة، فيجنّ مرتين: مرة أولى بغربته وسطهم، ثم بخيانته جنونه العاقل.

هكذا تتئم اللحظة الغافلة زلات وانحرافات، ويتلبّس الكائن الابن وصمة آبائه، مصدّقاً أقنعتهم التي صيغت في الأساس لتكون لجميع الوجوه، ولا يُرى

(١) قول استوحيناه ممّا قيل في بعض أدب «رابليه».

Voir: Mikhaël Bakhtine, «L'oeuvre de François Rabelais et la culture populaire au M.A. et sous la Renaissance», Gallimard, France, 1978.

(٢) «المجنون»، «اللغة الأخرى»، ع. س.

(٣) راجع الجزء الثالث من هذا المجلّد «الآباء والأبناء في الأدب الجبرانيّ».

في الكون غير مواسم الهجرة والتحوّلات القسريّة، من الأبناء على خطى الآباء، خارج بيئاتهم الطبيعيّة، وهي هنا بيئة مغايرة لبيئة القناع في عالم العبور من النقص إلى الكمال، ويجد الواحد منهم أنّه مضطرّ للانضواء في موكب الساعين وراء الأمان والقدرة، ولإيجاد هدف تستأهل معه الحياة أن تعاش[1].

■ ويتوضّح أسرُ الأبناء هذا في سجن الآباء داخل لوحة «المساكن» من كتاب «النبي». قال المصطفى ـ جبران إذ دنا منه بنّاء يسأله عن البيوت: «. . . إنّ بيتك هو جسدك الأكبر. . . ولكن هذه جميعها تمنّيات لم تحن ساعتها بعد، لأن آباءكم وجدودكم إذ خافوا عليكم الضياع والضلال جمعوكم معاً لكي تكونوا قريبين بعضكم من بعض. وسيبقى هذا الخوف مجمعاً لكم زمناً بعد. وستظلّ أسوار المدينة فاصلة مواقدكم عن حقولكم ولكن إلى حين»[2]. فأبناء أورفليس ينتمون أساساً إلى الكون، الجسد الأكبر، فرعاً لأصل وقطرة لبحر، ولكنّ الآباء نشّأوا الأبناء، فتخلّق هؤلاء بأخلاق حضارة الآلة ومدنيّة الطين، فصاروا عبيداً للرفاهية «لأنّ التحرّق للرفاهية ينحر أهواء النفس في كبدها فيرديها قتيلة، ثم يسير في جنازتها فاغراً شدقيه مرغياً مزبداً»[3]، وقشور الرفاهية تلك، وهي إضافات على الجوهر الإنساني، تلهي الإنسان بمصطنعات الإنسان، فينصرف عن الطبيعة، مصطنع الله.

هكذا، مرة أخرى، تخرج المعضلة، معضلة توارث الأبناء لمكتسبات الآباء من حظوظ الجهل والنسيان والغباء والتخوُّر، من نطاقها الأُسري إلى فناء الكون، ويغدو هؤلاء الأبناء ضحايا انحرافات خاطئة في أجيال والديهم يرفد

(١) Voir: Adler: «le tempérament nerveux», op. cit.

مع العلم أن حياته هي حياة اغترابيّة من منطلق العقيدة الجبرانيّة.

(٢) راجع دراستنا كتاب «النبيّ» منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٣) المصدر نفسه.

بعضها بعضاً، وتترسّب آثارها غشاوات تحجب عن نفوسهم السلام، «وهو القوة الصامتة» التي تظهر ذاتهم الشديدة العزم المستترة في أعماقهم، والتذكارات، «وهي القناطر اللامعة التي تصل قنن الفكر الإنساني بعضها ببعض»، والجمال «الذي يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة إلى الجبل المقدَّس»؛ حتّى ليقتضي الأمر رحلة خلاصيّة تتصفَّى في خلالها نفوس الأبناء من أخطاء الآباء، فتتنامى معارفهم وتتمكّن مداركهم من فهم الحقائق، «وسيبقى هذا الخوف مجمعاً لكم زمناً بعد» يقول المصطفى ـ جبران[١].

■ لكنّ من الآباء الجبرانيّين من يعي خطورة ما يقترف بحقّ الحقيقة هذه في نطاقها الكوني. فاسمعه يقول في كتاب «رمل وزبد»: «بعض أبنائنا كالأعذار وبعضهم كالذنوب»[٢]. فيقرّ هؤلاء بأنَّ ثمة خطأً واقعاً في رحلة الأزمنة، جيلاً بعد جيل، والنواة لنبات وجذوع وأغصان وثمار، فتأتي المواسم التابعة، إمَّا مسحة عزاء تخفّف من غلواء ما اقتُرف، أو يتفاقم الأذى ويلد الشرّ شرّاً من مثله.

ومع ذلك، ماذا تكون تبعة الأبناء أمام محكمة الحياة؟ إنّهم، في الحق، النتيجة للسبب، يرثون الفعل الأوّل صادراً عن آبائهم، فيترجمونه مكرهين إلى حركةٍ في ساح التاريخ الإنساني، مستبقين في الوقت نفسه على العلاقة الوطيدة بين مبتدئه ولا نهائيّته الأبديّة، لتتوالى، من بعدُ، السقطةُ ـ الميراث كدوائر الماء، حتى تغمر الوجود ذنوب وأعذار، وينسى جيل من الأبناء أنَّه على خطإٍ في ما يتركه لأنساله.

■ وتبلغ المسألة التخويريّة أوجها من الأذيّة عندما يرافقها عمدٌ وسابق

(١) «النبيّ»، «المساكن»، ع. س.

(٢) راجع دراستنا «رمل وزبد»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨، رقم 281.

تصوّر وتصميم، فتخرج عندئذ من حضورها الغيبي كحالة متوارثة بنسقٍ قدري في معظم الأحيان، إلى نوع من التحدّي الأخلاقي لتوازنٍ موعود تفيد منه الجامعة الإنسانيّة. والمثل من كتاب «يسوع ابن الإنسان»[1].

ففي شهادة «سالومة إلى صديقة لها» تحكي الراقصة الغانية، قاطفة رأس يوحنّا المعمدان على طبق من فضّة، حكاية إعجابها بيسوع وحبّها له، فتظهر توبة على ما اجترمت إذ قتلت صديقه؛ وأنّها كانت واثقة من غفرانه فيما لو ذهبت إليه. ولكنّ أمّها كانت تمنعها وكانت هي خجولاً. تقول: «وكنتُ أودّ أن أقول له: قد قتلت صديقك في ساعة هوًى في نفسي، فهل تغفر لي خطيئتي وأنت الرحوم الصفوح؟ أفلا تحلّ قيود شبابي من عماوة عملي لأمشي حرّة طليقة في نورك العظيم؟»[2].

وكانت لتفعل لولا أنها كانت خجولة، ولو لم تمنعها أمّها الذهاب إليه كلّما دعاها حنينها إلى السّير وراءه. والخطورة في حالها، وهي الإبنة في ظلّ والدتها، أنّها لم تحفظ في قلبها كلامها المنتقص من رسالة يسوع، وأحبّته سرّاً، وكان حبّه يمنطق نومها باللهب؛ وعندما مضى، ذهب بذهابه شيء عظيم كان فيها، وتظنّه شبابها هي قد ذهب منها «لأنه لم يطق أن يقيم هنا بعد أن رأى إله الشباب قتيلاً»[3].

نموذج آخر من أبناء في ظلال والديهم، تتّسع هوّة بين سلوكيّتهم المشبوهة والمعتقد المغيَّب في ضمائرهم، وعلى نحو فاجع. فربّ إيماءة تشجيع من والدين تشرّع أبواب السنين لانتصارات غير منتظرة على صعيد الإنسانيّة جمعاء! وكم من لحظة تعنيف في غير مكانها تؤخّر لأدهار وصول المدّ المقدّس إلى شواطئه السعيدة!

---

(١) راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) المصدر نفسه، «سالومة إلى صديقة لها».

(٣) المصدر نفسه.

فسالومة استقالت من نفسها واختارت، ولكنّ اختيارها جاء خاسراً وإن ادّعت هي الربح باعترافها. فهي لم تناضل دفاعاً عن صفيّها، لا يوم عنّفتها أمُّها على حبّه، ولا يوم قامت أمّتها بأسرها إلى صلبه، فخابت اختياراً، وآثرت استمرار السير في زمن أمّها بدلاً من أن تستقلّ عنه، فظلّ الحبّ معها مظهراً من مظاهر الترف في قصور النبلاء.

وما أمنياتها إلاّ من باب الانتماء إلى السعادة، فتجمّل لها الواقع الإنساني إذ ترسمه على شاكلة المثال، بشفافية مراهقة لا تلمح سوى الأمان والرضى في مقبل الأيام. تقول في يسوع: «إنني واثقة بأنه كان قد رأى فيّ موضوعاً من مواضيع تعاليمه، لأنه لم يكن في العالم من وادي مجاعة لم يعبره، ولا صحراء عطش لم يقطعها»[1]، فإذا بأمنياتها أحلام خاصة بها كفرد، فتعكس صوراً من ذاتها، وأحلام ورثتها كعضو في مجموعة أجيال، نلمح في خيالاتها الإنجازات الرائعة للتقدُّم الإنساني[2].

وتوقَّف كلُّ شيء، دفعة واحدة. طغى كلّ الآباء على الومضة المتبرعمة في الوعي الإنساني، واعتاقت شراسة جيل عتيق نور شمعة إنسانيّة لم تصمد، بل لم تناضل أساساً من أجل وصول.

إنّهم الأبناء في ظلّ آبائهم، معهم كمثل ما تنقل النار عدواها إلى ما يجاورها، أو كمثل ما تمتزج القطرة إذ تلامس المنساب من السوائل، فيتواصل بهم نمط السائد من منظور الحياة وخفيها، على غير إخراج إلى ما يجدّد المسيرة الإنسانيّة بالمدهش الفارق، وينفحها روعة الاختراق للرتيب المتشابه من الأحداث والمواقع.

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «سالومة إلى صديقة لها»، ع. س.

(٢) Voir: Freud, «Introduction à la psychanalyse», P.B.P., 1978.

وفي حصاد جامع لخصال هؤلاء الأبناء، نسجّل مرّة أخرى:

ـ أنّ بعضهم تعتمل في نفسه ترسّبات القهر والكبت نتيجة خضوعهم القسريّ لنمط حياة مضطربة، ونسق تربية ضاغطة؛

ـ وبعضهم يُرجئُ المواجهة ويستقيل من واجب التصدّي بالنضال، فيقبع عند حائط مبكى هو المتبقّي له من أرض أحلامه الموعودة؛

ـ وبعضهم تافه، وهمّهم طمأنينة أسريّة، يتنقّلون إليها بين عبوديّتين: عبوديّة في داخل المنزل، وعبوديّة في مضمار العمل؛

ـ وبعضهم يتساوى مع آبائه بمرّة البؤس الإنساني على جراحه، وهو مغشيّ عليه أمام القوى الجبّارة غير المنظورة، أو تلك الكامنة في أغوار الكائن بغفلة كليّة من جانبه؛

ـ وبعضهم يتلبّس وصمة آبائه، فيضطرّ الابن للانضواء في موكب الساعين وراء الأمان والقدرة، إيجاداً لهدف تستأهل معه الحياة أن تُعاش؛

ـ وبعضهم يرث المسألة التخويريّة عن آبائه، مؤيّدة من جانبهم بعمد وسابق تصوّر وتصميم، فتصبح تحدّياً للأخلاق؛

ـ وقد يطفئ الجيل العتيق نور شمعة إنسانيّة في الأبناء، فيتوقّف مع هذا الانطفاء كلّ احتمال لتغيير.

وإذا كان لنا أن نطلع الغاية الأساسيّة التي تتمحور حولها جهود هؤلاء، فإننا نلقاها في الحاجة إلى الاحتماء المرادفة في بعدها الأخير للشعور بالكفاية بغية التمتّع بالحياة.

ومهما يكن من أمر فإننا نشير إلى أنّ السعي الحياتي لهؤلاء الأبناء على هذا الشكل الاجتماعي المحافظ في وجهه العيلي خصوصاً، إنما يتم بالإرادة، ولكنها إرادة منقولة من جيل الآباء إلى بنيهم بعدوى العيش والمساكنة

يجري، فتستمر مسيرة الموت، محدّقاً إلى الشفق البعيد: «في ظلام الليل، وليس لظلام الليل نهاية، نناديكم أيّها السائرون في نور النهار، فهل أنتم سامعون صراخنا؟»[1].

■ حتى إذا قرأنا «بين هجعة ويقظة» من كتابه بالإنكليزية «المجنون»، بلغ الخضوع حدّه الأقصى لأنه مقترن بمعنى القبول الذي لا بديل منه ولا خيار سواه. فالأم وابنتها تمشيان وهما نائمتان، وفي النوم ترفض الواحدة الأخرى وتراها عدوّة. «وفي تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معاً من نومهما وهما بعد في الحديقة ماشيتان. فقالت الأم بلطف: أذاكَ أنت يا حمامتي؟ فأجابت الإبنة بحلاوة: نعم أنا ابنتك يا حنونتي»[2].

فتغرق الأشياء الحميمة، كما المعلن منها، في الجنون، وهو هنا ليس سوى وجه آخر للحقيقة الضائعة التي تبدو كأنها تضحك من جديّاتنا في النور الصراح. ويقينُنا أن جبران قد تأثّر في هذه اللوحة بإنجازات الفرويديّة وفتوحات علماء التحليل النفسي في تفسيرهم السلوك الإنساني. ونراها مذاهب تقوّي قناعة جبران بأنّ العالم يجري في غفلةٍ منّا، ونحن لناموسه خاضعون، حتّى إذا دخلنا دائرة اليقظة والإلمام والمعرفة، لا نجد بديلاً من إيثار الغفلة، مرة

---

(١) «العواصف»، ع. س. ونشير هنا إلى أمرين: الأوّل أن قمة الانتماء إلى وجع الأمة هي بهذا المتكلم المجموع، فيُسقط الشكل اللغوي مسافات وأسفاراً. وهي من جبران همسة النفس إلى النفس بأنه من هذه الأرض مهما باعدت بينها أمصار ومطارح ومطامح. والأمر الثاني: هو رمزية التعبير في قوله «السائرون في نور النهار»، وتقضي بأن يُعنى بهؤلاء سكّان السماء، أولياء وقدّيسين، وقد يعني بهم من ابتسمت دنياهم من أمم الأرض.

(٢) راجع دراستنا كتاب «المجنون»، ع. س. ونشير إلى أن جبران يتعدّى بقوله «صاح الديك» مسألة التوقيت المسطح للأحداث. ففي صياح الديك إحالة على نبوءة يسوع بإنكار بطرس معرفته، ثم على ندمه وبكائه إذ فعل (راجع متى ٢٦: ٣٤، ٧٤ ـ ٧٥).

تلهج به كقضيّة حياة. فماذا تكون ظروف هؤلاء الأبناء وتوجّهاتهم؟ وبأيٍّ من عوامل النفس والزمن يأتمرون؟

ب ـ أبناء في ظلّ آبائهم: لتثوير وتغيير:

هم المغتذون عناصر الكبت أو الحلم أو الشعور بالإهمال والتململ من الأوضاع بشكل عام، والمستقيلون في الحاضر والظاهر من الجهد العام للأمّة وللإنسانيّة، ليؤلّفوا معاً ذاك الخزّان الهائل من الطاقات النفسيّة والشعوريّة المشحونة التي بواسطتها ينطلق نفير التغيير في تاريخ الشعوب.

ولئن بدوا على تباعدٍ أحياناً بسبب من نشأة الحاضر الخاص بكلّ منهم، فإننا لنراهم لتقارب نتيجة التقاء رؤاهم المستقبليّة. وما تفرّقه المنازل أو المراتب أو التصنيفات الاجتماعية، في وقت من الأوقات، قد تزيله الظروف، فتتداخل الأسباب الماديّة والمعنويّة لتخلق حالة نفسيّة بل عالماً ذا سمات خاصة، أقلّ ما يقال فيه إنّ له نبض الشعب وحرارة البحث الدؤوب عن معانٍ جديدة في الحياة.

وهؤلاء الأبناء في ظلّ آبائهم لتثوير وتغيير، منهم اللقيط تقذف به يد الإقطاع في مفاوز العمر، والإبنة الحالمة بغدٍ أكثر أماناً ونظافة، والطفل الخائف جبروت العناصر، والصبية المتألمون لمسعاهم وراء رغيف في معجن الأغنياء والرهبان المنحرفين وهو، أساساً، جنى أُسرهم، وكذلك منهم الواقفون في شمس الحقائق تُلهب أفئدتهم بالنور الصراح مستحثّة فينشرون قبسه في كلّ الأرجاء، ومنهم الصبيّة تجدل حلم أيّامها بعصائب من فيض إله ابن الإنسان، وببشارة من لدنه منقذاً ومفتدياً كلّ الأمصار والمراحل.

وهؤلاء، وإن غير منتجين بالمعنى الماديّ الصرف للكلمة بحكم وجودهم في ظلال والديهم، وخارج نطاق النشاط الاجتماعي والإنساني الفاعل داخل الأمّة والجامعة البشريّة؛ نراهم مرصودين لتجميل المسيرة الإنسانية، ذات يوم

يُصلحون[1] بإشعاعهم محيطهم، فيبلّغون بسلوكيّتهم رسالة ما أو يعيدون صياغة الأشياء.

هؤلاء الأبناء المكبَّلون، غرَّة حيواتهم، بقيود اصطنعتها لهم الدنيا بأشواكها وعوائقها، نرى فيهم، مجتمعين، إيماءات مهموسة أو مجهورة، بحالات انتفاضات مستقبليّة تتهيّأ خلف سجف الأيّام.

■ ففي كتاب «عرائس المروج» يبرز فؤاد بن مرتا البانية أوّل هؤلاء الأبناء في ظلال والديهم، تعدّهم أحضانهم الباردة لوعد تثوير وتغيير، كمثل ما تنهض العاصفة متجمّعةً من أسفل الوادي، الدرك المتدنّي في أسفل سلالم المجتمع والمراتب الإنسانيّة.

فهو وحيد أمّه التي أغواها فارس غنيّ، فانحدرت مع جرف المدينة الفاسد، وهو في أحشائها، وصارت فريسة بين أظفار التعاسة والشقاء. فدرج فؤاد، ولدها، في ملاعب الكبار يبيع الأزهار وينسى عمره؛ اهتماماته لقمة يتأوّد بها، ودواء لأمه العليلة، وكساء يأمن به شرّ المرض، واستفهامات كثيرة حول العار والوحدة والأبوّة والفقر والثروة وسواها، وكلّها أسئلة ـ كلمات كالنّظارات تبصر من خلالها الحقيقة[2].

يقول جبران في تقديمه، بعد أن قابله ذات عشيّة من خريف سنة ١٩٠٠، وهو على شرفة منزل يتأمل العراك المستمرّ في ساحة المدينة: «... ثم ابتعتُ

---

(١) لأنهم يغدون طرازاً أعلى للتنوّر الإنساني، وللتجرّد المرادف للمثل العليا في البعد الشعوري للكلمة، وقد يتبوّأون لاحقاً سدّة الريادة داخل المحافل الاجتماعية والإنسانية في سعيها التاريخي.

Voir: François châtelet, Encyclopédia universalis, Vol. 9.

(٢) Philippe D'Iribarne, «La politique du bonheur», op. cit.

بعض زهوره وبغيتي ابتياع محادثته لأنني شعرت بأنّ من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوي على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيّام، وقلّ من يهتمّ بمشاهدتها لأنها موجعة» وهو «مثل أترابه الفقراء لم يتعوّد غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً إلى صبية الأزقّة كأشياء قذرة لا شأن لها»[1].

هذا الصبيّ، النابت في مساكب الألم والفاقة والشذوذ، يجسّد ما يُسمّى «الشكل المأساويّ للاستقالة»[2] من الوجود، وهو في حاضره يتنامى في أعماقه شعور عميق بانتفاء العدالة، فيربى على مبدإ الفائدة الظرفيّة[3]، كأنجع الوسائل للاستمرار في العيش، والكسب الآنيّ المضمون، ولو تملّقاً وموالسة[4]، وهذان الكسب الآني والفائدة الظرفيّة تصغر حيالهما كلّ التعليلات الخلقيّة، وتغدو القوانين والمكتسبات التراثيّة في المجتمع معهما ساقطة من التداول بل بلا قيمة على الإطلاق[5].

لكنّه يوماً، وبعد تدخّل جبران، ذاكرة الحق في القصّة، وانحسار

---

(١) راجع دراستنا «عرائس المروج»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨. ونشير إلى أن في الموقف إصراراً من جبران على ربط الأدب بالحياة، وعلى اقترانه بمادة شرحيّة وافية، قد تخفض من قيمة الفن فيه، ولكنها تدعو القارئ باستمرار إلى أن يبقى في حضور مع مجتمعه وعالمه.

(٢) تعبير لأندريه مالرو.

Voir: Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٣) Henri Baruk, «La psychiatrie sociale», op. cit.

(٤) بخلاف الصورة المستدرّة للعطف التي قدّم بها جبران «صاحب الصوت الضعيف الذي يخفضه الذل الموروث والانكسار».

(٥) ففؤاد، هو الآخر، يشعر بينه وبين نفسه أنه ضحيّة نظام اجتماعي وتربويّ قائم على الفوارق والامتيازات والقهر، فيُدفع دفعاً بشرط دفين هو العطش إلى السيطرة وامتلاك لعبة الزمن.

Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

المشكلة الشخصيّة على يده، مفسحةً في المجال للمشكلة الاجتماعيّة[1]، قد يصبح فؤاد بن مرتا البانيّة قلباً رؤوفاً من جديد، كما ارتآه جبران، وداعية تغيير في محيطه ومجتمعه.

غير أنّ هذا التغيير لن يتمّ من دون إراقة دماء على الأرجح. فمرتا موتورة، وجرحها إن هو إلاّ جرح الحقيقة المطعونة في المسرح الكوني. وأنّى لهذه الحقيقة أن تستردّ اعتبارها إلاّ بعد قطع يد الطاعن وتحطيم آلته! تقول مرتا البانيّة في اعترافها لجبران قبيل موتها[2]: «سوف ينظر الناس إلى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين: هذا ثمرة الإثم، هذا ابن مرتا الزانية، هذا ابن العار. . . لأنهم عميان لا يبصرون، وجهلاء لا يدرون أنّ أمّه قد طهّرت طفولته بأوجاعها ودموعها، وكفّرت عن حياته بتعاستها وشقائها. سوف أموت وأتركه يتيماً بين صبيان الأزقّة وحيداً في هذه الحياة القاسية، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله إن كان جباناً خاملاً، وتهيج دمه إن كان شجاعاً عادلاً، فإن حفظته السماء وشبّ رجلاً قوياً ساعد السماء على الذي جنى عليه وعلى أمّه، وإن مات وتملّص من شبكة السنين وجدني مترقّبة قدومه هناك حيث النور والراحة!»[٧].

هي رأفة، إن ولدت، قد يغمر بها فؤاد بن مرتا الضعفاء أمثاله، أبناء

---

(١) يذكّرنا جبران في هذه الالتفاتة إلى الطفولة بعملين عالميين: ـ «الأخوة كرامازوف» لدستويفسكي حيث يقول ايڤان: كل ما في العالم من تآلف لا يساوي الدموع في عيني طفل. ـ و «الطاعون» لألبير كامو حيث يقول الدكتور ريو رادًّا على الأب الذي يدعوه إلى واجب محبّة ما لا يفهمه: كلا. . فأنا لديّ فكرة أخرى عن الحبّ، وسوف أرفض حتى الموت أن أحبّ هذه الخليقة حيث يُنكّل بالأطفال.

(٢) المُغرب هنا هو هذا الحرص من جبران على أن يكون ذاكرة الأزمنة والشعوب في هذا الوقت المبكر من حياته. ونحن، بصرف النظر عن مخالفته أصول الفن القصصي بهذه اللوحات الوعظية، قد نرى في صنيعه ميلاً إلى الكهانة، انطلاقاً من أن مرتا اعترفت أمامه، فحلّها من خطاياها بالشفقة، غفران المسيح لخطايا الزانية.

(٣) «عرائس المروج»، «مرتا البانيّة»، ع. س.

الظلام المنير في يوم أي الطبقة الأحبّ إلى قلب جبران[١]، طالعةً من أتون الوجع الإنساني، ومظهره هنا صبيان الأزقّة.

ولعلّ في خاتمة «مرتا البانيّة» ما يضيء التوجُّه الأخير لشخوص هذه الحكاية. يقول جبران: «عندما جاء الفجر وضعت جثّة مرتا البانيّة في تابوت خشبي، وحُملت على كتفي فقيرين ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة. وقد رفض الكهّان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا أن ترتاح عظامها في الجبّانة حيث الصليب يخفر القبور، ولم يشيّعها إلى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علّمته الشفقة»[٢].

إنّها الطبقة الدنيا في المجتمع، ومنها هنا فقيران ولقيط، تتحالف مع الكاتب لنضال ضدّ الاستغلال ومظاهره الاختلاليّة في نطاق المجتمع والحياة، على أساس الحق المشروع في الدفاع عن النفس[٣]، وليس كمثل ذوي المؤهّلات الفكريّة والفنيّة من يقف حقاً في وسط الصفوف، ما بين الطبقات الغنيّة وطبقة العامّة، لأنهم ليسوا هؤلاء وليسوا بأولئك، فطبقتهم تلامس الأولين في أعلاها، مطامح ومطامع[٤]، وتتداخل مع الطبقة الدنيا تداخلاً يحتّمه

---

(١) تعبير لجبران، راجع قسم المقدّمات من دراستنا «العواطف»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) «عرائس المروج»، «مرتا البانيّة»، ع. س.

(٣) ردّة الفعل العاطفيّة المرتقبة يوماً لدى فؤاد ورفاقه من صبيان الأزقة والفقراء، مضافةً إلى شعور بالغبن وانتفاء العدالة، هي القوة الحيّة الفاعلة التي تركّز عليها الماركسيّة لإثارة روح الامتعاض والثورة في الإنسان المتألم.

Voir: Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٤) لذلك يجزم بعضهم بأن الطبقة المتوسطة هي ذات نزعات مناوئة للرأسمالية بشكل عام، ومن الممكن أن تتحالف إلى بعيد مع الطبقة العمّالية في نضالها ضد الاستغلال.

Georges Bourgin et Pierre Rimbert, «Le socialisme», P.U.F., Que sais-je? No 387, 12ème édition 1976.

تنامي ثروات الأغنياء وامتصاصهم القدرات حتى الاحتكار.

ولكن. . أيّ حلٍّ هو هذا منطلقاً من مبدإ الثورة الدائمة على أنماط الثبات في حقول السياسة والطبقات، ما دام سيؤدي إلى ثورة من مثلها إذ تثبت الأولى وتستكنّ، حتى ولو متولّدة من نظام انقلابيّ تغييريّ مصلح؟

لعلّ جبران في موقفه الأخير أمام المقبرة ـ الحقل المهجور، لغير تخوين وتجريم وإدانة، مكتفياً بقصّ وعرض وإيماء، قد ترك فرصة الإصلاح متاحة لقوى أكثر اقتداراً من قبضة تشرَّع في وجه طاغية، فتفرض على الإنسان مسافةً يجتازها داخل الزمن الإلهيّ المقدّر، وفي تخطٍّ للحضور داخل الزمن النسبيّ، توصُّلاً إلى محطة أخيرة تقدّرها الحكمة العظيمة تقديراً[1].

■ وفي «الأرواح المتمرّدة» نموذج آخر من هؤلاء الأبناء في ظلال والديهم، على ارتقاب منهم لتثوير وتغيير. إنّها مريم بنت راحيل أرملة سمعان الرامي.

فهذه الصبيّة الجميلة الهادئة التي تشاطر والدتها الأتعاب وتساهمها أعمال البيت[2]، قد انقلبت فشعرت بوجود قوّة علويّة تبعث الحياة والشعاع إلى قلبها، مذ سمعت في تلك الليلة المخيفة «صوتاً أعمق من هزيم الريح وأمرّ من عويل

---

(١) قد تكون فكرة التقمص قد بدأت تبذر نواها داخل التربة الجبرانيّة في هذه المرحلة المبكرة من حياة جبران، وتتجذّر لمبدإ فلسفي تُضاء به أعماله كلها. في كل حال نرى ذلك بوضوح في لوحة «رماد الأجيال» من الكتاب نفسه «عرائس المروج». وراجع الجزء الثالث من هذا المجلّد «الآباء والأبناء في الأدب الجبرانيّ».

(٢) الكلام لجبران. راجع دراستنا «الأرواح المتمرّدة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧.

العاصفة»[1]، هو صوت خليل الكافر أو الأخ مبارك الملتجئ إليهما في بريّة الثلج، وقد أشرف على الهلاك.

وراحت مع أمّها تستطلع حقيقة طرده من الدَّير «وفي عينيهما أشعّة متموّجة مع حبّ الاستطلاع»[2]. مريم هذه، وهي اليتيمة التي قتل أباها جور الشيخ عبّاس، على شفا الخطر، تكبت في أعماقها طاقة كمونيّة تبحث لها عن منفذ لتعيد إلى شخصها توازنه[3]، ولعلّها توجد في الآخر، وخليل هو هذا الآخر، رفيق نضال يخرجها في أوّل شبابها من خنوع الإذعان اليوميّ، تحياه متململة في رتوبها، إلى علن اختراق لغدٍ لا تريده إلاّ وفق مناها[4].

وسألته راحيل، أمُّها، عن أبيه وأمّه. فأجاب الشاب «والغصص الموجعة تقطّع ألفاظه: ليس لي أب ولا أمّ ولا أخت ولا مسقط رأس. فتنهَّدت راحيل متأثّرة وحوَّلت مريم وجهها نحو الحائط لتخفي دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها»[5].

وبهذه الدمعة خطت مريم خطوتها الشعوريّة من فرديّة مظلمة تافهة مستكينة مغلقة إلى نوع من الانتماء الطبقي، فوعت قدرها عبر شريكها في

---

(١) «الأرواح المتمرّدة»، «خليل الكافر»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يرى أدلر أن الفضول وحب الاستطلاع والرغبة في معاينة كلّ شيء تشكّل دليلاً على شعور أصليّ بالخطر والشك يحاول الشخص تعويضه.

Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٤) ويصحّ في مريم وأمّها ومناصريهما فيما بعد قول شارل مورّا: الثورات تكون جاهزة قبل أن تنفجر.

Voir: André Decouflé, «Sociologie des révolutions», P.U.F., 1298, 1970.

(٥) «الأرواح المتمرّدة»، «خليل الكافر»، ع. س.، ونشير إلى أنّ الأبطال الجبرانيين أصحاب قلوب قبل كل ميزة أخرى، تستقطر عبراتهم، وينسون ذواتهم ومصائبهم في انتماء مختار إلى الضعفاء الشرفاء.

الماسي، والوعي ظاهرة اجتماعية وثمرةُ حياة الإنسان في المجتمع[١]، فأفرجت في لحظة عن مقدار هائل من الألم والخيبة نتيجة اضطلاعها فيما مضى بدور المتفرّج أكثر من قيامها بدور المشارك أو المنشئ المعبّد لطرق أكثر حداثة ونزاهة لغدها ولتاريخ شركائها في الحدث الحياتي.

ونراها على فضول أخير قبل الإقدام: «... رفعت مريم رأسها والتفتت نحو والدتها كأنها تستأذنها بالكلام، ثم نظرت بكآبة نحو خليل وسألته قائلة: هل عدت وتكلّمت ثانية أمام الرهبان فطردوك من الدّير في هذه الليلة المخيفة التي تعلّم الإنسان أن يكون رؤوفاً رفيقاً حتّى بأعدائه؟!»[٢]؛

فبصرف النظر عن الجانب التحاملي على رجال الدين من قبل الكاتب، تبدو مريم كأنها تحرّض نفسها تحريضاً باستفهام لا دور له إلّا تأكيد المخالفة لواقع الدين مؤيّدة بأخرى لواقع الإنسانية والأخلاق[٣]، وكأنّما التعجُّب تقوله لنفسها لتخرجها من تردّدها وتقذف بها إلى أرض النضال بمعيَّة أمّها وحبيبها المرسل من لدن السماء.

وهي نظير الرياحين تعاني ما تُمضّها به العناصر ولا تيأس من رحمة العناية: «وبعد هنيهة مدَّت راحيل يدها قسر إرادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتلمَّع في عينيها: إنّ من تختاره السماء نصيراً للحقّ لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والعواصف. وهمست مريم قائلة: إن العواصف والثلوج تفني الزهور ولكنَّها لا تميت بذورها»[٤].

---

(١) K. Marx, cité par Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٢) «الأرواح المتمرّدة»، «خليل الكافر»، ع. س.

(٣) الثورة على الشرائع الدينيّة هنا تتخذ برهانيّتها من عناصر الكبت والامتعاض ذاتها التي في كل ثورة جبرانية سابقة. فالشرط الخلقي مفقود والمخالفة واقعة داخل القطاعين الديني والمدني، في ما يُشبه الانفصام بين العقيدة والممارسة.

(٤) «الأرواح المتمرّدة»، «خليل الكافر»، ع. س.

فإذا في أعماق مريم، كما في أعماق والدتها، صراعات وتحوّلات تحاول أن تنتزع شخصها من النمط العاديّ للحياة إلى شيء من الخارق للمعهود المتردّد، فتشعرها بشراهة الاستمرار، وتذيقها حلاوة التجدّد في توالي الأحداث اليوميّة، أو تجعل منها، مرةً أخرى، ضحيّة من ضحايا الأيام والقدر.

وتقيس ما تعاني من مخاض الانتفاض بما جهز في عميق وجدانها من مثال الثورة والتغيير في مداهما التاريخي. تقول لأمها وهما جالستان على فراشهما تنظران إليه: «يداه يا أمّاه مثل يدي صورة يسوع الموجودة في الكنيسة»[1]، وكأنها، بهذه المشابهة يلحظها قلبها، ترجع الدين إلى قلب المجتمع والعالم، ليسهم في الجهد العام لبناء الغد المشرق للضعفاء، أندادها، ويغدو الخلاص بواسطته خلاصاً روحياً وتاريخياً في آن.

ولكنّ مريم التي تمتلك قشعريرة الانتفاض على المظالم، وتختزن في نفسها مقداراً هائلاً من الوجع الأرضي عنها وعن سواها من ضحايا الإقطاع بوجهيه الديني والدنيوي، سرعان ما تعود إلى فرديّتها، وتكتفي من خليل، رائد الثورة المعلنة، أنّه لها، فلا استقالة من الذات باتجاه الآخر، ولا تضحية في صالح المجموع. فعندما نظر خليل إلى عينيها وقال: «ولكن في هذه القرية يا مريم قوّة سحريّة تمتلكني وتتشبَّث بنفسي ـ قوّة علويّة قد أنستني اضطهاد الرهبان وحبّبت إليَّ قساوتهم... في هذه القرية زهرة نابتة بين الأشواك، يستميل جمالها نفسي ويملأ عطرها كبدي. فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشّراً بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير، أم أبقى بجانبها وأحفر لأفكاري وأحلامي قبراً بين الأشواك المحيطة بها؟ ماذا أفعل يا مريم؟!»[2]؛ عندئذ اهتزّت قامة مريم مثلما «ترتعش الزنبقة أمام نسيم السحر، وفاضت أشعّة قلبها من مقلتيها، فقالت

(١) «الأرواح المتمرّدة»، ع. س. ولذلك سارت مريم وأمُّها وراءه بعد القبض عليه «نظير بنات أورشليم عندما اتبعن يسوع إلى الجلجلة. وكذلك كانتا واقفتين عن يمينه وشماله، إبّان المحاكمة، «كأنهما جناحان قد فتحهما ليطير ويحلّق بهما إلى السحاب»، مع الإشارة إلى أنّ في المشهد صورة الخشبتين المتعارضتين على شكل صليب كرمز للخلاص.

(٢) المصدر نفسه.

والحياء يغالب لسانها: كلانا بين يدي قوّة خفيَّة عادلة رحوم، فلندعها تفعل ما تشاء بنا»[١].

لقد ضاع صوت النفير، وأخفى الجنديّ سلاحه، ليتنعّم بالمغانم، متذرّعاً، وهو في زحمة النعمة الهابطة وتخمتها، بأنّ للعناية قدرات لا تُدفع. فخليل ومريم اقتربا من عرش الحبّ[٢]، مشيحين عن أندادهما من مقهوري الحياة[٣].

وهكذا بدت مريم لنا نموذجاً بنويًّا في ظلّ أبيه لتثوير وتغيير حقاً، ولكنَّه ما إن يخطو خطواته خارج نطاق أناه ليشعّ انقلابات وتغييرات جذريّة في حلم ثورة بكر حتّى يعود إلى هيكل ذاتِه ساجداً ومتعبّداً لمشاعره الضيّقة. فهمّ مريم إبّان ارتكانها القدري أوّل الأمر، في بريَّة الثلج والعزلة، كان بحثاً في ثنايا الأحداث، على الأرجح، عمَّا يجعلها تطفو فوق سطوحها آيةً للشهرة وللمقدرة. وإذا بها، هي الأخرى، على وجهها قناع هو جزء من عالم آخر[٤]، وهو غير ذاك الذي تعيشه في حقيقة أعماقها، وكأنها داخل ضجيج المجتمع، وفي الغمرة من اصطراع أحداثه، في حفلة تنكّريّة تخفي في خلالها هويّتها وحقيقة أهدافها ومطامحها. ولكن سرعان ما ينفضح كل شيء، فينقلب دورها وتضيع نواياها في غمرة الزمن الجاري.

إنّ مريم بنت راحيل وسمعان الرامي، كما سواها كثيرون من شخوص الأدب الجبراني، تحيا تسابقاً حقيقياً بين عنادها للوصول إلى ما يليق بالحياة

---

(١) «الأرواح المتمرّدة»، «خليل الكافر»، ع. س.

(٢) التعبير لجبران في المصدر نفسه.

(٣) ورأيْنا أنّ حادثة القبض على خليل جاءت إنقاذاً للبطل الجبراني من هذا المأزق. فلقد انتزعته من ذاته العاشقة وألقت به في ساح الجماهير التائقة إلى لحظة فريدة من صراخه مطالباً بالحرية بمعناها المجتمعي والخلقي الوسيع.

(٤) التعبير لميخائيل باختين.

Voir: «L'oeuvre de François Rabelais et la culture populaire...» op. cit.

أهدافاً ومطامح من جهة، ومن ثانية تباطؤاً في تحقيق ذلك أو إرجائه لعوامل اجتماعية أو بيئيّة أو سواها، ولذلك أصبحت اللحظة الراهنة هي المقدّمة لديها. ففي مداها، وليس في الزمن، يقع كل شيء، وعبرها يجري[1]، وما اللحظة الراهنة في حالها سوى خليل الكافر، النموذج الجاهز لاختراق أيّامها الرتيبة، فتديل به تشابه الأنماط في مسعاها الحياتيّ.

■ وبالمثل، يقدّم لنا كتاب «دمعة وابتسامة» داخل لوحة «الأرملة وابنها» وجهاً بنويًّا في ظلّ والدين، مشابهاً على فوارق في الواقع والمرتقب[2].

ففي منزل منفرد بين القرى، جلست امرأة أمام موقد تنسج الصوف رداء، و «بقربها وحيدها ينظر تارة إلى أشعّة النار، وطوراً إلى وجه أمّه الهادئ»[3]، وكأنه بين قطبي الحياة، شراسة وقداسة، يتنازعانه كسائر الآدميين، إذ ينقلون ميراثهم الاجتماعي ومكتسباتهم الخلقيّة إلى بنيهم.

وذعر الصبي إذ عصفت الرياح بشدّة وهزّت أركان البيت، فضمّته إلى صدرها ثم أجلسته على ركبتيها تعظه وتحفر في نفسه مرتجياتها.

فهذا الصبيّ قد أضاع أناه المثالي[4] بموت والده، وجاءت ثورة العناصر تحفّزه للبحث عن نقطة ثابتة، وسط مظاهر الحيرة التي تكتنف الحياة، وكذلك عن سلاح دفاعيّ في نضاله ضدّ القلق، ومأساة التلقائيّة يحياها بعدوى اكتتابه في حضارة الإنسان. شعر فجأة بإحساس غامض، أنّه صاحب دور، ولو

---

(١) Voir: Georges Poulet, «Etudes sur le temps humain», II, Paris, Plon, 1952.

(٢) راجع دراستنا «دمعة وابتسامة»، «الأرملة وابنها»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الأنا المثالي Sur-moi في مصطلح الفرويديين، وغالباً ما يكون ممثّلاً بالآباء.

متواضعاً، في مأساة الغفلة الإنسانيّة على المستوى العالمي[1]، وقطعة صغيرة من عالم لا يفهمه، فتنامى لديه ما في الأرض من حرمان وبؤس وشعور بعدم الأمان والنقص[2] مكبّراً بدمدمة الريح وعويل العاصفة، وكلّها من دنياه المثخنة بجراح أمّه، فاحتمى في صدرها.

وتدعوه والدته الأرملة كي ينام، واعدة بأن هذه العناصر المتحاربة سوف تتيح له في نيسان فرصة اجتناء الأزهار الجميلة: «كذا الإنسان يا ابني لا يستثمر المحبّة إلاّ بعد بعاد أليم، وصبر مرّ، وقنوط متلف. نم يا صغيري، فسوف تأتي الأحلام العذبة إلى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد»[3].

فالصبيّ، ابنها، يعيش الظروف الملائمة التي تجعل منه مشروع ثورة وتغيير، ففي عمره دعسات ناقصة كثيرة، من يتم إلى فقر، إلى قلق، إلى حيرة وغفلة وانزواء في بيت منفرد بين القرى، فتغدو عاقلته، لولا أمُّه، آلة صُور تعمل على شكل دعوة ثابتة إلى التمرّد والصراخ[4]، ولا صحة على الإطلاق، في المدى الوسيع للحياة، من أن البائس لا يرى العالم كما يراه عالم الاجتماع، ومن أنه في بؤسه، والبؤس هو حياته كلّها، وهو الاختراق الشامل للحياة بواسطة الموت[5].

وتدعو الأرملة ولدها إلى تلاوة صلاة قبل النوم: «قل معي يا ولدي:

---

(١) فيصبح من النافل كل جهد في عالم يسكنه الأشخاص أنفسهم على نحو تكتنفه الأسرار.

Voir: Bernard Dort, «Théâtre public», Essais de critique, du Seuil, France, 1967.

(٢) Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٣) «دمعة وابتسامة»، «الأرملة وابنها»، ع. س.

(٤) G.Sandier, cité par Michel corvin, «Le théâtre nouveau en France», P.U.F., Que Sais-je? N° 1072, 1974.

(٥) القول لشارل بيغي، الكاتب الفرنسي.

Voir, André Decouflé, «Sociologie des révolutions», P.U.F., Que Sais-je? 1278, 1970.

«أشفق يا ربّ على الفقراء واحمهم من قساوة البرد القارس واستر جسومهم العارية بيدك. أنظر إلى اليتامى النائمين في الأكواخ وأنفاس الثلج تكلّم أجسامهم. اسمع يا ربّ نداء الأرامل القائمات في الشوارع بين مخالب الموت وأظفار البرد. إمدد يدك يا ربّ إلى قلب الغنيّ وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين. إرفق يا ربّ بالجائعين الواقفين أمام الأبواب في هذا اللّيل الظلوم واهدِ الغرباء إلى المآوي الدافئة وارحم غربتهم»[1].

بيان ثورة مرتقبة من الأمّ لولدها الصبيّ، ولكن مع وقف التنفيذ، ما دام للصلاة ولقوى الماوراء قدرة على تقويم المسار المنحرف للجامعة البشريَّة. ومع ذلك، من يدري؟ فقد يشبّ هذا الفتى على غير الصورة التي تعدّه لها أمه، فيلمس عندها الطلاق الهائل بين تمنّيه أو وجوده المترائي من جهة، وسلبيّات وجوده الممارس[2]، أي ما هو عليه بالفعل قسراً وغصباً وانهيارَ قيم وحقوق.

ولعلّ في خاتمة اللوحة القصصيَّة إيماءً من بعيد إلى حال هذا الصبيّ ذات وقت في الآتي من الأيام. يقول جبران: «ولما عانق الكرى نفس الصبيّ مددته والدته على فراش وقبّلت جبهته بشفتين مرتجفتين ثم رجعت وجلست أمام الموقد تنسج له الصوف رداءً»[3].

كأنَّها بحياكتها رداء الصوف، هذه الأمّ، تُعدّه لأحد أمرين: إمَّا ليكون أحد المسحاء، ناقلي صلاتها إلى حيّز التنفيذ العملي، عن طريق الكرازة وعدوى المحبَّة، أو ليجدّ مع الساعين وراء ذواتهم حتَّى في عتمة الأعمال الشاذّة، فيصيح مع الصائحين، ذئباً بين الذئاب، ينافسهم في امتلاك يومه الحاضر، الصورة الحيَّة لعمره، مهرولاً هرولةً هي بمثابة الحكم يُنفَّذ به وبسواه

---

(١) «دمعة وابتسامة»، «الأرملة وابنها»، ع. س.

(٢) Gilbert Bosetti, «Pirandello», op. cit.

(٣) «دمعة وابتسامة»، «الأرملة وابنها»، ع. س.

من أنداده، في عصر موسوم بعدم الاستقرار على كل صعيد، وتفترسه الحركة[1].

■ وفي كتاب «العواصف» شيء من هذه الخيبة المرتقبة في الأبناء الذين لتثوير وتغيير وهم في ظلال آبائهم. ففي «حفار القبور»[2] لوحة قصصيَّة تروي حكاية جبَّار يعظ الكاتب بل الراوي باطِّراح الخوف، ويسخر من إيمانه وحرفة الشعر التي يمتهنها، ويعرض عليه اتّخاذ حفر القبور مهنة ليلحد الأحياء الأموات. ففعل وأشرك في مهنته الجديدة أطفاله الثلاثة، فأعطى كلّ واحد رفشاً. ولكنّ الأموات كثيرون، وعدد الحفَّارين لا يكفي ليوارى هؤلاء في التراب.

يقول الشبح الجبَّار في هؤلاء الأولاد، مخاطباً أباهم: «علّمهم حفر القبور، وأعطِ كلّ واحدٍ رفشاً ثمّ دعهم وشأنهم»[3].

والغاية! ثورة تطمح إلى تمزيق صفحة الخلق، وهدم العالم بإغراقه في انتحار إراديّ جماعيّ فيتناقص بالتمادي. وفعل الراوي مع أنّ أولاده الثلاثة كبيرهم يلعب بالأكر وصغيرهم يلوك الكلام ولا يلفظه.

لقد طلّق امرأته وتزوَّج صبيّة من الجنّ. ثم أعطى كلّ واحد من أطفاله رفشاً ومحفراً وقال لهم: «اذهبوا وكلّما رأيتم ميتاً واروه في التراب»[4].

هي الثورة ينقلها جيل الآباء إلى الأبناء، ولكن بمتَّجه انتحاري، وكعمل يتضمَّن معنى الثأر من الحياة. فتخرج الذريَّة من حالة الإذلال التي تحتلّها في

---

(١) Michel corvin, «Le théâtre nouveau en France», op. cit.

(٢) راجع دراستنا كتاب «العواصف»، «حفّار القبور»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

محيطها، وبه تمتلك عزاء التعويض عن حبّ غير متبادل[1].

وإلى متى؟ وهل من جدوى؟ يقول الكاتب في خاتمة لوحته: «ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات، غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني»[2].

فيقرّ بالضعف وبعبثيّة ما يفعل. فحتّى التغيير الأسود لا فائدة منه ولا جدوى. وتنتهي الثورة في سبيل القوّة والجبروت والنزعة إلى التفوّق، حلماً يتجوّف شيئاً فشيئاً، وتسقط البطولة الباحثة عن أجواء الفرادة والتميّز مضرّجةً بدمها عند أعتاب التعب الإنساني.

والأطفال الثلاثة؟ لانحراف طبعاً، ذات يوم، عن هدفهم الأساس، على الرغم من المغزى الرمزي لوجودهم، ولهاثٌ، من بعد، وراء ما يعوّض هذا الفشل في صراع جديد، مع أقرانهم الإنسانيين، على السلطة والقدرة والسعادة، فتُداس فضائل وقيم، ويطفو هاجس النفع الظرفي بسببٍ من سيادة منطق اللحظة الراهنة على تفاصيل حيواتهم.

هؤلاء الأطفال الثلاثة ليحملوا يوماً جزءاً من خيبة الجنس البشري كلّه. فليس ما يوازي بإحساس المرارة ذاك الانحدار عن قمة الأهداف الجاهزة، أو تبديل طبيعة بأخرى. يكفي أن تكون أقدار هؤلاء لفرص مستعادة، تذبح على اسمها الأيام، وتُهدَر آمال وجهود لغير وصول، ليتسلّل الوهن إلى عزيمة كلّ من يرنو من عتمتِه الكيانية إلى صباح، أو ينتظر قيامة جنسه المخلّع من تحت ركام قصوره المنهارة.

---

(١) وأدلر يرى أن الانتحار هو أكثر أشكال الاعتراضات الرجوليّة أو الذكريّة حدّة، به يستردّ اعتباراً ضائعاً.

Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٢) «العواصف»، «حفّار القبور»، ع. س.

■ وأبناء أورفليس غير بعيدين، بالمرتقب لهم، عن هؤلاء الأبناء الثلاثة في لوحة «حفّار القبور»، ولكن من الطرف الآخر للحياة، أي من ناحية الإيمان بحتميّة الإصلاح الهادئ دونما إرهاق لأرواح أو إحراق لرجاءات، مهما تناهت في الصغر.

ففي «النبيّ»، ذاك المجسّم لاحتمال بناء[1]، تقدّمت امرأة تحمل طفلها على ذراعيها وسألت المصطفى في الأولاد. فأجابها المختار الحبيب بما يفيد بواجب انحناءة الآدميّين للمشيئة الكونيّة، وخشعة مبتهجة لقدر ناموس تأتمر بحكمته الكائنات، وإيثار لكل عام على كل نسبيّ محدود. فنسبيّة الأشياء لا احتساب لها في كل شأن للانقطاع الحادث بين التراث الآدميّ وحكمة الحياة، واكتفائه بالمنظور من تاريخه.

أجاب المصطفى: «إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم. إنّهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم. ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم»[2].

أُطرٌ واضحة لتثوير وتغيير في مسار البشريّة بأسرها. من جرّائها ينقطع التواصل المشين لكل ما هو بشع خاطئ مسيء للحقيقة وللعدالة في نطاقهما المطلق، ولا يعود الولد على صورة أبيه، هو نفسه وهو آخر في آن، متغيّر الهويّة باستمرار تبعاً للمرايا التي تُقَدَّم إليه[3] مستعارة من المحيط.

ويتابع المصطفى عظته الوالدين من أورفليس في مسألة أبنائهم: «وإن

---

(١) راجع دراستنا «النبيّ»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨، قسم «حصاد»، وفيه أن جبران قد ابتدع ثالوثاً جديداً أقانيمه: المعرفة والعمل والمحبّة، في الأولى هدف لاكتمال، والثاني هو الطريق، أما المحبّة فمنها الحماس النقيّ وكلّ حافز قلبيّ إيماني طاهر.

(٢) المصدر نفسه، «الأبناء».

(٣) تعبير لبرنار دور.

Voir: Bernard Dort, «Théâtre public», op. cit.

لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم. ولكنّكم عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم. لأنّ الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلذّ لها الإقامة في منزل الأمس. أنتم الأقواس وأولادكم سهام حيّة قد رمت بها الحياة عن أقواسكم»[1].

سباق هائل بين ما مضى والمرتقب حدوثه في ساح الزمن والحياة، من شأنه الإصرار على استحضار جيل من الآباء سابق لعصره، يهجر ذاته ومكتسباته ليحيا في عالم أبنائه، أو هو الهدف الأسمى لا يتحقّق إلاّ بانفصام تام بين جسد وروح في ذاك الجيل من الآباء، يطّرحون اسماً وتراباً وعادات، ويرتدون أخرى ليبقوا الأبناءَ، ولو بالمشتهى، بالتضحية ونكران الذات[2].

كلُّ ذاك إيماناً من هؤلاء الآباء بوحدة الوجود، وعملاً منهم بشبه الصلاة والتعبُّد وبمحبّة عميقة تحرّرت من كلّ دخيل نافل شائب، ليتواصل بها موكب الحياة، جيلاً في إثر جيل، حاملاً رسالة كيانيّة هي بلوغ الناموس الكوني تمامه[3].

ولكن أولئك الأبناء المنادى بهم لتثوير وتغيير في فناء الكون بأسره، هل أمرهم ممكن؟

---

(١) «النبيّ»، «الأبناء»، ع. س.

(٢) يذكّرنا هذا التمنّي بما يقوله بيراندلو: السعادة الوحيدة الممكنة على الأرض تكون في نكران الذات.

Voir: G. Bosetti, «Pirandello», op. cit.

وبهذا المعنى يقول ألان: كلمة قلب تتضمّن غموضاً رائعاً، لأنها تعني الحب والشجاعة معاً، وتذكّرنا في الآن نفسه بارتباط القدرة على التفكير ببنية الجسد.

Voir: Jean Lacroix: «La Sociologie d'Auguste Comte», S.U.P., N° 21, France, 1967.

(٣) هذا الأمر يفترض في هؤلاء ليستمرّ ما يسمّيه إميل دركايم «الوعي الجماعي مع الذاكرة الجماعيّة». وكذلك يذكّرنا بقولين: الأول للفيلسوف ألان وفيه أن الفرد يبقى حيواناً على شكل إنساني إن لم يتبع طقوس الأموات الكبار، وقوة البشريّة تكمن في هذا الحشد منهم الذي لا يموت. والثاني لأوغست كونت وفيه أن البشرية هي مجموعة =

ممكن. فقد تشذّ حلقة في سلسلة الآباء بالإرادة والمجاهدة والقداسة، فيتخلّى جيل من آباء مدينة أورفليس عن أبنائه للحياة، ثم تتعثّر المسيرة مرة أخرى، وينطبع جيل آخر من الأبناء بطابع من آبائه غير النبويّين ومن الحضارة؛

وتعود الشجرة ـ الآباء فترتجل الثمرة ـ الطفل فوق غصنها على صورتها ومثالها[1]، وتختزن الحضارة التراث الإنساني، شاحذةً في الإنسان، كل إنسان، صبوة التكامل الماديّ والمعنوي إذ تصنع له الحلم[2]، فيشهد ويرى ما يسرّبه إليه الكتاب، حافظ الفكر وأنماط السلوك الإنساني لدى مشاركيه حدث الحياة، ناهيك بالوسائل السمعيّة والبصرية المقلّصة للعفوية والارتجال، مفسحةً في المجال للتقليد والمحاكاة إثباتاً للوجود.

ويتلاقى أبناء من أورفليس والأطفال الثلاثة موضوع «حفار القبور»[3]، بالخيبة والإحساس بالمرارة وبعبثيّة كل محاولة لإنهاض الجنس البشريّ المخلّع من تحت ركام قصوره المنهارة.

■ وكتاب «يسوع ابن الإنسان» لا يضنّ علينا بمثل هذا النموذج البنويّ المتهيّئ للثورة وللتغيير، وإن بشكل أكثر اقتراباً من الآمال والأهداف الممكنة

= لإنسانيين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وعدد الأموات فيها يفوق عدد الأحياء.

Voir: Jean Lacroix: «La Sociologie d'Auguste Comte», op. cit.

(٤) يرى ديدرو، الكاتب الفرنسي، أن لكلّ جنس ترنيمه. فالذي للرجل ليس له لا الحماقة ولا الرقّة ولا الحساسية التي للمرأة. فأحدهما يبدو دائماً أمراً مخاشناً، والآخر متشكّياً متوسّلاً.

Voir: G. Berger: «Caractère et personnalité», Collection S.U.P., N° 8, 1971.

(٢) يرى مولز أن التقنيات الحديثة للإعلام تسهم في تعطيل الإدراك لدى المواطن الحديث، وتحيله إلى مجرّد متفرّج مسالم.

Voir: G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٣) راجع دراستنا مثل «العواصف» في القسم السابق.

التحقّق. ففي شهادة «سمعان بطرس»[1] يروي تلميذ المسيح كيف صاده يسوع مع أخيه أندراوس ليصبحا من صيّادي الناس. فتبعاه، ثم دعاه هو ليحلّ ضيفاً عليه في بيته ففعل. وهناك رحّبت به زوجته وحماته وابنته بترولينة، وخررن أمامه ساجدات وقبّلن أطراف أكمامه[2]. ويقول سمعان في شأن بترولينة ابنته: «وأمّا ابنتي التي كانت آنئذ في الثانية عشرة من العمر فإنّها وقفت إلى جانبه وأمسكت طرف ثوبه خوفاً منها أن يتركنا ويسير في الليل ثانية، فكانت متعلّقة به كأنها خروف ضال وجد راعيه». وفي مكان آخر من الشهادة يقول: «وكانت ابنتي بترولينة، الصغيرة الساذجة، تتأمّل وجهه وتتبع بنظراتها حركات يديه، وكانت سحابة من الدموع تغشى عينيها»؛ وفي آخر: «كانت ابنتي جالسة عند قدميه تضمّهما إلى صدرها»، وآخر: «حينئذ تركناه ودخلنا البيت، وكانت ابنتي آخر من تركه ودخل. وكانت عيناها تنظران إليه حتى أغلقت الباب»[3].

فبترولينة الوديعة العارفة من بيئة شرقية تنشّئها بأخلاقية أبيها[4]، مثلها الأعلى في الحضور الإنساني وحيازة الزمن، فجاء انتظارها من انتظاره، وراحت بما حازت بملامسها وعينيها تتحفّز وهي صغيرة لتسلك إلى حيث خطى أبيها، مترجمةً بالمسعى الفعلي همسات قلبها بأن تكون الأرض على شاكلة السماء.

بترولينة الفتاة الساذجة، بمقياس العقل الإنساني القاصر، تتسلّح بالحب

---

(١) راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، «سمعان بطرس»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) وما أشبه الموقف هنا بمقدّمة كتاب «التائه». راجع دراستنا الكتاب في منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٣) «يسوع ابن الإنسان»، «سمعان بطرس»، ع. س.

(٤) Reich, «La Fonction de l'organe», cité par A. Nicolas, «Wilhelm Reich ou la révolution radicale», Editions Seghers, Paris, 1973.

وأبوها هو القائل في شهادته: «... لأنَّ نوراً أشرق في أعماقي فعرفته»، وما المعرفة في حاله إلا نتيجة انتظارات هائلة في أعماق النوع لمخلص قدوة يقود البشر إلى الكمال.

والعمل والمعرفة[1] وبمثلها تقوم المجتمعات الإنسانية يوماً وتنهض. ونراها قريبة من الأرض ـ الينابيع الأولى بأحلامها، بعيدة من تزمُّت الشرقيّات، ربيبات الكبت الاجتماعي[2]، واقفة على باب المستقبل بأصالة روحية منفتحة على كل جديد صالح.

هم أبناء في ظلال آبائهم، تتخمَّر في داخل شرانق حيواتهم الصغيرة متّجهات تثويريّة لتغيير، فيحقّقون يوماً ذاك التواصل بين واقع الحقيقة الإنسانيّة ومرتجاها، ويشكّلون همزة الوصل الضرورة في ساح التاريخ لإحداث ما يتراءى تطوُّراً وتطويراً في مسرى الشعوب والحضارة. وقد رأينا لبعضهم:

ـ أن يربوَ على مبدإ الفائدة الظرفيّة، انتقاماً من إخفاقات مؤلمة في طفولته. فيتّخذ من هذه الفائدة أنجع الوسائل للاستمرار في العيش؛

ـ أو أن يصبح داعية تغيير في محيطه ومجتمعه، منضمًّا إلى سواه في نضال ضدّ الاستغلال ومظاهره الاختلاليّة في نطاق المجتمع والحياة؛

ـ أو أن تقوم في أعماقه صراعات فتنتزع شخصه من النمط العادي للعيش إلى شيء من الخارق للمعهود المتردّد، فتشعره بشراهة الاستمرار، وتذيقه حلاوة التجدّد في توالي الأحداث اليوميّة؛

ـ أو أن تُسجَّل في ذاكرة سعيه دعسات ناقصة كثيرة، فتبرمج عاقلته كآلة صور تعمل على شكل دعوة ثابتة إلى التمرّد والصراخ؛

ـ أو أن يحمل نزوع ثورة منقولة من جيل آبائه، ولكن بمتّجه انتحاري، ثأراً من حياة لا تجري وفق هواه؛

---

(١) دون الحب والعمل والمعرفة، يقول ريخ، لن يستمرّ المجتمع الإنساني يوماً واحداً.
Reich, «La Révolution radicale», op. cit.

(٢) يرى ريخ أن الكبت الجنسي في أساسه ذو أصل اجتماعي وليس بيولوجياً.
Reich, «La Révolution sexuelle», Plon, 1969.

ـ أو أن يُنادى به لتثوير وتغيير في فناء الكون بأسره، آن يتخلّى جيل من الآباء عن أبنائه للحياة؛

ـ أو أن يتسلّح بالحبّ والعمل والمعرفة، فيقترب من الأرض ـ الينابيع الأولى بأصالة روحيّة منفتحة على كلّ جديد صالح.

ولكنّ هؤلاء الأبناء، باستثناء فئتهم الأخيرة، سرعان ما يهبطون من علياء ثوراتهم المرتقبة، بمؤثّر من اعتياق في الكائن الإنساني ومن الحضارة، فيسجدون متعبّدين لمشاعرهم الضيّقة، مشيحين بوجوههم عن متاعب وآلام أندادهم من مقهوري الحياة، فيضيع صوت النفير المعلن، وتتعثّر المسيرة الإنسانيّة من جديد، وقد بانت لوقت مظفَّرة من مطلعها، بسبب من مظاهر وأسباب رافقتها، ويتجوّف حلم التغيير شيئاً فشيئاً، مُعقباً آلاماً أخرى، ولكن على نطاق الكون بأسره هذه المرّة، لطعنة تصيب الحقائق، ولخيبة الجنس البشريّ من عبثيّة النضال في وادي الحياة المظلم.

وإذا كانت الثورات المرتقبة لهؤلاء تؤول، على الجملة، إلى مثل تلك النهايات الفاجعة على صعيد الرؤى المستقبليّة للمسيرة الإنسانيّة المناضلة في التاريخ، فإنها تتلاقى في الطرف الآخر من الحدث المستكين بعد جهاد، مع المنحى الاستمراري التخويريّ للفئة الأخرى من الأبناء في ظلال الآباء، على تشابه تام في اللاجدوى وحتى العدميّة اللذين اقترن بهما وجودهم، نووا وثاروا أم لم يفعلوا على حدّ سواء.

غير أنّهم، إنْ لاستمرار تخوير أو لتثوير في سبيل تغيير، يبقون ممثّلين تلك المادّة الإنسانيّة الساحرة والدائمة الاختمار، يُملأ بها وعاء الزمن وتمنح الحياة هبةَ التواصل من غير انقطاع، وفي موكبها امتعاض وأسى، ومن كليهما جنين الحلم الدائم بفرص أخرى لتمام رجاء.

ونرى أنّ هؤلاء وأولئك في ظلال آبائهم قد لا تقاس مآسيهم، مهما

تعاظمت، بمأساة فئات أخرى من الأبناء الجبرانيين، وما ذاك إلّا لقصور في مسعاهم، كونهم من التابعين الذين تبعاتُ خيباتهم في أعناق آبائهم، أو لكونهم، بعدُ، في كنفهم، لم يبلغوا أشدّهم استقلالاً في الرأي، وممارسة لنعمتي الحرية والإرادة.

والحقيقة أنّ في الأدب الجبراني أبناء حائرين في انتماءاتهم، على نحو مهلك لطاقاتهم، ومُشيع لهموم كونيّة تتآكلهم من داخل ذواتهم المضطربة، وهم يشكّلون برأينا، في المدّ الطبيعي للعمر الإنساني، وللمسيرة الجبرانيّة المتنامية من المراهقة حتى البلوغ، تلك المرحلة من ضياع التي تسبق انكشاف الحقائق أو تتخلّل رحلة اليقين باتجاه قناعاته الأخيرة.

فماذا عن هؤلاء الأبناء الحائرين في الأدب الجبراني؟

سؤال نرتقب له جواباً في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وبعنوان: «أبناء حائرون في الانتماء».

*

الفصل الثاني
أبناء حائرون في الانتماء

إنَّ أعظم ما يُمنى به إنسان من كوارث على المستوى الكوني، هو مروره فوق البلاط الأجرد للحياة، فلا يخلّف على أديمه ولو موطئاً لقدم، ولا يمكّن تربته من أن تحضن شيئاً من بذوره، تعليها بسماح من يمتلك النسغ الملائم لكل طلوع، مالئ للزمن وللوجود.

ولعلّ فوضى الاختيار هي وراء هذه الحالة من الانحسار، يطالعنا بها آدميّون، فتأتي هذه ترجمةً لقلق عميق يكتن النفس الإنسانيّة، وغالباً ما تكون نتيجة إخفاق في توقّل جبل المثاليّات، فتتجوّف الرغبة، وهي الشراهة في حيازة كلّ شيء وإن على حساب التوازن الإنسانيّ[1]، ويهبط صاحبها العاثر بها من أعلى قمم الوجود إلى الدركات السفلى، حيث الحيرة والتردّد والهاجس والضياع.

وكم يتّخذ هذا الضياع بعداً وجودياً نابعاً من أعماق الكيان! فإذا بالإنسان إثنان، وهو غافل، يتجاذبانه لتنهار بهذا الجذب معتقدات وآمال ويتهاوى صرح الحقائق. ويمرّ العمر، كأنّه ما مرّ، تاركاً مرارة الذكرى في نفوس ملاحظيه، ولكن عزاء التعويض أيضاً بفرص أخرى، أي بأعمار إنسانيّين آخرين أكثر اقتبالاً للحياة ونجاحاً.

---

(١) p .Ricœur, «Finitude et culpabilité», T.I, Aubier, 1977.

ومتى حاولنا أن نستقرئ نفوس هؤلاء الناس عموماً، والأبناء الجبرانيين خصوصاً[1]، وسلوكيّة من يصحّ نعتهم بالحائرين، عندئذ نخرج بنتيجة مفادها أنّ الوعي لهؤلاء هو وعيٌ لمأساة حضورهم في الكون[2]، فيبحثون عبر سلبيّاتهم عن أسباب ليحيوا، طالما أن الوجود نفسه، بل حضورهم فيه، يتراءى لهم أحياناً بلا دواعٍ موجبة[3]؛

وذاك ريثما تستيقظ أحلام أخر، أو تبرز مواطن خلل ووهن في أسوار الحياة السياسيّة والاجتماعية السائدة، فينفذون مع النافذين إلى الحريّة والمصالحة مع الوجود، أو تضيع المغامرة بين سنابك الأقوياء، وسطَ صمتٍ مطبق من التاريخ.

حتى إذا أنعمنا النظر في أعمار هؤلاء الحائرين نجد أنّهم في معظمهم، بل كلّهم داخل الأدب الجبراني، إنّما ينتمون إلى أجيال الشباب، أولئك الذين يصطدمون يوميًّا بحواجز تقيمها الحضارة في طريق تفتّحهم وتناميهم داخل الجامعة الإنسانية، وما يشبه الإطار الشعوري جامعٌ لأفكارهم وخواطرهم سلباً وإيجاباً، متمثّلاً بالرفض المتضمّن اشتياقات التغيير، ولكن دونما تخصيص، في وقت تهوي فيه مهدّته على هامات الوجود.

---

(١) لا شك في أنّ كلاّ من هؤلاء قد مرّ بطفولة، وتثقّف على والدين، وكانت له أسرة، ويعيش حاجات جنسية وصراعات عيلية. لذلك نقول مع ماركس وأنغلز إن الشكل المناسب لدراسة الناس تحدّده أحوالهم الحياتية.

Voir: M.Cattier, «Ce que Reich a vraiment dit», op. cit.

(٢) التعبير لبوسيتّي. Voir: G. Bosctti, «Pirandello», op. cit.

(٣) يذهب دارسون إلى أنه في إثر الحروب والثورات تسود مرحلة طويلة من الترقب والضياع في حياة الشعوب. وهي عادة مرحلة غير مناسبة للثقة المتبادلة حتى ما بين مواطني الأمة الواحدة، فتبرز الأنظمة البوليسيّة ويفشو نقض العهود وتتفاقم الأزمات الثقافية التي تحفّز الشباب ضدّ جيل الآباء.

Voir: G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. Cit.

وفي نظرة أولى إلى الإرث القصصي الجبراني، حقل اختبارنا في كل عمل داخلي تطبيقي، يتوضّح لنا، بادئ ذي بدء، أنّ هؤلاء الشباب الأبناء ينطلقون في مسعاهم من طراز أعلى اجتماعي يتوقون إلى التمثّل به في صراعهم مع الحياة. فعقولهم، بوجهيها الواعي والباطن، في خلاص، من حيث المبدأ، من ضغط الواقع، هواجس وكوابيس؛ أمّا قلوبهم ففي تشبُّه بعالم فكرة جميلة، أو مثل عليا، يبنون، ولو صوريًّا، نمطهم في العيش على منوالها، أو حقيقةً، عندما تسمح ظروفهم المعنويّة والماديّة[1]، فهم، كما يقول ريخ، معرّضون للعدوى اليوميّة بمجاورتهم الإيديولوجيّات المسيطرة[2].

■ فهذه سلمى كرامة في كتاب «الأجنحة المتكسّرة» وجه بنويّ أوّل مخطوف بهذه الحيرة في الانتماء، حتّى لنراها أبعاضاً، وعلى نحو فاجع. يقول جبران، مضيئاً شخصها بلسان أبيها فارس كرامة: «إنّ سلمى روحيّة الميول والمذاهب، فهي ترى جميع الأشياء سابحةً في عالم النفس»[3]، وكان قد وطّأ لهذا الوصف قبيل لقائه أباها بقوله: «. . . للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشّعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتيان إلى ما وراء الغيوم فيرون الكيان مغموراً بأشعّة متلوّنة بألوان قوس قزح، ويسمعون الحياة مرتّلة أغاني المجد والعظمة، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزّقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغّرة مشوّهة»[4]؛ ثم في أثناء تبادله الحديث مع أبيها يقول فيها: «أمّا سلمى فكانت

---

(1) A.Nicolas, «Wilhelm Reich ou la révolution radicale», op. cit.

(2) Voir: M.Cattier, «Ce que Reich a vraiment dit», op. cit.

(3) راجع دراستنا «الأجنحة المتكسّرة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧.

(4) المصدر نفسه، ولا يخفى ما يبرزه جبران هنا من صراع الحلم والواقع، بنعته الشباب =

ساكتة تنظر إليّ تارةً وطوراً إلى أبيها كأنّها تقرأ في وجهينا أوّل فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها»[1].

وجه بنويّ حائر، هو سلمى، على مظهر استكانة وركون إلى الوجود، إذ تقيسه بمعيار مثالها، مشتهى ذاتها الكبرى، يجمّله لها واقع اكتفائها الماديّ والعاطفي في بيت أبيها، ويحفّز لديها البحث عن معنى جديد للحياة يكسر رتوبها ويمدّها بعزم المتابعة في العيش[2].

ورأيْنا أن دخول جبران حياتها إن هو إلاّ إخراج لها من عتمة التسليم هذا لأوهامها[3]، وللمظهر المسالم في الوجود، إلى نوع من الصراعيّة الضرورة للبلوغ بمفهومه الاختباريّ النابع من عميق التجربة الإنسانيّة الحيّة.

ونراها، بسكوتها المشبوه بين فصلي الحياة: جبران شباب العمر، وأبيها خريفه، أو بمعنى آخر صفحة الاقتحامات المفضية إلى اكتشافها ذاتها، وصفحة الاكتفاء بما تبصره في مرايا سواها أباً وأسرةً ومحيطاً ضيّقاً؛ نراها تجوس موقعاً

= بالمثالية الرافضة لكل حاضر، والحقيقة تتربّص بهم لتعيدهم إليها، فلا يستطيعون منها فكاكاً.

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٢) وموقفها هذا في زحمة التفتّح الماديّ والقدرة الاجتماعيّة، وهي من طبقة غنيّة، يُشير إلى علامات في زمنها وكل زمن مشابه: أدوات كاملة لأهداف غامضة[1]، وكلها يستوجب من قبل الإنسانية إعادة نظر في طرائق تفكيرها إن رغبت أن تستمرّ في الحياة.

١ ـ تعبير لألبير أنشتاين. Voir: G. Dingemans «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٣) من الضرورة الإشارة هنا إلى أن عافية الإنسان والمجتمعات تكمن في التوازن الكافي بين النظم الاجتماعية والقواعد الأخلاقية. وكل محاولة لتأليه الأخلاق والتضحية بالجسد على مذبحها آيلة حتماً إلى الفشل، وقد تسبّب انقلاب الأمر، فيؤلّه الجسد في يوم وتُنحر على قدميه قواعد الأخلاق. فلا روحانية مطلقة كما لا ماديّة مطلقة صالحة في هذا السبيل.

Voir: Henri Baruk, «La psychiatrie sociale», op. cit.

لأقدامها قبيل الإقدام، وتسبر أغواراً، عليها أن تخوض غمارها بذاتها، قبل قرار انتماء يجرّها إليه شبابها.

ولكنّ سلمى خرجت من متاه، وهي في محيطها الأسري، لتدخل في دائرة متاه من مثله. فجبران، حبيبها وشريكها في حدث حياتها الجديدة، هو أيضاً انتماء إلى لا انتماء من منظار الثنائيّة الإنسانيّة الواجبة لكل نجاح في الزمن وفلاح في المكان. يقول جبران واصفاً سلمى بعد أن دعاه أبوها للإكثار من زيارته في بيته: «فحنت سلمى رأسها إيجاباً، ثم نظرت إليّ نظرة غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفه»[1]، ويعيى في مناجاة وهو يصوّر وجهها: «... ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامة؟ وبأيّة ألفاظ نقدر أن نصوّر وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوباً بنقاب من الاصفرار الشفّاف؟ بأية لغة نقدر أن نتكلّم عن ملامح تعلن في كلّ دقيقة سرًّا من أسرار النفس وتذكّر الناظرين إليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم!»[2].

غربة وغرابة وما كلتاهما إلاّ وجهُ استقالة من الحياة الواقعة، ومطاردة بالوهم لعالمٍ أكثر اكتمالاً، سياجُه الحُلم المنطلق على السجيّة بلا مضامين من تراب، ولا أُطر من أنظمة مفروضة متوارثة.

فسلمى، كما جبران، وكلاهما واحد في النهاية[3]، تحمل من بيئتها الشرقية دهوراً من التقليد في العلاقة بين الرجل والمرأة، ومن ثقافتها نزوعاً إلى الكليّات في كلّ مطلب فلا تحدّها نهاية، فإذا في موقفها، الرافض للعرف في

---

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سلمى كرامة في كتاب «الأجنحة المتكسّرة» هي ظلٌّ لجبران في الفرح والحزن، في الاستكانة والثورة، تعشق ما يعشقه، ويشكيها ما يشكيه من جور المجتمع ومظالم رجالاته الأقوياء. وهي القصيدة الجبرانية، فلا تبوح إلا بما استودعها إياه الكاتب من عواطف التعبّد للجمال. وهو خلف شخصيتها في كل صفحة من الكتاب، يوجّه الأحداث أو يتلفها، يؤزّمها أو يتناساها، منطلقاً من ثوابت في الفكر والفن. (راجع: قسم المقدمات من دراستنا المصدر نفسه).

طريقة التعامل بين الرجل والمرأة، اكتساب للمنعة وشعور بالقوة والغلبة عبر المخالف الخارق[1].

ولئن عُدَّ هذا الاكتساب كسباً من الناحية النفسية، لمناخ التوازن والراحة الذي يُشيعه في شخصها، فإنّنا لنراه خسارة لمنحة الحياة والسعادة بوجهيها المادّي والروحي في آن، لأنه منها ابتعادٌ مخالف عن التوجُّهات الطبيعيَّة في ذاكرة الكائن متلهّفاً إلى قرينه من الجنس الآخر.

ولذلك نلمح أن جبران وهو العاشق لم يلحظ في حبيبه غير تلك الكآبة الناتجة أصلاً عن هذه الحيرة في الانتماء. يقول: «أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها فهي الكآبة العميقة الجارحة، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبة وغرابة، وتظهر أشعة نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح»[2].

ففي أعماق سلمى، معشوقته، أثرٌ باقٍ من فردوس مفقود، لا هو بزرقة السماء، ولا هو بغبار الأرض الصحراوية، لأنّه في الحقيقة مزيجٌ من الإثنين، ومن دون هذا المزيج تتحوّل الحياة إلى انتظارات حزينة لأمل يُرجأ استحقاقه إلى أجل غير مسمّى.

وما يظهر في حال سلمى، ومعها جبران، بأنه انتصار لقضيَّة وجود يعاني الحيرة، ليس في الحقيقة سوى انتصار حزين[3]. فأنّى للشخصيّة الإنسانية أن

---

(١) وهي أحلام تحظى بواسطتها سلمى هذه بنوع من حرية في منأى من كل إكراه خارجي يحول دون التمتّع بها في الحياة الواقعة.

Voir: Freud, «Introduction à la psychanalyse», op. cit.

(٢) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٣) يرى أرسطو في تحديد للذّة أنها نوع من الاستراحة المؤقتة. وإذا امتلكت الإنسان، من بعد، عواطف الكآبة يكون ذاك بسبب حالة نفس تعيش نقصاً في إتقان.

Voir: P. Ricœur, «Finitude et culpabilité», op. cit.

إنه حال سلمى السعيدة الكئيبة.

تجد ذاتها خارج سرب الإنسان وفي غير أرضه! فدائماً تبقى العودة من سفر الحلم والأسطورة، ليتعمّق الشّرخ في شخصيّة سلمى بين الواقع والمثال.

ولعلَّ هذا الانخطاف باتجاه الماوراء، اجتداءً لحلول تترجم أشواق سلمى الكائن، تقع مسؤوليّته على عاتق جبران نفسه. فهو لا يفرج عن شخصيّتها أو يبيحها للأنظار إلاّ عند نافذة يختارها بذاته، فتذكّرنا، على اتفاقيّة وجودها، تلك الحالات المتسامية التي يرقى نحوها القلب المتعبّد، وتغدو من ثمّ، كالظل، يتحرّك في الحقيقة مؤتمراً بإرادة مصدره. يقول جبران في سلمى: «فكلّ زيارة كانت تبين لي معنى جديداً من معاني جمالها وسرًّا علويًّا من أسرار روحها حتّى أصبحت أمام عينيّ كتاباً أقرأ سطوره وأستظهر آياتِه وأترنّم بنغمته ولا أستطيع الوصول إلى نهايته»؛ و «جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي نشاهد أشباحه في القصائد السامية والرسوم والأنغام الخالدة. وأصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت أرواحهم تظل مكتنفة بغلاف من الدموع»[1].

هي أوصاف تزيد من مقدار الإغراب في هذه الشخصيّة الأثيرية، وتعرّضها للسّير، ليس فوق أديم الحياة ولا تحته، بل في متاه من الإثنين، بحيرة وضياع لا يستقرّان على هدف وغاية، ولا يسهمان في الوصول.

بهذا المعنى نفهم أنّ البؤس بشكله المادّي لا يكفي ليتسبَّب في اندلاع الثورات، فهذه قد تنطلق إثر عهد من البحبوحة، وسلمى إحدى الثريّات،

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

وكأنما سلمى ـ الكتاب هذه، هي الذات الجبرانيّة المشعَّة شعراً ورسماً وكل عطاء، في تواصل لا انتهاء له، ثم هي موضوع التسامي في فنّه، أو بعض منه.

وجبران هنا طراز من أهل الفن يمتلك زمنه من خلال صنيعته، وما مجسّم سلمى كرامة إلاّ قضيّة نضاله في وجوده، وككلّ عمل فنّي، هو محاولة للاقتراب من الحقيقة، على حدّ تعبير أدلر، فيطريه معظماً إياه في عين نفسه، وتنعكس فيه مطامحه. =

وحتى داخل الأمّة المتحضّرة والمثقّفة[1]، والسلبيّات كلّها، من بؤس وجوع وعوز، لا تقدّم إلاّ عنصراً من عناصر الثورة التي تتحضّر، وليس الدافع المقرّر للأزمة[2].

ولكن سلمى، هل رامت الثورة فعلاً؟

ظاهر «الأجنحة المتكسّرة» يوحي بذلك. والحقيقة أن جبران قد ظلم سلمى كرامة، وزاد، بتحريكه عنصراً داخلياً خفيًّا في أغوارها، من مقدار حيرتها وضياعها. فلقد شعر، وجعلها تشعر بغير «الكلام الذي يحدث التفاهم بين الأرواح المتحابّة»[3]، أن الأجساد «لا تفوق السجون الضيّقة، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد»[4]، فنظرت إليه «وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوء سحريّ: تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين الأشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل»، وغذّى حبّها الشاعريّ بأحلامه فقالت له: «لقد كنتَ لي بالأمس مثل أخ أقتربُ منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي، أما الآن فقد شعرتُ بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخويّة. قد شعرت بعاطفة غريبة مجرَّدة عن كل علاقة: عاطفة قويّة مخيفة لذيذة تملأ قلبي حزناً وفرحاً»[5].

= Voir: Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(١) A. Joussain, «La Loi des Révolutions», Flammarion, 1950.

(٢) E. Faure, «Prévoir le Présent», Gallimard, 1966.

(٣) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

وهذا الاستغراق في الحب الأثيري من جانب جبران، دعوةً إلى التمتّع بأثره في نفسه، جمال طبيعة، وغبطة داخليّة، من شأنه أن يحافظ الفنّ على أوّليّته لديه، وهو وسيلة لطمأنة شعوره بقدرات شخصه. فالنبوغ يؤمن له فرصة البحث لإيجاد طريقة لتأكيد ذكريّته عبر الفن. والأسباب ليست سوى قوة المرأة والخوف الذي توحيه في نفسه.

Voir: Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

فسلمى هاربة من نفسها ودورها الأنثوي، تريد رجلها الكاتب العاشق، وهي على صورته ومثاله، فكرة تصنعها وحلماً ترسمه أكثر ممّا تريده حبيباً. ولا شكّ في أنّ زواجها من منصور بك غالب جاء مسرفاً في الواقعيّة فأغرقها في دورها الأنثويّ، فما استطاعت أن تقرّر ثباتاً لشخصها على هدف من الأهداف.

ولكنّ حيرة سلمى كرامة هي حيرة أشواق ضلّت طريقها في قصور من مشاعرَ مراهقة وعدم اختمار أيضاً. تقول لحبيبها قُبيل زواجها: «انظر إلى وجهي يا صديقي، انظر إلى وجهي جيّداً وتأمّله طويلاً واقرأ فيه كلّ ما تريد أن تفهمه منّي بالكلام... انظر إلى وجهي يا حبيبي... انظر جيّداً يا أخي»، و «أنا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئاً... أنا لا أحبّ هذا الرجل لأنني أجهله، وأنت تعلم أن المحبّة والجهالة لا تلتقيان، ولكنني سوف أتعلّم محبّته. سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً. سوف أهبه كلّ ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القويّ»[1]؛

تبعثرُ مراهقين في انتماء الأشواق إلى أكثر من غاية، وضياع ما بين أهداف الحب والصداقة والأخوّة، يليه اتّزان وهدوء الراشدين في أثناء حكمهم على المسائل المعقّدة باختمار ونضوج، وقرار ذوي العزائم لولوج باب المصاعب على تهيُّؤ واستعداد ورغبة في إخضاعها بشكل من الأشكال.

ولكنّنا سرعان ما نسمع سلمى كرامة تعاود تفجّعها والتحسُّر. فبعد أن دعت حبيبها في الجلسة ذاتها وبهدوء ليحاولا معاً تصوير المستقبل قبل أن يحمل عليهما بمخاوفه وأهواله، تقول «بصوت تتابعه الغصّات: ولكن أهٰهنا تفرّقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة؟ أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة؟... لم نخالف وصية ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنّة؟ لم نتآمر ولم نتمرَّد فلماذا نهبط إلى الجحيم[2]؟»؛

---

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

وتنساح حمماً في غير متّجهها الصحيح، مقتلعةً أسس حضورها الإنساني الواعي، وقاذفةً بها خارج دائرة التماسك والاتّزان والقرار: «. . . والآن قضي الأمر فماذا نفعل؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق ومتى نلتقي[1]؟ هل نحسب الحبّ ضيفاً غريباً أتى به المساء وأبعده الصباح؟ أنحسب هذه العاطفة النفسيّة حلماً أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة؟»[2].

فسلمى كرامة طراز من الأبناء الجبرانيين الحائرين في انتماء. فهي تائهة في خياراتها المتاحة، وانتماؤها إلى عالم الكفاية والكفاف لا يؤدّي إلى إسكاتٍ لإلحاح الأشواق في نفسها، ولا تتمتّع بصفاء العيش وطمأنينته مع أنّها لرخاء أو قدرة بمفهومها الاجتماعي.

وسلمى طريدة نزوع غامض يملأ حياتها، ويجرّدها من سلاح القناعة وحتى الرجاء أحياناً. فلا قرب حبيبها يرضيها، ولا ابتعاده يشجيها، وكأنما السعادة الحقيقية لها تكمن في أن تستمرّ سعياً لا في أن تحظى بوصول.

وكم نرى سلمى كرامة داخل كتاب «الأجنحة المتكسّرة» على استعراضيّة بعواطفها[3]، على نحوٍ تتنقّل بهواها بين ذاتها الصغرى ككائن يفترسه المأزق

= وهو إيماء من جبران بالإيحاء إلى طرد آدم من الفردوس بعد الخطيئة. وفي المقارنة، يبدو الحبّ لدى جبران عملاً خلاصياً لا يستوجب اللعنة والطرد.

(1) كأنها تساؤلات جبران القصّاص، من زاوية صرف تقنيّة، يحاور بها نفسه، هو من أربكته المواقف الغنائية المتعاقبة، حتى أضحى سجينها، وتعقّدت عنده فرص التواصل في المدّ القصصي على شكلٍ طبيعي واقعي.

(2) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.
وكأنما، برأي سلمى ـ جبران، تستحيل السعادة في الحضور الواعي للإنسان، وتبقى فسحة حلم سرعان ما تزيلها اليقظة.

(3) هي ميزة الأدب الجبراني المكتوب بالعربيّة بوجه خاص. فنلحظ في معظمه ميلاً من الكاتب إلى الاستغراق في الأوصاف النافلة، والمواقف الغنائيّة والوعظية، فتنتقل الحركة، ويتباطأ السرد، فعلَ رسّام، يُعدّ لوحات مختلفة الموضوعات، ثم يضمّها فوق جدار، داخل معرض اسمه هنا «الأجنحة المتكسّرة».

والفاجعة، وذاتها الكبرى تلمحها في شخص المرأة الشرقيّة البائسة يحاربها الربّ الجبّار. وفي الحالين تبين متضاربة العواطف، حائرة الرؤى، على أثرة واستئثار حيناً، ولتضحيات جسام أحياناً حتى نكرانها ذاتها.

تقول سلمى لحبيبها بعد تأكّد خبر زواجها من ابن أخي المطران: «أريدك أن تحبّني. أريدك أن تحبّني إلى نهاية أيّامي. أريدك أن تحبّني مثلما يحبّ الشاعر أفكاره المحزنة. أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادئ رأى فيه خيال وجهه قبل أن يشرب من مائه...»[1] ثمّ، في مكان آخر، وإبّان أبوها على فراش الاحتضار وهي تخاطبه بوجود حبيبها، ترسم مسافةً بينها وبين من تحبّ بمداد العاطفة، ولكن بوميض العقل. تقول: «ليس لي غير هذا الصديق يا والدي ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني، فهل أتعزّى به وهو متعذّب مثلي؟... إن الحزينة لا تتصبّر بحزن جارتها كما أن الحمامة لا تطير بأجنحة مكسورة... هو أخ أحبّه ويحبّني ولكنّه مثل جميع الأخوة يشترك بالمصيبة ولا يخفّفها، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقاً»[2]؛

ثمّ تتجه إلى السماء، متجاهلةً حبيبها وقضيّتها، بصرخة تضمّنها وجع المرأة في وادي الصريف والدموع: «ماذا فعلت المرأة يا ربّ فاستحقّت غضبك؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك إلى آخر الدهور؟... أنت عظيم وهي تدبُّ حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك؟... في حنجرتها تبث نغمة الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة... أنت تطهّرها بدموعها وبدموعها تذيبها. أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل من حبّات صدرها...»[3].

---

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

وكم من علامة استفهام ترسم حول الأثرة والأنانية في حبّ يشقي الحبيب ويسجنه بالذكرى!

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

فحلم الحريّة لدى سلمى الأنثى العاشقة الكارهة، الوديعة والثائرة، يتداخل وسعيها الدؤوب للبحث عن معانٍ جديدة للحياة، ويمثّل امتداداً في الزمان والمكان لاشتهاءات كيانها، ومرتكزاً لمسيرها، تحسيناً لصورتها والمصير.

وإذا ما أنعمنا النظر في حقيقة وأسباب ما تعانيه سلمى كرامة، من اضطراب في انتماءاتها وحيرة في الاختيار، نجد التفسير، على الأرجح، في رغبة لديها بتأكيد ذكريّتها، وفي رفضها لمبدإ الأنوثة، على وداعتها، لأنه مرادفٌ للفشل[١]، في حضارة إنسانيّة تترسّخ فيها دونيّة المرأة عبر الشرائع والتقاليد، وعلى الرغم من إنكار الناس لحدوثها[٢].

وتتوالى أمارات الحيرة والضياع في شخصيّة سلمى كرامة، فما إن تنسب، أمام حبيبها، ما أصابهما، إلى الدهر: «أرأيت كيف تبدّلت الأيام؟ أرأيت كيف أضلّنا الدهر فسرنا مسرعين إلى هذه الكهوف المفزعة؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحبّ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء أمام عرش الموت. . .»[٣]؛

حتّى تنقاد إلى لقاءات بحبيبها في هيكل مهجور، اجتماعات غير مقتصرة على مبادلة العواطف وبثّ الشكوى، «فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الغابرة في أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجيّة في أيّامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد»[٤]؛

---

(١) Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٢) Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٣) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

ونشير إلى أن الوصف مع جبران يفضي دواماً إلى مقدار من الخلقيّة المتأمّلة في الحياة. وكأنّما هذه العظات، في أواخر الفقرات خصوصاً، تشكّل روابط إنسانية بين زمنين هما: زمن السرد في القصة، والزمن الكونيّ الذي يضعنا الوصف في دائرته.

(٤) المصدر نفسه.

ومن ثمّ، وعلى حين غرّة، ودون إقناع من تسويغ، تعلمه بأنها ستفترق عنه إلى الأبد، من غير إفصاح أوّل الأمر «لأنّ اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلّم، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرّك...»، ثم ببوحها أنها تجيء «مثل امرأة حيَّة تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد أن تحمي من تحبّه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجائعة»[1]؛

ثمّ ارتمت على صدره بانعطاف كلّي ما عهده فيها قبل تلك الساعة، وطوّقت عنقه بزندها الأملس، وقبّلت شفتيه قبلةً طويلة عميقة محرقة يقول فيها جبران: «أيقظت الحياة في جسدي، وأثارت الأسرار الخفيَّة في نفسي...»[2]؛

لتهمس، من بعد، مخاطبة يسوع الناصري، وقبيل عودتها إلى منزلها الزوجي ـ الكهف المظلم «حيث تتراكض الأشباح المخيفة»: «ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري، وتركتُ مسرَّات عشتروت وأفراحها. قد كلّلت رأسي بالأشواك بدلاً من الغار، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب... فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيّرني نحو الجلجة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم»[3]، فتخترق من جديد قشرة آدميّتها الجائعة، لتجدّ في رحلة عذاب مختارة على درب المتصوّفين، مستقيلة، بشكل نهائي، من الأرض والحب بمعناه الزمني؛ واعدة نفسها بالعطش الدائم وحنين التسامي.

إذاً.. حيرة سلمى كرامة بل ضياعها من اهتمامات قد ضلّت سبيلها. فالحاضر لا يغري بغير بثّ روح العزاء المتبادل بين الحبيبين المثلَين، وهما

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

وما يُسأل حقاً هنا هو: لماذا تأخرت سلمى في إعلان هذا الموقف؟ وقد كان بإمكانها أن تجهر به مع تمنياتها لحبيبها، بأن يبقى الطائر الحيّ المغرّد، يوم نوت أن تخضع لرغبة والدها والمطران.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

واحد، على ما قلنا؛ حتى ليغدو كتاب «الأجنحة المتكسّرة» جلسات مأتميّة بانتظار نقل جثة العالم إلى مثواها الأخير.

وهي، بهذه الحيرة بل هذا الضياع، تمثّل الحالة اليوميّة للاغتراب الإنساني، سعياً وراء كوكب هناء قد ضلّ الطريق، فتبحث عنه دون جدوى، مع أنه موجود، ولو لم يكن كذلك لما كان بحثها[١].

إنّها على موعد مع سعادة مستحيلة، لأنها ترومُها كذلك، متباعدةً باستمرار، وكحلم هو موضوع للعطش الدائم، فتصطدم أشواقها بضعف إمكاناتها، جسديّة ونفسيّة، وتُسكن بشعور مأساة[٢] يبطن ثورة على الحياة بشعارات الحقّ في الحياة، نابعةً من عميق الإحساس بالدونيّة والخوف، وهو إحساس تنتقل عدواه إلى الأطفال[٣]، محتوى تربويًا سلوكياً باتجاه السيطرة، كمثل ما ينعكس الشعاع في المرآة ليصير ينبوعاً للشعاع.

■ وفي لوحة «مخبّآت الصدور» من كتاب «دمعة وابتسامة» وجه بنويّ آخر تشبه قسماته إلى بعيد قسمات وجه سلمى كرامة. يقول جبران معرّفاً به: «جلست صبيّة بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها مثلما تتكئ زنبقة ذابلة على أوراقها، وتنظر إلى ما حولها نظرات سجين يائس يريد أن يخرق بعينيه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة في موكب الحريّة»[٤].

---

(١) مستوحاة من كلام إله باسكال: «ما كنتَ لتبحث عنّي لو لم تجدني».
Voir: Jean Lacroix, «La Sociologie d'Auguste Comte», op. cit.

(٢) Cité par André Decouflé, «Le Sociologie des révolutions», op. cit.

(٣) يقول فرويد ما معناه: إنه لمن الجيّد أيضاً أن نعلم أنّ كلّ ما نفترضه منسياً ليس كذلك.
Voir: Freud, «Psychopathologie de la vie quotidienne», P.B.P., 1776.

(٤) راجع دراستنا كتاب «دمعة وابتسامة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

هو المأزق، مرة أخرى، آن الكون كزنزانةٍ، والعين إلى ما وراء القضبان بحثاً عن متاه ينسي السجين فاجعته في حاضره، وينأى به عن كوابيس خبيئة.

ونراها، تلك الصبيّة، كسلمى واقعاً أسريًا، وهي تخطّ إلى صديقتها، «أختها المحبوبة»: «شاء والدي وجمع بالقران بيني وبين رجل شريف غنيّ شأن كل والدٍ غنيّ شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر وضمّ الشرف إلى الشرف هرباً من ذلّ الأيام»[1]؛

وكذلك كبعض سلمى كرامة حتّى لنظنّها إيّاها وهي تعد جبران لحظة وداعه تقول: «أنا أعتبر بعلي لأنه كريم الخلق، شريف القلب، يجهد النفس في سبيل سعادتي، ويبذل المال لرضاي، ولكنّي وجدت تأثير هذه الأشياء كلّها لا يساوي دقيقة محبّة حقيقية مقدّسة...»[2]؛

وعلى إيمان كمثل سلمى بحتميّة العبور إلى السعادة، ولكن عبر نفق الآلام، وبرفضها العزاء. تقول: «إيّاك يا صديقتي محاولة تعزيتي، لأنّ لي من مصائبي معزّياً، هو إدراكي قوّة حبّي، ومعرفتي شرف شوقي وحنيني، فأنا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنيّة تقترب منّي يوماً فيوماً، لتقودني إلى حيث أنتظر رفيق نفسي وألتقي به وأعانقه عناقاً طويلاً مقدّساً»[3]؛

وتظهر على تناقض في العواطف والقناعات، إذ تعود إلى وجعها بعد أن كان العزاء: «إي يا أختي. أنت تعلمين أنني شهيدة صغائر هذا العالم وضحيّة الغباوة وترحمين أختاً ساهرة في سكينة الليل المخيف لتكشف لك ستائر

---

(١) «دمعة وابتسامة»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

ونشير إلى حلّ الحبّ المتعثّر عن طريق الموت، كظاهرة تتردّد في «دمعة وابتسامة». ونراه في هذا المشهد القصصي مشابهاً إلى حدّ بعيد لخاتمة «حكاية» في الكتاب ذاته.

صدرها عن أسرار قلبها. أنت ترحمين لأنّ الحب قد زار قلبك»[1].

هي قيود تكاد تكون ما ورائيّة من صنع أنامل خفيّة تعمل من وراء ستار الوجود، وفي اليقظات اليوميّة للإنسان، تجعل من هذه الصبيّة سجينة في الأرض[2]، ولا تصنع وجودها، لأنّها مستسلمة مسبقاً إلى نهائيات فيه لا تتغيّر.

ونراها، تلك الزوجة الصبيّة، لتأمُّل مخضّب أبداً بدماء الفاجعة، ولعاقلة في حداد، واقفة على أبواب المستقبل من واقع كفايتها اليوميّة، كقرينتها الثريّة سلمى كرامة، ووسط دائرة من التخمة في كلّ شيء، وقفة انتظار وقلق بلا محتوى، وفراغ قاتل، وضجر هو أبٌ لكلّ نوع من المصائب والفواجع[3].

وتختار في مرحلة من مراحل ضياعها سوى بعلها «الشريف الغنيّ»، ولعلّ العذر لعين اقتناعها دمار مختار خير من آخر يُفرض فرضاً، فنتأكّد من أنّ للأوجاع النفسيّة التأثير المباشر في تكوين المخالفة بأشكالها المتعدّدة، وفي رأس قائمتها ثورة، وإن بغير مضامين، واقتناص للذّة، بشكلها الوعدي الواهم هنا، قبل أن يطوي عمرها حاضرٌ دائم الهروب.

■ وكم يمضّ واقع الكفاية هذا صاحبه، حتى ليغرقه في عتمة ذاته وحيداً غريباً، بلا فلاح وبلا، حتّى، وهم وعد، والمثل من كتاب «البدائع

---

(١) «دمعة وابتسامة»، ع. س.

ونشير إلى أن في الزوجة الصبيّة هنا شيئاً من «وردة الهاني» قبل أن تتّخذ قرارها بالالتحاق بحبيبها الشاعر، وكذلك من المرأة الزانية في «صراخ القبور»، وهي كالعروس في «مضجع العروس» (راجع دراستنا «الأرواح المتمرّدة»، ع. س.). أما الأخت ـ الرفيقة التي توجّه إليها الرسالة فكأنها «سوسان»، صديقة العروس، في أقصوصة «مضجع العروس».

(٢) من قول في عالم صموئيل بيكيت، الكاتب الإيرلندي.

Voir: Bernard Dort, «Théâtre public», op. cit.

(٣) G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

والطرائف». فثمّ لوحة «نفسي مثقلة بثمارها»[1] حيث «ابنة الملك الأكبر قد استيقظت من رقادها وهبّت من مضجعها وقامت فتردت بأرجوانها وبزفيرها وتزيّنت بلؤلؤها وياقوتها ونثرت المسك على شعرها وغمست بذوب العنبر أصابعها ثم خرجت إلى حديقتها ومشت وقطرات الندى تبلّل أطراف ثوبها». ويتابع جبران: «في سكون الليل سارت ابنة الملك الأكبر في جنّتها تبحث عن حبيبها، ولكن لم يكن في مملكة أبيها من يحبّها»[2].

فيفتح الكاتب، لها وعنها، باب التغيير القدري، ولو عن طريق التمنّي. يقول: «ألا ليتها كانت ابنة زرّاع ترعى أغنام أبيها في الأودية وتعود مساء إلى كوخ أبيها وعلى قدميها غبار المنعطفات وبين طيّات ثوبها رائحة الكروم. حتى إذا ما جنّ الليل ونام سكّان الحيّ اختلست خطواتها إلى حيث يترقّبها حبيبها»[3]؛

أو يجعلها تعانق في الطرف الآخر من الاعتكاف الوجودي حلمَ راهبة في دير. يقول: «ليتها كانت راهبة في الدير تحرقُ قلبها بخوراً فينشر الهواء عطر قلبها. وتوقد روحها شمعاً فيحمل الأثير نور روحها. وتركع مصلّية فتحمل أشباح الخفاء صلواتها إلى خزائن الزمن حيث تُصان صلوات المتعبّدين بجانب حرقة المحبّين وهواجس المستوحدين!»[4]؛

---

(١) هذه القطعة في الأساس من الخواطر، وفيها ألم الكاتب الحكيم الذي يعيش السعادة مستوحداً كئيباً، ولا يقوى على أن يكون واهباً قلبه خبزاً ودماً خمراً. ولكن فيها مقطعاً قصصياً حيث ابنة الملك وحيدة في نعيمها، ولا حبيب لها، حتى ليتمنّى لها الكاتب لو كانت راهبة في دير أو ابنة زرّاع. (راجع دراستنا كتاب «البدائع والطرائف»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

وهي السعادة المكتفية المستوحدة، تغلق على صاحبها باب الأحلام، وتسقطه في قفر نفسه، فيحزن.

(٤) «البدائع والطرائف»، «نفسي مثقلة بأثمارها»، ع. س.

أو يتمنّى عنها انقضاء الزمن الذي يستغرقه عبورها صحراء الجوع، فذاك خير من انتظارها على غير طائل سعادة النفاد في الآخرين: «ليتها كانت عجوزاً مسنّة تجلس مستدفئة في أشعة الشمس بمن تقاسموا صباها، فذاك خير من أن تكون ابنة الملك الأكبر وليس في مملكة أبيها من يأكل قلبها خبزاً ويشرب دمها خمراً!»[1].

كلّ أمر محتمل من منطلق واقع مغلق، مسوّر بجدر من فراغ، وحاضر يتساوى في نطاقه الثابت وغير الثابت، ما دام التحوّل من حال إلى حال لن يُؤتي إلّا حاضراً من مثله.

فابنة الملك الأكبر، وهي في أعلى السلّم الاجتماعيّة، تنظر إلى ما دونها في ما يشبه جَزر المدّ بعد اندفاقه، علّ ما تبصر يفي بحاجة شخصها إلى يقين، أي إلى مرتكزات أكثر إثارة للعيش، واستحضاراً لشهيّة الاستمرار فيه.

مرّة أخرى، هو الشخص الجبراني، الإبن كوالده من قبله، في صراع من أجل السعادة، معقولة أو طالعة بهمس وخفوت من أعماق أغواره الغامضة، يصوّب نحوها قواه، بإرادة حيناً، وبالغريزة كلّ حين، ولا يصيب، فينكفئ مثخناً بالجراح، يتهيّأ لجولات أخرى من الصراع في سبيل وصول. وكم يطول انتظاره ليبلغ غاياته! وكم يقصر عمره اجتيازاً لمتاهات يظنّها مفضية إلى واحات مناه!

والنتيجة في حال هذه الأميرة؟

استمرار في التنقّل على الأرجح وراء الأهداف الخارقة وهجاً وجاهاً، حتى أوان الانحدار، مع العمر والسأم والإحباط، إلى منازل كل الناس واهتماماتهم، فتخفي الغاية البعيدة غلالة قريبة من قناعة واهية، أو تنام جذوة

---

(١) «البدائع والطرائف»، «نفسي مثقلة بأثمارها»، ع. س.

وهذه السعادة، سعادة النفاد في الآخرين، كما المسيح في قلوب متناوليه، تبطن معنى خلاصياً، فتطهّر الحياة وتجدّدها.

الحيرة والهاجس المتعب إلى يوم يفرخ في ظروف أخرى على صور شتّى من شذوذ ورذائل.

فابنة الملك الأكبر نفسيّة حزينة بمظهر حبور، وهمٌّ وجودي يسكن قلبها إذ يهرب منها الحاضر جارفاً معه أنوثة لن تستعاد وشباباً، وتشعر في قرارتها بدنوّ أفول واقتراب مغيب لا فجر له. ومن يدري؟ فقد تنغلق في رقعة هذا الحاضر[1]، دونما التفات أو ركون إلى فرص أخرى في المستقبل تعيد إليها الحياة بهيّة ألقة متفائلة، في شبه اعتراض يوميّ على الدنيا وحرب ضروس تخوض غمارها لقضيّة انتقام[2] ومساواة بمن لهنّ حرية التصرف والقرار، والعدوّ وهميّ من داخلها، ولكنّها تتصوّره المجتمع بتقاليده الجائرة المكبّلة لشخصها، وبأنظمته القاسية في تكريسه التفاوت بين الطبقات، أو تتوهّمه القدر الذي يُجري على الناس ناموس إخضاعهم لأمره بلا مقابل.

■ وكتاب «المجنون» لا يبخل علينا بمثل هذه الحيرة البنويّة، ولكن في النطاق الكوني، ومن ضمن القلق المرافق لهمّ المعرفة بمعناها الشامل. يقول جبران في لوحة «الله»: «عندما ارتعشت شفتاي بالنطق لأوّل مرّة، صعدت إلى الجبل المقدّس وناديت الله قائلاً: إنّني عبدك يا ربّي، مشيئتك الخفيّة شريعتي، وسأظلّ خاضعاً لك سحابة الحياة. فلم يجبني الله، بل مرّ كعاصفة هوجاء واختفى عن ناظري»[3]؛

فكمثل طفل غادره أهلوه، هام على وجهه غير مرتقب مآلاً محدّداً يصمت

(١) Voir: Freud, «essais dc psychanalyse», op. cit.

(٢) المبادئ الخلقية القاسية على إنسان تستتبع لديه مواقف انتقامية، وكل انتقاص من قيمته أمام نفسه يحفّز لديه سعياً للتساوي بالآخرين، أو لإلحاق الهزيمة بمن يتوهمه خصماً.
Voir: Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٣) «المجنون»، «الله»، ع. س.

في أعماقه حنينه الملحاح. فلا الولاء بعبوديَّة، ولا الإقرار بالمشيئة، ولا الاستعداد للعيش بهديها، هذه كلّها لم تدنه من حقيقة ما يبحث عنه، ولم تنأَ به عن شكوكه.

ثم يقول: «وبعد ألف سنة صعدتُ ثانية إلى الجبل المقدّس وخاطبتُ الله قائلاً: أنا جبلّة يديك يا خالقي، من تراب الأرض صنعتني وبنفحة من روحك العلويّة أحييتني. فأنا مدين لك بكليّتي. فلم يجبني الله، وكألف من الأجنحة الخاطفة اجتاز بي عابراً»[1].

فكمثل عارف ثنائيَّة الكائن ومصدرها، مستعدّ للزهد وللتقشّف، متبصّر في مسألة حنينه من داخل عتمة المادة المفروضة عليه، إلى النور الصراح مشعًّا من الروح العلويَّة، وتلك كلّها رسَّختها في يقينه مكتسبات الأجيال؛ حاول، ولكن دون جدوى، أن يدنو بها من الحقائق الخالدات، ويحظى بغبطة داخليَّة، واستكانة في مشاعره والشكوك.

ويتابع جبران: «وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدّس أيضاً وناجيت الله ثالثة قائلاً: يا أبتاه القدّوس، أنا ابنك الحبيب. بالرأفة والمحبَّة ولدتني وبالمحبَّة والعبادة سأرث ملكوتك. فلم يجبني الله في هذه المرّة أيضاً، وكالضباب الذي يغشى قصيّ التلال توارى عن عيني»[2].

وكمثل ضالّ سواء السبيل، انطوى عهد آخر من عمره ومن زمن الإنسان[3]، فلم ينل مرتجاه. وظلّ ذاك الخابط في صحراء الوجود، منقّباً عن واحة احتماء أخير.

---

(١) «المجنون»، «الله»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) لا يخفى ما في تسلسل المراحل الزمانية من إشارة إلى العهود المختلفة للإنسان، وقد تسامى في خلالها من العبودية المتعبّدة للّه والآسرة إيّاه في حلم أرضي، حتى مرحلة التحرّر بالعبادة في نزعة حلولية تجعل من الصلاة همساً من الذات إلى الذات. وما =

ويختم جبران رحلة اقتحامه شكوكه، عنه هو ابن الإنسان، وعن كلّ قرين في الزمان. يقول: «وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدّس وخاطبتُ الله رابعة قائلاً: يا إلٰهي الحكيم العليم، يا كمالي ومحجّتي، أنا أمسك وأنت غدي، أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات، ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس. فعطف الله إذ ذاك عليّ وانحنى فوقي وهمس في أذني كلمات تذوب رقّة وحلاوة، وكما يطوي البحرُ جدولاً منحدراً إليه طواني الله في أعماقه»[1].

مآل أخير، في المنحى النظريّ لمتّجهات سعادة موعودة، وعلى أمل بقيامة النوع بأسره في المعتقد الجبرانيّ[2]. ومثار الحيرة هنا في هذا الوجه ـ الإبن للّه والإنسان والعالم، على مذهب الحلولية الجبرانيّة، أنّ المُرجأ ليوم غير محدّد قد لا يتحقّق، وأنّ الخلاص بحدّ ذاته ينبع من قلب العدميّة، وإن مؤمنةً بوجه من الوجوه، ومن الإحساس بالصغر اللامتناهي حيال وجود لا حدّ لتراميه غموضاً وعظمة.

يقول جبران في خاتمة «الله»: «وعندما انحدرتُ إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضاً»[3].

فالكبير في الصغير، ولا قسمات فارقة بين الموجودات والكائنات، لإنسانيين أكانت أم لجمادات. ومثار الحيرة، مرةً أخرى، أنّ لا حيرة تكبّل سعي الكائن في قنوات الرحيل الدائري، لأنه حلوليّ، أبد الدهر، فيشعر

= التنامي أمام وجه الشمس، والاف السنوات المتعاقبة سوى تمثيل في مسرح الحياة لرحلة كونيّة مفروضة باتجاه الكمال، استجابة لناموس سرمديّ لا يتغيّر.

(١) «المجنون»، «الله»، ع. س.

(٢) راجع الجزء الثالث في هذا المجلّد «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني».

(٣) «المجنون»، «الله»، ع. س.

مع الإشارة إلى أن في الطبيعة، جمادها والأحياء، يسكن الله. إنها وحدة الوجود في المذهب الجبراني، حتى ولو تراءى هذا الوجود فروعاً وأصولاً، جداول وبحاراً.

الإنسان هذا بغبطة ممتلئة هنا، جرحها الوحيد أنّها لا تعرف الإخفاق، ومعها تنتفي لوثة الإنسانيّين بمعناها الفردي الضعيف الحبيب.

■ ولكن من الأبناء الجبرانيّين من يتوه بين قلب وعقل، بين تجديد وتحديد في شؤون الدنيا والآخرة، قبل الوصول إلى اغتباط الراوي في لوحة «الله» وحتّى ليموت فيه ما يموت، ويعيش الذي في صالح الرسالة.

يقول توما الرسول واصفاً جدّه وشكوكه: «قال لي جدّي مرّة، وكان متشرّعاً: لنحتفظ بالحقّ عندما يظهر الحقّ لنا، وعندما دعاني يسوع لبّيت دعوته، لأنّ أمره كان أقوى من إرادتي، ولكنني لم أنسَ نصيحة جدّي، رحمه الله. وعندما كان يخاطبنا فيتحرّك غيري من السامعين كأغصان الأشجار المتمايلة أمام هبوب الرياح، كنتُ أصغي إليه من غير أن أتحرّك، ولكنّني على رغم ذلك أحببتُه»[١].

حالة انتمائية حائرة، وفي طرفيها كليهما حرارة اللقيا وفرح الاكتفاء، ولكن ليس إلى بعيد. فالتعايش بين النقيضين، الإيمان والشكّ، هو لمغالبة تظهر حدَّتَها الأهداف السامية، فيتقدّم فريق ويتأخّر فريق، وتنتزع الحائر انتماءات أخيرة بقرار وإرادة وتسليم، ووراءها كلها نعمٌ وهبات سماوية.

ويقول توما واصفاً حالته: «في ذلك[٢] العهد المظلم بالشكّ كنتُ أضع يدي في جرحي لأرى الدماء تنزف منه قبل أن أصدّق ما بي من الألم. ولكنني قد عرفت الآن أن الرجل الذي يحبُّ بقلبه ويحتفظ بالشكوك في فكره، هو عبدٌ

---

(١) راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، «توما»، ع. س.

(٢) كأنما جبران يستنطق أشخاص كتابه في الزمن الحاضر، وهو الزمن الفنيّ معه، المستمرّ الحداثة.

محكوم عليه بالتجذيف في سفينة مظلمة، ينام أمام مجاذيفه ويحلم بحريّته حتى توقظه سياط سيّده»[1].

شكٌّ مرادفٌ في نواحٍ للوسوسة وللقلق، في شعور يوميّ بعدم الأمان، وارتهان لشتّى الرياح السوداء تقتلع الكائن المسالم فيه من أرض ركونه لتزرعه في كل مهبّ أرعن. فتوما الرسول ورث عن جدّه العقل الحصيف حقاً، وقدرة المماحكة به وصولاً إلى مرتكزات آنيّة تسهّل عليه الخطو في ما يبدو له المتاه، ولكنّه أصبح أسيره، وأدرك أنّه السلاح غير الصالح لمعركة إثبات وجوده كإنسان عابر في هذا العالم ليس إلاّ.

والشكّ لتوما غدا المجذاف، بواسطته يمخر عباب البحار المظلمة التي تكتنفه من كل جانب، وهو يصبو دون تقصُّد إلى أن ينقل قلبه معه إلى الشاطئ الملائم الحالم السعيد.

إنّ جدّ توما لتوما الإبن هو النموذج الجاهز للإنسان، مالك حاضره ومحيطه، ومظهر من مظاهر الإحساس بالغلبة، نقيض الغفلة الملازمة للسعي الإنساني في ظلّ القوى الجبّارة غير المنظورة أو تلك الغامضة الهاجعة في أغوار الكائن. فتبنّاه نموذجاً لرفع إحساسه بقيمة شخصه، وفي هكذا وسط لا يُقلّد إلاّ ما يشجّع ميلاً إلى القوّة[2]. نقول ذلك مع الإشارة إلى أنَّ الطفل لا يتعلّم الطبيعة إلاّ من خلال الإنسانيّة، وهو كالمعزول أساساً عن مشهدها، ولا يقاربها منفرداً، يُرشَد إليها وتسمّى له، فيدرك كلّ شيء عبر النظام الإنساني، ومن خلال هذا النظام يكوّن فكرة عن نفسه[3] وعن الآخرين. ومَنْ أُولى صفحات هذا النظام الإنسانيّ غير الآباء والأجداد، سابقينا في حفر وجوههم على أديم الزمن؟

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «توما»، ع. س.

(٢) Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

(٣) Alain, «Eléments de philosophie», Cité par G. Berger, «Caractère et personnalité», collection S.U.P., P.U.F., N° 8, France, 1971.

ولكن توما، مع هذا الشك ـ الألم الذي «أنسته وحدته أنه والإيمان توأمان»، وهو «فرخ من الطير ضالّ وشقي» و «أمّه التي ولدته ستجده وتضمّه إلى صدرها»[1] وهو يهرب منها حذراً خائفاً؛

توما الرسول هذا، سرعان ما يعلن تحرّره من أمسه ومن جميع شكوك الأمس التي ورثها عن جدوده. يقول: «فقد دفن الميت فيّ موتاه، والحيّ فيّ سيعيش للملك الممسوح، ذلك الذي دعي ابن الإنسان»[2]. . . «إنني ماضٍ إلى عملي. ومن هذا اليوم إلى آخر أيّامي، في الفجر وفي المساء، سأرى ربّي قائماً بجلال وسأسمعه متكلّماً»[3].

هكذا أفضت به الحيرة إلى انتماء حقاً، ولكنَّه انتماء أحاديّ، معه يُلغى توما الكائن الشخص، ويغدو توما الرسول هو العلامة بل همزة الوصل لمجاهدة الإنسانيين في الزمان، ووعاء لاستقبال الحقائق النيّرات، إنساناً فوق الزمان، بل خارجه على الإطلاق، ومحطة ضرورة، من واقع رسوليّته، تسجّل الإنسانيّة بواسطته مناها، وتحقّق ولو جزءاً يسيراً من مرتجياتها.

توما الرسول لاقى من الطرف الآخر للحيرة الإنسانيّة انتماءه الأقصى، حيث تضيع معالم الإنسان، مرة أخرى، بتعبه اللذيذ، ونشوة انتصاراته الصغيرة، أو شبهه أقرانه بجزئيات وتفاصيل كثيرة في الحياة.

وإذا كانت جولة المغالبة بين العقل والقلب قد أدّت إلى انتصار القلب أي الإيمان في حال توما، فإنَّ لنا من «يسوع ابن الإنسان» جولات أخر جاءت فيها الغلبة للعقل أي المظهر الصارخ للمجد الأرضي في حال كثيرين. فهذا يهوّذا

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «توما»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

وقد غدا توما هنا مثال كل رجل تسلّح بقلبه ورحابة إيمانه، واستعدّ لتلقّي الحقائق بغير تزمّت أو تحفُّظ من عقل يماحك.

في لوحة «سيبورية أمّ يهوّذا» تصف أمُّه أطواره. تقول فيه: «كان ابني رجلاً فاضلاً مستقيماً، وكان لطيفاً رقيقاً في معاملتي، وقد أحبّ أهله ومواطنيه، وأبغض أعداءنا الرومانيين الملاعين. . . كان ابني في السابعة عشرة فقط عندما قبضوا عليه يرمي الحامية الرومانيّة بنباله وهي تمرّ بكرمنا. وفي ذلك العمر كان يحدّث أترابه من فتيان البلاد بمجد إسرائيل، وينطق أمامهم بأقوال وخطب عجيبة لم أفهمها»[1].

انتماء إلى الحدث الحيّ الساعي في التاريخ، وغير المرجإ بانتظار قيامات مجيدة على مستوى الكون بأسره لمملكة يكون فيها جميع الناس أمراء كما يقول رجل في «رجل خارج أورشليم»[2]. فيهوّذا تاقت نفسه إلى مملكة يكون فيها أميراً. قال: «وقد تكلّم يسوع كثيراً عن مملكته، حتى اعتقدتُ أنه اختارني قائداً لمركباته، ورئيساً لجنده، ولذلك تبعتُ خطواته برضى وطمأنينة. بيد أنني وجدتُ أخيراً أنه لم يطلب مملكة، ولم يقصد أن يحرّرنا من الرومانيّين، لأنّ مملكته لم تكن سوى مملكة القلب»[3]. ولكنه سرعان ما قال في سرّه: «إنّ من يقتل آمالي سيُقتل، لأنّ آمالي هي أثمن من حياة أيّ رجل كان»[4]، وأسلم يسوع الناصريّ إلى عدوّهما المشترك، «وبانت عيناه كالكهوف المظلمة الممتلئة بالدم»[5].

وانكفأ يهوّذا بعد هنيهة ظلّ في خلالها «صامتاً كالأرض»، ثم بدا «أطول ممّا كان»[6]. وتكلّم أمام الرجل بصوت كأنّه السفينة المتحطّمة، قال: «لم تكن الخطيئة في قلبي. وفي هذه الليلة سأمضي وأطلب ملكوته وسأقف في حضرته

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «سيبورية أمّ يهوّذا»، ع. س.
(٢) المصدر نفسه، «رجل خارج أورشليم».
(٣) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل خارج أورشليم»، ع. س.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.
هو الندم قد حوّله في عيني الرجل، فغدا بحجم توبة.

والتمس صفحه. . . فسأخبره أنّ دمي أيضاً مشوق للتراب، وروحي المخلّعة تنشد الحريّة»[1].

مظهر انتصار للقلب على العقل، أي الإيمان الرحب حتى تداخل المسافات والأحجام في الزمان الوسيع، على المرتكز الحسّي في العالم بقشوره والعرض. ولكنّ يهوّذا النادم التائب ظلّ، في الواقع، اثنين داخل أعماقه، واتّسعت رقعة شهوته للانتصار. دُفع بالقوى الغيبيّة دفعاً ليكمل حياته الصغيرة، فاستجاب للمشيئة وتحقّق به المكتوب. صرخ: «أيها الربّ. . . لماذا أعطيت الجليليّ شوقاً لأرض غير معروفة، وأثقلت كاهلي برغبة لا تتعدّى البيت والموقدة؟ ومن هو هذا الرجل يهوّذا الملطّخة يداه بالدم؟ أعضدني لأطرده عنّي، ثوباً بالياً ومتاعاً رثًّا»[2]. ثم فتح الباب وخرج إلى العاصفة الثانية، ورمى نفسه بعد أيام «عن قنّة الصخرة العالية»[3].

حدث الانتحار، لكنّه لم يلغ الصراع بين عقل يهوّذا وقلبه[4]، أو يوضح نهائيّة انتماءاته الأخيرة، فمات طاوياً معه ثنائيّة العالم والملكوت، جاذبيّة التراب وشفافية الروح، عاشقة الحريّة المطلقة. ولا يكفي إعلانه التوبة منقطعةً

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل خارج أورشليم»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه، وبمعنى آخر: لماذا جعلته (الجليلي) ينتمي إلى الكون، وجعلتني أنتمي إلى الزمن الصغير بقشوره والعرض؟

(٣) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل خارج أورشليم»، «سيبورية أمّ يهوّذا»، ع. س.

(٤) نتذكر هنا في مسألة التنافس بين عقل وقلب قولاً لأوغست كونت مفاده أنّ عدم الاعتراف بالسلطة إلاّ للعقل هو صرخة فوضى، لأنّ العقل يولّد حكماً الشكّ الذي يستتبع بدوره الانحلال الخلقي والفوضى السياسية.

Voir: Jean Lacroix, «La Sociologie d'Auguste Comte», op. cit.

وكذلك يحضرنا مذهب بيراندلو بهذا الصدد. فالإنسان أشقى الحيوانات لأنه عاقل، وهو بتحليله الحياة يقتلها بعقله، لأنه يسجنها ضمن قواعد محدّدة. وعلى الإنسان، بغية التخلّص من وسواس الموت وقلق العيش، أن يذوب في الطبيعة، ولا يهتمّ بسوى مشهد الخليقة.

Voir: G. Bosetti, «Pirandello», op. cit.

عن الفعل والجهد ليصمت قلق الحيرة في شخصه؛

ويكفيه كلام أمّه شهادة تبرّئه وتلقي عليه في آن تبعة الخطيئة الكونيّة التي ارتكبها. تقول سيبورية أمّ يهوّذا: «وعندما تعرّف إلى يسوع على الطريق تركني ليتبعه. أما أنا فقد عرفت في أعماق قلبي أنه يخطئ إذا تبع أيّ إنسان لأنه خُلق ليكون متبوعاً لا تابعاً[١]. وقبل أن يودّعني أخبرته بخطئه فلم يصغ إليّ»[٢].

اثنين حائرين بل تائهين ظلّ يهوّذا. وما يبدو لنا عقاباً لحياته بإلغائها عن طريق الانتحار، لا يعدو كونه إثباتاً لمنطقها المجابه بصنوف شتّى من الزّجر الخلقي والنفسي والمعنويّ، وفراراً من حالة إذلال أحاقت بشخصه من جرّائها، وعزاء تعويض عن انقطاع في التواصل العاطفي بينه وبين شركائهِ في أحداثها[٣].

هؤلاء كلّهم أبناء خلّفت انتماءاتهم القلقة الضائعة حيرة في سلوكيّتهم، على درجات في التردّد والإحباط أو التعلّق بالأوهام والأهداف المتناقضة. وفي نظرة عجلى مجملة لخطوطهم الكبرى، نصنّفهم:

ـ أبناء حائرين استقالوا من الحياة الواقعة وانهمكوا في مطاردة سعادة مستحيلة، لا يصرفهم عنها تمتّعهم بالكفاية والكفاف داخل بيئاتهم؛

ـ وأبناء حائرين يحدسون أنفسهم سجناء في الأرض، فينتفضون عبر المخالفة انتفاضات عابرة، لأنها بلا مضامين تبقيها في ذاكرة الناس والمجتمع؛

ـ وأبناء حائرين ضيّعوا مرتكزات عيشهم، فانغلقوا في رقعة الحاضر ينتقمون من الدنيا والقدر بتعامٍ عن ناموسهما ورفض للإبصار؛

---

(١) هي إشارة منها لميله إلى المجد الأرضي وشهوة السلطان.

(٢) «يسوع ابن الإنسان»، «سيبورية أم يهوّذا»، ع. س.

(٣) Voir: Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

ـ وأبناء حائرين حيرة من ضمن القلق المرافق لهمّ المعرفة بمعناها الشامل، فيمتلكهم إحساس بالصغر اللامتناهي حيال وجود لا حدّ لتراميه غموضاً وعظمة، وقد يشفون من حيرتهم ليصبح خلوّهم من الحيرة هو الغبطة حقاً، ولكنَّ جرحها أنّها لا تعرف الإخفاق؛

ـ وأبناء حائرين بين قلب وعقل، فيترجّح الواحد منهم بينهما، أو يستبقيهما ضدّين في صراع داخل أعماقه، ومعاً يحدوانه للفرار فراراً فاجعاً من مواجهة الحقيقة.

وهؤلاء الأبناء، على تمايزهم بحجم الحيرة وخطرها أو موضوعها الدافع، وأياً تكن رغائبهم والأهداف، إنّما يتغلّفون جميعاً بشعور من محبّة الذات[١]، ولا يقدّرون بالتالي إلاّ ما يتطلّبه هذا الهدف المنشود[٢].

ففي أعماقهم كلّهم يهجع طيف فردوس مفقود، تستقيم خطوطه بتأثير شروط وعوامل من خارج ذواتهم، وتوقظ أملهم على إمكانيّة الفوز به مرّة أخرى، وإن منوا تكراراً بخسارات جسيمة قبل الوصول.

وهؤلاء الأبناء الحائرون في الانتماء، كأندادهم العائشين في ظلال الآباء، يعون في الجوهر وعياً واحداً على الصعيد الوجودي، فكلّهم ذوو ميل مشترك، في الشعور والنزعات والأفكار، خفيّها والمعلن، إلى تحقيق هذا الهدف الأساسي في الكينونة الإنسانيّة.

ومن لم يقوَ في داخله هذا النزوع العفويّ التلقائي يَعِه النظر إلى الآخر[٣]، أو تنتقل إليه عدواه، متعلّماً أن يطّرح الأخطاء[٤]، متأثّراً من جاوره

---

(١) Paul Ricœur, «Finitude et culpabilité», op. cit.

(٢) Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid.

ومفهوم الخطأ هنا يطول كل ما يعتاق تحقيق هدف السعادة المنشودة.

من البالغين، مدفوعاً بالضمير الخلقي أو المثل الأعلى الاجتماعي المتكوّن لديه منذ الطفولة لتحقيق انتشاره في هذه الحياة.

ولئن كان الأبناء في ظلال آبائهم قد ملأوا صفحة حيواتهم بالفعل القاصر إجمالاً، لتحرّكهم داخل الأطر المفروضة عليهم من لدن والديهم، وكتابعين لأزمنة هي غيرها أزمنتهم، وغير مستقلّين عن عقليّة سواهم بصورة عامة؛

وإذا كانت أفعال هؤلاء الأبناء في ظلال الآباء قد تقاطعت كيانيًّا مع أفعال نوع آخر من الأبناء الجبرانيين، سمّيناهم الحائرين في الانتماء، وذاك عند نقطتين رئيسيّتين هما: محبّة الذات والاستئثار بما يعيد إليهم أماناً مفقوداً وسعادة مغيّبة؛

فإنّنا لواجدون داخل الإرث القصصي الجبراني فئة ثالثة من الأبناء، ليسوا بالتابعين في تقليدهم سواهم، ولا الحائرين في جمود وانكفاء عن الحدث الحيّ الفاعل في نفوسهم ومحيطهم، فيما يبدو، لوهلة أولى، انتفاضاً على الأنماط العادية المتوارثة عن الجامعة البشريّة، وانقلاباً على نسق مشيئة وإجبار مفروضين على كياناتهم المشبعة بأشواق التغيير على كلّ صعيد.

هم الأبناء الثوّار، موضوع الفصل الثالث والأخير من هذا الجزء الثاني، روّاداً في طيّ كلّ عتيق وإن بمثالية دامعة العينين فيما تحاول أن ترسم الغد الباسم للإنسان، أو هاربين بانكفاء ثورويّ هو الآخر، ولكنّه سلبيّ بفراره من الواقع الراهن.

فماذا عن هؤلاء الأبناء الثوّار في الأدب الجبراني؟

سؤال أخير نرتقب له جواباً في فصلنا الثالث، تمهيداً لخاتمة تُجمل مرتكزات وأهداف واهتمامات الأبناء في الأدب الجبراني بفئاتهم الثلاث، وتوطّئ للجزء الثالث والأخير في هذه الثلاثية «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني».

*

الفصل الثالث
أبناء ثوّار. . .

إذا كان من أبسط طرق السعادة وأقصرها نعمة التخلّي عن شواهق الوجود، وارتضاء السير في قنوات الرحيل الممدودة مسبقاً بعناية نظام لا قدرة للكائن على اجتلاء خفايا احتباكه وتقاطعاته إلاّ بالشكل اليسير[1]؛

فإنّ من ألوان الاغتباط أيضاً محاولة الحُلم بتغيير هذا النمط المعمول به، على نحوٍ يُنظر معه إلى الاطمئنان للعيش كعلامة انكسار من الكائن أمام قدر مفروض فرضاً عليه، وكمؤشّر قبول بأن ينقضي العمر في الغفلة، منساباً انسياباً وعاؤه من غير صنع يديه.

والحقيقة أنّ الحلم طاقة تغييريّة عملاقة، تبطن معنى الإلغاء للحاضر، أو، أقلّه، تعني تغييره بإعادة صوغه بقوالب مشبعة بزيت الذات، ومضمّخة بأشواق العمر الآخر الذي يحمل كلٌّ منّا نطفة منه، ويعمل على نمائها في سماء الأماني تمهيداً لزرعها وتأصيلها في أرض الواقع.

فالإطار الزمانيّ المكانيّ المحيط بكل منّا، منذ لحظة تكوّنه حتى بلوغه بالعقل والوعي، يستنفر في شخصيّاتنا كلّ صنوف الرفض للقضبان، ويحفّزها

(١) يرى بعض الدارسين أن هذا التسليم للّه ولقدره يشيع عند المؤمن والإنسان الشرقي خصوصاً سكينة نفسية ثابتة، إذ يلقي بتبعات وجوده وحضوره الإنساني على من بين يديه هذا الوجود وهذا الحضور.

Voir: Raymond Charles, «L'Ame musulmane», Flammarion, Paris, 1958.

لاصطناع عالم بديل، يكون لها وحدها السيادة عليه، ملحقٍ بأقاليمها العاطفية، حزناً وفرحاً، كمدى أو كبعد أو امتداد في المساحة يشعرها بامتلاك جزء، ولو يسيراً من الحياة[١].

ذلك أنَّه إذا كان من حقّ الإنسان ألاَّ «يضطرب خوفاً على وجوده»[٢]، فإنّ من حقّ هذا الوجود أيضاً ألاَّ يحاصر مثل هذا الحصار القاتل للإنسانيَّة، فتتناسل بقسمات متقاربة، وأنماط من العيش متشابهة، وحتَّى بأوجاع وابتسامات متطابقة، فتشيع الأعوام والأزمنة متباعدة في التاريخ الإنسانيّ حقاً، ولكنَّها السجينة أبداً في دائرة ذاك الحضور المتواتر للكائن الذي اسمه الإنسان، وهو شقيّ لا يفعل أكثر من أن يثير وراءه غبار الهزائم المتتالية في صراعه مع هذا الإطار المحيق به، يعمل على افتراقه ولا يقوى، وفي عميق أعماقه جزء من العمر لا يقبل الوصاية عليه، لأنّه من عجينة الحلم، قابل لكلّ التحوّلات، مشرَّع على الاحتمال والمفاجأة، فيمنحنا بذلك شراهة الاستمرار في العيش.

بهذا المعنى تبدو الرغبة في التقدّم وتحسين الأوضاع، وأمل النَّجاح حتّى في أبسط شؤون ومظاهر الوجود، أساسيَّة في الطبيعة الإنسانيَّة[٣]، ويتكرَّس الحلم علامة كيانيَّة في الإنسان. فهو، على مشاركته سواه من الكائنات بنعمة النطق، وكلّ كائن ناطق بشكل من الأشكال، نراه قد خُصّ وحده بكنز الأمل عن طريق الحلم التغييري، حتّى ليصحّ فيه وحده أن يسمّى الكائن الحالم بدلاً من الحيوان الناطق.

وإذا عدنا إلى الأبناء الجبرانيّين، حقل اختبارنا الأساسي في هذه المرحلة

---

(١) إنّ السيطرة الحقيقية على جزء تافه من العالم يمنح الإنسان إحساساً وهمياً بالسيادة على العالم بأسره.

Voir: Philippe D'Iribarne, «La politique du bonheur», Edition du Seuil, 1973.

(٢) من قول للقدّيس توماس مور.

Voir: A. Caussat - Michelle Lalliard, «Rebelles et révoltés», Classiques Hachette, 1973.

(٣) Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

من ثلاثيّتنا «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني»، نراهم جميعاً في محاولاتهم، الناجح منها والفاشل، إنّما يستجيبون لهدف واحد، ظاهر أو خفيّ، يساويهم بالإنسانيّين كافة، وهو البحث عن اللذّة والسعادة[1].

ولكنّنا، في الوقت نفسه، نرى أن النزعة السامية لديهم تبقى على صلة وثيقة بدرجة اكتفائهم الذاتي من هذين اللذّة والاكتفاء، وذات علاقة بأمانهم الشخصيّ، حتّى إذا استجدّت ظروف يحرّك في خلالها مثل أعلى أعماق الشخصيّة في هؤلاء الأبناء، تتحرّر هذه النزعة المتسامية عندئذ من كبتها المبيّت بالتمادي نتيجة عدم الاكتفاء في مراحل مختلفة، وتندفع، بشكل غير منتظر، مشاكسة ثائرة بعد أجيال من الهجوع ومظاهر الطيبة والسلوك المسالم وروح التعاون[2].

إنّهم الأبناء الثوّار لتقويض وبناء، في اقتحامهم المعطى المتجمّد من عطاءات الفكر والمجتمع والشرائع والأخلاق، لنفاذ حتى جوهر الحقائق ينفحونه ما يشبه التهوئة للأماكن المغلقة، أو بعث الحدث الفريد من تحت أنقاض هزائمه الكثيرة في ساح الدّجل والتزوير الإنسانيّ؛

أو هم الأبناء الثوّار أيضاً، ولكنّهم الطافرون لانكفاء وراء تخوم المطامح، بأحلام مجرّحة، لا دور لها تحقّقه أكثر من إعلاء الصوت باعتراض، بسلبيّة انطوائيّة، فيها المكابرة والتعنُّت، والفرديّة المتألمة البائسة، باحثة حتى عن أَبسط حقوقها في السعادة والأمان.

فماذا من الظروف المرافقة لسعي هؤلاء الأبناء الثوّار في الأدب الجبرانيّ وأسبابها الكامنة، نفسيّة ومجتمعيّة؟

سؤال نرتقب الفوز بجواب عنه في قسمين اثنين:

أ - أبناء ثوّار.. لتقويض وبناء.

ب - أبناء ثوّار.. طافرون لانكفاء.

---

(١) Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit -

(٢) Ibid.

أ ـ أبناء ثوّار . . لتقويض وبناء :

فيهم المتعبّد الشريف وابن الفلّاح المنتفض على واقعه المزري في كنف الإقطاع، والكاتب المصلح، والضعفاء المغتذون نسغ الكآبة، والمجدّدون مطّرحو الماضي في المهبّ المعافى، الحامل إليهم نسائم التغيير على كلّ صعيد؛ وفيهم الواقف في فناء الكون طرازاً إنسانيًّا منقلباً على قدره، بقامة نبويَّة، علّه يضوع فعالاً في زمن أقرانه، ويشقّ دروب الريادة لسواه من الإنسانيّين.

■ يوحنّا هو أوّل هؤلاء الأبناء الثائرين لتقويض وبناء، وخبره في أقصوصة «يوحنّا المجنون» من كتاب «عرائس المروج»[1]. في شخصه نواة نبيّ وجذوة مصلح اجتماعيّ. ونراه، في ضوء على منحاه داخل الحكاية بشكل عام، يتعايش والمأزق أوّل الأمر، يُغضي عن التجاوزات والانحرافات في الدين والمبادئ، ولا ينصاع لنواهي أبيه الثائر على القساوسة والرهبان[2]. ويوحنّا، بهذا المعنى لا يحيا زمنه، لأنه يكتفي بملازمة زمن يسوع الناصري سابحاً باتجاهه فوق أشلاء الأجيال إلى أورشليم القديمة، متّبعاً أقدامه في الشوارع.

ولكن الظلم يخرج يوحنّا من سكينة الأولياء إلى غضب الديّانين المنتقمين، فيقف خطيباً في الدير أولاً، ثم أمام جموع المصلّين في المدينة، متّهماً الأقوياء بالمال وبالشريعة بأنهم السبب في كل ما يصيب الضعفاء ويمضّهم برزايا الدّهر.

---

(١) راجع دراستنا الكتاب في منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) نذكر هنا أنّ جبران قد وقع في التناقض عند عرضه شخصية والد يوحنّا. ففي أول الحكاية ـ رقم ١ ـ أظهره ثائراً على رجال الدين، ثم أبداه مترفّقاً بأمورهم، مقدّراً لمواقفهم في آخر الرقم ٢، ونهاية الحكاية.

وهي ثورة سرعان ما تستكنّ من جديد، لصمت يوحنّا كما المسيح بعد أن قُبض عليه، ثم لإخفاقه في أن يموت ميتة ربّ التاريخ ولانزوائه راعياً ضعيفاً كالنعجة التي تفترسها الذئاب، مخلّفةً دماءها على حصباء الوادي بانتظار مجيء الفجر.

هذه المراحل الثلاث من صمت وهدوء بركان القداسة، إلى انفجاره وقذفه حممه في كلّ اتجاه، حتّى خموده من جديد في نهاية المطاف، هذه المراحل، على اتفاقيّة أحداثها بنوع من التواطؤ بين الكاتب والحقيقة، ما كانت لتتمّ على هذا النحو لولا أسباب موجبة.

فيوحنّا المأخوذ بعمله أساساً في الواقع اليوميّ المتردّد، من ناحية، والمستغرق، من ثانية، في صمته والتأمّلات في ركون إلى الطبيعة، الشاهد الآخر على التعارض القائم بين ناموسها وما يعيثه آدميّون أقوياء في حرمها؛

يوحنّا هذا حالة بنويّة تتهيّأ عواصف هوجاء في الظلال من تناميها بالوعي والشخصيّة، وتتمخّض اعتراضات تبحث عن مستقرّ لها ووعاء تلتمّ في فنائه زوابعها تقويضاً وبناء. يقول جبران في عرض شخصيّته: «وفي أيام الشتاء كان يتكئ مستدفئاً بقرب النار، سامعاً تأوّه الأرياح وندب العناصر، مفكّراً بكيفيّة تتابع الفصول، ناظراً من الكوّة الصغيرة نحو الأودية المكتسية بالثلوج، والأشجار العارية من الأوراق كأنها جماعة من الفقراءِ تُركوا خارجاً بين أظفار البرد القارس والرياح الشديدة»[1]؛

وهو «كان سكوتاً كثير التأملات يصغي لأحاديث والديه ولا يجيب بكلمة، ويلتقي بأترابه الفتيان ويجالسهم صامتاً ناظراً إلى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء. وإذا ذهب إلى الكنيسة عاد مكتئباً، لأن التعاليم التي

(١) «عرائس المروج»، «يوحنّا المجنون»، ع. س.

ونشير إلى أن الحالة الإنسانية تماثل الحالة الطبيعية في الأدب الجبراني. ففيه حرص على هذا التلازم كمظهر من مظاهر وحدة الوجود التي التزمت بها رؤيته الحياة.

يسمعها من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الإنجيل، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي تكلّم عنها يسوع الناصري»[1]؛

وإذا ما سرحت عجوله مرتعيةً الأعشاب «جلس مستنداً إلى صخرة يتأمّل تارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلّمة عن ملكوت السموات»[2].

هو واقع ليوحنًا المسالم، كمثل البحيرة القابلة لكل أنواع التقلّبات الطقسيّة، ثورةً واستكانة. ولكنَّه، وهو الفقير الذي «قوته لم يتجاوز قطّ الخبز المعجون بعرق الجبين، والثمار المبتاعة بدم القلب»[3]، كان على خطى الأولين من المسيحيّين الأنقياء القلوب، يرون التعبُّد امتثالاً للمشيئة بقبول ورضى، والعمرُ لهم مرّةُ الكفاف تؤصّلها في حياة يوحنّا قراءته الإنجيل، ولو بالخفية[4]، طريقة عيش ومعتقد تدنيه من عهد المؤسس، «يقرأ في كتابه بتمعُّن ثم يرفع رأسه ويرى قبب الكنائس في المدن والقرى المنثورة على جانبي الوادي، ويسمع طنين أجراسها فيغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء الأجيال إلى أورشليم القديمة متّبعةً أقدام يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين: هنا شفى العميان وأقام المقعدين. وهناك ضفروا له إكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه. في هذا الرواق وقف يكلّم الجموع بالأمثال، وفي ذلك القصر كتّفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه. في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها وفي ذاك وقع على الأرض تحت أثقال صليبه»[5].

---

(١) «عرائس المروج»، «يوحنّا المجنون»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

ونراها من جبران مشابهة متعمَّدة يبرز في خلالها إنجيلان للحقيقة: إنجيل السيّد، وإنجيل الطبيعة.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) يقرأ منه خلسة على نور مسرجة ضعيفة بعد أن نهاه والده عن قراءته استياءً من الكهنة، لاعتقاده أنهم يضلّلون الناس.

(٥) «عرائس المروج»، «يوحنا المجنون»»، ع. س. =

هذا التعلّق بالماضي فيه لمسة شافية من لوثة الحاضر الجاري على غير زماع من يوحنّا، وللطبيعة فيه دور مقدَّم، مداواة للأسقام والمفارقات الاجتماعية خصوصاً، لأنها غدت النافذة الهادئة على الحلم القصيّ، والوعد بعالم آخر أكثر نقاء وعزاء، باعتبارها الكائن الأقرب إلى حدث الخلق الأوّل رجوعاً بالإنسانية إلى زمن الطهارة والعافية الخلقيّة.

ولكنّ يوحنّا ظلّ، في الجانب غير المنظور من شخصيّته، يحيا حالات شكّ بجدوى ما يعمل، تنكّراً أو تجاهلاً وإغضاءً، وتتعاظم في فيء قناعته المختارة أشواق إلى التغيير، ردماً للهوّة الفاصلة بين ماضيه الحلم وحاضره الكابوس، على أمل الفوز بحالة ثالثة من الفرح الغامر والعدالة المشبعة بروح العاطفة والرحمة أي بالمحبّة، النَّسم المقدَّس والزيت المحيي لنصرانيّة المسيح.

وإذا كان لنا أن نقوّم هذه المرحلة الأولى من حياة يوحنّا المجنون فإننا نجدها لانتظارات ترتقب حلولاً طوباويّة لحاضر غارق في الإثم والمخالفة نتيجة ابتعاد أربابه عن زمن المؤسّس. لقد عشَّش في أعماقه حزن مضاعف، انسلخ في خلاله عن المرتجى الإنسانيّ الذي رسمت له المسيحيّة تخومه، فعاش الغربة غربتين: غربة الموقع، ودواؤها الطبيعة، وغربة العقليّة والمحيط، وشفاؤها عن طريق القناعة والعمل؛ وفي كلّ حال يعتري وجوده صقيع، يحفّزه للبحث عمّا يعيد إلى كيانه دفأه الضائع، أو يهرب من مشكلته إلى الأمام، بتوطيد أواصر انتمائه إلى عالم أحلامه، أو يحصّن بالكفاية والقناعة نفسه بما يعوّض عليها ضياعاً، ويستعيد مكانة أمام عين ذاته والحقيقة.

فحين قبض عليه الرهبان بحجّة أنَّ عجوله قد ارتعت عشب الدّير، استحلفهم بأيّام الصوم المقدّسة التي تألّم فيها يسوع وبكت لأحزانها مريم أن

= وهذا الانخطاف «فوق أشلاء الأجيال» حتى أورشليم القديمة، وتعداد معجزات المسيح، يحصّنان يوحنّا المجنون دينياً، ويعلّلان ثورته المرتقبة على رجال الدين.

يخلوا سبيله. وقال: «هي بهائم لا عقل لها يا أبتاه، وأنا فقير لا أملك غير قوى ساعدي وهذه العجول، فاتركني أقودها وأسير واعداً إيّاك بأن لا أجيء إلى هذه المروج مرّة أخرى»[1].

فيوحنّا المجنون في هذه المرحلة الأولى من حياته، وعلى الرغم ممّا يعتمل في أعماقه من احتدام الامتعاض والغضب المكبوت، لم يتوخَّ الصراع، اصطداماً بالرهبان، أرباب زمانه، في ما يشبه منه الابتعاد عن الشرّ، احتفاظاً بما تبقّى له من حلم السعادة الدينيّة تأتيه عن طريق التقوى والانتظار.

غير أنّ تمنّع رئيس الدّير عن إعفاء يوحنّا من افتداء عجوله بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع، ثم إصراره على أن يبيع قسماً من حقل أبيه في سبيل هذه الغاية، ودرءاً لغضب أليشاع العظيم عليه، هذان التمنّع والإصرار حدوَا بالراعي المسكين إلى أن ينتضي الإنجيل من جيبه سيفاً للمدافعة، ويفرج عن البيان الأوّل للثورة المعلنة.

صرخ يوحنّا قائلاً: «هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب أيها المراؤون... فويل لكم إذ يأتي ابن البشر ثانية ويخرب أديرتكم ويلقي حجارتها في هذا الوادي، محرقاً بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلكم! ويلٌ لكم من دماء يسوع الزكيّة ودموع أمّه الطاهرة، إذ تنقلب سيلاً عليكم وتجرفكم إلى أعماق الهاوية»[2]؛

اعتصام بحبل الدين من جانب يوحنّا، على أملِ حلٍّ مرجإ في كل حال، وإن مؤكّداً بالنظم الدينيّة وروح الشريعة، عودةً للحقِّ إلى نصابه ثواباً وعقاباً. وما التقويض هنا، في هذه الثورة المجهورة، ولكن المهموسة في النهاية لبقائها في حدود جدران الدير، حيث المجرم والجناية يتخمّران في الخفية، تحت ستار الصلاح، ما التقويض هنا إلاّ بمعول الدين نفسه، في ما يشبه العمل

(١) «عرائس المروج»، «يوحنا المجنون»، ع. س.
(٢) المصدر نفسه.

التصحيحيّ لمسيرة على خطإ، أو بعثٍ لما ترسَّب في قعر الذاكرة العامّة بفعل تقديم الطقسيَّة على الجوهر الصافي للعبادة؛

يقول يوحنّا في صرخته بوجه رئيس الدير: «خذوا وابحثوا في هذا الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفوراً، واقرأوا هذه المأساة السماوية وأخبروني أين تكلّم بغير الرحمة والرأفة»[١].

ولكنّها ثورة أيضاً لتبديد ما يتراكم يومياً في ساح المجتمع من انحرافات وأذى يتعدّى الإيلام الخلقي بمخالفات متواترة للحقيقة الدينيّة، إلى إصابة للناس في صميم كراماتهم وأرزاقهم ومعايشهم. يقول يوحنّا في بيانه الانقلابي: «انظروا يا قساة القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة، ففي منازلها يتلوَّى المرضى على أسرّة الأوجاع، وفي حبوسها تفنى أيَّام البائسين، وأمام أبوابها يتضرَّع المتسوّلون... وأنتم ههنا تتمتّعون براحة التواني والكسل... وليتكم تكتفون بما لديكم وتقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم، فأنتم تمدّون أيديكم كما تمدّ الأفاعي رؤوسها، وتقبضون بشدّة على ما وفّرته الأرملة من عمل يديها وما أبقاه الفلاح لأيام شيخوخته»[٢].

عندئذ تتّخذ الثورة منحى خطراً، لاقترانها بالوعي[٣]، وخروجها عن مجرّد الانفعالية البسيطة التي تتميّز بها ردَّات الفعل العفويَّة على لسع المظالم. وما ثورة يوحنَّا المجنون هنا في الحقيقة إلاّ بعث لثورة أبيه المكبوتة بإخراجها إلى النور، وقد تحيلنا إضبارة الاتّهام المعلنة بواسطتها على موضوعات نقاش

---

(١) «عرائس المروج»، «يوحنا المجنون»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) هذا الإدراك يفترضه ماركس شرطاً أساسياً من شروط انتظام الطبقات، يؤدّي إلى حتمية الصراع فيما بينها. في حين نرى ماكس ويبر لا يحتّمه ضرورة أوليّة لقيام الطبقة، ويكتفي بشرط الحالة الاجتماعية الجامعة لأفراد.

Jean Cazeneuve, «Encyclopédia universalis», Vol. 4.

كثير بين الوالد وابنه، من مثل تلك التي أومأ إليها جبران في مستهلّ أقصوصته واصماً الكهنة بالدجل الديني؛

غير أنَّها ظلّت ثورة مراهقة بعنوان أكبر هو الحلم الرومنطيّ، يكسر به يوحنّا إطار المتوارث المحدّد باقتحامه محظورات جائرة ترسم حدوداً بين الطبقات، وتبعد المؤمن بالتمادي عن التفاعل اليوميّ الحيّ مع الدين والنشوة المقدّسة، محتفظة له باسم المؤسّس رمزَ تواصل، جامعاً ماضيه المشرق ومستقبل انتصاره عن طريقه، وهو مرجأ باستمرار؛

فاسمعه يستسلم بنشوة لحتميَّة الموت الزاحف نحوه ليعيث بحياته، ولو لم يحقّق فوق صفحة المدى غير الصراخ. يقول بهدوء: «أنتم كثار ههنا وأنا وحدي. افعلوا بي ما شئتم، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل، لكنّ آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس»[١]، ثم في سجنه، الغرفة المظلمة داخل الدير، وقف «وقفة منتصر توفّق العدوّ لأسره، ونظر من الكوّة الصغيرة المطلّة على الوادي المملوء بنور النهار، فتهلّل وجهه وشعر بلذّة روحيّة تعانق نفسه وطمأنينة مستعذبة تملك عواطفه، فالحجرة الضيّقة لم تسجن غير جسده، أما نفسه فكانت حرّة... والمرء لا تعذّبه الاضطهادات إذا كان عادلاً..»[٢].

بطولةٌ، ولكنّها انتحاريَّة، في ساحها يتساوى استمرار نسم العمر وانقطاعه. وما إقدامه، من واقع الإغفال والشعور بالصغار من بيئة يتمادى أقوياؤها في إذلال الضعفاء ونسيانهم كإنسانيين أندادٍ لهم، ما هذا الإقدام إلاَّ

---

(١) «عراس المروج»، «يوحنّا المجنون»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

ونشير إلى أن ثورته هي، في عين نفسه، ثورة المقهورين كلهم. فالصوت الضعيف الذي يخفضه الذل الموروث والانكسار الأليم (من قول جبران في مرتا البانية) أصبح مجلجلاً بالحق، وتجسيداً للانتصار على الذات. وما تهلّل الوجه هنا إلاّ إيذان بولادة فجر الحريّة، واستعادة الحق بالدين الصافي والعبادة المنزّهة عن الغايات الدنيويّة.

من باب اكتساب للمنعة وإحساس بالقوة والغلبة عبر المخالف الخارق[١]، واستجابة لرغبته حيازة كلّ شيء، وإن على حساب التوازن الإنسانيّ[٢].

وحالة بنويّة كانت لوعد تغيير، تقويضاً وبناء، لو لم تبدّدها الخيبة في خاتمة مرحلتها الثانية. فقد أتت العجوز، أمّ يوحنّا المجنون، تتضرّع إلى رئيس الدّير، فأطلق ولدها لقاء قلادتها الفضيّة، عطيّة والدتها يوم اقترانها. «وخرج يوحنّا من أسره ومشى ببطء أمام عجوله بجانب أمّه المنحنية على عصاها تحت أثقال السنين، ولمّا بلغ الكوخ قاد العجول إلى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمّل اضمحلال نور النهار»[٣].

ولم يفقد يوحنّا الأمل بالإصلاح بل بالتأديب، أو هي النشوة الأولى، منطلقة من إحساسه الأوّل بالظفر بعد تحرّره من كبته، هذه استدعت لديه إقداماً في غير ساح، كمثل من يتوقّل درجات أخيرة في سلّم، بسرعة أكبر إذ يرى نفسه على قاب قوسين من النهاية. ففي عيد الفصح، ومع مجيء أحد الأساقفة لتكريس الهيكل الجديد المتعالي بين مساكن مدينة بشرّي، تثور ثائرة يوحنّا من جديد للتعارض الفاضح بين ما تراءى له ترفاً في رجال الدين وما يرسف به فقراء المدينة ورعاتها من فقر وبؤس. فيقف خطيباً في الناس مستعدياً يسوع على «أبناء الأفاعي» و «القياصرة الجدد» فيُقبض عليه وتأخذه الشرطة إلى دار الحاكم. يقول جبران: «حتّى إذا ما انتهت حفلة التكريس وهمّ الشعب بالانصراف والتفرّق، شعر (يوحنّا) بأنّ في الهواء روحاً تنتدبه واعظاً عنها، وفي الجموع قوّة تحرّك روحه وتوقفه خطيباً أمام السماء والأرض أسرَ إرادته»[٤].

لقد أبصر يوحنّا وجهاً قدرياً لرسالته الثائرة، وتمّ له في ظلمة الحاضر ما

---

(١) هو كذلك في يوحنّا لمخالفته شروط البيئة والعقليّة السائدة في زمانه.

(٢) P. Ricœur «Finitude et culpabilité», op. cit.

(٣) واضمحلال هذا النور هنا إيحاء، ليس بزوال زمنيّ، لأنّ في التعبير رمزاً إلى غياب المبادئ واختلال في مقاييس القيم.

(٤) «عرائس المروج»، «يوحنا المجنون»، ع. س.

يشبه التواصل بين ذاته وأناها المثالي الهاجع في أعماقه، فصحا صحوة مرسل كان غافلاً عن المهمّة التي أسندت إليه، وأقبل على الرغم من المخاطر ينفّذ رغبة الروح، تقويضاً أولاً فبناء، ناقلاً كرازته من ساحة الدّير، ومن خلف الجدران، ساترة عيوب الراهبين إلى الملأ الأشمل، والعلن المؤلّب للمظلومين في جهود تتضافر لانقضاض. صرخ قائلاً: «أنظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعلى... أنظر أيها الراعي الصالح، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك[1] أنظر فدماؤك الزكيّة قد غارت في بطن الأرض... إنّ صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلّمين بتعاليمك فوق المنابر[2]... تعال ثانية، يا يسوع الحيّ، واطرد باعة الدين من هياكلك... تعال وحاسب هؤلاء القياصرة، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما للّه»[3].

هي ثورة أصوليّة، ارتداد إلى الصفوة من ماضي المسيحية، زمن المؤسّس، وتنزيه للدين من عقليّة الإقطاع، بل تحرير للّه مرة أخرى من حبس الترابيّين من أتباعه.

ولعلّ انتماء يوحنّا المجنون إلى طبقة الفلاّحين والرعاة أسهم إلى حدّ

---

(١) مسيح جبران هنا هو مسيح للضعفاء فقط، مع أنه في عين الأزل هو مسيح الخطأة قبل أن يكون مسيح الصالحين. لذلك نرى في استعداء المسيح بهذا الشكل حبساً للألوهة في حلم أرضي، وتحاملاً جسوراً على الحكمة الأزلية.

(٢) مكمن العيب الخلقيّ هنا هو في المفارقة: فثمة انفصام بين القول والفعل لدى رجال الدين برأيه، وذلك يكفي ليصنّف كل صنيع ناتج خيانة للحقيقة التي يقدّس.

(٣) «عرائس المروج»، «يوحنّا المجنون»، ع. س.

مناخات إنجيلية في خطبة يوحنّا تذكرنا بآيات في الأفاعي (متى ٣: ٧ ـ و ١٢: ٣٤ ـ و ٢٣: ٣٣) وبالآية: «بيتي بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص» (متى ٢١: ١٣)، والآية: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه» (متى ٢٢: ٢١) والآية: «أنا هو كرمة الحقّ، وأبي الكرّام...» (يوحنا ١٥: ١ ـ ٣).

بعيد في استعادة الدّين على تلك الصورة التي غادره عليها المؤسّس، أي بملامح تتلاءم والوقت الذي توقّفت عنده طفولة يوحنّا؛ ملامح طالعة من أخبار البسطاء، عجائز قريته، وحنين فقرائها إلى منقذ ضلّ سبيله إلى آلامهم وأحلامهم.

لذلك اتّسمت ثورته هنا أيضاً في وجهها المعلن على الملأ، بالبيان التحريضيّ على «القياصرة» رجال الدين، ولم تتغاضَ عن الإقطاع بمظهره السياسي، فيما يشبه لحظة الغضب، جارفة في طريقها كل أسباب التململ والامتعاض، بعيدها والداني في آن. قال في خطبته أمام الجموع المحتشدة في ساح المدينة: «ما هي المسرّة يا يسوع الجميل، أبأن يشتري الأمير بفضلات الفضّة قوى الرجال وشرف النساء، وبأن نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب أوسمتهم وبريق حجارتهم وأطالس ملابسهم، أم بأن نصرخ متظلّمين مندّدين فيبعثوا إلينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتنسحق أجساد نسائنا وصغارنا وتسكر الأرض من مجاري دمائنا؟»[1].

لكنّها ثورة ظلّت في النهاية منحصرةً في النطاق الخلقيّ، لخلوّها من البرنامج الواضح بمضمونه السياسي[2]. وقد اكتفت بتحريك الرأي العام، خالقة

(١) «عرائس المروج»، «يوحنا المجنون»، ع. س.
ونشير إلى أن في هذه المقاطع اتهامات ودفاعات أمام محكمة الله والشعب. ولكن نقمة جبران ـ يوحنّا المجنون موضوعها اختلال في الممارسات الدينية تارة، والإقطاعية تارة أخرى. وغالباً ما يجد جبران حلفاً على صعيد الممارسة للمظالم بين رجال الدين وقوى الإقطاع، وقد توضّح هذا الحلف بشكله الأجلى في «خليل الكافر» من كتاب «الأرواح المتمرّدة».

(٢) أو هي المشكلة في تلازم عميق بين مفهوم العدالة والفضيلة من جهة، والاستبداد والفساد من جهة ثانية، ولا سياسة في معزل عن الأخلاق في كل صراع بين الطبقات.
Voir: Rousseau, «Emile», Hachette, II.

في جموع الأجيال تموّجات من تلك الاهتزازات الرعشات التي تسبق عادةً كلّ تغيير محتمل[1].

وقد انتهت الأقصوصة بشهادة ذوي يوحنّا بأنه مجنون، ويسأل والده الحاكم أن يرأف بشيخوخته. فيُطلق ليعود إلى عجوله ينظر في كل يوم نحو القرى والمزارع بعينين دامعتين في انتظار «أن يجيء الفجر وتطلع الشمس»[2].

ولاذت بالصمت، تلك الثورة، من دون أن تبلغ حدّها الأقصى، مكتفية لوطن الناس بما تمنّ به القوى غير المنظورة تقويضاً من جديد في سبيل بناء، على النّسق ذاته ربّما، في أبديّة التواصل بين نجاح فتعثّر، فهبوط يليه ارتفاع.

إنَّ يوحنّا المجنون ثائر مغامر، منحصر الالتزام في المجال الخلقيّ. وأغلب الظنّ أن ثورته الموعودة كانت لتسفر عن نجاحات مؤقتة في نطاق الحرارة الإنسانيّة والشفقة الواجبة لكلّ اطمئنان وهناء فرديّ؛ لكنّها ما كانت لتدوم، لبقائها من دون إطار عمليّ، ولإغفالها أرضيّة وطنيّة محدّدة تصهر أماني نظرائه في توجّه واحد أكيد[3].

■ ولئن آلت ثورة يوحنّا المجنون على الإقطاع الديني إلى الزجّ بمُشعِلها

---

(١) يوحنّا المجنون كخليل الكافر في ثورته على رجال الدين والإقطاعيين. أما الفرق بينهما ففي توقيت بيان الثورة: فالأول ثار أولاً ثم صمت أمام الحاكم تشبُّهاً بالمسيح، ولكنّه اتّهم بالجنون ولم يصلب، أما خليل فتحدّى الشيخ عبّاس وألّب الشعب عليه وانتصر.

(٢) يوحنّا المجنون الدامع المعزول يمثّل في نهاية الأقصوصة نبيّاً كذّبه قومه، [والمسيح اتهمه ذووه بأنه شارد العقل (مرقس ٣: ٢١)]، وهو كجبران في هذه الفترة من حياته، تسلّح بإرادة ما ورائية قادرة على إظهار الحقيقة ومدّ الضعفاء بقدرة الكفاح في سبيل انتصار، فما فشل الضعف العدديّ الماديّ في تحقيقه، قد تحقّقه الشفقة وهي قوة روحيّة تفعل فعلها في الأجيال، فتستعجل الفجر وتطلع الشموس.

(٣) يقول سان جوست: شعب غير سعيد، لا وطن له على الإطلاق، إنه لا يحبُّ شيئاً. فإذا =

في ظلمة سجنه الانفرادي، مجنوناً طليقاً مع عجوله بين شعاب وصخور البريَّة، فإنّ لنا في «الأرواح المتمرّدة» نموذجاً بنويًّا سجَّل نجاحات كبيرة في مضمار تأليب الجماهير واجتذاب الأعوان. إنّه خليل الكافر اليتيم منذ السابعة، والراعي في دير مار قزحيّا حتى الخامسة عشرة، لابساً الثوب الخشن الأسود، والمعروف في محيطه الجديد بالأخ مبارك.

لقد وعت نفس خليل الهوّة الهائلة بين القول والعمل لدى الرهبان، حاضنيه ومنشّئيه، بعد أن سكر من «الخمرة السماويّة» وتشجَّع، فوقف فيهم خطيباً وهم في حديقة الدّير، حاضًّا إيّاهم على العودة إلى أصول الدّين. قال: «... لماذا نعيش في ظلال التواني والكسل، مبتعدين عن الشعب المحتاج إلى المعرفة حارمين البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدنا؟ إن يسوع الناصريّ قد بعثكم كالخراف بين الذئاب، فأيّ تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف؟ لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم الله بشراً؟ إذا كنتم أفضل من الناس السائرين في موكب الحياة عليكم أن تذهبوا إليهم وتعلّموهم، وإن كانوا أفضل منكم امتزجوا بهم وتعلّموا...»[١].

فخليل الكافر هو الآخر، كيوحنًّا المجنون، استيقظ على دونيّته في العالم الجديد الذي تربّى في كنفه[٢]، فانطلقت شرارة تمرّده، و «التمرّد هو أحد الأبعاد الأساسية في الإنسان، وهو حقيقته التاريخيّة»[٣]، نتيجة اصطدام حلمه الطليق في مطلع الشباب بثوابت متجمّدة من الفكر والمجتمع والطقسيّة الدينيّة

= أردتم تأسيس جمهورية، فإنّ عليكم أن تهتموا بانتشال الشعب من حالة الحيرة والبؤس التي تفسده.

Voir: Fouad Matar, «La souveraineté populaire dans l'héritage de J.J. Rousseau», Thèse pour le doctorat présentée à Paris - Sorbonne, 1973.

(١) «الأرواح المتمردة»، «خليل الكافر»، ع. س.

(٢) هي يقظة بتدخل من الكاتب نفسه، ما دام خليل ـ جبران ينظر إلى حدثه في مرآة الفنّ.

(٣) قول لألبير كامو. Voir: A. Caussat - M. Lalliard, Rebelles et révoltés», op. cit.

مستغرقة في ابتعادها عن المؤسّس، برأيه، في حقول العاطفة والمشاركة الإنسانيّة، وهجرة نحو الآخر بانحناء سماح ومحبّة ووداعة.

لكنّ الجلد والسجن والمهانة كانت جزاء خليل بأمر من رئيس الدير. فهام على وجهه كابن الإنسان الذي «ليس له أن يسند رأسه»، تائهاً في بريّة الثلج، متلوّياً من الآلام المبرحة في جسده، فتخرج راحيل، أرملة سمعان الرامي، مع ابنتها الصبيّة مريم، وتنقذانه لتسعفاه في كوخهما.

غير أننا، متى أنعمنا النظر في شخصيّتي يوحنّا المجنون وخليل الكافر، نلاحظ اختلافاً جذرياً في الأسباب الكامنة وراء ثورة كلّ منهما. ولعلّ الأقرب، من هذا المنطلق، إلى روح الثورة ونظافتها هو يوحنّا المجنون وليس خليلاً الكافر على الإطلاق.

ففي حين رأينا يوحنّا منتفضاً على الظلم بمعناه الخلقيّ، كوجه من وجوه القهر تمارسه طبقة أقوياء[1] على ضعفاء، فإننا لواجدون في مسألة خليل الكافر تمادياً في المشاعر الضيّقة بشكلها الذاتيّ الأنويّ البغيض. يقول لمنجدتيه، راحيل وابنتها مريم، «وقد انتعشت نفسه برقّة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في قلبها: ... كان اسمي خليلاً فصار الرهبان منذ ذلك الحين يدعونني الأخ مبارك، ولكنّهم لم يعاملوني قطّ كأخ لهم. كانوا يتنعّمون باللحوم والمآكل الشهيّة ويطعمونني الخبز اليابس والبقول المجفّفة... فكنتُ أقول في نفسي: متى أصير راهباً يا

---

(١) من حيث المبدأ، يرى بعض الدارسين أنه لا يمكن إدراج رجال الدين في ترتيب أية طبقة من طبقات المجتمع. أما الماركسيّة فتنسبهم إلى الشرائح المحافظة في المجتمعات في مواجهة الطبقة الثورية.

Voir: Guy Dingemans. «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

ورأينا أنه لا يمكن العمل لا بذاك النفي ولا بهذا التقسيم، من دون النظر أيضاً إلى الطابع المهني لرجال الدين هؤلاء، وإلى الظروف المعيشية المرافقة لتحرّكهم داخل المحدثين، الحياتي والفنّي.

ترى فأشارك هؤلاء السعداء بغبطتهم، وأصبح خليقاً بملذّاتهم ومسرّاتهم، فلا تقطع قلبي رائحة الطعام، ولا تعذّب كبدي ألوان الخمور، ولا ترتعش روحي لصوت الرئيس؟»[1].

ثورة اليتيم هي، مطالباً بحقّه في الحياة الكريمة، بنقلٍ من العين لمكتسبات القادرين وامتيازاتهم، على نحو يُرضي بتعزية ويغري بقدرة وأمان. وما خليل الكافر أو الأخ مبارك بهذا المعنى سوى إنسان يتجاذب شخصه الواقع والحلم، فيقف على شفا اشمئزاز من كلّ مظهر في حاضره، وما الاشمئزاز في حاله سوى علامة تحوّل وابتعاد وإدانة للمحيط، وحلّ للمشكلة بصورة الرفض[2].

وكاد وهج الثورة تلك أن ينحصر في هذا النطاق من الأنويّة الضيّقة ليتلاشى، من بعد، بالتمادي. فخليل الكافر الذي أشعلت نفسه المتألمة كلّ ما يحيق بها من ناس وأحداث، متسلّحة بشعارات مختلفة، أخلاقية ودينيةً وحقوقية، قد بدا في بعض مراحل الرواية كأولئك الانتهازيّين الوصوليّين الشائع أمرهم في التاريخ، أُعطوا خصب الخيال، وبراعة النطق، وقدرة الإقناع، فيتلاعبون بعواطف الجماهير ويسخّرون طاقاتها وأحاسيسها لغاياتهم الشخصية.

فبُعيد إبلاله من عنائه، وفوزه في كنف أسرة الرامي بما يعوّض عليه هزائم اليتم والصغار والدونيّة، عاطفةً واهتماماً وحدباً وخصوصاً إصغاءً، نرى أن خليلاً الكافر قد أشاح في لحظة استكانة إلى الحاضر الهانئ عن آلام وآمال من

---

(١) «الأرواح المتمرّدة»، «خليل الكافر»، ع. س.

(٢) Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

ونرى أن أفكار خليل الكافر تتعارض في ظاهرها على الأقل وأفكار الرهبان، وهي وإيّاها على طرفي نقيض كأنها كلام كفر يجابه كلام إيمان. ولكنّ الصنفين يُقالان لغاية واحدة هي إبراز التفوّق بالتميّز وتسجيل موقف سيطرة على المحيط. فالفرق بينهما أقلّ ممّا نعتقد، ولربّما لهذا وشبهه يقول باسكال: الشكّ في الله إيمان به.

Voir: Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

يدّعي أنّه صوتهم في الجامعة البشرية، ويعرض متسائلاً عن مصير مبادئه كلّها، هو من اكتفى بمريم التي بمنزلة «روح الله». يقول لها: «في هذه القرية زهرة نابتة بين الأشواك، يستميل جمالها نفسي ويملأ عطرها كبدي. فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشّراً بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير، أم أبقى بجانبها وأحفر لأفكاري وأحلامي قبراً بين الأشواك المحيطة بها؟ ماذا أفعل يا مريم؟»[1].

غير أنّ تواطؤاً بين الكاتب ذاته وكلّ من مخلوقيه الروائيّين الخوري الياس، كاهن القرية، والشيخ عبّاس، إقطاعيّ المنطقة؛ هذا التواطؤ رسم لحركة خليل الكافر غائيّةً أكثر ائتلاقاً ونظافة في المدى الاجتماعي، وأنقذ بالتالي العمل الروائي برمّته من شخصانيّته المعيبة. فلقد سيق خليل الكافر مخفوراً بتهمة التمرّد على سلطة الكنيسة والقانون، ليقف في مواجهة الشيخ الديّان وأمام الجموع المحتشدة في ساحة القصر العظيمة، واعظاً بالخطب الناريّة، وداعياً إلى الثورة على الإقطاع بوجهيه السياسي والدينيّ.

وخليل الكافر، على صدقيّة ما ينطق به فاضحاً المفارقات الدينيّة والاجتماعية في محيطه، لا يتورّع عن التستّر وراء المجموع، بديماغوجيّة مستنهضة للغرائز، وابتعاد عن الفكر الجالس المتأمّل بهدوء. ولعلّها الثورة، في منطلقها الأوّل، تفتقر إلى مثل هذا التفجير للمشاعر، فتكتب بالعنف، بل بالدم والعنف التقويضي كلام تاريخ لا يُمحى. يقول خليل الكافر مخاطباً الجموع المحتشدة في ساحة القصر العظيمة: «قد اخترتكم قضاتي لأنّ إرادة الشعب هي مشيئة الله، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيدّاً... جريمتي، أيها الرجال، هي إدراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم، وآثامي، أيتها النساء، هي شفقتي عليكنّ وعلى أطفالكنّ الذين يمتصّون الحياة من صدوركنّ ممزوجة بلهاث الموت. أنا واحد منكم أيها الجمع»[2].

---

(١) «الأرواح المتمردة»، «خليل الكافر»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

=

فكأنّما خليل الكافر هو مسيح آخر ينقّح كتابة التاريخ الذي اسودّت صفحاته بعد قيامة يسوع، أو هو جبران الكاتب يتّعظ بخطإٍ تاريخي، في نظره، سببه وقوف المسيح، ذات فسحة من زمان، صامتاً أمام محكمة جلّاديه، فيستعيده هنا شارحاً آلامه وآماله بلسان خليل الكافر، مطلقاً شرارة الثورة على قوى الشرّ.

ويتقن بروح القيادة التي أُوتيها تأليب المناصرين حول شخصه، وإيقاظ الأوجاع والأحلام الهاجعة في أعماق نفوسهم. يقول بعد بيانه الطويل في العمل والحرية والمساواة والإيمان، والعبودية والقهر والكفر والإلحاد: «هذا هو الصراخ الأليم المستمرّ الذي سمعته خارجاً من أعماق صدوركم، فاستيقظت وتمرّدت على الرهبان وكفرت بمعيشتهم، ووقفت منفرداً متظلّماً باسمكم واسم العدالة المتوجّعة بأوجاعكم، فحسبوني كافراً شرّيراً وطردوني من الدّير فجئت لكي أشاطركم التعاسة وأعيش بقربكم، وأمزج دموعي بدموعكم، فأسلمتموني مكتوفاً إلى عدوّكم القويّ الذي يغتصب خيراتكم..»[1].

إنّ لخليل الكافر القدرة على استثارة المقهورين بسلك حارّ من كلامه المقتحم المناضل باسم القلوب الكسيرة، في ما يشبه تحدّي العالم قصد هدمه واعتراضاً عليه، فيتسنّى لسامعه، من بعد، ولو عن طريق الإيحاء، أن يحلم بمقاطعةٍ في زمنه يبسط عليها سلطانه. فالوحدة والإهمال والهامشيّة والتغييب للمهارات، الصفات الملازمة لهؤلاء الضعفاء النكرات في بيئاتهم، كلّها

= ولا يخفى ما في هذا المقطع من مناخات ديمقراطية تعطّر نسائمها الأدب الجبراني في حسّ وطني ووعي قوميّ إنسانيّ.

(١) «الأرواح المتمرّدة»، «خليل الكافر»، ع. س.

ونشير إلى أن في أقوال خليل خصوصيات كلّ ضعيف عامل، وهي ترمي إلى هدف خلاصي غير واضح، اعتراضاً على نمط حياة غير مفهوم، وباسم العدالة المتوجعة.

انتقاص من كراماتهم، ومدعاة للشذوذ وللجنون، لأنها تتعارض وما يسمّيه العارفون «انفجار كلّ ما هو إنساني داخل المجتمع»[1] بدافع غريزي، ومن نتيجته تعاظم الشعور بالنقمة والميل إلى التحطيم.

ويدفعهم دفعاً بارعاً إلى الاضطلاع بثورته والالتزام بمبادئها، غامزاً بطرف خفيّ من قناة المتلكئين، لمباداتهم إحسانه بالتنكّر والعقوق. يقول: «إن الكلام الذي سمعتموه منّي في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرهبان من أجله، والروح التي شعرتم بتموّجاتها في قلوبكم هي الروح التي أوقفتني مكتوفاً أمامكم، فإذا وثب عليّ سيّد حقولكم وكاهن كنيستكم وصرعاني أموت سعيداً فرحاً، لأنني بإظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً قد تممتُ مشيئة بارئي وبارئكم»[2].

فخليل الكافر حقيق بأن يدرس كإنسان أوّلاً ثم كثائر، فقد نتوصّل من خلال حضوره المائت مع أقرانه من مغبوني مجتمع القهر، إلى تصوّر سياسيّ أو أقلّه رؤية اجتماعيّة تعمّم حكماً شاملاً ملزماً طبقته المسحوقة بأسرها. فالحالة الاجتماعية والحالة السياسية كلتاهما تغلّفان الإنسان، ولكنّهما، في الوقت نفسه، ظاهرتان إنسانيّتان لا يمكن لدارس إلاّ أن يمرّ بهما لاكتمال فكرةٍ عن الحقيقة.

لذلك، ما إن انتصر الشعب لخليل الكافر، باعتراض شخص قويّ البنية سيفَ الشيخ عبَّاس، وتصدّي رجل وامرأة لبعض عسكره، وإقدام شاب على فكّ قيوده؛

وبعدما عاد لا يُخشى ذهاب الثائر المصلح عن قرية القوم، نتيجة الحبّ

---

(١) Guy Dingemans, Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(٢) «الأرواح المتمردة»، «خليل الكافر»، ع. س.

ونلاحظ أنه في الموقف الخلقي السليم، لا يكتفى بأن تعرف، إذ عليك أن تعلن ما تعرفه، فالتصدّي للمخالفة واجب، أما تجاهلها فإثم.

الهادئ الطاهر الجامع لقلبه وقلب مريم إلى الأبد؛

ما إن سكب خليل الكافر «سرائر روحه في قلوب أولئك القرويّين» حتى استسلم بدعة إلى وسطه الجديد، متنعّماً بثمار الثورة، حبًّا وأماناً عاطفيًّا وحضوراً اجتماعياً مشعًّا، مكتفياً للعدالة بما حقّقه لها من نصيب في ذاك الإطار الضيّق، وللإيمان بما زرعه في عيون الأتباع من لهفة إلى زمن المؤسّس وإصرار على صلة شبيهة بالنواميس الأزليّة التي للأجرام بعضها ببعض تقوم بين عواطفه وعواطفهم. يقول جبران في ختام حكاية الثورة التي لامست أهدافها: «أمّا خليل فكان يشاطرهم الأتعاب والمسرّات ويساعدهم بجمع الغلّة وعصر العنب واجتناء الأثمار. ولم يكن يميّز نفسه عن الواحد منهم إلاّ بمحبّته ونشاطه»[1].

لقد ولدت مملكة جديدة على سطح الكوكب، مليكها عادل لأنّه من عامة الشعب، ومجتمعها هو مجتمع الأرض البكر، إطار الينابيع الأولى للإنسان، حيث للجهد النقيّ احتساب أوّل في المفاضلة بين الناس، وهو المعيار لكل اقتناء، والحجر الأساس في مدنيّة الأرض المستعادة من صحراء المظالم، دينيّةً وسياسيّة.

ولكن.. ماذا بعد خليل الكافر وجيل الروّاد الأنقياء طالعين من ذاكرة البؤس والقهر في شوق إلى الأمان؟

لا شكّ في أنّ خليلاً الكافر بعطشه إلى السعادة والسيطرة، وهو غريزي أساساً في الإنسان، قد وفّق بين مرتجاه ومرتجيات سواه من أنداده الهامشيّين. وما شعاراته على تشعّباتها ومضامينها إلاّ لتتوافق كلّها فتناسب هدف اقتلاع اليأس من شغاف معذّب، وزرع حياته في واحة طمأنينة ورجاء.

فالقدرة مطلب لديه، لأنها الأصل في شجرة السعادة، وفي فيئها يأمن شرّ الخوف من الفشل ويشعر بامتلاك زمنه. وهذه القدرة هي أكثر من أن تكون،

---

(١) «الأرواح المتمرّدة»، «خليل الكافر»، ع. س.

وحسبُ، مطلباً غريزياً زرعته فيه أحداث رافقت الجنس الآدمي في رحلته التاريخيَّة عبر العصور، ووعته الذاكرة الجماعيَّة للإنسان، لأنها مكتسب حضاري أيضاً في إنسانيَّة تكرّست شرائعها على الغلبة، وتراها، حتى ولو دعت إلى نصرة الضعيف وحماية المظلوم، فإنّما بسيفها تضرب، وبأمانها تحتمي لتقوم العدالة ويسقط الطغيان.

خليل الكافر وجهٌ بنويّ ثائر، نجح في اقتناء أدوات هذه الغلبة، وانتصر بمدد من أوجاع أنداده، فأقام لشخصه أسس مملكة سعيدة.

أمَّا سائر بقاع الأرض، أمّا سائر المقهورين فلثورات مشابهة، لكن عن غير يده. فلقد اكتفى خليل الثائر بمرحلةٍ من درب النضال، توصَّل في خلالها إلى تحقيق أحلامه، وأوصل عارفيه ليشهدوا على فرادته.

ثمّ يتكوّر حلم آخر في أجيال لاحقة، وتهجع آمال مؤجَّلة بانتظار أن يقيم القيم من عثارها ثائر حاذق آخر، يعرف كيف يوفّق بين مرتجاه ومرتجيات رفقائه في سفر السعادة الطويل.

■ ولئن رأينا خليلاً الكافر منتصراً حيث فشل يوحنّا المجنون، نظيره في حمل مشعل الثورة البنويّة على الإقطاعين الديني والسياسي، فإنّ لنا من كتب جبران ما يرسّخ قناعة عندنا بالتأجّج الدائم للثورة البنويَّة تلك، في كل شأن من شؤون الحياة والمجتمع، ما دام هؤلاء الأبناء مطاردين بهاجس البحث عن السعادة، وبين أيديهم إرث آبائهم، مساكبَ جاهزة من أخلاق واجتماع وسياسة ودين وسواها، وهم الفسائل فيها يغتذون ترابها، بانضواء عمليّ في سداها، حتّى تولد ظروف، تتقاطع في خلالها مصالح الأبناء والآباء، فينتفض الأوّلون في ما يشبه الطيّ لصفحة الماضي، ورسم نقطة بداية جديدة لمستقبل المواليد والأيَّام.

فهذا جبران، بطل كتاب «الأجنحة المتكسّرة» وعاشق سلمى كرامة، يحلم

بعالم آخر فينسج الأرض وإنسانها على منواله وبقامة مطامحه. لذلك نراه في تمرّد وثورة يشوبهما حزن وبكاء، فيحمل بيد سوط النقمة على الواقع، كلّ واقع، شأنه شأن الشباب المثالي الرافض لكل حاضر، وباليد الأخرى صورة لفردوس مفقود اصطنعتها أشواقه إلى ما وراء حدود التراب وقشور المجتمع والحياة.

ونحن، انطلاقاً من اعتقادنا، مرة أخرى، بأنه لا يمكن إسقاط الدور الذي لجزئيات الحقيقة الإنسانيّة من الحقيقة النهائية للعمل الفني[١] لأنها كغذاء الغرسة أو حجارة البنيان، نرى في المحاولة الجبرانيّة، حكاية حبّه الخياليّة على الأرجح[٢]، اقتناصاً للتجاوزات المتفاقمة الخطر في مجتمعه وداخل الحضارة، بغية ردّها من جديد إلى السوى، ولكن ليس قبل توضيبها توضيباً شخصانيًّا، ووسمها بخاتم المثل والمشتهيات المستحيلة.

والحقيقة أنّ الثورة الجبرانيّة جاءت من أقصى الطرف الآخر لكلّ تجاوز أمضّ الكاتب الإنسان فيه وآلم الحقيقة، فسجّلت تجاوزات بدورها في ميادين شتّى، افتعالاً للصراع بين الموروث والمحدث، القديم والجديد في كلّ

---

(١) يقول أندره مالرو: كلّ عمل إبداع هو تطهير للعالم، ينتصر فيه الفن على قدر الإنسانية، والفن مضاد لنواميسه.

André Malraux, «Les voix du Silence», cité par Alexandre Beaujour, «Littérature et engagement», classiques, Hachette, 1975.

ويرى بيراندلو أن العمل الفني يبقى إلى الأبد صورة للجمال والحقيقة والطهارة، ويعطي الإنسان فرصة نسيان واقعه وحنينه إلى ما لن يتحقق.

Cité par Bernard Dort, «Théâtre public», op. cit.

ونرى، بناءً عليه، أن أدب جبران ليس مرآة لعصره فحسب بل طريقة لتغييره أيضاً.

(٢) رأيْنا أنه قصائد ترابطت سداها بلحمة سردية مصطنعة. ومن يدري؟ فقد يكون جبران، وهو الرسّام قبل أي اعتبار آخر، هيّأ اللوحات ـ القصائد ثم نضّدها فوق جدران معرض أسماه قصة أو رواية.

مضمار، وإبرازاً للاغتراب الحزين لجيل من الشباب لا صلة له بجيل الآباء غير الرباط العاطفي، فيخبط خارج إطار الواقع بحثاً عن جذور تقوّي انتماءه وتشعره بمكانة له في أرض سواه، وكذلك إفرازاً للنقمة على الأدوات في كل شأن من شؤون الدين والسياسة، واعتبار المبادئ أجدى وأحقّ من رموزها بالتقدير، في عودة صريحة إلى الينابيع.

فجبران العاشق في «الأجنحة المتكسّرة» تعرّف إلى والد سلمى مصادفة في بيت صديق مشترك. فعرف الكاتب فيه صديقاً لأبيه «صرف العمر برفقته» منذ عشرين عاماً. ودعاه فارس كرامة لزيارته في منزله علّه يستعيض بزيارات كثيرة منه عن «بعاد أبيه الطويل».

ورأينا أن جبران ما كان ليفعل لولا تحدٍّ ألزم به النفس، بعدما أخبره صديقهما المشترك بعضاً من خصال سلمى، مستثيراً شوقه إلى أنها بمالها وجمالها قبلة أنظار المطران بولس غالب، يستأثر بها زوجة لابن أخيه. قال: «. . . أمّا ابنته فتخضع ممتثلة لإرادته الواهنة على رغم كلّ ما في روحها الكبيرة من القوى والمواهب. وهذا هو السرّ الكامن وراء حياة الوالد وابنته. وقد فهم هذا السرّ رجل يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظلّ الإنجيل فتظهر للناس كالفضائل»[١].

بعدها قام جبران من مكانه وأخذ يد صديقه مودّعاً وقال: «غداً أزور فارس كرامة قياماً بوعدي له واحتراماً للتذكارات التي أبقتها صداقته لوالدي»[٢].

لقد انطلق نفير الثورة بسبب معلن هو غيره ذاك الخفيّ، وابتدأ رهان النجاح في إشعالها بينه وبين ذاته، في حرص باطن منه على الخروج من قوقعته اختراقاً لقشرة الرومنطيّ التي زجّ آماله وأحلامه في زنزانتها.

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.
(٢) المصدر نفسه.

وقد توقّلها، الثورة، مرحلة في إثر مرحلة، من تصدّيه لرجال الدين في الشرق، أولئك الذين «لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كلّ ما في وسعهم ليجعلوا أنسباءهم في مقدّمة الشعب ومن المستبدّين به والمستدرّين قواه وأمواله»[١]، إلى انقضاضه على المدنيّة الحاضرة التي، وإن أنمت مدارك المرأة قليلاً، «أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل، هي من كانت «بالأمس عمياء تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل. كانت جميلة بجهلها، فاضلة ببساطتها، قويّة بضعفها فصارت قبيحة بتفنّنها، سطحيّة بمداركها، بعيدة عن القلب بمعارفها»[٢]؛ إلى انتقاص من كل حاضر في «هذا الجبل الشبيه بالغيبوبة التي تتقدّم اليقظة»، فسلمى كرامة «كانت في بيروت رمز المرأة الشرقيّة العتيدة، ولكنّها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحيّة الزمن الحاضر، ونظير زهرة اختطفها تيّار النهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء»[٣].

إنّها الثورة، فعل انتماء عريض إلى الإنسان والعالم والحياة، بشعارات كبيرة حقاً، ولكن كمثل ما تصدر الشتيمة من فم المضنى، صوت رفض لواقع خاص يسحب أذياله على المسائل الكونية المعقّدة، وتجرّ اللحظة الموجوعة أوجاع لحظات سابقة، وإذا المسيرة الإنسانيّة بأسرها على المحكّ، ولا حلّ لمعضلاتها المتجذّرة في أعماق الكينونة الإنسانيّة المعتاقة.

وإن جبران «الأجنحة المتكسّرة»، وعاشق سلمى كرامة، في صراع مع ثوابت المجتمع ومكتسبات الحضارة، يتصدّى لها مجتمعة لأنها تجري على حساب حياته وحساب زمنه الخاص، في نضال مضنٍ لإثبات شخصيّته، مزوّداً بما يكبت في عقله الباطن من رغبات وعاطفة كره لأناه المثالي، متجسّداً أباه، صفيّه وغريمه في آن[٤]، أو يضمر في سريرته شعوراً يرتضي بموجبه أن يكون

---

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) يرى سوليفان أنّ الكائن الإنساني مسيَّر بهدفين اثنين: إشباع غرائزه وتأمين أمانه. =

الضحيّة، على غرار شهداء الحبّ من الذين سكنوا بفرادتهم الصفحات الأولى من التاريخ.

وكم نراها ثورةً حالمة تائهة متردّدة، وغير مستقرّة على حال من اهتمامات صاحبها. فبعد زواج سلمى ومنصور بك غالب، «وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف» تدرَّجت محبّة جبران لسلمى «من شغف فتًى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبيّ اليتيم نحو روح أمّه الساكنة في الأبديّة، فالصبابة التي كانت تمتلك كليّتي قد تحوّلت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها. . . وأنّ الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدّمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدّة السعادة لسلمى والغبطة لبعلها والطمأنينة لوالدها»[1]؛

ثم نراه، بعد صفحات من هذا الموقف المتخلّي بتعالي الزاهدين، شهداء القيم الخالدات، يُقدم من جديد، فيدعو حبيبته التي على ذمّة رجلٍ آخر أن ينتصبا معاً كالأبراج أمام الزوبعة. يقول جبران لحبيبته على مقربة من أبيها المحتضر فوق فراشه: «. . . هلمّي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا، فإن صُرعنا نموت كالشهداء وإن تغلّبنا نعيش كالأبطال»[2].

فما الداعي إلى هذا التحدّي المتأخّر بعد فرص كثيرة للثورة، وفي إثر صلوات وتمنّيات بالسعادة؟ قد يكون غير المألوف، الخارق، والاشتياقات الكبيرة موتاً وحياة، وفي كلّها إفساح لشخصه فيخرج من دونيّته بإشراقة صنّاع التاريخ؛

= Voir: Guy Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

وفي الموقف إنقاذ للخيبة بالتضحية والصلاة في ما يشبه الوعي لمصيبته بفشل التحدّي، والعودة إلى الواقع من أوهام حبّ شاعري.

(٢) المصدر نفسه.

حتّى إذا تمّ له ما أراد، وراحا يلتقيان خلسةً في معبد قديم، فتقعد هي إلى جانبه «بين عشتروت والجبّار المصلوب»، ولا يخافان قطّ عين الرقيب، ولا يشعران بوخز الضمير «لأن النفس إذا تطهّرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفّع عمّا يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرّر من عبوديّة الشرائع والنواميس التي سنّتها التقاليد لعواطف القلب البشريّ»[1]، وليقل الناس ما شاؤوا «فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عواء الذئاب وفحيح الأفاعي»، وليقل الناس عنه ما أرادوا، «فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص»[2].

معارك أيّام بل لحظات في عمر ثورة معلنة لغايات نرجسيّة، يجمّع جبران الخلق لها تحت قباب الفنّ، ويعمّر الأحداث ليلقي خطبه الناريّة، مفرجاً عن كبته الطفولي ومطامح شبابه العاثر، وفي ساح الحبّ الشاعري، حيث ابتناء العالم عن طريق الحلم أسهل عليه من هدم ثانية من زمن تقاليده وثوابته العقديّة والاجتماعيّة.

لكنَّ هذه الثورة البنويَّة على جيل الآباء ومعتقداته المتوارثة سرعان ما يخبو أوارها وتتوقّف إذ تحاذي أوان التطبيق العمليّ للطروحات المعلنة، فتتلبّس شكل ثورة مضادّة للثورة الأمّ، في ما يبدو انتظاماً للأحوال بأوبة من المدّ التجاوزيّ للأهداف، ومن الجنون.

فجبران، عاشق سلمى كرامة، اختار له ولها حلّ الفراق بأعذار من قلب الإرث الاجتماعي الذي تمرّد عليه، وانصاع بعد صياحٍ كثير. فلقد جعل سلمى كرامة تقرّر الانقطاع عن ملاقاته خوفاً «من أن يقع مثلَها في أشراك المطران»، ليتلو أمامها، من بعدُ، أي أمام قارئيه، آخر فصل من فصول ثورته المعلنة، ساتراً حقيقة ما يضمر من تقديم للفن على الحياة. قال لها: «. . . هلمّي نرحل

---

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

من هذه البلاد وما فيها من العبوديَّة والغباوة إلى بلاد بعيدة لا تطالها أيدي اللصوص ولا يبلغها لهاث الأبالسة. تعالي نسرع إلى الشاطئ مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تقلّنا إلى ما وراء البحار وهناك نحيا حياة جديدة مكتنفة بالطهر والتفاهم... قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة إلى حقول تنبت الأزاهر والرياحين»[١]؛

غير أن محبّة سلمى إيّاه «محبَّة الأم وحيدها» هي التي علّمتها أن تحميه حتى من نفسها. فتودّعا، وكان «وداعنا عظيماً وهائلاً مثل حبّنا»[٢] يقول. فاستعاد الكاتب بهذا الاختيار حلمَ الثورة، بعدما لامس التحقّق في الواقع، ورفض سلمى الحبيبة، أي المعطى الثورويّ في حالته الجديدة، فعلَ الثورة التي تأكل أبناءها محافظة منها على حدّ أدنى من التواصل بين الحياة والحياة.

هكذا نبصر أنّ جبران الوجه النبويّ الثائر لم يحمل في الحقيقة قضيّة، باستثناء قضية الفنّ نفسه، أو يضطلع بمهمّة تجسّد أماني الناس وتترجم تطلّعاتهم إلاّ بشكل نظريّ وبأبجديَّة الحلم الأثيري الهائم.

لقد عشق جبران البعيد البهيّ وجسّده بسلمى كرامة، ثم أدناه مطرياً شخصها ومحاسنها كمن يفرغ حلمه في وعاء من الواقع، حتّى إذا شاكل الحلمُ هذا الواقع أو تفرَّغ من بهائه البعيد، عاد فأبعده لترتسم مع هذا الابتعاد مسافات جديدة للحلم وللاشتهاء، النسغ الأساسي لشجرة الفنّ. وبين هذين الإدناء فالإبعاد امتلك جبران الكاتب زمنه من خلال صنيعته سلمى كرامة، وما سلمى «الأجنحة المتكسّرة» في النهاية إلاَّ مجسَّم إنسانيّ لقضيّة نضاله في وجوده؛ وككل عملٍ فنّي هي مقترح لمقاربة الحقيقة، ومرآة تنعكس في صفحتها مطامحه، وتنفحه شعور اطمئنان إلى قدرات شخصه.

---

(١) «الأجنحة المتكسّرة»، ع. س.

ونشير إلى أن في العبارة الأخيرة صورة توراتية، فيها إجمال لتيه العبرانيين في سيناء وحنينهم إلى أرض الميعاد.

(٢) المصدر نفسه.

إنَّ جبران في حكاية «الأجنحة المتكسّرة» بحث قبل كل شيء، عن نقطة ثابتة، وسط مظاهر الحيرة التي تكتنف الحياة، وداخل مجتمع يقوده الجشع وتسيّره رغبات لا تتعدّى إطار انتهاب الحاضر نهباً استسراعياً، بلا تخطيط لغد أو تقويم أو تعديل لحياة، من الممكن أن تنهد إلى غايات باهرات.

هي الثورة البنويَّة قد أخطأت أهدافها الكبيرة، فدخلت سجلّ التاريخ الشخصيّ للكاتب، متخفيةً من جديد وراء بريق الفنّ.

إن ثورة جبران خليل جبران في كتاب «الأجنحة المتكسّرة» قد غلب فيها الفنّ الحياة.

■ وإذا كانت الموارية تلك علامة في الشخصيَّة البنويَّة الجبرانيَّة داخل كتاب «الأجنحة المتكسِّرة»، فإنّ لنا من «البنفسحة الطموح» في كتاب «العواصف» ما يقيم لأعيننا، من نظرة أولى، طرازاً أعلى للأبناء الثوّار، هادمي الحياة من أجل بنائها على نسق جديد، أكثر ائتلافاً مع الحقيقة بمعناها الكونيّ الشامل.

فالبنفسجة[١] أرادت أن تتمرّد على واقعها، فتشرق من الغياب، وتشعّ ولو شعّة ثم تموت. فسألت الطبيعة، أمّها، أن تحوّلها إلى وردة، فحاولت هذه أن تثنيها عن عزمها فأصرَّت. وكان لها ما طلبت. وهبَّت العواصف فاقتلعت الأزهار المتشامخة، فلم تبقِ إلاّ على الرياحين الصغيرة. وإذ قامت مليكة البنفسج لتجعل من حادثة البنفسجة الوردة أمثولة لسائر بنات جنسها، جابهتها

(١) راجع دراستنا «العواصف»، ع. س.
ولا يخفى ما في النوع المختار كرمز هنا من إيحاء بالضعة والدونيَّة والصغار، الأمر الذي يرسم في الحقل الإنساني مدى لتغيير، ويحفّز في الشخصيّة نزوعها إلى الثورة، بسبب من نقص كياني، وقصور في إشباع الاشتهاء.

تلك، وهي تحتضر، بأنها حاولت أن تجعل من الوجود طموحاً إلى ما وراء الوجود كما يأمر العالم الأعلى، ويكفيها أنّها عاشت ساعة كملكة، ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علويّـة، هي ابتسامة النصر والتغلّب.

فالبنفسجة الطموح حالة بنويّة تقاطعت في حضورها عوامل وأسباب أدّت إلى انتفاضها على قدرها، في منحى مغامر يعوّض ألقُ الفرادة فيه كلّ خسارة للحياة أو للواقع. «ففي صباح، وقد تكلّلت بقطر النّدى[١]، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردةً تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرّد. ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهّدة: ما أقلّ حظي بين الرياحين، وما أوضع مقامي بين الأزهار! فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة حقيرة، أعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا أستطيع أن أرفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو أحوّل وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود..»[٢].

أشواق من أسفل الدرك الاجتماعي في رموزيّة القطعة، تستحثّ البنفسجة ـ الإنسان المغمور لامتلاك وسائل تحقّق لها التقدُّم النوعي في الزمن والمكان، فتشبع نزعة غريزيّة فيها إلى اللذة والسعادة، تذكيها عدوى التشبُّه بمن يفوقها حظًّا واقتداراً، أي بالمثل الأعلى الاجتماعيّ الجاهز أمام عينيها في مجتمع الورود، لتبني نمط عيشها على أساسه.

ونرى أنّ هذه البنفسجة ـ الإنسان المغمور، من منطلق الصدع بين مقتناها ومشتهاها، لا تحيا في حاضرها بالكامل، فمن أعماق أغوارها الخفيّة ما يجذبها إلى الأنا المثالي، موضوع عطشها الهائل إلى التلذّذ بالحياة، وانتهاب مباهجها قبل الرحيل[٣]. يظهر ذلك خصوصاً في اللوحة الحوارية الرائعة بينها وبين أمّها

---

(١) هل يكون لذلك علاقة بالولادة الجديدة (الصباح) أي بالوعي الطبقي لموقعها، وبإيحاء سماويّ (الندى) استجابة لعناية من لدن السماء ترعى الكائنات؟

(٢) «العواصف»، «البنفسجة الطموح»، ع. س.

(٣) يقول ليوناردو دافنشي: عندما ينتظر الإنسان بلهفة فرحة النهار الجديد والربيع الجديد =

الطبيعة. قالت البنفسجة: «أيتها الأم العظيمة بجبروتها... أضرع إليك بكل ما في قلبي من التوسُّل، وما في روحي من الرجاء، أن تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً. فقالت الطبيعة: أنت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفيَّة، فإذا رفعت قامتك وبدّلت صورتك وجعلتك وردةً تندمين حين لا ينفع الندم[1]. فقالت البنفسجة: حوّلي كياني البنفسجي إلى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس... ومهما يحلّ بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي»[2].

وحين قصفتها العناصر والأعاصير، صاحت من تحت سقف الاحتضار الدافع بها إلى هاوية الموت، تعلن فعل إيمانها بحتميّة الحريَّة كمبدإٍ حياتيّ مرادف لمعنى الوجود نفسه. قالت للساخرات بها من أزهار الحديقة: «ألا فاسمعن أيّتها الجاهلات القانعات، الخائفات من العواصف والأعاصير. لقد كنت بالأمس مثلكنّ أجلس بين أوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي... ولكني أصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم: إنّما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود... لقد عشت ساعة كملكة... فهل بينكنّ من تستطيع أن تدّعي شرفي؟... أنا أموت الآن. أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي»[3]؛

فنتيقّن إذّاك، مع فرحها المجروح، من مدى التعس الإنساني تصاب به،

= والعام الجديد، لا يشك لحظة في أنه بهذا الشكل إنما يتوق إلى موته بالذات.

Cité par M. Bakhtine, «L'oeuvre de F. Rabelais et la culture populaire au M.A., op. cit.

(١) كأنها حوارات داخليّة في أعماق جبران الإنسان حول جدوى الاستمرار في انطواء، وواجب الشروق في عالم الحضور الإنساني. وفيها لغة الأرق بسبب واقع يعيشه، والألق الذي يغري بالكثير.

(٢) «العواصف»، «البنفسجة الطموح»، ع. س.

(٣) المصدر نفسه.

ويصيبنا، بسبب هذه الحريّة التي حُكم علينا بها[1].

إنّ البنفسجة الطموح ـ الإنسان المغمور، هي الأخرى، كسائر الوجوه البنويّة الجبرانيّة، تنطلق، ولو ثائرة، من وجع ما في الإنسان، من «تعقيدات الأشياء الإنسانية»[2]، وشعورهم بالضعف حيال شقاء أو تعثّر أوضاعهم النفسيّة قبل الاجتماعية، فنبصرهم ساعين، كلٌّ في مفرده، وضمن شروطه ووسائله، لابتناء عالم آخر قرب «العالم الرسمي»[3]، وحياة أخرى، فتتكرّس بذلك ثنائية في عالمهم.

■ وفي «رمل وزبد» نموذج بنويّ أكثر وضوحاً في ثورته ووعياً لأهدافه. ومع أن هذا الكتاب هو كتاب خواطر مبتسرة كأنها الفكر المهرول غير المستقرّ، كمثل تلك الشذرات ـ اللمعات من رؤى، تأتيك تداعياً، أو وحياً وإلهاماً، وأنت منصرف إلى أعمال يوميّة تافهة؛ فإنه في البعد الأخير لخواطره عناوين كبرى أو أفكار لأعمال لم تنجز، أو مشاريع ـ عيّنات لأعمال مستقبلية رسماً وكلمات في الرحلة الجبرانيّة المنقّبة عن الحقيقة في الحياة.

إذاً.. في كلّ خاطرة من هذا الكتاب إجمالُ لوحةٍ من حياة، ووجهة نظر قامت على تأليف هيكلها الفنّي عناصر من الحقيقة الواقعة.

---

(١) يقول سارتر: الإنسان محكوم عليه بأن يكون حرًّا.

Voir: E.D.M.A., «Le théâtre», op. cit.

ونراها حرية تواكب كل حركة ونسم في الجسد الإنساني، كترجمة في المدى لمتطلّبات ولدت معه.

(٢) تعبير مستعار مما قيل في مسرح بيراندلو.

Voir: G. Bosetti, «Pirandello», op. cit.

(٣) تعبير لميخائيل باختين.

Voir: M. Bakhtine, «L'oeuvre de F. Rabelais et la culture populaire au M.A., op. cit.

يقول جبران في إحداها: «كن شكوراً لأنّك لستَ مرغماً على الحياة بصيت أبيك أو مال عمّك. ولكن كن شكوراً أكثر من هذا إذا لم يكن لك من يعيش بصيتك أو بثروتك»[١].

هي رفضٌ منه لحالتي البنوّة والأبوّة الإنسانيّتين في آن، لحساب هدف غامض هنا[٢]، وقد نحدسه حدساً في خلال السخط الإجمالي على نسق حياة غير منكشفة المعالم، وتجري في غفلة من الكائن مغتذيةً عمره وزمنه.

والبناء! في الحقيقة لا بناء لبديل، لأن استغناءه عن صيت أبيه ومال عمّه هو استغناء أيضاً عن كلّ مرتكزات الحضارة الإنسانيّة، فوزاً بما يبدو زهواً يُشعره بأنه المبتدأ في رحلة إباء وتحقيق للذات من عصاميّته المناضلة. أونكون المغبونين المتألّمين أمام عين الحقيقة المطلقة، إذ نتوارث مكتسبات الآباء وإنجازاتهم الناجحة في ميادين المجتمع والأعمال؟

إن جبران في طرحه هذا[٣] إنّما يخطّ لجيله، جيل الأبناء، السطر الأوّل في عقيدة الجهاد، وهو التخلّي وإشاحة الوجه عن المخلّفات، ليأتي العالم صنع يديه، في عجينه الجديد قطرات من عرقه، وله عليه ظلالٌ من متنه.

وفي كلّ حال، بمثل هذه الخواطر نلمح، عبر قسماتِه وأسارير جيله من الأبناء، جذوة غضب مكظوم وشرارات نقمة ورفض وحتّى تهيُّؤاً لانتفاض وانقضاض، ولكنها مظاهر لثورات عفويّة[٤]، كسورة الانفعالات المداهمة التي سرعان ما يخبو أوارها وتستكنّ بتأثير من بسطة عيش، وابتسام أيّام.

---

(١) «رمل وزبد»، «275»، ع. س.

(٢) نحاول أن نميط اللثام عنه في الجزء الثالث من هذه الثلاثية «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني».

(٣) وهو بخطابه المخاطب يعني نفسه بقالب التجريد البيانيّ.

(٤) هي ثورة بألف رأس، صاخبة، متقلّبة، عنيفة ومزاجيّة.

François Fejto, «Budapest», 1951, cité par André Decouflé, «Sociologie des révolutions», P.U.F., Que sais-je?, 1278, 1970.

ولا نسمّي هذا ثورة، خصوصاً أنّ المذاهب الثورويّة غير مفهومة بالمعنى ذاته لدى الأفراد والشرائح وحتى علماء الاجتماع، فالآراء فيهم وفيها توازي عدد الرؤوس[١]، وكلّها يعرض إصلاحات ومخطّطات تناسبه. ولا ثورة حقيقية وناجحة إلاّ حيث يكون من الأهداف المعلنة انقلاب على نظام اجتماعيّ وخلقيّ وعقليّ[٢] معيَّن، ولا ثورة إلاّ متى كانت كاملة، كليّةً، شاملة ومطلقة[٣]، أي تخطياً في العمق وبحثاً عن ينابيع أكثر إيغالاً واقتراباً من الكمال.

■ والتخلّي هذا، نعمة النفوس المناضلة الرافضة، يتّسم به نموذج بنويّ جبراني آخر، ولكن في نطاق مختلف من الحياة والأهداف. إنه الإبن في لوحة «أرملة الجليل» من كتاب «يسوع ابن الإنسان».

ففي هذه الشهادة غير المؤمنة بيسوع أنَّ أرملة الجليل ترى المسيح قاسياً لأنّه فصل عنها ابنها الوحيد فتبعه. وتفرح لأنّ الرومانيّين والكهنة قد قبضوا على يسوع وصلبوه. وهي تبغضه لأنه أنسى وحيدها ثدييها في سبيل ينبوع لم يذقه بعد.

وبكرها، وهو الوحيد الذي ولدته، «كان راضياً بعمله» قبل أن يسمع يسوع مخاطباً الجموع، «حينئذٍ تغيَّر... كأَنَّ روحاً غريبة غير صحيحة عانقت روحه. فترك الحقل والبستان... وصار خاملاً يعيش بين رعاع الطريق» تقول[٤].

والحق أنه الانحراف عن مسيرة تظنّها الأمّ وحدها متوازنة، لأنّها تقاس بمعايير من واقع أيّامها الواقعة على نسق معهود متوارث. وما كان الجديد، كلّ

---

(١) A. Joussain, «La loi des Révolutions», Flammarion, 1950.

(٢) André Decouflé, Ibid.

(٣) Charles Péguy, «Cahiers de la Quinzaine», cité par A. Decouflé, Ibid.

(٤) «يسوع ابن الإنسان»، «أرملة الجليل»، ع. س.

جديد، إلاّ ليثير ضروب الاتّهامات مقرونة بعواطف السخط واللّوم.

ولكنّها من الشاب ثورة بيضاء عنوانها التخلّي، بزهديّة تعلن نفسها لأنها عاقلة واعية مسكونة بالإيمان، في انتماء إلى مجد الوداعة، علّها الرسالة تغدو هي البيان الانقلابي، وتخلخل في مدى الكون كلّه قناعات الأجيال المبنيّة على رمال الحقائق العارضة.

قال لوالدته قبيل ارتحاله: «أنا ماضٍ مع أحد تلاميذه إلى البلاد الشماليّة، لأنني قد جدَّدتُ بناء حياتي على صخرة الناصريّ، أنت قد ولدتني وأنا شاكر لكِ صنيعك، ولكن الواجب الأسمى يدعوني إلى الذّهاب. أما أنا تارك لك أرضنا الغنيّة وكل ما لنا من الفضّة والذهب؟ إنّني لن أحمل معي شيئاً إلاّ هذا الثوب وهذه العصا»[1].

ابن الأرملة هذا وجهٌ بنويّ ثائر، ولكنّها ثورة في أرض السماء، لم تقيّد ذاتها باستحقاقات زمنيّة، ولا بمشاريع إصلاح محدّدة، ولا حتى بشعارات عقائد ورجال، لأنها نقلٌ بالفعل للأشواق إلى مجالها العمليّ، برؤية قلبيّة للكون لا تعترف أبداً بموازين الطين في قياس الحقائق والغايات. من قال: ليس من واجب المثقّف، المستنير بقبس من لدن الله في حال ابن الأرملة، أن يحرّض الشعب ويخطو خطوةً أمامه[2]؟!. تابع المسيح قد فعل، فكان النفير ترنيمة صلاة.

■ وابن سوسان، في لوحة «سوسان الناصرية جارة مريم»، كأنه ابن أرملة الجليل. فقد ذهب إلى صور ليصبح ملاّحاً لا يعود وقال لأمه إنه لن يرجع

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «أرملة الجليل»، ع. س.

(٢) Voir: Gabriel Celaya, «De la responsabilité de l'intellectuel devant les problèmes du monde sous-développé», congrès de la culture. La Havane, 4-11 Janvier, Seghers éd. coll. Poètes d'aujourd'hui, 1970.

إليها. وما الملاحة إلاّ رمز السفر باتجاه آفاق البحر بحثاً عن البعيد الجميل. وقد جاءت سوسان بيت مريم تطلب تعزية، ومن شهادتها في شباب يسوع ورجولته: «فقالت مريم: إنّني أودّ أن أعزّيك، ولكن أنّى لي ذلك؟ فقلت: إذا تكلمت عن ابنك فقط فإنني أتعزّى... فقالت لي: إنَّ ابني هو ملاَّح كابنك، فلماذا لا تسلّمين ابنك لحنان الأمواج كما سلّمتُ ابني؟»[1].

هو ثورة من قلب التاريخ، تقلب ثبات المتعاقب في الحضارة الإنسانية على نحو رتيب، يتقبّله جيل من الآباء بتوقٍ إلى ما يحقّق مشتهاه، وانتماء إلى حركة الحياة الشاملة، وبالعمل الذي يتخطّى الزمن الآنيّ إلى النهايات العظيمة، إيماناً بوحدة الوجود وناموسه الشامل.

أما الإبن، ولد سوسان، فمجاهدة أخرى في الزمان والمكان، علّه يصبح هو الآخر، في خطى المسيح وفي هذا الدّهر الوسيع، ثانية اقتراب من الكمال، تشبُّهاً بيسوع[2].

هم الأبناء الثوّار لتقويض وبناء على تفاوت في زخم الالتزام لأنويَّة معلَّلة أو غيريَّة تتسامى. ونراهم في كرّةٍ من نظرتنا:

- محتمين بحلم قديم أو مستقبليّ، يحاولون أن يقيسوا به حاضرهم الكابوس، في انتظارات ترتقب حلولاً طوباويَّة لواقع غارق في الإثم والمخالفة، من دون توخٍّ أحياناً للصراع، كمثل ابتعاد مختار عن الإثم احتفاظاً بما تبقّى من حلم السعادة؛ فتظلّ ثورتهم منحصرة في النطاق الخلقي لخلوّها من البرنامج الواضح بمضمونه السياسي، ولإغفالها أرضية وطنيَّة محدّدة، مكتفية في هذا المجال بتحريك الرأي العام؛

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

(٢) وجبران قد ورّط يسوع توريطاً بمسائل الإنسان، فجعل طلوعه حتمياً من قلب الجنس البشريّ، ولا فكاك منه، وأبداه حلقة أخيرة في نهائي المسيرة الإنسانية عبر الأديان والمعتقدات باتجاه نهاياتها العظيمة. تجلّى في التاريخ، من قلبه وليس من خارجه، لأنه الدورة الكاملة للحياة بوجه من الوجوه..

ـ منطلقين من دونيّة وصغار، مطالبين بحقّ لهم في الحياة الكريمة، بنقل من العين لمكتسبات القادرين وامتيازاتهم، منحصرين في نطاق من الأنويّة الضيّقة، على براعة في قيادة الجماهير تأليباً للمناصرين، وإيقاظاً للأوجاع والأحلام الهاجعة في أعماق النفوس؛

ـ متوجّهين بصوت رفض لواقع خاص يسحب أذياله على المسائل الكونيّة المعقّدة، كمثل ما تصدر الشتيمة من فم المضنى، وتجرّ اللحظة الموجوعة أوجاع لحظات سابقة، فلا يحمل الوجه البنويّ الثائر قضيّة، باستثناء الاضطلاع بمهمَّة تجسّد أماني الناس، بشكل نظري وبأبجديَّة الحلم الأثيريّ الهائم، وتندرج الثورة في سجل التاريخ الشخصيّ بعد أن تكون قد أخطأت أهدافها؛

ـ وطمّاحين إلى ألق الفرادة، وإن أدّى بهم الأمر إلى خسارة الحياة أو المواقع، تسامياً إلى مثل أعلى اجتماعيّ أو الأنا المثالي الهاجع في الأعماق، أو الذي يخطر في حضورهم أمام العيون، فتتكرّس ثنائية في عالمهم؛

ـ ورافضين رفضاً إجمالياً لنسق حياة بكاملها، لأنها غير منكشفة المعالم، وتجري في غفلة من الكائن مغتذية عمره وزمنه، وفي توخٍّ باطن لأن يمتلكوا المبتدأ من كلّ فعل بعصاميّة مناضلة؛

ـ متخلّين عن مرتكزات الحضارة الراهنة، بزهديّة تعلن نفسها في انتماء إلى مجد الوداعة، والرسالة معها هي البيان الانقلابي، دونما تقيّد باستحقاقات زمنيّة أو بمشاريع إصلاح محدّدة، لأنها نقل للأشواق إلى مجالها العملي، برؤية قلبيّة للكون، لا تعترف بموازين المادّة وأحجام الطين في قياس الحقائق، وبمجاهدة ليصبحوا في هذا الدّهر الوسيع ثانية اقتراب من الكمال.

وإذا كان الإطار الجامع لهؤلاء الأبناء الثوّار جميعاً هو إعلانهم ضمائرهم ونشرهم إيّاها سواء بالقول أم بالعمل في محاولات جادّة لإقناع واستمالة السّوى

إلى قضاياهم المرتبطة إلى بعيد بشخصياتهم، والنابعة من أغوارها؛

فإنّ من الأدب الجبرانيّ نوعاً آخر من الأبناء الثوّار، هم الطافرون لانكفاء، بعدم اهتمام منهم للوقوف على رأي السّوى إقناعاً واستمالة، فيبدون في مواقعهم، داخل أحداثهم والأزمنة، كالهاربين إلى أمام، في حلم ثورة انتحاريَّة، خفيّ، بائس، ساخر حتى البكاء والإبكاء؛ ونصب أعينهم، في المقابل، انتصار ظرفيّ، ولو استبعد ثباتهم عليه بشكل أكيد متواصل.

فأين الأدب الجبراني من هذه الطائفة من الأبناء الثوار، طافرين لانكفاء؟

ب ـ أبناء ثوَّار.. طافرون لانكفاء:

هؤلاء الأبناء قد نجدهم أيضاً في انفصام بين مرتجياتهم البادية للعيان وما يعتمل في أغوارهم من أحاسيس القلق والخوف إذ هم مفترسون بالزمن، أو تدوسهم عرباته باندفاعها المسعور على غير هوادة وتنبُّه لأقدارهم.

ولئن خلصنا بأنّ الصفة الكبرى لأندادهم في فئة الأبناء الثوّار لتقويض وبناء هي إخراجهم إلى العلن القبضة المشرَّعة بغضب، والصوت المعترض على المرتكزات اللاأخلاقية في ميادين الدين والمجتمع والتعاطي مع الحقيقة؛

فإنّ لهؤلاء الطافرين لانكفاء في المقابل الصفات الثوروية ذاتها، إلاّ أنها نزيلة الخفية، وسائرة بمحاذاة ذواتهم على هامش الحقائق، وبإعراض عن إعلانها أو الإقناع بها، على نحو يبدو معه الاهتمام الأوّل لهؤلاء، الإشباع لنزواتهم، أو الاندفاع إلى أمام مسيّرين باختيارات آنيَّة عارضة، كمثل ما تهبّ الريح في جمع الشراع فتدفع بالمراكب عبر المسافة، لمتّجهات مرتجلة قابلة للتغيُّر في كلّ لحظة.

■ ووردة الزوجة الصبيَّة الحسناء من كتاب «الأرواح المتمرّدة» هي أولى

هؤلاء الأبناء الطافرين لانكفاء. وخبرها، كما ترويه معترفة لجبران[1] أنّها كانت زانية في منزل زوجها الثريّ لأنه جعلها رفيقة مضجعه بحكم العادات، بعد أن ضمّها إلى قائمة ممتلكاته، ودخلت قصره غريبة يلتبس أمرها على الزائرين، حتّى يظنّها بعضهم صبيّة تبنّاها الرجل؛ ثم صارت نقيّة طاهرة في كوخ عشيقها يوم حرّرها ناموس الحبّ من سجن التقاليد البالية. وتروح تستعرض أمام عينيه مآسي وضحايا: أغنياء يشترون بأموالهم زوجات فقيرات، وأرملة تقدم على زواج جديد لتستر منكراتها خلف اسم رجلها الضعيف، وشاعر يتّخذ عشيقة له امرأة متزوّجة لأنها تُشعره بعذوبة روحيّة يفتقدها في زوجته الغليظة العقل[2].

فنسمع عبر إسرار وردة الهاني بمكنونات فؤادها مرافعة مظلوم جُرَّ إلى ارتكاب جرم، ولم تصغِ الجامعة البشريّة لا إلى دفاعه ولا إلى صراخ أوجاعه، فتخفّى، وفي تخفّيه إصرار على التمادي في ما اختار، محاولاً أن ينتزع من الآخر، قدر الإمكان، إقراراً واعتباراً.

وكم رافق وعيها الحريّة ومخاض ثورتها من آلام! تقول وردة الهاني في اعترافها: «ولكن استيقظت ـ عندما استيقظت وفتح النور أجفاني، وشعرت بألسنة النار المقدّسة تلسع أضلعي وتحرقها، وبالمجاعة الروحيّة تقبض على نفسي فتوجعها ـ عندما استيقظت ورأيت أجنحتي تتحرك يميناً وشمالاً وتريد النهوض بي إلى سماء المحبّة، ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة..»[3].

---

(١) جبران في «وردة الهاني»، كما في «الأجنحة المتكسّرة» وسائر الآثار، هو الحضور الممتلئ شعوراً بالعدالة، والحكم المؤجّل باستمرار على فعال شخوصه، ولكنّ في صمته وتعاطفه تشجيعاً لهم على التمادي في الثورة على الحياة الاجتماعية وإن بغير بدائل ممكنة. إنّه يد الثوّار مطلّة من كتاب، والعين ترسل عبر جدار العلائق الإنسانية، يصنعها بنفسه، يوجّهها توجيهاً يظهر عورات الطبقات والخلل في المبادئ.

(٢) راجع دراستنا كتاب «الأرواح المتمرّدة»، ع. س. قسم المقدّمات.

(٣) «الأرواح المتمرّدة»، «وردة الهاني»، ع. س.

هي نار تلسع، تلك الأحاسيس، ولكنها مقدّسة، وبدايتها فراغ بل مجاعة روحيّة تمضّ، وكأنّها الولادات العسيرة تفتح رحم الأعمار على مخلوقات ـ علامة في الزمن والمكان.

وكم يبدو غياب هذه الحريّة مرادفاً لشبح خطيئة أصليّة من الممكن أن تدهمها كلّ حين. تقول وردة: «عندما بانت هذه الحقيقة الجارحة لبصيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لصّ سارق يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل... لأنني لم أقدر أن أهبه محبّة قلبي لقاء كرمه، ولا أن أمنحه انعطاف نفسي ثمناً لإخلاصه وصلاحه. وقد حاولت وباطلاً حاولت أن أتعلّم محبته فلم أتعلّم»[1].

فإذا هي في حضور دائم مع الذات، وجهد مستمرّ لمحاسبة النفس مقترن بحنين هائل إلى نقاء تحافظ عليه، ولا تخدّشه مخالفة حتّى ولو بالنيّة المبيّتة.

إنّ وردة الهاني بهذا المعنى وجه بنويّ ثائر لأنه لا يستطيع أن يعيش انفصاماً بين القول والفعل، بين المعتقد وتطبيقه العملي بالممارسة، فيؤثر الحلّ بالهروب لأنّه غير قادر على تغيير المحيط وفق ما يتمنّى.

وقد تسجّل ثورتها صراخ اعتراض على نسق من تبعيّة مفروضة على الكائن بعامة، والمرأة الشرقيّة بوجه خاص. تقول وردة الهاني في معرض اعترافها: «هؤلاء البشر الذين يجيئون من الأبدية ويعودون إليها قبل أن يذوقوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم أن يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبّه بإرادة السماء، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض..»[2].

---

(١) «الأرواح المتمرّدة»، «وردة الهاني»، ع. س.

ونشير إلى أن كلام وردة الهاني هنا ككلام سلمى كرامة في كتاب «الأجنحة المتكسّرة». قالت سلمى لجبران: أنت تعلم أن المحبة والجهالة لا تلتقيان، ولكني سوف أتعلم محبته». («الأجنحة المتكسّرة»، «بحيرة النار»، ع. س.) فهل تكون قصة «الأجنحة المتكسّرة» إخراجاً جديداً لأقصوصة «وردة الهاني» ؟

(٢) المصدر نفسه.

فيضيق حدّ الاختيار والرفض في مسألتها، ولا تجد بدّاً من الاستجابة بنقائها لمشيئة علوية سمعت نغمتها في قلبها، ولشعاع يرى بالعينين ولو مطبقتين، فيما كلُّ ما حولها مأخوذ بالمظهر المادّي للحضارة، وأناس ما تزال أشباح جدودهم حيّة في أجسادهم، «لا يعرفون شريعة الله في مخلوقاته، ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقي»[1].

وتجنح ثورتها غير المعلنة لتصبح، كما عند كثيرين من الأبناء الجبرانيّين في مستهلّ مراهقتهم، ثورة بألف رأس مسنّن وفي كلّ اتجاه، وكمثل ما تجرف لحظة الغضب أدهاراً من المعاناة التاريخيّة، أو تحضن «النشيد العميق»[2] لحياة إنسان في غليان داخلي بحثاً عن شيء يفتقده. يقول جبران: «والتفتت السيّدة وردة نحو النافذة وأشارت بيمينها نحو المدينة[3]... وقالت بلهجة الاحتقار والاشمئزاز...: هي قبور مكلّسة يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه... هي منازل ينظر إليها القرويّ الفقير بعينين دامعتين، ولو علم أنه لا يوجد في قلوب سكّانها ذرّة من تلك المحبّة العذبة التي تملأ صدر رفيقته لابتسم مستهزئاً وعاد إلى حقله مشفقاً»[4]؛

حتّى لنسأل: ماذا تريد وردة الهاني من وجودها؟!

---

(١) «الأرواح المتمرّدة»، «وردة الهاني»، ع. س.

وشريعة الله في مخلوقاته، والدين الحقيقي، هل يكونان هنا غير الأحكام القلبية، حيث تُنزل النيّات منزلة الأعمال، أو يُبحث لكل شذوذ عن عذر يسامح ويرحم؟.

(٢) تعبير لأندريه دوكوفليه.

Voir: André Decouflé, «Sociologie des révolutions», op. cit.

(٣) وفي الموقف صورة إنجيلية تشبه ما في العهد الجديد من ذمّ المسيح لقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، أورشليم الشرّ والمفاسد.

(٤) «الأرواح المتمردة»، «وردة الهاني»، ع. س.

مع الإشارة إلى أن جبران يدعو ضمناً، بلسان وردة، للعودة إلى الينابيع، ومساكنة الطبيعة والحقول.

الاغتراب المختار، بل المنفى الطوعيّ ابتعاداً عن المجتمع الأرض المدنيّة البشريّة، قاتلة الحريّة المطلقة باسم الطقوس والعادات والشرائع، فتنكفئ بعيداً عن ساح لا تقوى على ممارسة حرّيتها فيه، ولا قدرة لها على تغييره، فتتخلّى عنه، بوعي خلقيّ تأملي تبني اختيارها الجديد على أساسه، وبعناد رأي يزهو بالنظافة، ومخالفة خفرة تعيد لشخصها الضعيف أمانه واعتباره بعد إخفاق زواجها.

يروي جبران اعترافات الشريفة الخائنة: «ثم عادت تقول بهدوء: هذه هي القصور التي لم أرضَ أن أكون من سكّانها... وقد نفوني الآن من جامعتهم وأنا راضية، لأن البشر لا ينفون إلّا من تمرّدت روحه الكبيرة على الظلم والجور... أنا كنت بالأمس مثل مائدة شهيّة، وكان رشيد بك يقترب منّي عندما يشعر بحاجة إلى الطعام...»[1]؛

فإذا بوردة الهاني، في بعض قسمات شخصيّتها، كسلمى كرامة، رفضاً للدور الأنثوي، وتروم رجلها، هي الأخرى، فكرة تصنعها، وحلماً ترسمه على جدار ذاتها، أكثر ممّا تريده زوجاً. فتثور على واقع رجولي في حضارة تقدّس الذكريّة، وفيه تباع المرأة بيع الجواري في أسواق النخاسة، وإنْ موضّبة توضيباً مُرضياً كعلب الأفراح والهدايا.

ولكنها من وردة ثورة هروب وانكفاء، تكتفي من مسالحها بأن تمرّ شهادة مهموسة من غير عنف، وبراءة متأخّرة من دون ضجيج، ونكاد نقول: على رؤوس الأصابع لعدم اهتمام صاحبتها بأن تُشيع مثالها في عالم سواها.

ولعلّ من شخصيّة وردة الهاني ما نقع عليه عند فقراء المجتمعات الغنيّة إذ يتميّزون بشعور عميق مستسلم للقدر وبالعجز والتبعيّة والدونيّة[2]، فيخضعون

(١) «الأرواح المتمردة»، «وردة الهاني»، ع. س.

(٢) O. Lewis, «La culture de pauvreté», Economie et Humanisme, mai-Juin, cité par philippe D'Iribarne, «La politique du bonheur», op. cit.

للدولة، مشيحين عن ضرورة الانتفاض أو الاعتراض والثورة، لأنّ حساباً عقلياً يبيّن لهم أنّ ما يربحونه يفوق الخسارة، ويقبلون أوامر النظام واستتباب حالاته الشاذّة، متّخذين كمقياس المسرّات التي يبحثون عنها في الحياة[1].

فوردة الهاني أمرَّت شخصها الضعيف من بين المعوقات الخلقية والدينيّة والاجتماعية التي تحول بينها وبين السعادة والأمان، ولكن من غير صراعيّة معها، فانحرفت منقذةً ذاتها، وطفرت لانكفاء وعزلة مختارة، تاركة لشركائها في حدث التظلّم والامتعاض والألم والغربة أن يسلكوا طرقاً أكثر ملاءمة لطباعهم.

■ ولكنّ النهاية السعيدة بمعناها المادّي الاكتفائي ليست دواماً هي الأفق الأخير الذي تلامس ورديّته حكايا العشّاق من الأبناء الجبرانيين. ففي «حكاية» من كتاب «دمعة وابتسامة» ما يحيلنا على نموذج من هؤلاء الثوّار الأبناء، لا لانزواء في الحياة بل لانكفاء في الممات. وإطارها القصصيّ أنّ ابن عشرين رأى صبيّة على الينبوع جالسة بين الصبايا فأحبَّها، ثم علم أنها ابنة الأمير فلام قلبه وشكا نفسه إلى نفسه، «لكنّ الملامة لا تميل بالقلب عن الحبّ، . . . والإنسان بين قلبه ونفسه كغصن ليّن في مهبّ ريح الجنوب وريح الشمال»[2].

ويروح يناديها، والحبّ المستحيل، مطمع المراهقين، لا يعيش إلّا حيث المسافة والبعد؛ متنكّراً بسبب نأيها لكلّ مظهر من مظاهر السعادة في الأرض. يقول في مناجاته الهامسة: « . . ولمّا رأيت شرفك وذلّي يتصارعان صراع مارد

---

(١) Professeur Laski: cité par R. Osborn, «marxisme et psychanalyse», op. cit.

(٢) «دمعة وابتسامة»، «حكاية»، ع. س.

لا تخلو قطعة جبرانية من الإشارة إلى ثنائية في الكائن، فهو مسكون بنداءات علوية لا يجاريها جسده، وتظهر أن اعتياقه الكياني إثنان: واحد للبهاء وآخر إلى الفناء.

ورئبال علمت أن هذه الأرض لم تعد وطناً لي»[1].

فإذا بالحبّ فردوسه المفقود، وهو حالة من الاطمئنان والركون للأشياء دونما صراع، وانعدام هذه الحالة يعيد الأرض في عينيه إلى جحيم.

وكمثل ما تتجمّع الأفراح كلّها في لحظة سعد، ظهرت الصبيّة وهي تجرّ أذيالها على الأعشاب، «فجثا على ركبتيه كما فعل موسى عندما رأى العلّيقة مشتعلة أمامه»[2]، وإذا هي هو، وكلاهما واحد في سعيه إلى الآخر، يقول جبران: «ثم عانقته الصبيّة وقبّلت شفتيه، وقبّلت عينيه راشفة المدامع السخينة، وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي: قد رأيتُك يا حبيبي في أحلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي، فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حكم عليّ بالمجيء إلى هذا العالم»[3].

فهبوط الأميرة من عليائها مخالفة للفوارق التي خطّتها، بين الشعب وحاكميه، عهود تاريخيّة متعاقبة، وثورة من قمّة الهرم، كان من الممكن أن تغيّر جذريًّا طبيعة العلاقة بين الملوك ورعاياهم؛ غير أن الأميرة الصبيّة العاشقة لم تسلك درب النضال لتحقيق هذه الأهداف السامية، ولم تمكّن أندادها من العشّاق اجتناء ثمارها. تقول لحبيبها: «. . . قد جئت سرّاً يا حبيبي لألتقيك، وها أنت الآن بين ذراعي، فلا تجزع! قد تركت مجد والدي لأتبعك إلى أقاصي الأرض وأشرب معك كأس الحياة والموت. قم يا حبيبي فنذهب إلى البريّة

---

(١) «دمعة وابتسامة»، «حكاية»، ع. س.

ولا نتردّد في الإشارة هنا إلى روح الانهزام والدونيّة واستثارة الشفقة التي تمدّ هذه اللوحة القصصية بعناصر غنائية صادقة في دلالتها على حياة المراهقين.

(٢) المصدر نفسه.

وكأن الحبّ علامة من علامات الألوهيّة، كما العلّيقة الخضراء لموسى آية من آيات السماء.

(٣) المصدر نفسه.

وفي التعبير الأخير ما يحيلنا على هاجس الكمال لدى جبران، وافتراضه الحبّ متمماً للخليقة بتأثير من معتقدات هندية ترى في الرجل والمرأة معاً ذاك الإنسان.

البعيدة عن الإنسان»، ويتابع جبران: «ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباح الظلمة»[١]؛

فبدت متلذّذة بالعذاب، لأنه ينهض بقيمتها أمام عين نفسها عن طريق مُقاساته، ويُشعرها بحضورها في الزمن فوق أقاليم تخصّها هي وحدها. وما انزواؤها مع حبيبها على هذا الشكل الفاجع، بعيداً حتى عن أعين الناس، معذّبي المملكة ربّما، إلاّ مظهر رومنطيّ يوحي برغبة التعالي عندها عن طريق المخالفة للسائد المعاش.

إنّ أميرة «حكاية» وجه بنويّ هي الأخرى، خطّت، أوّل الأمر ولا شكّ، ثورة في ساح العلاقات الإنسانية، ولكنّها أخمدتها بشخصانيّتها واحتفرت لها قبراً داخل أغوارها المستباحة برياح من ظلمات الكائن فيها. ولعلّ في خاتمة اللوحة ما يضيء الناحية غير المنظورة من قمرها الجميل. يقول جبران: «هناك في أطراف البلاد عثر روّاد الأمير على هيكلين بشريّين في عنق أحدهما قلادة ذهبية وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات: قد جمعنا الحب فمن يفرّقنا، وأخذنا الموت فمن يرجعنا؟»[٢].

لقد اختارت الأميرة الحلّ السهل لتتخلّص ممّا تُعاني، وهو الانتحار، تبتعد به عن واجب النضال[٣]، والانتحار، بصرف النظر عن أنّه هروب من المواجهة، وإلى جانب كونه شكلاً من أشكال الاعتراض، يبدو حدثاً يتضمّن، هنا أيضاً، معنى الثأر من الحياة، به خرجت الأميرة وحبيبها من حالة الإهمال والإذلال في المجتمع، ليمتلكا عزاء التعويض عن حالة انفصام يعيشانها معه، وحبّ غير متبادل[٤].

---

(١) «دمعة وابتسامة»، «حكاية»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) وكأنما كلّ مقاربة للسعادة من جانبها، كما من كلّ عاشق جبراني، يتلوها رفض وابتعاد، وكأنما السعادة لها هي بحث عن طيف سعادة ترومها ولا تفوز.

(٤) Voir: Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

■ وإذا كان استحقاق الثورة النابعة من قلب الوجع الإنساني قد أرجأته بل ألغته عوامل أنويَّة طالعة من داخل العتمة التي يتخبّط في مفاوزها سلوك الكائن، فإنّ لنا من كتاب «البدائع والطرائف» تصحيحاً لمسار أميرة «حكاية». فاللوحة «في سنة لم تكن قطّ في التاريخ»[1] هي في الحقيقة المشهد القصصي ذاته[2] مع تحوير في الخاتمة: فتلك انتهت بانتحار الحبيبين، أمّا هذه فقد أيّدت الحبّ بالتحدّي. أمّا العنوان «في سنة لم تكن قطّ من التاريخ» فإقرار من الكاتب بأنّ هذا الاحتمال في الحب غير وارد في زمن الناس، وتالياً يصبح المشهد القصصي حلماً بثورة ولو عن طريق الحبّ.

يقول جبران: «ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباح الظلمة»[3]؛ فإذا بالهروب تغييب للمأزق عن الحضور والرؤية وهو بهذا المعنى صنو الانتحار في حال هذه الأميرة الصبيّة، لأنها لانكفاء وتخفٌّ مدى العمر، تدرأ بهما خطراً محتملاً من جنود أبيها.

ومرة أخرى هي الثورة، أُشعلت بالمسعى الدائريّ، وحافظت عليه، لأنّ محورها ذات صاحبتها. فلم تُعلَن على الملأ لغايات مجتمعيّة أو نقلاً لعدوى النضال أو تصحيحاً لمسار مملكة أو نهج سياسيّ. فظلّت في نطاق ردّات الفعل على ظلامة وقعت، وكضرب من ضروب السلبيّة في الاعتراض على عوائق حالت بين صاحبتها وما تراءى لها السعادة، وسوف تستمرّ كذلك ما لم تُسهم عوامل أخرى في إذكائها لتجعل منها أوّل الطريق إلى كلّ عمل تغييري في البنية

---

(١) وقد نجد في هذه اللوحة ثورة الأميرة المستوحدة على قدرها في قطعة «نفسي مثقلة بثمارها» من الكتاب نفسه. (راجع دراستنا «البدائع والطرائف»، ع. س.).

(٢) راجع المقطع السابق.

(٣) «البدائع والطرائف»، ع. س.

وما جُعل خاتمة هنا هو في «حكاية» «دمعة وابتسامة» مرحلة ما قبل الانتحار.

السياسيّة للدولة ونظرة الشعب إلى حكّامه[1].

■ وفي الأدب الجبرانيّ حالات بنويّة ثائرة اعتمدت ما هو أكثر إيلاماً وأشدّ خطراً من الانتحار على الصعيد الخلقيّ والاجتماعي، وكمظهر سلبي للاعتراض في شخصيّاتهم. والدليل نستقيه من كتاب «التائه»، حيث تروي لوحة «المجنون» خبر شاب في حديقة المارستان لقيه الكاتب فسأله عن سبب وجوده، فأجابه بعد تمنّع بأنه لقي في هذا المكان ما يردّ إليه السلامة والعافية، بعد أن حاول كلّ من أبيه وعمّه وأمّه وأخته وأساتذته أن يجعله على مثال صورة في رأسه. وإذ علم أن الكاتب زائر، فهم أنّه من المارستان القائم وراء الجانب الآخر من الجدار.

يقول جبران في خاتمة اللوحة بلسان المجنون العاقل: «ولذلك، جئت إلى هذا المكان. وإنّي لأجده أردّ بالسلامة عليّ والعافية. فأنا أستطيع به أن أكون إيّاي، لا غيري، على الأقلّ». ثم تابع: «ولكن قل لي: هل ساقتك إلى هذا المكان أيضاً نصائح الآخرين ورغبتهم في تثقيفك؟» ويختم إذ علم أن محدّثه زائر، «أنت إذن واحد من أولئك الذين يعيشون في المارستان القائم

(١) ولكنه عمل قد يقوم به حبيبها، مؤتمراً بإيحاءات مهموسة أو مجهورة، كتبتها بالتمادي في أغواره ظروف قهرية عاشها. فيُقدم متمرّداً على الأنا المثالي، باحثاً في الحياة السياسية عن منافذ لعدائيته المبيّتة.

Voir: m. Cattier, «ce que Reich a vraiment dit», op. cit.
R. Osborn, «marxisme et psychanalyse», op. cit.

وهي ثورة قد يشعلها حبيب الأميرة بعد وعي مفاجئ منه، مؤيّد بأحلام جديدة، لأهداف أكثر سموّاً وفائدة من المتاح عن طريق نظام الأمير، فيُقدم إذ يرى نفسه المؤهل لاصطناع شرارة التغيير، إرضاء لطموحات دفينة في شخصه واسترداداً لاعتبار مغيّب. يقول فؤاد مطر بهذا المعنى في معرض شرحه آراء بانجمان كونستان B. Constant : المجتمعات تعرف الثورات عندما يتخطى تطوّر الرأي إطار البنى السياسيّة لشعب معيّن.

Voir: Fouad Matar, «La sauveraineté populaire dans l'héritage de J.J. Rousseau», op. cit.

وراء الجانب الآخر من الجدار»[1].

فمجنون اللوحة هنا وجه بنويّ يرتضي الجنون وصمة مخالفة دائمة تحذفه من دائرة الحياة العمليّة، عزلاً له وتأديباً بحجّة عافية تستعاد[2]، في حين أنّ الموت انتحاراً لا يُسجَّل إلاَّ لمرّة في ذاكرة الأحداث الإنسانيّة والاجتماعية، ويُنظر إلى مقترفه كخارج عن مألوف الإنسان والنباهة، سقط على درب الحياة ولن يقوم من عثاره.

وإذا ما أنعمنا النظر في واقع هذا الوجه البنويّ الجبرانيّ بحثاً عن الطاقة الكمونيّة التي أملت عليه مثل هذا السلوك المختار في الظاهر، نجد أنّه بادّعائه الجنون الذي أدّى إلى انعزاله وعزلته، قد جهر بطموح دفين في نفسه، مظهره الابتعاد عن الآخرين إظهاراً لتميّزه عنهم[3]، فاجتمعت في موقفه سلبيّة حيال المجتمع، تسكنها وتتحضّر في داخلها عداوة وصراعيّة، ولكن من النوع الذي يلتهم ما جاوره لعجزه عن تحديد هدف للصراع.

ومع أنّ ما نفّذه الشاب هو نظرة بالمقلوب لما هو منقلب أساساً، فتستقيم لعينيه صورة الحضور، حضوره كإنسان في العالم؛ فلا يسعنا إلاّ أن ننسب إليه مسًّا من جنون بشكل من الأشكال. فالصورة التي لا تجد منفذاً لها في ساح المظالم تجتثّها لرغبة في الإصلاح وإقامة صرح العدالة، سوف تتحوّل حتماً إلى وحش كاسر يقبع في أعماق الشخصيّة الإنسانيّة ويستبيح كلّ محرّم داخل قفصها، فيخلخل أركان الخير الباقية في الكائن. ومن يدري؟ فقد يهيّئ المجنون، بما اختار، شخصه لكلّ صنوف الأذى والشرور، كفرصة غير متعذّرة

---

(١) «التائه»، «المجنون»، ع. س.

(٢) ولو أنّ مبتدأ هذا العزل مختار، فإن الجامعة البشريّة سوف تقيس وعي الشاب بمقاس المكان الذي حلّ فيه، والسبب تعليلها الأشياء والأحداث انطلاقاً من مظاهرها.

(٣) راجع ص ١٤ من هذا الكتاب.

Voir: Adler, «Connaissance de l'homme», op. cit.

لتفجير غضبه المكبوت على عالمٍ، هو المجنون، ولا تستوقفه دموع وآلام المعذَّبين[١].

إنّهم الأبناء الثوّار طافرين لانكفاء، إنْ في الحياة، انعزالاً واغتراباً وانطواء، أو في الممات، انتحاراً بوضع حدٍّ نهائيّ لحيواتهم بالموت أو بادّعاء الجنون.

وهؤلاء، إذ يحاولون اصطناع الآتي على صورة ما يتمنّون، سرعان ما يمنون بإخفاق من نوع آخر، وعندئذ يغدو لهم المجهول غير الثابت، كالحاضر المخادع، كجنَّةٍ اصطنعها الحلم ثمّ أصبحت أكثر تخييباً للمرتجى وتبديداً للجهد ومشاريع الحياة.

ومع هؤلاء نتيقّن، مرة أخرى، أنّ الضياع ينمو في تربة المآسي، وأنّ للأوجاع النفسيّة التأثير المباشر في تكوين المخالفة بأشكالها المتعدّدة، وفي رأس قائمتها ثورة بغير مضامين، واقتناص للّذة قبل أن يطوي العمر حاضر دائم الهروب، ولدرجة أن الحضارة الإنسانيّة تبدو تائهة لا تدري أين الحقيقة في بحثها عن علّة الوجود[٢].

والثوّار من الأبناء هؤلاء، سواء لتقويض وبناء أم طافرين لانكفاء؛ بإعلانهم ضمائرهم الثائرة ونشرهم إيّاها بالقول أو بالعمل في محاولات لإقناع

---

(١) نشير هنا إلى أنّ كتاب «التائه»، وهذه اللوحة القصصية «المجنون» فيه بوجه خاص، يسجّل تراجعاً في المعتقدات الجبرانية. فإنك معه على ضياع في الخيارات الأخيرة، لدرجة أنه يكاد يكون صرخة يأس أو أقله تنهيدة إنسان متروك لنواح عالم تحتضر منه القيم في داخله، وتتجاذبها الأهواء. ما أشبه جبران في «التائه» بالمارّ خفية في الكون، وعبوره يفضي إلى حكايا عن طريق ورفقة سفر. إنه «نبيّ» آخر على الرمال فهل يكون كتاب «التائه» من جبران ندامة عبور بلا جدوى ودمعة انكسار؟

(راجع دراستنا «التائه»، قسم المقدّمات، ع. س.).

(٢) A. Malraux, cité par G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

واستمالة، أم بعدم اهتمامهم للوقوف على رأي السّوى واكتفائهم بانتصار ظرفيّ ولو استبعد ثباتهم عليه بشكل أكيد متواصل؛

هؤلاء الثوّار من الأبناء، لو حاولنا أن نوجد قواسم مشتركة لنزوعهم لرأيناها حكماً في القهر كعنوان، فالانتظار والاضطهاد والقلق بألوانه المختلفة كتفاصيل، وعبر أحداثهم وردّاتهم عليها يتوضّح لنا أن القدرة مطلب مقدّم لديهم، لأنّها الأصل في شجرة السيطرة والسعادة، وفي فيئها يأمن الإنسان شرّ الخوف من الفشل ويشعر بامتلاك زمنه؛

ومعهم نبصر، هنا أيضاً، حالات النكد والتعس المرافقة للكائن الإنسان ما دام طريد هذا النزوع الغامض الذي يملأ حياته، ويجرّده من سلاح القناعة وحتّى الرجاء أحياناً، حتى لنردّد بعد عارفين، مرة أخرى، أنّ كلّ دارسي الإنسان إنّما هم مهووسون بصناعة هناء البشر قسراً عنهم[1].

*

(١) A. Sauvy, d'aprés un interview de l'Express, N° 870, cité par G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

خاتمة..

أولئك فئات لأبناء جبرانيّين، تتمايز بتحرّكها في المدى، وبردّات أفعالها، ولكنْ من دون أن تختلف كثيراً في جوهر انطلاقها والأهداف. فهؤلاء الأبناء، وهم المحطّات الضرورة لاجتراح الأحداث في الكون[1]، يبدون بأنماط حيواتهم كأنَّهم نزلاء أشكال معدّة مسبقاً، بيدٍ من الآباء تارة، وإرادة من الحياة نفسها تارات، ولكنْ برغبة عند الفريقين معاً كلّ حين، وكأنّما في رحم كلّ حدث حياتيّ، أو من الكائن، صاحبه الذي يتحضّر للزوال، يتكوّر جنين من مثله، تطّرد به الدنيا وتمتدّ أشواطاً في موكبها الساعي إلى أمام، بحكمة أنزلها في الخليقة ربٌّ كريم.

ونحن، في انثناء نظرة إلى فعالهم كلّهم، بفئاتهم الثلاث، نلمح فيما بينهم ما يشبه القسمات الكيانيّة المشتركة، كأنّها البداية العلامة، حدُّ الحركة الأوّل وعدلٌ كونيّ، لا مفاضلة في قبول تعسها بين ابن وابن، كما لا فكاك من قدره بين كائن وكائن.

---

(١) كأنما الإنسان، كل إنسان، في المعتقد الجبراني، آلة الحركة ليس إلاّ، أو رواق من لحم ومشاعر يسلكه الفعل إلى غايته. يقول في «النبيّ»: «فإذا اشتغلت فما أنت سوى مزمار تختلج في قلبك مناجاة الأيام، فتتحوّل إلى موسيقى خالدة».
(راجع دراستنا «النبيّ»، «العمل»، ع. س.).

فكلُّهم أبناء في مشروع ارتياد للذات، منعكسةً في المسعى، ومتشكّلةً بظلال منها وأطياف فوق جدار الحضور، كالنبتة ترسل أغصانها والجذور إلى حيث النور الغذاء، والنسغ، صانع خضرتها الريَّانة، في رحلة نوعها من القوّة إلى الفعل، على تعبير المناطقة وأهل التفلسف. أويكون الأبناء، أيًّا تكن أجيالهم والمنابت، إلاّ العلامة الكيانيَّة الثابتة في الكائن الآدميّ، متطوّرةً من نقطة تلاقيها مع سائر المخلوقات الكريمة؟!

والحقيقة أنَّ هؤلاء الأبناء، كما آباؤهم في كل حال، مدفوعون بهاجس الأمان والسعادة، لدرجة أنَّنا لا يمكننا أن نستثني أيًّا منهم عند كلّ حكم على البشريَّة جمعاء بأنَّها أسيرة هذا البعيد المتباعد أبداً، مومئاً إليها بالمثابرة على اللحاق به، ومستثيراً منها شراهة البقاء، علَّها به تفوز.

ولئن رأيناهم جميعاً، داخل الإرث الجبرانيّ، على مسافة من هذا الهدف البهيّ الذي تركن حيواتهم ومداركهم إليه بنشوة، وإن لم يتوصّلوا إليه، أو حتَّى لو بقوا عرضة للأهواء والمطامع الأنويَّة تنحرف بهم عن خطّ سيره؛

فإنّنا في الوقت ذاته لواجدون عند كلّ منهم فرحة الجهد المنصرف إلى ذاته، ولو ضيَّع قصده، على نحو تبدو معه البشريَّة بأسرها، آباء وأبناء، كأنَّها خليَّة نحلٍ مأخوذة بفعلها المرسوم، ولو لم تشتَرْ في النهاية إلاّ السَّراب والخيبة.

هكذا نفهم عند الأبناء الجبرانيّين أولئك الذين منهم في ظلال آبائهم، فتطلع المساكب الأسريَّة قامات الغروس مبتعدةً عن أديمها حقاً، ولكنّها في النهاية على صورة التراب الذي أنبتها وصنع مثاله؛

فإذا بهؤلاء لاستمرار وتخوير، مختزنين في ذواتهم أو أفعالهم المرتقبة فصولاً من ذاكرة آبائهم، سجناء الثابت الباقي من قيم المجتمع الراسف بقيود التقليد والتزمُّت البغيض،

أو هم لتثوير وتغيير، ولكن بانشغالات شخصانيَّة ذاتيَّة، مع اصطدام آنيّ

أو دائم بهذا الثابت غير المتحوّل لدى معارضيهم، انتماءات وقيماً ومبادئ وعقائد.

وهكذا نفهم عند الأبناء الجبرانيين، في جانب آخر، أولئك الذين منهم على حيرة في الانتماء، فيشكّلون في أماكنهم، على مفترق الأيام، وفي قلب الواقع الإنسانيّ، حالة التجاذب، حتى حدود الانفصام أحياناً بين مرتكزات حضارة موروثة ومرتجيات تسمو بهم إلى ما يفوق فراغات حاضرهم المنتهب بالزمن الجاري انتهاباً فاجعاً، وعلى حساب أعمارهم؛

وهكذا نفهم عند الأبناء الجبرانيّين، في جانب أخير، أولئك الذين منهم تنهض بهم الثورة، معلنةً مجهورة راعدة، بقبضة مشرّعة لهدم فبناء، أو بوجيف قلب يرسل نبضه موقّعاً على رؤى سماوية موصى بها إلى المختارين؛

أو تنهض بهم هذه الثورة خفرة حييّة، بانطوائيّة منهم، وشبه استقالة من الواقع بعثراتِه وإنجازاته ومآتيه، مؤثرين امتلاك لحظة صنع أيديهم ينعمون بها في الخفية، على دهر تصطخب في فنائه سنواتهم على غير يقين من انتصار وراحة.

وكيف دار الأمر، فإنّ الأبناء الجبرانيّين بفئاتهم الثلاث: في ظلّ الآباء، والحائرين في انتماء، والثوّار لغاية بناء بعد تقويض أو لهروب بانكفاء، هؤلاء في الحدث الحيّ يؤتون ما لا يتلاءم والأهداف البعيدة البهيّة المرتسمة في أفق نوعهم منذ ما كانت له ذاكرة المطلقات الرائعة[(١)]؛

فنراهم، ما عدا القلّة بينهم، مخترَقين بشعاع قاتم من لوثة كيانيّة كأنّها

(١) ويرتسم في النفوس عطش إلى ما وراء حدود الرتوب اليوميّ في نزوع خفيّ إلى الكمال. ولا بأس في أن نتذكر بالمناسبة قول النحّات الألماني هيلدبرند: «الكائن الكبير الذي يحيطنا ويخترقنا نشق طريقنا إليه بمستقبل عظيم يفضي إلى الكائن الكامل».

Cité par A. Adler, «Le tempérament nerveux», op. cit.

الاعتياق الوجوديّ، منقولاً إليهم مع النَّسم الباعث للحياة، فيخلّفون، حيثما مرّوا، أثر المرارة إذ تُعقب الأفراح المتبخّرة، واهتزاز الاقتناع بجدوى الجهاد أو عدمه في أرض لا تختزن من عوالم أحيائها إلاّ الرفات؛

لدرجة من التأكيد يبدو معها الأدب الجبراني إيماءات مطّردة بالتخطّي، مبنيّة أساساً على حتميّة الخيبة بعد كلّ تطاول فوق التراب، ولو لأجساد عمالقة مصنوعة من رغامه، ومستندة أساساً على عبثيّة تحقيق المرتجى الذي ما بعده ولا قبله، ما دام كلُّ إشباع لعطش في الكائن، يقابله ارتسام جوع في قطاع آخر منه، أو يُعقب النجاح للروح خسارة كلّ ما هو إنسانيّ، وارتكان خارج سربنا البائس بعيداً عن الحقيقة الحقيقيّة المحتملة في يوم.

لذلك، يتشابه الآباء والأبناء الجبرانيّون، في البعد الأخير لمعنى الشقاء خصوصاً، حتّى لكأنَّهم نزلاء أزمنة وبلاد غير مختارة أساساً، وينفقون جهودهم وأعمارهم للمصالحة معها، ولا يفلحون؛ وحتّى لنراهم داخل هذا الأدب محكوماً عليهم بالاضطلاع بلعبة كونيّة، سرعان ما يسدل الستار على شخوصهم فوق خشبتها المقدّسة، مفسحين في المجال لطبيعة أدوارهم فتبقى على حساب أسمائهم وكياناتهم المندثرة.

وقد نستطرد فنكاد نقول، انطلاقاً من هذا التشابه بل التلازم بالشقاء بين جيل هؤلاء وأولئك؛ واستناداً إلى وتيرة التتابع للاجدوى الجهد الإنسانيّ الضارب في الخواء عند كلّهم على حدّ سواء؛ نستطرد فنكاد نقول: إنَّ الآباء والأبناء في الأدب الجبرانيّ من نطفة واحدة، بل لمعة فكرٍ فرد؛ وُلدوا معاً، ليخرجوا مع ما يمثّلون في المسيرة الكونيّة من القوّة إلى الفعل، ترجمةً لحلم تمخّض للحظة في بال العليّ، أو كأنَّه الانثناء بالدهر، بل بالكائن والدهر من لا نهائيّة كون ساقط في الخطيئة والبشاعة، إلى أزليّة النقاوة والجمال، مرةً أخرى.

وإذا كان كلٌّ من فئات هؤلاء، آباء وأبناء، لا يفي بحاجة الاستدلال على هذه الأهداف السامية في الأدب الجبرانيّ بسببٍ من انغماسهم في الفعل

الإنسانيّ المسطّح وامتدادهم أفقيًّا في مداه، فهل يكون لنا من هذا الأدب ما يؤكّد متّجهات عموديّة في الكائن، أباً وابناً، وأشواقاً تنهد به إلى سماء الغبطة الشاملة، أو تستبقيه علامةً فارقة داخل الأسرة الكونيّة الواحدة؟

لعلّ كتابنا «في طريق السماء»، الجزء الثالث والأخير من ثلاثيّتنا الراهنة «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني»، فيه كلّ الغَناء، دلالةً على هذا الجديد الجبرانيّ، الأبويّ والبنويّ على حدّ سواء، تقريباً للكائن الإنساني من حلم ثورة شاملة تقلب مفاهيم الحياة.

* * *

مسح سكّاني للقصص الجبراني

(يشمل أسماء الأشخاص في قصص الآثار العربيّة والمعرّبة، على ضوء البيئة أو المهنة أو الطبقة التي ينتسبون إليها، وتصنيفٍ لوقائعهم بين دمع وابتسام ورماديّة من مشاعرهم غير الواضحة).

ملاحظة أولى:

وقفت للنساء القسم (١٢) من هذا العمل لأسباب منها:

ـ تسهيل البحث بتبسيط منطلقاته؛

ـ الاستجابة لواقع البيئة والمناخ العام الذي وضعت فيه هذه اللوحات القصصيّة، وهي بيئة شرقية، ومناخ لم يتساوَ فيه الجنسان في السلوك الاجتماعي والممارسة المدنيّة.

ملاحظة ثانية:

ـ أنزلتُ الحيوان في قائمة من رأيت أنه يرمز إليه من الإنسانيين، ومثله النبات والكائنات العلويّة، في كلّ ما يسمّى قصصاً خرافياً.

ملاحظة ثالثة:

ـ اعتبرتُ رجال الدين، بشكل عام، من فئة «الساسة وأهل السلطان»،

بسبب التلازم الذي كان قائماً، زمن جبران، بين السلطة الدينيّة والإقطاع السياسي.

١ ـ الأطباء:

● بمظهر سعادة:

ـ طبيب البلاط: **السابق، الخلافات.**

● بمظهر تعاسة:

ـ الطبيب: **الأجنحة المتكسرة.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:

الطبيب: **التائه، الطريق.**

٢ ـ الأغنياء وأصحاب النفوذ:

● بمظهر سعادة:

ـ الفارس: **عرائس المروج، مرتا البانيّة.**

ـ عريس ليلى: **الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.**

ـ الغنيّ: دمعة وابتسامة، في مدينة الأموات.

ـ الغني: دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة.

ـ أهل القصر: **دمعة وابتسامة، بين الكوخ والقصر.**

ـ الزوج: **دمعة وابتسامة، مخبَّآت الصدور.**

ـ الغنيّ: **دمعة وابتسامة، منيَّتان.**

ـ سلمان أفندي: **العواصف، السرجين المفضَّض.**

ـ جلال باشا: **العواصف، الصلبان.**

ـ لاوي: **يسوع ابن الإنسان، لاوي غنيّ بجوار الناصرة.**

ـ الغنيّ: **يسوع ابن الإنسان، بطرس.**

ـ أفراييم: **يسوع ابن الإنسان، أفراييم من أريحا.**

- يفتاح: **يسوع ابن الإنسان، يفتاح في قيصريّة.**
- الغنيّ: **التائه، المبادلة.**

● بمظهر تعاسة:
- رشيد بك نعمان: **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.**
- فارس كرامة: **الأجنحة المتكسّرة.**
- فارس رحّال: **العواصف، السمّ في الدَّسم.**
- جاورجيوس: **يسوع ابن الإنسان، جاروجيوس البيروتي.**
- الغنيّ: **يسوع ابن الإنسان، رجل غنيّ.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:
- الأب: **دمعة وابتسامة، مخبّآت الصدور.**
- الغنيّ: **النبيّ.**
- الغنيّ: **التائه، الخمرة العتيقة العتيقة.**
- الغنيّ: **التائه، تلك التي كانت صمّاء.**

٣ ـ أهل المهن والصناعات:

● بمظهر سعادة:
- الحائك، النجّار: **المجنون، الطموح.**
- فيلمون الصيدلي: **يسوع ابن الإنسان، فيلمون الصيدليّ اليونانيّ.**
- الصيارفة: **يسوع ابن الإنسان، نتنائيل.**
- برقا: **يسوع ابن الإنسان، برقا التاجر الصوري.**

● بمظهر تعاسة:
- الحائك: **المجنون، العدالة.**
- الفلكيّ الأعمى: **المجنون، الفلكيّ.**
- الإسكاف: **يسوع ابن الإنسان، إسكاف في أورشليم.**

ـ ملاخي: **يسوع ابن الإنسان، ملاخي الفلكي البابلي.**
ـ آحاز: **يسوع ابن الإنسان، آحاز صاحب الفندق.**
ـ العرّاف: **التائه، أحلام.**
ـ الإسكاف: **التائه، الفيلسوف والإسكافي.**
ـ البحّار: **حديقة النبيّ.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:
ـ الصيرفي، الإسكاف: **المجنون، العدالة.**
ـ العرّاف: **المجنون، اللغة الأخرى.**
ـ النبيّ العرّاف: **السابق، الخلافات.**
ـ الفندقي، البناء، الحائك، التاجر، الفلكيّ: **النبيّ.**
ـ الكاتب: **التائه، الشرائع.**

٤ ـ الجنود:

● بمظهر سعادة:
ـ القائد: **الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.**
ـ الجنديّ: **دمعة وابتسامة، بنات البحر.**
ـ الجنديّ: **دمعة وابتسامة، السّلم.**
ـ ابن الصعبيّ: **دمعة وابتسامة، رجوع الحبيب.**
ـ كلوديوس: **يسوع ابن الإنسان، كلوديوس قائد المئة.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:
ـ الجنود: **السابق، البهلول.**

٥ ـ الخدم والعبيد:

● بمظهر سعادة:
ـ خادم المطران: **الأجنحة المتكسّرة.**

● بمظهر تعاسة:

- خدم محافظ البندقيّة: **البدائع والطرائف، سفينة في ضباب.**
- العبيد الأربعة: **السابق، بنت الأسد.**
- الخادمان: **يسوع ابن الإنسان، برقا التاجر الصوري.**
- الخادم: **يسوع ابن الإنسان، بطرس.**
- الطبقة المكدونة: **يسوع ابن الإنسان، كاهن شاب في كفرناحوم.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:

- الخدم في دارة فارس كرامة والخدم في دارة منصور بك: **الأجنحة المتكسّرة.**
- الخادمة: **العواصف، الصلبان.**

٦ ـ الساسة وأهل السلطان:

● بمظهر سعادة:

- الحاكم، رهبان دير أليشاع النبيّ: **عرائس المروج، يوحنّا المجنون.**
- الأمير: **الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.**
- الكاهن: **الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.**
- رهبان دير مارقزحيا، الشيخ عباس، الخوري الياس: **الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.**
- المطران بولس غالب، الكهّان: **الأجنحة المتكسّرة.**
- الأمير: **دمعة وابتسامة، طفلان.**
- الأمير: **دمعة وابتسامة، المجرم.**
- فريد بك دعيبس: **العواصف، السرجين المفضّض.**
- الخوري سمعان: **العواصف، الشيطان.**
- الأمير: **العواصف، الشاعر البعلبكيّ.**
- الخوري أسطفان: **العواصف، السمّ في الدّسم.**

ـ الأمير: **البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قطّ في التاريخ.**
ـ قره قوش: **المجنون، العدالة.**
ـ الكاهن: **المجنون، اللغة الأخرى.**
ـ القاضي: **السابق، البهلول.**
ـ الوزير: **السابق، الملك الناسك.**
ـ النسران: **السابق، الحرب والأمم الصغيرة.**
ـ ملوك الشرق: **يسوع ابن الإنسان، حنة أمّ مريم.**
ـ عسَّاف: **يسوع ابن الإنسان، عسَّاف الملقّب بخطيب صور.**
ـ منسَّى: **يسوع ابن الإنسان، منسَّى المحامي الأورشليمي.**
ـ كهنة أورشليم، القياصرة: **يسوع ابن الإنسان، يوسف الذي من الرامة.**
ـ قيافا: **يسوع ابن الإنسان، قيافا رئيس الكهنة.**
ـ أوريّا: **يسوع ابن الإنسان، أوريّا الشيخ الناصري.**
ـ حنانيا: **يسوع ابن الإنسان، حنانيا رئيس الكهنة.**
ـ شاوول الطرسوسي: **يسوع ابن الإنسان، سابا الأنطاكي.**
ـ النّسر: **التائه، النّسر والقبَّرة.**
ـ الوالي، الأسقف: **التائه، الملك.**
ـ المطران: **التائه، الهدايا الثلاث.**
ـ السياسي، الكاهن: **التائه، الضفادع.**
ـ الملك أنطيوخوس الثاني: **بناة الجسور.**
ـ الأمير: **التائه، الراقصة.**
ـ الأسقف: **التائه، وميض البرق.**
ـ الكاهن: **التائه، الطريق.**

● بمظهر تعاسة:
ـ ناثان عليّ الحسيني: **عرائس المروج، رماد الأجيال.**
ـ الخيال الأوَّل: **دمعة وابتسامة، بين الخرائب.**
ـ الكاهن: **العواصف، على باب الهيكل.**

ـ محافظ البندقيّة: **البدائع والطرائف، سفينة في ضباب.**

كبير السنانير: **المجنون، الكلب الحكيم.**

ـ الملك، الوزير: **المجنون، الملك الحكيم.**

ـ نفسيبعل: **السابق، الذات العظمى.**

ـ الملك، الوزير: **السابق، ملك أردوسة.**

ـ الملك: **السابق، الخلافات.**

ـ شيوخ أورفليس، الكهان فيها.

القاضي، الخطيب، أحد الشيوخ في

الخير والشرّ، الكاهن السائل في الدين: **النبيّ.**

ـ مانوس: **يسوع ابن الإنسان، مانوس من بومبي إلى يوناني.**

ـ بيلاطس: **يسوع ابن الإنسان، بيلاطس البنطي.**

ـ الملك: **التائه، الملك.**

ـ الأمير: **التائه، الهدايا الثلاث.**

ـ الملك: **التائه، الشرائع.**

ـ الملك: **التائه، الصولجان.**

ـ الملاك الأعلى: **التائه، الملاكان الحارسان.**

ـ ملاك الطريق: **التائه، المبادلة.**

ـ الكلب: **التائه، البدر الكامل.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:

ـ الزعيم: **دمعة وابتسامة، رجوع الحبيب.**

٧ ـ الشعراء، الكتّاب وأهل الفنّ:

● بمظهر سعادة:

ـ الراوي: **العواصف، حفّار القبور.**

ـ الشاب حامل القيثارة: **العواصف، على باب الهيكل.**

ـ أديب أفندي: **العواصف، السرجين المفضض.**

سليم معوَّض: **العواصف، الصلبان.**

ـ الكاتب المجنون: **المجنون، اللغة الأخرى.**

ـ الشعراء الثلاثة، الشاعر الرابع: **السابق، الشعراء.**

ـ صحيفة الورق: **السابق، الصحيفة البيضاء.**

ـ الحيَّة: **السابق، العالم والشاعر.**

ـ نيقوديموس: **يسوع ابن الإنسان، نيقوديموس الشاعر.**

ـ الشاب المرنّم: **آلهة الأرض.**

ـ الشاري: **التائه، التمثال.**

ـ شاعر: **التائه، القصيدتان.**

ـ الشاعر: **التائه، الموت والفراشة.**

ـ الشاعر: **التائه، سبعون.**

● بمظهر تعاسة:

ـ الشاعر: **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.**

ـ الشاعر: **دمعة وابتسامة، موت الشاعر حياته.**

ـ جبران: **دمعة وابتسامة، أمام عرش الجمال.**

ـ جبران: **دمعة وابتسامة، زيارة الحكمة.**

ـ الكاتب: **دمعة وابتسامة، مناحة في الحقل.**

ـ الكاتب: **دمعة وابتسامة، بيت السعادة.**

ـ الكاتب: **دمعة وابتسامة، مدينة الماضي.**

ـ الكاتب: **دمعة وابتسامة، الحيوان الأبكم.**

ـ الشاعر السائل في الجمال: **النبيّ.**

ـ رومانوس: **يسوع ابن الإنسان، رومانوس الشاعر اليونانيّ.**

ـ الرجل: **التائه، الرمانات.**

ـ الشاعر: **التائه، أغنية الحبّ.**

ـ الشاعر: **التائه، جسد وروح.**

ـ شاعر الطفولة: **التائه، القصيدتان.**
ـ الشاعر: **التائه، المبادلة.**
ـ الشاعر: **الفأرة والهرّ.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:
ـ الشاعر: **العواصف، الشاعر البعلبكي.**
ـ المجنون: **المجنون، الليل المجنون.**

٨ ـ الصبية والأولاد:

● بمظهر سعادة:
ـ فؤاد: **عرائس المروج، مرتا البانيّة.**
ـ ابن الأمير: **دمعة وابتسامة، طفلان.**
ـ أطفال الراوي: **العواصف، حفّار القبور.**
ـ الطفل ابن الخمس: **العواصف، على باب الهيكل.**
ـ الفتى: **المجنون، كيف صرتُ مجنوناً.**
ـ الأطفال: **المجنون، المدينة المباركة.**
ـ الأولاد: **السابق، البهلول.**
ـ بترولينة ابنة بطرس: **يسوع ابن الإنسان، سمعان بطرس.**
ـ أولاد الراوي: **التائه، التائه.**
ـ الطفل: **التائه، القصيدتان.**
ـ الغلام: **التائه، النبيّ والغلام.**

● بمظهر تعاسة:
ـ ابن الأرملة: **دمعة وابتسامة، الأرملة وابنها.**
ـ ابن الأرملة: **دمعة وابتسامة، طفلان.**
ـ ابن صاحب الحان: **المجنون، الطموح.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:

ـ ابن سلمى: **الأجنحة المتكسّرة.**
ـ ابن الملك: **السابق، الخلافات.**
ـ ابنة آحاز الفندقي: **يسوع ابن الإنسان، آحاز صاحب الفندق.**

٩ ـ عامة الشعب، الرعاة والفلاحون:

● بمظهر سعادة:
ـ والد مرتا بالتبنّي: **عرائس المروج، مرتا البانيّة.**
ـ الراعي: **دمعة وابتسامة، الأمس واليوم.**
ـ الفقير: **دمعة وابتسامة، بين الكوخ والقصر.**
ـ الفتى: **البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قطّ في التاريخ.**
ـ مريم العذراء: **المجنون، اطلبوا تجدوا.**
ـ حفّار القبور، صاحب الدكان: **المجنون، الطموح.**
ـ النعجة، الحمل: **السابق، الحرب والأمم الصغيرة.**
ـ الفلاح: **السابق، الأثمان.**
ـ غملائيل: **يسوع ابن الإنسان، راعٍ في جنوب لبنان.**
ـ سمعان: **يسوع ابن الإنسان، سمعان القيرواني.**
ـ سركيس: **يسوع ابن الإنسان، سركيس الراعي اليونانيّ.**
ـ القبّرة، السلحفاة: **التائه، النّسر والقبرة.**
ـ الفقير: **التائه، الهدايا الثلاث.**

● بمظهر تعاسة:
ـ عليّ الحسيني: **عرائس المروج، رماد الأجيال.**
ـ والد يوحنّا: **عرائس المروج، يوحنّا المجنون.**
ـ الشاب الشهيد، الكهل الشهيد: **الأرواح المتمردة، صراخ القبور.**
ـ سمعان الرامي، القوي البنية،
الشاب الذي فكّ القيود: **الأرواح المتمردة، خليل الكافر.**

ـ الزرّاع عاشق الأميرة: **دمعة وابتسامة، حكاية.**
ـ الفقير: **دمعة وابتسامة، في مدينة الأموات.**
ـ الفقير: **دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة.**
ـ العاشق الفقير: **دمعة وابتسامة، مخبّآت الصدور.**
ـ الفقير: **دمعة وابتسامة، منيّتان.**
ـ الكلب: **دمعة وابتسامة، الحيوان الأبكم.**
ـ البنفسجة: **العواصف، البنفسجة الطموح.**
ـ حبيب سعادة: **العواصف، الصلبان.**
ـ الفلاّح، الشعب من أبناء أورفليس: **النبيّ.**
ـ الراعي: **يسوع ابن الإنسان، راع في جنوب لبنان.**
ـ البغال: **التائه، بناة الجسور.**
ـ الفلاّح: **التائه، الفأرة والهرّ.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:
ـ والد جبران، حفّار القبور: **الأجنحة المتكسّرة.**
ـ السوريّون: **يسوع ابن الإنسان، فيلمون الصيدليّ.**
ـ الفلاّحون: **التائه، الخمرة العتيقة العتيقة.**

١٠ ـ الغافلون، التائهون والمتسكّعون:

● بمظهر سعادة:
ـ الشاب: **دمعة وابتسامة، حكاية صديق.**
ـ سليم أفندي: **العواصف، فلسفة المنطق.**
ـ المتفائل، الدهريّ، التقيّ: **البدائع والطرائف، البحر الأعظم.**
ـ الكاتب: **المجنون، الله.**
ـ الشاب: **المجنون، الناسكان.**
ـ الكلب: **المجنون، الكلب الحكيم.**

ـ الرجل: المجنون، اطلبوا تجدوا.
ـ الكاتب: المجنون، اللذة الجديدة.
ـ الأذن، اليد، الأنف: المجنون، العين.
ـ البهلول: السابق، البهلول.
ـ الناقدون: السابق، الناقدون.
ـ دوَّارة الريح: السابق، الناقدون.
ـ الضفادع الثلاث: السابق، المعرفة ونصف المعرفة.
ـ الحسُّون: السابق، العالم والشاعر.
ـ السمكتان: السابق، البحار الأخرى.
ـ يهوذا، سمعان بطرس: يسوع ابن الإنسان، يعقوب بن زبدى.
ـ القبح: التائه، ملابس.
ـ المحارة الثانية: التائه، اللؤلؤة.
ـ الكلاب الثلاثة: التائه، السلم والحرب.
ـ البحّار الوالد: التائه، اللعنة.
ـ الرجل الآخر: التائه، العثور على الله.
ـ الرجل الأوّل: التائه، على الرمل.
ـ الرجال الثلاثة: التائه، حقل زاآد.
ـ الرجل الماهر: التائه، الحزام الذهبي.
ـ الكلاب: التائه، البدر الكامل.
ـ الرجل الثاني: التائه، الليدي روث.
ـ الرجال الأربعة: التائه، الله والآلهة العديدة.
ـ الفيلسوفان: التائه، المسألة.
ـ الظلّ: التائه، الظلّ.
ـ الجدول الثاني: التائه، النهر.

● بمظهر تعاسة:

ـ سليم، الكهل المخمور: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.

ـ منصور بك غالب: **الأجنحة المتكسّرة.**
ـ المتسوّل: **دمعة وابتسامة، المجرم.**
ـ الكهل، الهرم، الأعمى: **العواصف، على باب الهيكل.**
ـ نجيب مالك: **العواصف، السمّ في الدّسم.**
ـ الكاهن: **العواصف، ما وراء الرداء.**
ـ المنقطع عن الدنيا: **البدائع والطرائف، سفينة في ضباب.**
ـ هو، صديقه: **البدائع والطرائف، بالأمس واليوم وغداً.**
ـ المتشائم، المتصوّف، الخياليّ: **البدائع والطرائف، البحر الأعظم.**
ـ زين العابدين النهاوندي: **البدائع والطرائف، إرم ذات العماد.**
ـ الكاتب: **المجنون، كيف صرتُ مجنوناً.**
ـ الكهل: **المجنون، الناسكان.**
ـ الثعلب: **المجنون، الثعلب.**
ـ الكاتب: **المجنون، الرمانة.**
ـ الأسد، الزرزور: **المجنون، القفصان.**
ـ الورقتان: **المجنون، وريقة عشب ووريقة خريف.**
ـ العين: **المجنون، العين.**
ـ اللصّ: **السابق، القدّيس.**
ـ الوحش: **السابق، الطمع.**
ـ السارق: **السابق، التوبة.**
ـ الرجل السائل في معرفة النفس،
رجل الصداقة: **النبيّ.**
ـ توما: **يسوع ابن الإنسان، يعقوب بن زبدى.**
ـ باراباس: **يسوع ابن الإنسان، باراباس.**
ـ ابن سوسان: **يسوع ابن الإنسان، سوسان الناصرية جارة مريم.**
ـ الجمال: **التائه، ملابس.**
ـ الضبع، التمساح: **التائه، دموع وضحكات.**

ـ المحارة الأولى: **التائه، اللؤلؤة.**
ـ الشاب: **التائه، المجنون.**
ـ الصديقان: **التائه، أمس واليوم وغداً.**
ـ الرجل الأوّل: **التائه، العثور على الله.**
ـ الملاكان الأول والثاني: **التائه، الملاكان الحارسان.**
ـ الرجال الثلاثة: **التائه، النبيّ الناسك.**
ـ الرجلان الأول والثالث: **التائه، الليدي روث.**
ـ الغصنان، العصافير: **التائه، السّلم يعدي.**
ـ العشب: **التائه، الظلّ.**
ـ الجدول الأوّل: **التائه، النهر.**
ـ الصيّادان: **التائه، الصيّادان.**
ـ التائه، التائه الآخر: **التائه، التائه الآخر.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:
ـ النملات الثلاث، الرجل النائم: **المجنون، النملات الثلاث.**
ـ الرجلان: **المجنون، على درجات الهيكل.**
ـ الشاب: **التائه، تلك التي كانت صمّاء.**
ـ الرجل: **التائه، التمثال.**
ـ الرجل الحالم: **التائه، أحلام.**
ـ المسافر: **التائه، حقل زاآد.**

١١ ـ المثقّفون والمصلحون:

● بمظهر سعادة:
ـ الخيال الثاني: **دمعة وابتسامة، بين الخرائب.**
ـ الشيخ: **دمعة وابتسامة، الدهر والأمّة.**
ـ فتى لبنان: **دمعة وابتسامة، اللقاء.**

ـ الشاب العاشق: دمعة وابتسامة، حديث الحبّ.
ـ الرجل ذو الوجه الصبيح: العواصف، على باب الهيكل.
ـ الكاتب، الشبح الأول: العواصف، رؤيا.
ـ خليل بك تامر: العواصف، الصلبان.
ـ اللعين: المجنون، اللعين.
ـ الكاتب: المجنون، حفّار القبور.
ـ الشيخ: المجنون، المدينة المباركة.
ـ الناسك: السابق، القدّيس.
ـ يسوع: : يسوع ابن الإنسان، عسّاف الملقّب بخطيب صور.
ـ يوحنّا: يسوع ابن الإنسان، يوحنا بن زبدى.
ـ نتنائيل: يسوع ابن الإنسان، نتنائيل.
ـ يوثام: يسوع ابن الإنسان، يوثام الناصري.
ـ يعقوب: يسوع ابن الإنسان، يعقوب بن زبدى.
ـ لوقا: يسوع ابن الإنسان، لوقا في المرائين.
ـ متى: يسوع ابن الإنسان، العظة على الجبل.
ـ يوحنّا: يسوع ابن الإنسان، يوحنّا المعمدان.
ـ يوسف: يسوع ابن الإنسان، يوسف الذي من الرامة.
ـ الفيلسوف: يسوع ابن الإنسان، فيلسوف.
ـ بنيامين: يسوع ابن الإنسان، بنيامين الكاتب.
ـ زكّا: يسوع ابن الإنسان، في مصير يسوع.
ـ برثلماوس: يسوع ابن الإنسان، برثلماوس في أفسس.
ـ فيلبّس: يسوع ابن الإنسان، فيلبّس.
ـ يعقوب: يسوع ابن الإنسان، يعقوب أخو الربّ.
ـ المقدّم المنطقي: يسوع ابن الإنسان، يسوع الخارجي.
ـ داود: يسوع ابن الإنسان، داود أحد أتباعه.
ـ استفانوس: يسوع ابن الإنسان، نعمان الغداريني.

ـ توما: **يسوع ابن الإنسان، توما.**
ـ يوناثان: **يسوع ابن الإنسان، بين زنابق المياه.**
ـ السرطان المائي: **التائه، اللؤلؤة.**
ـ الضفدعتان: **التائه، الضفادع.**
ـ الناسك: **التائه، العثور على الله.**
ـ النبيّ: **التائه، النبيّ والغلام.**
ـ الرجل الثاني: **التائه، على الرمل.**
ـ الفيلسوف: **التائه، الفيلسوف والإسكافي.**
ـ الرجل العجوز: **التائه، حقل زاآد.**
ـ الرجل غير الماهر: **التائه، الحزام الذهبيّ.**
ـ الرجل: **التائه، التراب الأحمر.**
ـ الرجل العجوز: **التائه، الليدي روث.**
ـ الغريب الساذج: **التائه، المسألة.**
ـ النَّهر: **التائه، النهر.**
ـ السرور، الحزن: **التائه، الصيّادان.**
ـ المصطفى وتلاميذه التسعة،
وربَّان السفينة: **حديقة النبيّ.**

● بمظهر تعاسة:

ـ جبران: **عرائس المروج، مرتا البانيّة.**
ـ يوحنّا: **عرائس المروج، يوحنّا المجنون.**
ـ جبران: **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.**
ـ جبران: **الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.**
ـ خليل: **الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.**
ـ جبران: **الأجنحة المتكسّرة.**
ـ جبران: **دمعة وابتسامة، رؤيا.**
ـ الجبَّار: **العواصف، حفَّار القبور.**

ـ الشبحان الثاني والثالث: **العواصف، رؤيا.**

ـ الكاتب، يسوع: **العواصف، مساء العيد.**

ـ يوسف الفخري: **العاصفة.**

ـ يوسف مسرّة: **العواصف، الصلبان.**

ـ هو ونفسه: **البدائع والطرائف، البحر الأعظم.**

ـ نجيب رحمة: **البدائع والطرائف، إرم ذات العماد.**

ـ الكاتب: **المجنون، اللعين.**

ـ الكاتب: **المجنون، الذوات السبع.**

ـ جبران: **المجنون، المدينة المباركة.**

ـ المصلوب: **المجنون، المصلوب.**

ـ الكاتب: **المجنون، عندما وُلدت كآبتي.**

ـ الكاتب: **المجنون، عندما ولدت مسرّتي.**

ـ المسافر: **السابق، الناقدون.**

ـ الشيوخ: **السابق، ملك أردوسة.**

ـ الضفدعة الرابعة: **السابق، المعرفة ونصف المعرفة.**

ـ الناسك السائل في اللذة: **النبيّ.**

ـ يوسف: **يسوع ابن الإنسان، يوسف الملقّب بيوستوس.**

ـ كلاوبا: **يسوع ابن الإنسان، كلاوبا البتروني.**

ـ نعمان: **يسوع ابن الإنسان، نعمان الغداريني.**

ـ جبران: **يسوع ابن الإنسان، رجل من لبنان.**

ـ التائه: **التائه، التائه.**

ـ الحكماء الألف: **التائه، الشرائع.**

ـ الشاب: **التائه، بناة الجسور.**

ـ الراهب: **التائه، الراهب والوحوش.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:

ـ حفار القبور: **المجنون، حفّار القبور.**

ـ الليل: **المجنون، الليل المجنون.**
ـ الرجل العاري: **السابق، الذات العظمى.**
ـ المشتري: **السابق، الأثمان.**
ـ المشترع، المعلّم، العالم: **النبيّ.**
ـ الفيلسوف: **يسوع ابن الإنسان، فيلسوف فارسي في دمشق.**
ـ الرجل: **يسوع ابن الإنسان، رجل من الصحراء.**
ـ سابا: **يسوع ابن الإنسان، سابا الأنطاكي.**
ـ المشترع جدّ توما: **يسوع ابن الإنسان، توما.**
ـ الرجل: **يسوع ابن الإنسان، حب وبغض.**
ـ الكاتب: **يسوع ابن الإنسان، المجنون.**
ـ الناسك: **يسوع ابن الإنسان، النبيّ والناسك.**

١٢ ـ النساء:

التائهات والغافلات:

● بمظهر سعادة:
ـ فهيمة أرملة بطرس نعمان: **العواصف، السرجين المفضّض.**
ـ المرأة: **البدائع والطرائف، بالأمس واليوم وغداً.**
ـ الأم، ابنتها: **المجنون، بين هجعة ويقظة.**
ـ الفتاة: **التائه، في السوق.**
ـ المرأة المسافرة: **التائه، الحوت والفراشة.**

● بمظهر تعاسة:
ـ مرتا: **عرائس المروج، مرتا البانيّة.**
ـ ليلى: **الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.**
ـ سلمى: **الأجنحة المتكسّرة.**
ـ الزوجة الصبيّة: **دمعة وابتسامة، مخبّآت الصدور.**

ـ المرأة الكئيبة: **العواصف، على باب الهيكل.**

ـ سوسان زوجة فارس رحّال: **العواصف، السمّ في الدّسم.**

ـ المرأة السائلة في الفرح والترح،

المرأة السائلة في الألم: **النبيّ.**

ـ راحيل: **يسوع ابن الإنسان، راحيل إحدى التلميذات.**

ـ حنّة: **يسوع ابن الإنسان، حنّة من بيت صيدا سنة ٧٣.**

ـ نساء أورشليم،

بنات المزار: **يسوع ابن الإنسان، كاهن شاب في كفرناحوم.**

ـ **أميرة شواكيس: التائه، الأميرتان.**

ـ الزوجة الصمّاء: **التائه، تلك التي كانت صمّاء.**

ـ المرأة: **التائه، وميض البرق.**

ـ الأمّ الثكلى: **التائه، الطريق.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:

ـ نجيبة: **الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.**

ـ راحيل: **العواصف، ما وراء الرداء.**

الحالمات:

● بمظهر سعادة:

ـ الأميرة عاشقة الزرّاع: **دمعة وابتسامة، حكاية.**

ـ الفتاة: **دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة.**

ـ الصبيّة المورّدة الخدين: **العواصف، على باب الهيكل.**

ـ آمنة العلويّة: **البدائع والطرائف، إرم ذات العماد.**

ـ المطرة، العرّافة الثانية: **النبيّ.**

ـ مريم: **يسوع ابن الإنسان، حنّة أمّ مريم.**

ـ إحدى المريمات: **يسوع ابن الإنسان، إحدى المريمات.**

ـ رفقة: **يسوع ابن الإنسان، رفقة عروس قانا.**

ـ فومية: **يسوع ابن الإنسان، رئيسة كاهنات صيدا.**
ـ عمّة حنّة: **يسوع ابن الإنسان، حنّة من بيت صيدا سنة ٧٣.**
ـ زوجة بيلاطس: **يسوع ابن الإنسان، بيلاطس البنطي.**
ـ حبيبة يوناثان: **يسوع ابن الإنسان، يوناثان.**
ـ الرائية: **يسوع ابن الإنسان، امرأة من جارات مريم.**
ـ المرأة: **يسوع ابن الإنسان، امرأة من جبيل.**
ـ الراقصة الحسناء: **آلهة الأرض.**
ـ العجوز: **التائه، الطريق.**

● بمظهر تعاسة:
ـ الصبيّة حاملة الجرّة: **عرائس المروج، رماد الأجيال.**
ـ الصبيّة الشهيدة: **الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.**
ـ مريم بنت سمعان الرامي: **الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.**
ـ ابنة مصر: **دمعة وابتسامة، اللقاء.**
ـ الصبيّة: **دمعة وابتسامة، السلم.**
ـ الأميرة: **البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قط في التاريخ.**
ـ المرأة: **المجنون، على درجات الهيكل.**
ـ زوجة بطرس، حماته: **يسوع ابن الإنسان، سمعان بطرس.**
ـ الأميرة: **التائه، سبعون.**
ـ كريمة: **حديقة النبيّ.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:
ـ بربارة: **يسوع ابن الإنسان، بربارة اليمونيّة.**
ـ زوجة الراوي: **التائه، التائه.**

النساء ـ الرجال:

● بمظهر سعادة:
ـ الملكة: **السابق، بنت الأسد.**

- الأميرة: **التائه، الملك.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:

- الليدي روث: **التائه، الليدي روث.**

العاملات والخادمات:

● بمظهر سعادة:

- الوصيفة المصريّة: **يسوع ابن الإنسان، مريم المجدليّة.**
- العاملات في الكرم: **يسوع ابن الإنسان، أوريّا الشيخ الناصريّ.**
- سوسان: **يسوع ابن الإنسان، سوسان الناصريّة جارة مريم.**

● بمظهر تعاسة:

- الراعية: **دمعة وابتسامة، الدهر والأمة.**

● **بمظهر رماديّة في الشعور:**

- **القابلة: الأجنحة المتكسّرة.**
- المرضع: **المجنون، اللغة الأخرى.**
- الجواري: **يسوع ابن الإنسان، مريم المجدليّة.**
- مرتا القابلة: **يسوع ابن الإنسان، سوسان الناصرية جارة مريم.**

الغانيات:

● بمظهر سعادة:

- الأرملة، عشيقة الشاعر: **الأرواح المتمردة، وردة الهاني.**
- المرأة التي تغامز رجلاً، والمرأة
  المنتهزة سكر زوجها: **الأرواح المتمردة، مضجع العروس.**
- المجدليّة: **يسوع ابن الإنسان، مريم المجدليّة.**
- أم سالومة: **يسوع ابن الإنسان، سالومة إلى صديقة لها.**
- المرأة: **التائه، أمس واليوم وغداً.**
- الراقصة: **التائه، الراقصة.**

● بمظهر تعاسة:

ـ سالومة: **يسوع ابن الإنسان، سالومة إلى صديقة لها.**

المتحرّرات:

● بمظهر سعادة:

ـ ابنة الأحراج: **دمعة وابتسامة، أمام عرش الجمال.**

ـ الحكمة: **دمعة وابتسامة، زيارة الحكمة.**

ـ الآنسة هيلانة: **العواصف، الصلبان.**

● بمظهر تعاسة:

ـ وردة: **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.**

ـ سوسان: **الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.**

ـ المرأة التي تحدّث الشيخ: **الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.**

ـ حبيبة الجنديّ: **دمعة وابتسامة، بنات البحر.**

ـ يونا: **يسوع ابن الإنسان، يونا امرأة حافظ هيرودوس.**

ـ الملكة: **التائه، الصولجان.**

المحافظات:

● بمظهر سعادة:

ـ صديقة الأميرة: **التائه، الأميرتان.**

المربّية: **التائه، النبيّ والغلام.**

● بمظهر تعاسة:

ـ خطيبة الشهيد الأول،

المرأة الضعيفة أرملة الكهل: **الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.**

ـ راحيل: **الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.**

ـ الفتاة حبيبة الفقير: **دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة.**

ـ الأرملة: **دمعة وابتسامة، الأرملة وابنها.**

ـ طفلان: **دمعة وابتسامة، الأرملة.**

ـ المرأة التي تحمل طفلها: **النبيّ.**

ـ الأرملة: **يسوع ابن الإنسان، أرملة الجليل.**

ـ سيبورية: **يسوع ابن الإنسان، سيبورية أمّ يهوّذا.**

ـ المرأة: **التائه، حبّ وبغض.**

ـ المرأة: **التائه، أغنية الحبّ.**

ـ المرأة: **التائه، جسد وروح.**

ـ الفهدة: **التائه، الراهب والوحوش.**

● بمظهر رماديّة في الشعور:

ـ أمّ يوحنّا: **عرائس المروج، يوحنّا المجنون.**

ـ نساء يشربن بأموال الأغنياء: **الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.**

ـ والدة سلمى: **الأجنحة المتكسّرة.**

ـ مريم أخت هيلانة: **العواصف، الصلبان.**

ـ زوجة صاحب الدكان: **المجنون، الطموح.**

ـ الأمّ: **المجنون، اللغة الأخرى.**

ـ حنّة: **يسوع ابن الإنسان، حنّة أمّ مريم.**

ـ المرأة الثرثارة: **التائه، الضفادع.**

*

مسرد الأعلام

(ويشتمل على أسماء نساء ورجال فن وأدب ونقد وتاريخ ودين ومجتمع وسياسة، وأسماء صحف وبلاد ومواقع وجمعيّات).

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

*

ثبت بالمصادر والمراجع

(ويشمل)

أ ـ المصادر: كتب جبران خليل جبران.

ب ـ المراجع: عربيّة وأجنبيّة.

ج ـ الصحف والمجلّات والمعاجم والموسوعات.

أ ـ المصادر

١ ـ جبران، جبران خليل: ـ الموسيقى، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٢ ـ جبران، جبران خليل: ـ عرائس المروج، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٣ ـ جبران، جبران خليل: ـ الأرواح المتمرّدة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٧.

٤ ـ جبران، جبران خليل: ـ الأجنحة المتكسّرة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٧.

٥ ـ جبران، جبران خليل: ـ دمعة وابتسامة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٦ ـ جبران، جبران خليل: ـ المواكب، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٧ ـ جبران، جبران خليل: ـ العواصف، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٨ ـ جبران، جبران خليل: ـ البدائع والطرائف، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٩ ـ جبران، جبران خليل: ـ المجنون، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

١٠ ـ جبران، جبران خليل: ـ السابق، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨ .
١١ ـ جبران، جبران خليل: ـ النبيّ، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨ .
١٢ ـ جبران، جبران خليل: ـ رمل وزبد، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨ .
١٣ ـ جبران، جبران خليل: ـ يسوع ابن الإنسان، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨ .
١٤ ـ جبران، جبران خليل: ـ آلهة الأرض، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨ .
١٥ ـ جبران، جبران خليل: ـ التائه، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨ .
١٦ ـ جبران، جبران خليل: ـ حديقة النبيّ، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨ .

ب ـ المراجع

● العربيّة:

١٧ ـ جبر، جميل: ـ جبران: سيرته، أدبه، فلسفته ورسمه، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت.

١٨ ـ جبر، جميل: ـ رسائل جبران، دار بيروت، ١٩٥١.

١٩ ـ جبر، جميل: ـ مي وجبران، بيروت، ١٩٥٠.

٢٠ ـ الحكيم، توفيق: ـ فنّ الأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣.

٢١ ـ الصايغ، توفيق: ـ أضواء جديدة على جبران، بيروت، الدار الشرقيّة، ١٩٦٦.

٢٢ ـ كبا، إميل: ـ تحقيق المجموعتين الجبرانيّتين العربية والإنكليزية، منشورات مكتبة صادر، بيروت.

٢٣ ـ كبا، إميل: ـ النزوع الطبقي في مسرحيّات توفيق الحكيم، أطروحة دكتوراه من جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

٢٤ ـ كرم، أنطوان غطّاس: ـ محاضرات عن جبران خليل جبران، القاهرة، معهد الدراسات العربيّة العالية، ١٩٦٤.

٢٥ ـ نعيمة، ميخائيل: ـ جبران خليل جبران، بيروت، مكتبة صادر.

● الأجنبيّة:

26 - Adler, Alfred: Connaissance de l'homme, (p.b.p.), N° 90, 1979.

- Le tempérament nerveux, (p.b.p.), 151, 1976.

28 - Alain: Eléments de philosophie, 1941.

29 - Bakhtine, Mikhaël L'oeuvre de François Rabelais et la culture populaire au M.A. et sous la Renaissance, traduit du russe par A. Robel, n.r.f., E. Gallimard, France, 1978.

30 - Baruk, Henri: La psychiatrie sociale (p.u.f,), Que sais-je?, N° 669, 5ème édition, 1974.

31 - Beaujour, Alexandre: Littérature et engagement, classiques, Hachette, 1975.

32 - Berger, Gaston: Caractère et personnalité, Collection, S.u.p., P.u.f., N° 8, 1971.

33 - Bosetti, Gilbert: Pirandello, Bordas, N° 802, u.l.b., 1971.

34 - Bourgin, Georges - Rimbert, Pierre: Le socialisme, (p.b.p.), Que sais-je? N° 387, 12 éme édition, 1976.

35 - Camus, Albert: La Peste, Gallimard.

36 - Cattier, M.: Ce que Reich a vraiment dit, Marabout université, N° 254, 1974.

37 - Caussat, André - Lalliard, Michelle: Rebelles et révoltés, classiques Hachette, 1973.

38 - Celaya, Gabriel: De la responsabilité de l'intellectuel devant les problèmes du monde sous-développé, congrés de la culture, La Havane 4-11 Janvier 1968, Séghers éd., coll. Poètes d'aujourd'hui, 1970.

39 - Charles, Raymond: L'âme musulmane, Flammarion, Paris, 1958.

40 - Corvin, Michel: Le théâtre nouveau en France, P.u.F., Que sais-je? 1072, 1970.

41 - Decouflé, André: Sociologie des révolutions, P.u.f., Que sais-je? 1278, 1970.

42 - Dingemans, Guy: Psychanalyse des peuples et des civilisations, Librairie Armand Colin, Paris, 1971.

43 - D'Iribarne, Philippe: La politique du bonheur, Edition du Seuil, 1973.

44 - Dort, Bernard: Théâtre public: Essais de critique, Pierres vives, Edition du Seuil, France, 1967.

45 - E.D.M.A.: Le théâtre, Le livre de poche, 4461, 1976.

46 - Faure, Edgar: Prévoir le Présent, Gallimard, 1966.

47 - Favre, Yves-Alain: L'écrivain et son moi, thèmes et parcours littéraires, classiques Hachette, 1973.

48 - Freud: - Essais de psychanalyse, p.b.p., 1977.
- Introduction à la psychanalyse, p.b.p., 1978.
- Psychopathologie de la vie quotidienne, p.b.p., 1976.

51 - Germain, François: L'Art de commenter une comédie, Foucher.

52 - Goldmann, Lucien: Le Dieu caché, Gallimard, 1959.

53 - Gouhier, Henri: L'Essences du théâtre, «Présences», Plon, Paris, 1959.

54 - Joussain, A.: La loi des révolutions, Flammarion, 1950.

55 - Lacroix, Jean: La Sociologie d'Auguste Comte, (s.u.p.), No 21, France, 1967.

56 - Le Bon, Gustave: - Les premières civilisations, Bibliothèque Camille Flammarion, Paris.

- Psychologie des foules. 28éd., Alcan, 1921.
58 - Lorris, Robert: Sartre dramaturge, nizet, 1975.
59 - Matar, Fouad: La souveraineté populaire dans l'héritage de J.J. Rousseau, thèse pour le doctorat du 3ème cycle présentée à Paris- Sorbonne, 1973.
60 - Nicolas, André: Wilhelm Reich, ou la révolution radicale, Ed. Seghers, Paris, 1973.
61 - Osborn, R.: marxisme et psychanalyse, p.b.p., No 99, 1974.
62 - Poulet, Georges: Etudes sur le temps humain, II, La distance intérieure, Paris, Plon, 1952.
63 - Reich: - Le Fonction de l'organe, Plon.
- La révolution sexuelle, Plon, 1969.
65 - Ricoeur, Paul: Finitude et culpabilité, T.I, Aubier, philosophie de l'esprit, 1977.
66 - Rousseau, J.J.: Emile, Hachette, II.

ج - الصحف والمجلّات والمعاجم والموسوعات

67 - Express: N° 870.
68 - Médecine et Hygiène: 5 novembre, 1969.

٦٩ - صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، جزءان، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٧٠ - عبد النّور، جبّور: المنهل، قاموس عربي - فرنسي، دار العلم للملايين - دار الآداب، الطبعة الثامنة، ١٩٨٥.

71 - Encylopédia universalis: Vols: 4,9.
72 - Encyclopédie Larousse: Histoire générale des peuples, Tome I.

* * *

فهرس الجزء الثاني

الصفحة

* * *

الجزء الثالث

في طريق السَّماء

الإهـداء . .

إلى فكرةٍ في بالي، على اسمها كلُّ ما أحتفرُ على جدار الزمن من كلام .

إميل

المقدّمة..

«في طريق السّماء» عنوان يُسطّر أساساً كصدى لمنطلقات وأهداف، أياً تكن طبيعة الموضوع المتناول. ولكنّه داخل ثلاثيّتنا هذه «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني» يحمل شعوراً نفسيًا، وخصوصاً خلقيًا يتداخل والفكر الديني في أكثر من ناحية؛

والسبب أنّه، في خاتمة جهدنا على مدى جزئين من الثلاثيّة هذه، يأتي العنوان هنا كأنه نهاية المطاف لمجاهدات إنسانيّة خطّت أثلامها في أرض الحقيقة والواقع، بزمانهما ومكانهما المناسبين؛ حقاً خطّتها، ولكنْ في سبيل حصاد أخير كثير، لا بدّ لكلّ فعل إنسانيّ، سما أو سفل، من أن يبلغه في النهاية.

وإذا كنّا قد استخلصنا من الجزء الأوّل في هذه الثلاثيّة أنّ الآباء الجبرانيين أربع فئات في إرث الرجل، وأنّهم يعيشون نمطاً صراعياً من أجل البقاء، ويتسبّبون في مشاكل أخرى على النطاق الكونيّ، إبّان اضطلاعهم بما يبدو لهم حلولاً لمعضلاتهم في أعمارهم مؤتمرين بهاجس نابع من أغوارهم الغامضة، هو ذاك الشيء المشترك بين البشر جميعاً[1]، الذي كأنه السبب الحقيقي كامناً

(١) تعبير لجان لوي بارو، المسرحي الفرنسي.
Voir: M. Corvin, «Le théâtre nouveau en France», P.U.F., N° 1072, 1974.

وراء الإنسانيّين كلّهم، أحياء وأمواتاً، في بحثهم عن «شيء ذي أهميّة خارقة»[1] وقد نسوا ماذا يكون؛

فإننا، في الجزء الثاني من الثلاثية الراهنة، قد اقتربنا مع الأبناء بفئاتهم الثلاث، من اعتبار لهؤلاء، أياً تكن أجيالهم والمنابت، كالعلامة الكيانيّة الثابتة في الكائن الآدميّ، متطوّرةً من نقطة تلاقيها مع سائر المخلوقات الكريمة، في رحلة نوعها من القوة إلى الفعل، على تعبير المناطقة وأهل التفلسف.

ثم تركنا هؤلاء الآباء وأولئك الأبناء، في خاتمة الجزء الثاني، على مسافة من هدف بهيّ تركن حيواتهم ومداركهم إليه بنشوة، وإن لم يتوصّلوا إليه، أو حتى لو بقوا عرضةً للأهواء والمطامع الأنويّة تنحرف بهم عن خطّ سيره، وحتى لو بدوا جميعاً كأنّهم خليّة نحل مأخوذة بفعلها المرسوم ولا تشتار في النهاية إلاّ السّراب والخيبة؛

وكأنّ هؤلاء وأولئك يؤتون في الحدث الحيّ ما لا يتلاءم والأهداف البعيدة البهيّة المرتسمة في أفق نوعهم منذ ما كانت له ذاكرة المطلقات الرائعة[2]، فيخلقوا، حيثما مرّوا، أثر المرارة إذ تعقب الأفراح المتبخّرة، واهتزاز الاقتناع بجدوى الجهاد أو عدمه في أرض لا تختزن من عوالم أحيائها إلاّ الرفات.

وقد توضّح لنا في حينه، بما يشبه اليقين، أن الأدب الجبراني، بأسره تقريباً، لا يعدو كونه إيماءات مطّردة بالتخطي، مبنيّة أساساً على حتميّة الخيبة بعد كلّ تطاول فوق التراب، ومستندة أساساً على عبثيّة تحقيق المرتجى، ما دام

---

(١) تعبير ليونسكو.

Voir: Eugène Ionesco, «Présent passé, passé présent», cité par Yves Alain Favre, «L'écrivain et son moi», classiques Hachette.

(٢) ويرتسم في النفوس عطش إلى ما وراء حدود الرتوب اليوميّ في نزوع خفيّ إلى الكمال. ولا بأس في أن نتذكر بالمناسبة قول النحات الألماني هيلدبرند: «الكائن الكبير الذي يحيطنا ويخترقنا نشقّ طريقنا إليه بمستقبل عظيم يفضي إلى الكائن الكامل.

cité par A.Adler, «Le tempérament nerveux», (p.b.p.), N° 90, 1976.

كلّ إشباع لعطش في الكائن يقابله ارتسام جوع في قطاع آخر منه؛

وتوضّح لنا بما يشبه الحقيقة المرّة أن الآباء والأبناء الجبرانيين يتشابهون في البعد الأخير لمعنى الشقاء لدرجة يبدون معها أنهم محكومٌ عليهم، داخل هذا الأدب، بالاضطلاع بلعبة كونيّة، سرعان ما يسدل الستار على شخوصهم فوق خشبتها المقدّسة، مفسحين في المجال لطبيعة أدوارهم فتبقى على حساب أسمائهم وكياناتهم المندثرة.

ولكنّ هذا لا يعني إقفار الأدب الجبرانيّ من حالات أبوّة وبنوّة لم تبلغ أفق الغبطة بمداها الرائع، أو خلوّه من إنسانيّين ولدوا معاً على اسم الفعل الكامل، مبلّغهم لحظات الاكتفاء بمعناه الوجودي الرحيب، في ترفّع فوق ترّهات الحياة ومسطّحاتها في البكاء والابتسام والحرمان أو السلوى وإشباع الرغبات.

وهؤلاء الجدد، آباء وأبناء، خارجون على الأنماط الأسريّة الضيّقة، بل لطلاق آنيّ ومرجإٍ على حدّ سواء داخل الأدب الجبرانيّ، طلاق مع كلّ ما يستبقيهم حالات إنسانيّة شائعة أو خاضعة لنواميس الوزن والكيل والقرابة والجاذبيّة والنسبة والأحجام في كلّ علاقة بمحيطهم.

فكأنّهم النسخة المنقّحة للكائن بصبوتهم والتّوق، والرضى علامة في مسعاهم وهم منصاعون لناموس أعظم تسفر عن منطلقاته، حدوده والمآل، الفلسفة الجبرانيّة ذاتها، ويتكرّسون في عقيدته القدوة والمثال للآدميّين المتعطّشين إلى السعادة بمعناها الاكتفائيّ العميم.

ولئن بدا الآباء الجبرانيّون الذين درسنا حتى الآن، والمصطدمون داخل أدبه بنوازع الجسد والطين، والمعوقون بصنوف كثيرة من اشتباك المصالح والمعتقدات الاجتماعيّة والنفسيّة وسواها؛ لئن بدوا مجسّمات في مراحل من الزمان الكونيّ لرحلة خلاصية من الإثم نحو التوبة، من المأزق نحو التحرّر، ومن الإحباط باتجاه الاغتباط؛

وكذلك إذا ظهر الأبناء الجبرانيّون الذين درسنا حتّى الآن، والمقعدون

بأمانيهم داخل قشرات صلبة من المكتسبات الجاهزة على صعيدي المجتمع والكيان؛ إذا ظهر هؤلاء كأنّهم انكفاءات للجنس الآدميّ أو انتفاضات منحرفة، أو تصويبات لحيوات سرعان ما تضلّ من جديد لغياب النموذج الكونيّ الكامل الجاذب لأعماق كياناتهم إلى عوالمه الرحيبة؛

فإنّ لنا من هؤلاء الآباء والأبناء داخل الإرث الجبرانيّ ما يعوّض هذا النقص المرافق لتواريخهم في زمن الحياة وزمن الفن على حدّ سواء، وما يعد بقيامة التفاؤل والأمل من بين حطام التشاؤم واليأس، في نطاق كونيّ يكاد يكون مأتميًّا بصوتِه وصداه على مدى الأدهار.

فكيف لهذا النوع من الآباء أن يمدّ مثل هذه المنبسطات للإنسانيّة المعذَّبة؟ وكيف لذاك النوع من الأبناء أن ييمّم ناحية السماء، وهو في السفح من جبل التوبة والتوق والوجد والذّوق والفناء[1]؟

سؤالان لفصلين مرتقبين للجزء الثالث من ثلاثيّتنا «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني»، وهما بعنوانين متشابهين:

«آباء منصاعون لناموس أعظم»؛

«وأبناء منصاعون لناموس أعظم»؛

تمهيداً لفصل ثالث أخير بعنوان: «عطشاً إلى المطلقات»، عنده تلتقي ملامح هؤلاء الآباء والأبناء داخل فناء من الزمن الوسيع، في وقفة استعادة للواقع على شاكلة الحُلم الذي وُلد يوماً في بال الله.

*

---

(١) وكأنّما في مسلك هؤلاء بدء العبور في طريق السماء، حيث الطاو اللاوتسي، المصدر الذي فاض منه كل شيء والهدف الذي يتجه إليه كل شيء (عمر فرّوخ، التصوّف في الإسلام، بيروت، ١٩٤٧)، وحيث الطريق البوذيّة وآب المسيحيّة وحقّ الإسلام مسمّيات مختلفة لمسمّى واحد هو الله. (راجع بهذا الصدد: المراحل لميخائيل نعيمه، صادر، ١٩٦١، وأسعد علي، «فن المنتجب العاني وعرفانه»، المجلّد الأوّل، دار النعمان، لبنان، ١٩٦٨).

الفصل الأوّل
آباء منصاعون لناموس أعظم

الانصياع والقبول والرضى والوداعة[1] وسواها من القيم الحسنى التي تتعايش في الشخصيّة المتوازنة متّجهةً بالحدث الحياتي من أقصى التفاعل والالتزام مع المحيط إلى أقصى الانكفاء المكتفي غنًى ومعرفة، حتّى حدود الخير الفائض بعفوية، والصمت الممتلئ بكنوز الكلام[2]؛

هذه تبدو للوهلة الأولى مكتسبات من الحضارة الواعية منطلقاتها والمتّجهات، والمؤيّدة بحضور إلهيّ في ذات الإنسان، وهو منجذب عبر اغترابه الزمانيّ إلى أرض السماء.

---

(١) وهذه، في بعدها الأخير، من مقامات الصوفية السالكة إلى ربّها في طريق يهدف إلى الفناء في الحق، ويعتبر كتاب «اللمع في التصوّف» أقدم بحث مفهوم عن الصوفيّة، وفيه أن لحظة الاستعلاء الروحي سبع مقامات للطريق وعشرة أحوال. (راجع نيكلسون، «الصوفية في الإسلام»، ترجمة نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، ١٩٥١. وراجع كتاب «اللمع في التصوّف» لأبي نصر السرّاج الطوسي، ليدن، ١٩١٤).

(٢) نذكر هنا أنّ الروحانيّ المتصوّف يصبو إلى الصمت، كحالة بهيّة نهائية في الخليقة الكاملة، في حين أنّ الشاعر وجهته الكلام. وهذا الأخير لا يحظى بتوازنه الداخلي إلا إذا استطاع أن يعبّر عن رؤاه، وكل قصور في ذلك لعجز اللغة، يشعره بالتمزق وبأنه ضحيّة مرض في عميق كيانه، وكأنه في موقع أدنى من ذاته على حدّ تعبير أنتونان أرتو في إحدى رسائله.

Voir: Yves Duplessis, «Le Surréalisme», P.U.F., 1950.

ولكنّنا ما إن ننعم النظر في الأدب الجبرانيّ حتّى نستخلصها إيماءاتٍ خفيّة من الكاتب، بنسق حيوات من شخوص ورموز، إلى حالات من الغبطة الفريدة يلجُها آباء يصنعون بأنفسهم ناموسهم الأعظم أكثر ممّا يأتمرون بنواهيه أو ينصاعون لشرائعه.

لذلك نجدنا، في هذا الفصل الأوّل «آباء منصاعون لناموس أعظم» مواجهين بصنوف من الآباء الجبرانيّين، هيّأتهم الحقائق الكونيّة ليكونوا أعلاماً خفّاقة في خواء الحياة المخيف[1]، وحرص الكاتب على إظهارهم بهذه الصفة في قصصه خصوصاً؛

إلاّ أنّهم، من ناحية ثانية، يستمرّون كذلك باختيارهم، ليبقوا القدوة لأعقابهم والأخلاف، وبهم تستمرّ المسيرة الكونيّة مظفّرة الموكب على طريق السماء.

ومن هؤلاء الآباء، المرأة الواعية زمن الخليقة بماضيه وحاضره والمستقبل، وجيل الآباء العائد إلى ذاته في الوقت الذي ينصرف فيه إلى أبنائه، والأمّ المنشدة بشفتي طفلها جهدَها وقدرها، والمصطفيات من لدن الله لتمام مشيئة فيطأطئنَ ليخرج التاريخ بواسطتهنّ من القوة إلى الفعل، ويقترب صنيع الخلق من حلمه الأوّل؛ ومن هؤلاء أيضاً من علّقت يد الكاتب في فؤاده وروعه أسرار الحكمة فقالها عنه وعن الإنسان.

■ وأوّل هؤلاء الآباء المنصاعين لناموس أعظم نقع عليه في كتاب «رمل

---

(١) ولعلّ خير من عبّر عن هذا الخواء من أدباء العصور الحديثة، أندريه بروتون. قال بما معناه: أن نحيا وأن ننقطع عن الحياة يقعان في خانة الحلول الواهمة، فالوجود الحقيقي هو خارج هذا وذاك.

cité par Yves Duplessis, «Le Surréalisme», chap. III., op. cit.

وزبد»[١]. ومع أنّ الكتاب شوارد من خواطر مبتسرة فإنَّها تبدو فيه، لمنعمِ نظرٍ مدقّق، كأنَّها الفكر المهرول غير المستقرّ، وكمثل تلك الشذرات ـ اللمعاتِ من رؤى، تأتيك تداعياً، أو وحياً وإلهاماً، وأنت منصرف إلى أعمالٍ يوميَّة تافهة، فتخترق بك الرتيب المسطّح من الأحداث، وتبقيك حيث اهتماماتك الأساسيَّة أديباً مفكّراً محاوراً للحياة وللحقيقة، مومئةً في الوقت نفسه إلى مساحات غير منظورة من شخصك.

يقول جبران: «رأيت وجه امرأة، فرأيت أولادها ولم يولدوا بعد. ونظرت امرأة إلى وجهي، فعرفت آبائي وجدودي وقد ماتوا قبل أن تولد»[٢]. فهذه المرأة، وهي من جيل الآباء ولو لم يولد لها أبناء بعد، وإن في حدث الفنّ، نراها إيماءً غافلاً وواعياً، في آن، إلى أنّ اللحظة الواحدة في سفر الحياة هي حبلى بكلّ الأزمنة، فلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل، حيال وحدة الوتيرة الإنسانية في سبيل غاية وحيدة هي استكمال دورة الحياة خطّها المرسوم[٣].

هكذا نراها، هذه المرأة، وقد عرفت آباءه وجدوده، وهم «ماتوا قبل أن تولد»، في انعطاف مستمرّ على آفاق لا تنبسط في مدى العين بقدر ما تمتدّ عميقة في تربة النفوس، وبموقفها يتكرَّس الغيبيّ وجهاً آخر للمعلن، ويغدو

---

(١) هو كتاب خواطر مبتسرة، وأحياناً لوحات قصصية بحوارات ينمّ كل منها عن موقف واحد. كتب جبران معظمه باللغة الإنكليزية بيده ونقل الباقي عمّا وضع أصلاً باللغة العربية. (راجع دراستنا الكتاب، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨. وراجع ثبت المصادر المعرّبة في ملاحق هذا الجزء).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ولا ننسَ هنا ما في هذا الموقف الجبراني من فكر حلوليّ، منطلقه أن الله والإنسان والعالم شيء واحد. فصاحب «رمل وزبد» ينتمي إلى هذا التيّار الفلسفي «الممتدّ من الهنود إلى الرواقيّة التي اعتبرت الله قوة كامنة في الإنسان والمخلوقات والكون، إلى مذهب سبينوزا القائل بالمطابقة والتوافق بين الله والطبيعة، فمذهب هيغل القائل إن الله ماثل في التاريخ والإنسان والطبيعة. (راجع: متري سليم بولس، «في أدب النهضة الثانية»، «روافد الأدب الجبراني»، أغات، ١٩٨٥).

المحتمل تتمةً لكل مكتسب[1].

وهذه المرأة من جيل آباء عارفين، ولو اقترنت المعرفة عندها بمعاني الغفلة. فبانصياعها لمرتكز كياني، وبعميق انتمائها إلى حركة الحياة الشاملة في الكون، حدست حدساً أن الموكب الإنسانيّ يتواصل جيلاً في إثر جيل، حاملاً رسالة ـ مهمّة هي بلوغ الناموس الأعظم تمامه، ولكن ليس قبل فُسح زمانيّة تتوالى، عبر أجداد وآباء وأبناء وأحفاد، لتحسين الجهد العام، وتتقمّص النفوس في خلالها ذوات مكتسبة لتَنامي مدارك تؤهّلها لتصبح الينبوع الذي يحضنه البحر[2].

وفي مكان آخر من كتابه عينه تتوضّح حتى الانكشاف التام تقريباً هذه الناحية من السعي الجماعي نحو هدفٍ كونيّ، يحدّده ناموس أعظم تهتدي بهديه الكائنات منصاعةً لقدره. يقول في «رمل وزبد» شعوراً منه بالتبعة الملقاة على عاتق الآباء حيال المسيرة الإنسانيّة التائقة إلى غاياتها الجميلة: «كثيراً ما نغنّي لأولادنا لننام نحنُ أنفسنا»[3]؛

كلام ـ غناء يستعيد به جيل آباء شيئاً من طفولاتهم الضائعة، مقلّصين مساحة الحضور الآنيّ أمام عيونهم، طافرين من حقائق العالم العارضة إلى حقيقة الأعماق، أي إلى نعمة البساطة والتسليم لناموس الحياة. وهو كلام ـ غناء في حال «نحن» يُؤْثِرُ كلَّ عامّ داخل الحركة المشهديَّة الآدميَّة على كلّ نسبيّ

---

(١) وبهذا الموقف تكتسب الإنسانية خلاصاً من شقائها. وهي، في الكتاب ككلّ، كأنها على أبواب الانتظار الكبير وتتهيّأ لقيامة آمالها من بين الأموات، أي من لوثة النقص والاعتياق والهزيمة. (راجع قسم المقدّمات، من دراستنا «رمل وزبد»، ع. س.).

(٢) ولقد آمن جبران بالحاضر الأبدي، ولكنه يعني به، من وجهة تطوّرية، «أن الزمن الحاضر يتضمّن منجزات الماضي، وأن المستقبل موجود بالقوّة في الحاضر، فالإنسان، وفقَ رأي أُولي النظرية التطورية ليس معطًى بديهياً، إنّه محصَّل يمثّل اليوم تطوّرات الماضي، وسوف يمثّل في المستقبل ما يتوافر في اليوم الراهن». (راجع: متري سليم بولس، «في أدب النهضة الثانية»، «روافد الأدب الجبراني»، ع. س.).

(٣) «رمل وزبد»، ع. س.

محدود لاطئ بزمن خاص أو بجيل أو بأرض؛

وهو كلام ـ غناء يتمّ في الغفلة هنا أيضاً، وما قوله «كثيراً» في حال هؤلاء الآباء إلّا ليؤكّد حالة حدس مباغتة تنتزعهم أحياناً من ظلمة الغبار الذي تثيره أقدامنا في صحراء الأحداث، وإيماءٌ خافت إلى أنّ الأشياء بحقائقها، مع المعارف البشريّة، وسلطة العقل، هذه كلّها لا احتساب يقينيًّا لها نظراً للانقطاع المتمادي بين التراث الآدمي وحكمة الحياة.

ويتمادى ظلُّ الإعلان عن هذه الحقائق الكونيّة داخل «رمل وزبد»، انصياعاً من جيل آباء لناموس عام فيها، كخيط قصصيّ أو شعّة سرديّة فوق مساحة بيضاء، واللون في القول فارق. يقول في مكان آخر من الكتاب: «الأنشودة الكامنة في صمت قلب الأمّ تتردّد على شفتي طفلها»[١].

وهل شفتا الطفل إلّا البذرة التي تومئ إلى الثمرة فالشجرة صعداً؟ وهل الأنشودة إلّا جهد الأمّ وبعض من قدرها المستمرّ عبر شفتين؟

لكأنّنا نرى، في هذا التداخل بين أنشودة الصمت في قلب الأم وصداها فوق شفتي طفلها، نرى توضيح انتماء الواحد من كلٍّ من جيل الآباء والأبناء إلى الكون، فرعاً لأصل، وقطرة لبحر، على دين الإيمان بوحدة الوجود[٢]، فتختزن ذوات هؤلاء وأولئك، في الوقت نفسه، هذا الكلّ المهيب، فيُحمل في كلٍّ منهم حلولَ الشجرة في نواها؛

وكأنّما تهجع، في قلب كلّ من هؤلاء الآباء والأبناء على حدّ سواء، معرفة صامتة[٣]، فيحملون الكون في أعماقهم كصفة ملازمة لكياناتهم، وبهدي

---

(١) «رمل وزبد»، 90، ع. س.

(٢) «وهذا المبدأ نتيجة للقول بالحلوليّة، فبما أنّ الكون والإنسان صدرا عن عالم روحيّ واحد يمكن القول إنّ وحدة المصدر أدّت إلى وحدة الوجود». (راجع: متري سليم بولس، «في أدب النهضة الثانية»، «روافد الأدب الجبراني»، ع. س.).

(٣) يرى دارسو المتصوّفة أن الإنسان عاش في عالمين: عاشت روحه في عالم الأمر قبل بروزها منه (وعالم الأمر يعبّر به عن الموجودات الخارجة عن الحسّ والجهة والمكان =

من هذه المعرفة يتسارع الجدول ـ الإنسان نحو المحيط، عودة النور إلى مناره[1]، وعندئذ يتحرّر من قيود مكانه المحدود وزمانه النسبيّ ليعانق رحابة البحر وزمنه الوسيع.

■ ولئن شاب سعي الآباء الجبرانيّين المنصاعين لناموس أعظم، داخل «رمل وزبد»، لون غفلةٍ أو دهشة أو شكّ أو تبعيّة قد يسوّد بالأسود الفاحم نعمة قبولهم فريضة الانحناء للقدر الكونيّ النافذ لا محال، فإنّ لنا من كتاب «يسوع ابن الإنسان» جيل آباء أكثر انهماكاً واضطلاعاً بما يجري على هذا النطاق الرحيب من الزمن والحقيقة بمعناها الإلهي. وخير نموذج لهؤلاء مريم وسوسان في شهادة «سوسان الناصريّة جارة مريم». تقول الجارة المصطفاة في وصفها أمّ يسوع: «في تلك الأيام كانت مريم ترى رؤى وتسمع أصواتاً، وتتكلّم عن

= والتحيّز وسواها)، وأنشئ جسده في عالم الكون والفساد، وجعل مستودعاً للروح. وفي النشأة الأولى عرفت الأرواح ربّها فأحبّته. إذاً.. هذه المعرفة محمولة في الروح من النشأة الأولى «وتسير بها في الآخرة للسعادة الكبرى التي هي النظر إلى وجه الله»، وتلك السعادة التي هي التجلّي هناك تتفاوت بتفاوت المعرفة ههنا. (راجع هذه الاقتباسات من كتاب «شفاء السائل لتهذيب المسائل» وهو لابن خلدون، في «فن المنتجب العاني وعرفانه»، المجلّد الأوّل، الباب الرابع، الفصل الثالث، «المحبّة»، ع. س.).

(١) هي لدى جبران آثار الفلسفة الإشراقية التأمليّة التي اعتنقها التوفيقيّون من الفلاسفة العرب وفي طليعتهم الفارابي وابن سينا؛ وحيث ضرورة الاندماج بين مبدإ الجمال ومبدإ الحياة لغاية النظام والتآلف.

Voir: Henri Sérouya, «La Pensée arabe« «Al.Farabi», P.U.F., 1960.

ونتذكّر هنا، بهذا الحنين الكبير إلى المصدر، موضوع العطش الإنساني الهائل، أنّ الفن، كالمحبّة، ككلّ انطلاق نحو المطلق، يقودنا إلى أبعد من قضيّتنا الإنسانية، إذ لا رجاء أكثر جدارة ورحابة من رفّة جناح في هذا السبيل.

Voir: Yves Duplessis, «Le Surréalisme», Conclusion, op. cit.

الخدام السماويّين الذين يزورونها في أحلامها... ولكن البعض قالوا إنها مجنونة. وقد قالوا هذا لأنها كانت تتصرّف بحريّة تامة في جميع أعمالها. أما أنا فقد كنتُ أنظر إليها نظرتي إلى شيخة طاعنة في السنّ مع أنها كانت فتاة في ميعة الشباب. لأنني رأيتُ حصاداً في أزهارها وأثماراً يانعةً في ربيعها... وكانت في عينيها دائماً دهشة الغريب الذي لم يتعرّف إلى وجوهنا بعد»[١].

أوصاف تؤهّل مريم للمهمَّة الكونيّة التي انتدبت لها. فهي رمز الأرض الباحثة عن خلاصها، وهي وعاء المشيئة والناموس الأعظم. وإذا كانت صفتها الكبرى في تقديم سوسان أنّها «تتصرّف بحريّة تامة في جميع أعمالها» فلأنها تحمل بعدُ، بهذه العفويّة السليقيّة، بصمة المشيئة العلويّة، فلم تترجَّل أمانيها في محطات التراب، ولم تستقل من المقدَّر في كتاب السماء.

مريم التي في عينَي سوسان «شيخة طاعنة في السنّ مع أنها كانت فتاة في ميعة الشباب» نموذج أبويّ إنسانيّ أعدّ جسداً لإله[٢]، وقد اقتبلت هي هذه المهمَّة منحنيةً للناموس الأعظم، ما دام الحنين في ذاتها هو إلى ذاتها[٣]، ولو

---

(١) راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) جعل جبران طلوع المسيح حتمياً من قلب الجنس البشري، ولا فكاك منه، وأبداه حلقة أخيرة في نهائي المسيرة الإنسانية عبر الأديان والمعتقدات باتجاه نهاياتها العظيمة، تجلّى في التاريخ، من قلبه وليس من خارجه، لأنه الدورة الكاملة للحياة بوجه من الوجوه. (راجع قسم المقدّمات من دراستنا «يسوع ابن الإنسان».). ونلاحظ أن إيمان جبران بالوراثة حمله على اعتبار المسيح وريثاً للتجارب الروحية التي سبقته، «فالتكاثف الروحي عبر الأجيال تجسّد في المسيح. والقول بإنسانيَّة المسيح المتأله نجده عند رينان وقد اطلع جبران على آرائه» (راجع: متري سليم بولس، «في أدب النهضة الثانية»، «روافد الأدب الجبراني»، ع. س.).

(٣) وقد ارتبط الأمر مع جبران برؤيته الشاملة للكون، فانطبع أدبه هنا، بخاصة، بالحلولية، ذاك المذهب الذي يساوي ما بين الكائنات، ويبرز ثالوثاً قوامه الله والإنسان والعالم، فيقضي مسبقاً على الاستقلالية المطلقة للكائن بمعزل عن نظيره في الحضور. (راجع قسم المقدمات من دراستنا «التائه»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨).

عاجزة عن فهم مشتهاها فهماً يقينيًّا يغيّب كلّ أنواع فرحها والحزن. لقد ظلّت مريم أم يسوع، طوال سعيها إلى أن تكون الوعاء لابن الإنسان، إنسانةً جادّة في الطريق المفضية إلى الهدف، من دون أن تتفوّق لحظة فتشعر أنها قد غدت هي نفسها الطريق، تقول سوسان: «وعندما حبلت مريم بيسوع كانت تتمشّى بين التلال وترجع عند المساء وفي عينيها جمال فتّان وألم عميق»[1]، وما التلال وجمال الأرض والألم العميق إلاّ إيماء من الكاتب وبلسان سوسان إلى أنّ روح الكون قد حلّ فيها.

وعندما يبلغ يسوع التاسعة عشرة، نراها تتبعه «لتصغي لأقواله وتسمع صوت قلبها»، صنيع كلّ أمّ مزهوّة بتكاثرها عبر بنيها، وتجلس على عتبتها تنتظر عودته من تسفاره في الشرق والغرب، «وفي كل مساء كانت تحدّق بعينيها إلى الطريق تفتّش عن رجوعه إلى بيته». وتتابع سوسان شهادتها: «بيد أنها عند رجوعه تأتي إلينا قائلة: إنه أعظم من أن يكون ابناً لي، وفصاحته تسمو على إدراك قلبي الصامت، فكيف أدّعيه لنفسي؟»[2]؛

مريم تقف على حدّ التبعيّة والاختيار، منصاعةً للناموس الأعظم على اغتباط بما حباها به، على الرغم من آلام الأمومة الثكلى وأوجاع حرمانها من أن تكون فرحاً بشريًّا لذاتها وترحاً.

ومع ذلك نراها تسقط فريسة التجاذب بين تفوّقها كإنسان، موضوع اختيار وأشواق الأكوان والتواريخ كلّها، وضعفها كحالة أمومة أخرى تحيا وتموت في ساح الأثرة والشوق والرغبة والنقص والخشية والهاجس بمفاهيمها البشريّة الشائعة بين الآدميّين. تقول سوسان: «ويلوح لي أنَّ مريم لم تستطع أن تصدق أن السهل قد ولد الجبل، وفي بياض قلبها لم تنظر أنّ حرف الجبل هو الطريق إلى قنّته. فقد عرفت الرجل، ولكن بما أنّه كان ابناً لها لم تجرؤ أن تعرفه»[3].

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

وكمثل ما تقوم الذات العامة من بين ضباب اليوميّ الخاص، تعود مريم إلى نوعها الإنسانيّ البائس وقد انبسطت أمامه أرض الوصول إلى خلاص، فتطّرح أمومتها أو تطويها في الزّهو الخفر الخفيّ من الأعماق التائبة، مؤثرةً مرةً أخرى عظمة الاختيار الكوني على استئثارها كذات مائتة في التاريخ. ومن اللوحة ـ الشهادة: «وفي أحد الأيام ذهب يسوع إلى البحيرة ليكون مع أصدقائه الصيَّادين، فقالت لي مريم: من هو الإنسان إلّا هذا الكائن القلق الناهض من الأرض، والحنين المتسامي إلى النجوم؟ إن ابني هو حنين بعيد. بل هو جميعنا متسامين بحنيننا إلى النجوم. هل قلت إنه ابني؟ فليسامحني الرب. ولكن قلبي يدلّني على أنّني أمُّه»[1]؛

حتى إذا سمعت مع سوسان بأن يسوع سجين لم تنطق بكلمة، «ولكن ظهر للحال في عينيها «تحقيق خفيّ لذلك الوعد بالألم والفرح» الذي بان في وجهها منذ ما كانت عروساً في الناصرة. تقول سوسان: «إنها لم تبكِ، ولكنها كانت تمشي بيننا فقط كأنها روح أمّ لا تريد أن تنتحب على روح ابنها. فجلسنا منحنيات على الأرض، أما هي فكانت منتصبة وهي تروح وتجيء على أرض الغرفة. وكانت تقف بين الهنيهة والهنيهة أمام النافذة وتحدّق بنظرها إلى الشرق ثم تسرّح شعرها بأصابع يديها»[2]؛

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

وهكذا يسوع لجبران، مرة أخرى، كمال النوع الذي على مثاله تتحضّر الإنسانية لخلاص. وهو في شوق وشغف الأرض وكائناتها كمخلص يقود إلى الرجاء. وبهذا المعنى يقول بلسان فيلمون الصيدلي اليوناني: «كثيراً ما يخطر لي بأنه كان يصغي إلى أعمق الآلام التي في جميع الكائنات الحية أمام الشمس، فيعمد في الحال إلى رفعها ومساعدتها، ليس بمعرفته فقط بل بإظهار طريق قوتها لتنهض من آلامها صحيحة سالمة».

(٢) المصدر نفسه.

وما الشرق إلّا حيث البداية والشروع في حركة الأزل باتجاه الأبد، وهي لا تنتهي.

لقد عاد التجاذب من جديد إلى شخص مريم يلتهم حضورها الإنسانيّ الكونيّ الهادئ، تجاذبٌ بين ذاتها كأمّ بوجع ابن آدم، عيّنة الشقاء والبؤس، وذاتها كوعاء للاختيار الأعظم حتى حدود الجنون الخطير الخارق، ولكن العنيف الضعيف في آن، ولو «كانت عيناها كالسماء اتّساعاً وشجاعة»[1].

ويوم مرّ يسوع ببرج داود حاملاً صليبه، وجمع غفير حواليه، ورجلان آخران يحمل كلٌّ منهما صليبه معه، «كان رأس مريم مرتفعاً، وكانت تمشي وراء ابنها، وكانت خطواتها ثابتة». وعندما رفع يسوع عند التلّة على الصليب نظرت سوسان إليها، «فلم يكن وجهها وجه امرأة حزينة، بل كان أشبه بمنظر الأرض المثمرة التي تلد أولادها بغير انقطاع وتقبرهم بلا ملل»[2]؛

لقد تمّت المشيئة، وأُخرج شوق الكائنات بل رجاؤها من القوّة إلى الفعل، ومن اللاجدوى إلى الممكن كلّ يوم، ودخل الكون من باب التوبة عهد نقائه الأوّل، بحدث صلبين في الحقيقة: اقتبال مريم انصياعاً، ولكن بإباء، قدراً كونياً موجعاً نابعاً من عميق هتاف الخليقة، وفجيعتها بابنها الذي ليس ابنها وقد زار بطنها مرة. قالت مريم عند أقدام الصليب: «يا ابني الذي ليس ابناً لي، أيها الرجل الذي زار بطني مرةً، إنّني أفاخر بقوتك. إنني أعرف أنَّ كلّ نقطة من الدم الجاري من يديك ستكون ينبوعاً تتكوّن منه أنهار أمّة بأسرها. أنت تموت الآن في هذه العاصفة كما مات قلبي مرة في غروب الشمس، ولذلك لم أحزن عليك»[3].

إنّها، وقد رأت الوعد بأمّ العين، تستغرق في الانفصال عن ذات الأمومة إلى أمومة الذات العظمى، جادّة في طريق الشهداء الذين يغلب لديهم المرتجى كلّ غنمٍ آنيّ أو محصَّل كسبٍ ظرفيّ في الحضور الإنساني الزائل، ولكنّه لا احتسابَ له في عين الحقيقة الكونيّة الباقية.

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

لقد ساوت مريم العذراء ابنها بالألم. فبعدما انقادت برياح الشكّ على الرغم من اقتناعها بأنها المصطفاة المنتدبة للمهمة العظيمة؛ وقد قالت بهذا الصدد لابنها المرفوع على الصليب: «يا ابني الذي ليس ابناً لي، إذا كان هذا من الله فليعطنا الله صبراً ومعرفة لحقيقته. وإذا كان من الإنسان فليسامحه الله إلى الأبد»[١]؛ وقبل أن تسلمه «للإنسان جرحاً وبلسماً»[٢]؛

وعت مريم مأساتها واستوعبتها، وقد صاحت المشيئة بصوتها فحوّلتها إلى منار اهتداء على طريق المسترشدين المريدين، ليكتمل عهد السعي من الذات إلى الذات، على مبدإ الحلوليّة الجبرانيّة[٣]، وأصبحت مريم «امرأةً قد حقّقت آمالها»، بل أصبحت الأرض التي حقّقت مشتهاها. قالت المشيئة بصوتها: «يا ابني، الذي ليس ابناً لي، إنّ ما يبنيه الله هٰهنا لا يمكن أن يزول، وكلّ ما يهدمه الإنسان سيظلّ مبنيًّا، ولكن في نظر أسمى من نظر الإنسان»[٤].

ومريم، بما قدّمنا، نموذج أبويّ[٥] جبرانيّ على طريق السماء، بوداعة المتصوّفين ومجاهدتهم. فهي بدخولها في كلّ خلق سنيّ وخروجها من كلّ خلق دنيّ[٦]، ودقتها ورهافتها بمراقبة باطنها مصغيةً فيه إلى هينمات بعيدة من

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

وهو البلسم لأنه الطريق إلى الكمال ولقيامة النوع الأمثل للخلاص في المعتقد الجبرانيّ.

(٣) وجبران «حلوليّ مبهم يعتقد أن كل ما في الأرض، من جماد ونبات وحيوان وإنسان، إنما هو الله. المادة هي الله، والله هو المادة الكليّة. والروح هي الله، والله هو الروح الأزلية الأبدية، هو الروح العام والعقل العام». (راجع: جميل جبر، «جبران»، «سيرته أدبه فلسفته ورسمه»، قسم جبران والفلسفة، دار الريحاني للطباعة والنشر ـ بيروت).

(٤) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

(٥) والنسبة لفئة الوالدين، دونما تمييز في هذا المجال بين أمومة وأبوّة.

(٦) تعبير مقتبس ممّا ورد في مقدمة «الرسالة القشيريّة» كتعريف بالتصوّف. وفيها أن التصوّف أخلاق كريمة. (راجع: أسعد علي، «فنّ المنتجب العاني وعرفانه»، «في طريق النعمة»، ع. س.).

ماضي نوعها الحاضر أبداً بتوقه إلى المطلقات[1]، إنّما تسلك في معارج المتوقّلين لجبل الله، مشيعةً في من وما حولها طيب الصلاح والقداسة، مضيفة، إلى حلم الكون بأن يبلغ منتهاه، مجاهدتها[2] الرائعة كإنسان يناضل في سبيل الخروج من ذاته انتماءً إلى أتراح الآخرين وأفراحهم.

ومرّة أخرى، هو التجاذب، في نطاق الوالدين، بين خصوصيات الكائن الفرد عند البطل الجبراني والمرتكزات الأساسيّة لقيامة مشروع الحياة المعافاة من الظلّ والجمود إلى الأهبة والنور الصراح، تجسّده مريم العذراء في «يسوع ابن الإنسان» بخطوها في طريق الآلام المفضية إلى مآل من الآمال الكبار على صعيد الانتصار بمعناه الكونيّ الشامل. قالت لسوسان يوم جاءتها هذه تشكو أن ابنها قد ذهب إلى صور ليصبح ملاّحاً ولا يعود: «ستبقى المرأة أبداً رحماً ومهداً، بيد أنها لن تكون رمساً. نحن نموت لكي نعطي حياة للحياة، كما أن أصابعنا تحوك من الخيوط ثوباً لن نلبسه أبداً. ونحن نلقي الشبكة لنمسك السمك الذي لن نأكله. لأجل هذا نكتئب ونحزن، ولكن في جميع هذا فرحنا وغبطتنا»[3].

إنّ في مريم شيئاً من إنسان هيغل، صاحب «الحب البائس» للمطلق، بحثاً عن سعادته الضائعة، ولكنّ فيها أيضاً، في وجه آخر للموضوع، شيئاً من إنسان كيركغارد وماركس، بانطلاقها من الأرض باتجاه السماء، في اعتراض على خواء الواقع. غير أنّها تختلف عن هذا وذاك بأنّها قد اكتشفت وحدة ذاتها التي لم تميّزها بشيء عن وحدة الحياة، جامعة بذلك حدّ الأرض وحدّ السماء

(١) وكأنما في هذا التّوق ما دأب جاك ريڤيار J. Rivière على تسميته «زيارة بلا مسمّى» في معرض شرحه للسورياليّة.

Voir: Yves Duplessis, Le Surréalisme, chap. III, op. cit.

(٢) هذه المجاهدة يراها ابن خلدون بأنها من الدين تكاليفه الباطنة على القلب كرياضة النفس وتطهيرها، والدقة في مراقبة الباطن وعلمه، وسميت فيما بعد تصوفاً. (راجع: أسعد علي، «فن المنتجب العاني وعرفانه»، «طريق المحبة»، ع. س.).

(٣) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

عند نقطة واحدة هي الانصياع لناموس أعظم في الكون، ومن لدنه كلّ غبطة. قالت لسوسان: «إنّ ابني هو ملّاح كابنك، فلماذا لا تسلّمين ابنك لحنان الأمواج كما سلّمتُ ابني؟»[١].

فمريم «يسوع ابن الإنسان»، كخالقها جبران بهذا المعنى، تبحث عن دواء لمفارقات الوجود المادّي واختلالاته من داخل سماوات النظام الأمثل، تماماً كصنيع الشاعر الرسّام إذ يرفع المرئي المائت في الزمن إلى مثاله الخالد في الفنّ، تطهيراً له من أدران الخطيئة والخيبة والضياع في صحراء الأحداث التي بلا رجوع ولا ثبات[٢].

وبدت المنار لمحيطها. شعَّت في ظلمات سوسان، جارتها، فاقتدت هذه بها اقتداء المجاهد الصوفي «بشيخ سالك قد خبر المجاهدات، وقطع طريق الله، وارتفع له الحجاب، وتجلّت له الأنوار»[٣]. فتختم شهادتها بقولها: «بهذا حدثتني مريم. فتركتها ورجعتُ إلى بيتي، ومع أنّ نور النهار كان قد ولّى فقد جلستُ إلى نولي أحوك القماش الذي لن ألبسه»[٤].

لقد تخلّت سوسان عن ابنها الموحى به شعريًّا قماشاً لن تلبسه، وانتمت هي الأخرى إلى حركة الحياة الشاملة، أي العمل الذي يتخطّى الزمن الآنيّ إلى النهايات العظيمة للحياة، إيماناً بوحدة الوجود وناموسه الأعظم.

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

(٢) هكذا نلمح في موقف جبران ما يشبه استعادةً لمبدإ الوجود على صورة «الزهرة الإلهيّة» في تعبير الغزالي، أو «نور الأنوار» كما يصفه ابن سينا. وبذاك تتطابق الجمالية والضرورة أي تماثل هذه الجماليّة المحتوى الغائي الملازم للكائن.

Voir: Henri Sérouya, «La Pensée arabe», «Al-Farabi, op.cit».

(٣) الاقتباس من «الرسالة القشيريّة». راجع بهذا الصدد: أسعد علي، «فن المنتجب العاني وعرفانه» «طريق المحبة»، «المجاهدة»، ع. س.

(٤) «يسوع ابن الإنسان»، «سوسان الناصرية جارة مريم»، ع. س.

■ وفي «التائه» لوحات تؤكّد حقيقة الانصياع هذا لنظام الكون، وإنْ بوعي لا يطول إلاّ ديناميّته في المدى، فتتجاور الحدسة والغفلة في جيل من الآباء الجبرانيّين على نحو لا تعرف معه أَلفرح هو وعيُهم واكتناههم أم لترح؟ فلوحة «الطريق» تقدّم وحيداً لأمّه أصابته حمّى فمات والطبيب واقف إلى جانبه. وراحت الأمّ تصرخ وتولول سائلة الطبيب عن الذي أسكت غناء وحيدها، فقال: هي الحمّى، الشيء المتناهي في الصغر حتى لا يُرى بالعين المجرّدة. وجاء الكاهن فعادت تبكي وتعول نادبة ولدها الوحيد، والكاهن يؤاسيها بأنّها مشيئة الله. وإذ سألته عن الله لتمزّق صدرها بين يديه وتريق دم قلبها على قدميه، قال لها الكاهن: الله رحب ولا سبيل إلى رؤيته بالعين المجرّدة. وجاءت أمّ المرأة حاملة كفن الصبي وكانت قد سمعت كلام الرجلين وقالت: نحن يا ابنتي الشيء الذي لا نهاية لصغره، ولا نهاية لكبره معاً. نحن الطريق بين الإثنين[1].

قالت الأم للطبيب: «وما هي هذه الحمّى؟. أجاب الطبيب: «لا أستطيع شرحها. إنها شيء متناهٍ في الصغر، يزور الجسم، ولا نقدر على رؤيته بالعين المجرّدة. ثم تركها الطبيب، وراحت تكرّر ما قال، لنفسها: شيء متناهٍ في الصغر، لا نقدر على رؤيته بالعين المجرّدة»[2].

فريٌ لبحر المجهول بالاحتمال، وخطٌّ في الظلماء المكتنفة لمعالم طريق. بذاك يمكننا أن نصنّف جواب الطبيب. فاتّخذته الأمّ مرتكزاً لإضاءة ما تبقّى من سعيها في الزمن، بقبول مبدئيّ لمحتواه، تردّده لنفسها منصاعةً من غير أن يستثير فضولها سواه. ولكنها سرعان ما تسقط اقتناعها عند المساء مع مجيء الكاهن معزّياً، وهو رمز طريق أخرى في الحياة. قالت تسأله: «لماذا فقدت

---

(١) راجع دراستنا «التائه»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) المصدر نفسه، «الطريق».

ولدي الوحيد، ولدي البكر؟ أجاب الكاهن: إنها يا ابنتي مشيئة الله! قالت المرأة: ما هو الله وأين هو الله؟ أريد أن أشاهده لأمزّق صدري أمامه وأنزف دم قلبي على قدميه. قل لي أين أستطيع أن أجده؟ قال الكاهن: الله رحب لا نهاية لرحابته. ولا سبيل إلى رؤيته بالعين البشريّة المجرّدة»[١].

فالأوّل جواب، بل مرتكزٌ جزء من نظام، والثاني جواب وهو كالأوّل إمكانيّة طريق، باعثة استكانة إلى انسجام ما بين الرؤية الداخليّة والعالم، وفي كليهما ما يفي بحاجة هذه المرأة إلى ترجمة ما ينتابها من هواجس الوجود. ولكنّ تناقضهما وعجزها الملتاع في فجيعتها بوحيدها حملاها على أن تقيم نظاماً توفيقيًّا بينهما، فيتقاطعان عند نقطة إيذائها، لتسقطهما معاً في اعتراض صارخ على تغييب شخصها عن ساح القرارات المتعلّقة بمصيرها كإنسان.

والأمّ الثكلى هذه رمز لجيل من الآباء الجبرانيّين لا يجد بدّاً من الانصياع لأنظمة نسبيّة، ولو بصورة مؤقتة، لأنها تفسّر له جوانب من مسعاه في الحياة، أو هي تجسيد للقلق الكوني حيال مكتنفات الأسرار المحيقة بوجوده، وهو صغير لأنه عاجز عن اقتحام جذُرها إلى يقين.

وتُقبل الجدّة في تلك اللحظة، يقول جبران، وتلج الغرفة ومعها كفن الصبيّ، «وكانت قد سمعت كلمات الكاهن، وصراخ ابنتها، ورمت بالكفن إلى الأرض، وأخذت يد ابنتها بيدها، وقالت: نحن يا ابنتي الشيء الذي لا نهاية لصغره، ولا نهاية لكبره، معاً. نحن الطريق بين الإثنين»[٢].

فجاء الضوء الأخير في القطعة إشارة إلى معتقد وحدة الوجود، والتداخل بين الله والإنسان والعالم من وجهة نظر حلوليّة. وكأنّما الإنسان هو الوسيلة لتقوم الحياة من هجعتها إلى يقظتها الكبرى عبر نسق مرسوم[٣].

---

(١) «التائه»، «الطريق»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ومرّة جديدة، يزرع جبران الحكمة الخفيّة في أفواه العجائز (راجع الليدي روث من =

ولكن. . عمَّ تبحث المرأتان؟ لا شكّ في أنّها المعرفة، أو حالة يقين هي مآل كلّ إنسان، والعودة إلى جذور للحياة تتخطّى الولادة والموت. والجدَّة على انتماء كما يبدو في القطعة، وقد عرضت اختبارها الوجودي على ابنتها، وعبرها على كلّ آخر، مستحثّة على الانصياع والتسليم كمثلها لناموس أعظم. فهل وافقت تلك؟ هل يوافق كلّ آخر؟

نرى أن إغفال الجواب من جانب الكاتب هو إبقاء للسرّ حيث هو واستمرار لمشكلة كون لا يمكن أن يرى بعقل قاصر يدَّعي النور.

هؤلاء. . آباء جبرانيّون منصاعون لناموس أعظم، بانضوائهم في الموكب الشامل الجادّ على طريق اللانهاية. وفي كرّة نظر إلى خصالهم نراهم:

ـ يومئون إلى معارفهم الكيانيّة الهاجعة في أعماقهم إيماءً غافلاً وواعياً في آن، فيحدسون حدساً حركة الحياة المتتالية عبر الآدميين لتحسين الجهد العام، عبر تقمّص النفوس ذوات مكتسبة لتنامي المدارك؛

ـ تداهمهم أحياناً حالات حدس مباغتة تنتزعهم من ظلمة الغبار الذي تثيره أقدامهم في صحراء الأحداث، فيستيقظون على حتميّة التواصل الحاصل في غفلة منهم بين النوع الإنساني وحكمة الحياة؛

ـ ويستودعون أبناءهم أحلامهم، فتختزن ذوات هؤلاء وأولئك، في الوقت نفسه، هذا الكلّ المهيب الذي اسمه الناموس الأعظم للكون، ويُحمل في كلّ منهم، على التوالي، حلولَ الشجرة في نواها؛

ـ يجاهدون، على مثال المتصوّفة، جهاداً يوميًّا ليتوقَّلوا جبل الله، في

= الكتاب عينه)، ثم كم نبصر أكثر من وجه شبه بين «الطريق» ولوحة «المسألة» في الكتاب ذاته!

اكتشاف لوحدة ذاتهم، صنيع شاعر رسّام يرفع المرئي المائت في الزمن إلى مثاله الخالد في الفنّ؛

ـ يقتدون مسترشدين بنور سواهم من منارات المجاهدة والعرفان نشداناً لغبطة لا يجدونها خارج الإيمان بوحدة الوجود والتسليم لناموسه الأعظم.

ولئن وجدناهم، هؤلاء الآباء، لمزايا مشتركة بانصياعهم لحكمة الحياة تُنفـذُ في كلّ منهم قرارها، فإنّهم تمايزوا بافتراق في ما قدّمنا وبدرجة وعيهم ما يُقدمون عليه في عالم السعي الإنساني.

ففي حين أنّ بعض هؤلاء، بيدٍ من الكاتب، يدركون من بعيد الإطار العام الذي تلامسه الكائنات بأنظارها إبّان اغترابها الزمني، نرى أن بعضهم الآخر يعملون «على فراغ القلب من كل ما سوى الله حتى كأنّ البشرية كلّها ذاهبة ممحوّة شأن الميت»[1]، فعلَ مريم العذراء في «يسوع ابن الإنسان»، وسوسان جارتها اقتداءً بها.

وإذا كان الأوّلون قد بدوا خلواً من أيّ لونٍ خلقيّ، خيراً وشرّاً، وأيّ حصّل معرفي مكتسب بسعيهم وجهادهم، فإنّ مريم العذراء وسوسان جارتها، خصوصاً مريم، تمثّلان عند جبران ذروة الانتماء إلى حركة الحياة، بتسليم عارف، هو نابع عند مريم من عميق إصغائها إلى هينمات النوع الإنساني متجمّعةً داخل وداعتها وأشواقها، وبه أفصح الكاتب عن هدف قديم للحكمة العربيّة، مستقرئاً فلسفة ابن سينا خصوصاً، هو كمال النفس الإنسانيّة بتنامي معرفتها للأشياء[2]، جامعاً في قطاع واحد حقل الدين وحقل الأخلاق، مقرّاً

---

(١) «التخريجات المختصرة» لأبي الحسن بن ناصر الدين (راجع أسعد علي، «فن المنتجب العاني وعرفانه»، «طريق المحبّة»، «المجاهدة»، ع. س.).

(٢) Henri Sérouya, «La Pensée arabe», «Avicenne», op. cit.

بأن لا سعادة قصوى للإنسان خارج هذا القطاع.

وإذا كان للأدب الجبراني أن يحضن مثل هذه الحالات الأبويّة الناهدة إلى الحقيقة على ضوء الدين والأخلاق، فإنّه لمن منطق الأشياء - الثنائيّات، وانطلاقاً من ديناميّة الحدث الإنساني وتواصله، أن يحفل هذا الأدب في الوقت عينه بحالات بنويّة مشابهة، خصوصاً أنّنا دأبنا في الجزئين الأول والثاني من ثلاثيّتنا الراهنة على البحث في ثنائية الآباء والأبناء في الأدب الجبرانيّ، توصُّلاً إلى نقاط مشتركة تمهر هؤلاء الجبرانيين بطابع متقارب في المآلات الأخيرة التي تصبو إليها فئاتهم.

لذلك، وبما أنّ وجهة النظر المعتمدة في معالجة النصوص تُحدّد موضوع البحث وإطاره[1]، فإنّنا ننتقل من الآباء المنصاعين لناموس أعظم إلى فصل ثانٍ نخصّ به الأبناء الخاضعين لهذا الناموس، توصلاً إلى ثالث يحدّد من حيث المبدأ الأطر العامّة للفكر الجبرانيّ بعطشه إلى المطلقات.

*

(١) راجع بهذا الصدد متري سليم بولس، «الخوارق في روايات ميخائيل نعيمه وأقاصيصه»، «منهج البحث»، الجزء الأول، منشورات أغات، ١٩٨٥. وفي الهامش منه:
Ferdinand de Saussure. Cours de linguistique générale.

الفصل الثاني
أبناء منصاعون لناموس أعظم

إذا كانت الحياة، في وجهها المعلن وانسيابها المتلاحق على غير تمثّل وتقليد، تبدو كأنها الخطوات المرتجلة يأتيها، في حقل الزمن والمكان، آدميّون، من آباء وأبناء، أو سواهم من أصحاب الأحداث المفتعلة في ميادين الحركة على أنواعها بواسطة الكائنات الدنيا في هذا العالم؛

فإنّ هذه الحياة لا يمكن للخاطرين في ساحها من الجامعة البشريّة إلاّ أن يتأثّروا بمنطق تناميها الحتميّ، أقلّه انطلاقاً من تعاقب نسقها المتتابع، على نحوٍ يخلق الذاكرة الجماعيّة الخاصة بالنوع ويغذّيها، ويغري بآتٍ أكثر اتّساعاً لمرتجيات كثيرة، مرتجيات ليست في الحقيقة إلاّ ذاك المحصّل الهائل من أماني الأجيال قد تجمّعت عند نقطة تقاطع مشتركة هي، ولا شكّ، كل جيل لاحق.

لذلك، وحيال هذه الثنائيّات المتعاقبة إلى ما لا نهاية في المسيرة الإنسانية بين أجيال الآباء والأبناء، كرسوم تتداعى إذ تتقابل في تشكيليّة الأرابيسك الفنيّة، تتمظهر هذه الإنسانية كأنها الشكل الأبدي لحركة المدّ والجزر في المادّة الرخوة، ما إن تصنع لها حجماً حتّى يختفي متقلّصاً في حدود اخر، سرعان ما يتحضّر للامتداد من جديد، على نحوٍ يطوي الفعلُ الفعلَ الذي تَقدّمه في الرحابة الزمنيّة المتنامية، ويتردّد الحدث كشاهد على عدم بلوغ الحركة منتهاها.

هكذا يعقبُ الأبناء الآباءَ، فيقفون بين ماضي الإنسانيّة المتشكّل عبر اختبارات وأحداث الأسلاف من جهة، ومستقبلها من ثانية، متكوّراً باشتهاءات الأخلاف، ومحمولاً بالعين الحالمة وبصبوة القلب، لينطبعوا في أشياء وأشكال هذا العالم.

من هنا أنّ الأبناء الجبرانيّين، كآبائهم من قبلهم، كسائر الأسلاف، يحملون في داخل ذواتهم أصداء من ذاك الكائن الكبير الذي دأب الشعراء والفلاسفة على الإيماء إليه، والذي تبدو الحياة كأنَّها مستمرّة لملامسته والفوز به، وهو لا يُفصح عن أكثر من كونه فكرةً جميلة أو نظاماً متآلف الخطوط والتفاصيل على نسق مدهش خارق، أو علامة في أقصى رحاب الشوق الإنساني، يغني الوصول إليها عن اطّراد سعيٍ ودوامِ حركة من أجل اكتفاء وقبول؛

ومن هنا أنّ الأبناء الجبرانيّين؛ ـ والشخص في الفنّ، إنْ لم يكن الحيَّ المنتزع من الواقع إلى مثاله في سماء التسامي الخالق للطبيعة وللحياة، فهو على الأقلّ ظلٌّ لفكرة أو طيفٌ لحلم ـ؛ هؤلاء الأبناء كأنّهم الاشتهاءات، في وقت وظرف محدّدين داخل الأثر الفنّي، للإنسان المركّب العجيب من وحدة وكثرة في آن، فنبصر فيه، إلى مرتجيات ذاته كفرد، خصال عهود كثيرة، وأوهاماً كثيرة، وآمالاً كثيرة، ترسّبت كلها في قاع كيانه وثنايا ذاكرته الجماعيّة[1].

وهؤلاء الأبناء في أدب صاحب «النبيّ»، هم على تفاوت في درجة ووعي الانتماء إلى هذا الكل الزاحف بجلال داخل حضورهم في الفنّ ورموزه في الحياة، فنرى فيهم الواعي أهدافه بانحناء وقبول، حتى لكأنّه من غير هذا العالم وقد حُمّل ذخيرة حياة سماويّة بهيّة؛ ونرى فيهم المُواجَه بهذا الكلّ ناموساً كاملاً

---

(١) يرى أوغست كونت أن البشرية هي مجموعة لإنسانيين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وعدد الأموات فيها يفوق عدد الأحياء.

cité par Jean Lacroix, «La Sociologie d'Auguste Comte», S.U.P., N° 21, France, 1967.

يتتالى، فيعقله في عيون الآخرين وتصرّفاتهم، أو ينكشف له انطلاقاً من مرتكزات آنيّة يعمّم منطقها وأحكامها على الوجود بأسره؛ ونرى فيهم المُطهَّر بلمسة إلهيّة، هي في الحقيقة يد الحياة الممدودة إلى ذاتها في المعتقد الحلوليّ الجبرانيّ، فيقف شاخصاً أمام نور النهار يتقبّل كالتمثال دفقاته المنيرة؛ كما قد نقع فيهم على من لم ينفض يده من الناموس الأعظم رجاءً وتسليماً، فيأتيه متواصل الحدب، عميق الالتزام بجذبه إلى حيث الحقيقة، يضيئه كيما يضاء.

■ وأوّل هؤلاء المنصاعين من الأبناء يطالعنا به كتاب «النبيّ» في لوحة «المساكن» خصوصاً، وهم أولئك العائشون في النعيم، والذين لن يقدر رائض على ترويضهم، فبيتهم سارية وليس مرساة، وغير المحدود فيهم يقطن في منزل السماء الذي بوّابته سحابة الصباح ونوافذه سكون الليل وأناشيده. ولقد سلك جبران في اللوحة تلك مسلك الثنائية المتقابلة، الشائعة في الكتاب كله، ليظهر الفارق بين أبناء أورفليس وأبناء الفضاء المنتمين إلى حركة الكون الشاملة في قيامته من الخطيئة إلى التوبة، ومن النقص إلى الكمال.

يقول لبنّاء سأله في البيوت: «إنَّ بيتك هو جسدك الأكبر... أوّاه لو أستطيع أن أجمع بيوتكم بيدي. فأبدّدها في الأحراج والرياض كما يبذر الزارع زرعه في الحقول»[١]، فيؤكّد أنّه، إزاء ما يدين به أبناء أورفليس من انتماء إلى أرض الطين والمال بمظهريهما المادّي الانتفاعي[٢]، تتحتّم عودة إلى الطبيعة

(١) راجع دراستنا «النبي»، «المساكن»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) تذكرنا «أورفليس» بالديانة الأورفية التي سبقت المسيحية إلى الظهور، وهذه الديانة تمتّ بصلة ونسب كبيرين إلى المعتقد الجبراني، فهي تقول بالتقمص، ونزول الروح إلى الأرض للتطهّر فيها والارتقاء شيئاً فشيئاً حتى تعود إلى المصدر الذي انبثقت منه. (راجع: متري سليم بولس، «في أدب النهضة الثانية»، «روافد الأدب الجبراني»، ع. س.)، وأورفيوس من نمط الشاعر المخلص والخلّاق. إنه يقيم نظاماً أفضل في =

اختصاراً للمسافة التي تفصل الإنسان عن الذات الكليَّة، حاضنة الحياة، واعتراضاً على نسق حضارة إنسانيَّة مستسلمة لمدنيّة الآلة، وما الجسد الأكبر، برأينا، إلاَّ صدى لهذا الكلّ ـ الناموس الأعظم، وتأويل لمبدإ الالتزام بالكون، فرعاً لأصل، وقطرة لبحر على مذهب الحلوليَّة الجبرانيّة.

وكمثل ما تصيح الحياة في وجه مرآتها، يؤنّب المصطفى الأبناء الذين اصطفتهم روحه مدة اثني عشر عاماً: «بربّكم أخبروني، يا أبناء أورفليس ماذا تملكون في هذه البيوت؟ وأي شيء تحتفظون به في داخل هذه الأبواب الموصدة؟ . . . هل عندكم الجمال، الذي يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة إلى الجبل المقدّس؟ . . . أم عندكم الرفاهية فقط، والتحرّق للرفاهية الممزوج بالطمع، الرفاهية التي تدخل البيت ضيفاً، ثم لا تلبث أن تصير مضيفاً، فسيّداً عاتياً عنيفاً؟»[1].

وكأنّما هذه البيوت، من دون منتجات المخيّلة والقلب، نحتاً ورسماً

= الحياة، نظاماً من دون منع. هو شاعر الخلاص إذ يصلح بين الإنسان والطبيعة عن طريق الغناء.

Voir: Herbert Marcuse, «Eros et civilisations», Arguments 18, Edition de minuit, 1971.

وناهدة طويل فرزلي، «شخصية جبران خليل جبران»، الفصل السادس، بيروت، ١٩٨٣.

وقد صرَّح جبران نفسه أن اسم مدينة أورفيوس التي عاش فيها نبيُّه هو جذر من أورفيوس الأسطورة. (راجع: توفيق الصايغ، «أضواء جديدة على جبران»، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٦).

ونرى، انطلاقاً من أن تجربة المصطفى في أورفليس، حضوراً وغربة، هي تجربة جبران في الولايات المتحدة الأميركية، أرض الشتات بلغة ومناخ توراتيّين، نرى أن اسم أورفليس قد يحمل بأور، جذره الأول، صدى من لفظة «أور» العبرانية أي المدينة، وصدى بجذره الثاني «فليس»، من كل ما في المغترب الأميركي من نزعة إنسانه إلى المادية وحضارة المال.

(١) «النبيّ»، «المساكن»، ع. س.

ومؤلّفات وسائر محاولات التسلّق الإنساني في سبيل التراقي والتصفّي؛ ثم اقتصارها على الرفاهية ذات «البنان الحريري الملمس»[1] مع أنّ قلبها من حديد؛ هذه، إضافات على الجوهر الإنساني، تخنق حنين النفس وتلهي الإنسان بمصطنعاته فينصرف عن الطبيعة، مصطنع الله. وما الجمال يستوجبه الكاتب للبيوت إلاّ همسة رافد من روافد الفكر يضارع بها الإنسان صوت الله الخالق، طالعاً من أعماق الكيان الإنساني إذ هو تائق أبداً إلى مآلاته الأخيرة، في رحلة دائرية من الذات الكاملة إلى ذاتها المتعطّشة إلى كليّتها باستمرار، «. . . والتحرق للرفاهية ينحر أهواء النفس في كبدها فيرديها قتيلة»[2].

ويعيّن صاحب «النبيّ» الأبناء المنصاعين للناموس الأعظم بشكل أوضح في «المساكن» ملقّباً إياهم بأبناء الفضاء الذين يعيشون في الراحة والنعيم ولا يستريحون: «إنّكم لن تؤخذوا بالأشراك ولن يقدر رائض على ترويضكم، لأنّ بيتكم لن يكون مرساة ولكنه سيكون سارية. كلاّ، ولن يكون غشاءً برّاقاً تغطّى به الجراح، بل جفناً تحفظ به العين»[3].

إنّهم المتعطّشون إلى أسرار الحياة، التوّاقون إلى شفافية القداسة، والذين عناهم بأبناء الكآبة في أكثر من كتاب عربي له[4]. هؤلاء حلمهم هو سكنى الحياة، واتخاذ غير المحدود فيها رداء. وما البيوت لهم، على جلالها وجمالها، سوى قشرة تضاف إلى قشرة الأجساد، فتحجب عن الإنسان أسرار الوجود. يقول مخاطباً فرادتهم: «أجل، ولن تقطنوا في القبور التي بناها أبناء الموت لأبناء الحياة. . . لأنّ غير المحدود فيكم يقطن في منزل السماء الذي

---

(١) «النبي»، «المساكن»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) راجع على سبيل المثال دراستنا كتاب «العواصف»، «أيها الليل»، و«نحن وأنتم»، ع. س.، ودراستنا «دمعة وابتسامة»، «يا لائمي»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

بوّابته سحابة الصباح ونوافذه سكون الليل وأناشيده»[١].

وهم المتصوّفون المريدون، نجعتهُم الحقيقة التي هي طريقهم، كما الشريعة طريق للدين. وهم بتصوّفهم لا يبتعدون كثيراً عن عالم الكاتب، خالقهم؛ لأن التصوّف والفنّ كليهما أسلوبان في التعبير عن محبّة الجمال[٢].

ومع أنَّهم أبناء الكآبة بمعناها النسبي في زمن الآدميّين، فإنهم السعداء في النهاية، ولحياة شبيهة بحيوات العقول المحضة في إلهيّات ابن سينا[٣]، ولا وجود للسعادة الخالدة لهم إلاّ حيث المعرفة الخالصة[٤].

■ وفي «رمل وزبد» أبناء منصاعون للناموس الكونيّ الأعظم انجذابَ الثمرة إلى فعلها المرسوم في الغصن الطائر ومراحل الفصول في الشجرة. يقول جبران، في ضوء أوّل على اللوحة: «رأيتُ وجه امرأة، فرأيت أولادها ولم يولدوا بعد»[٥].

وإذا بهؤلاء الأولاد أبناء كأنهم التتمّة الواجبة لاكتمال رؤية، إذ هم

---

(١) «النبيّ»، «المساكن»، ع. س.

(٢) أسعد علي، «فنّ المنتجب العاني وعرفانه»، المجلّد الأوّل، «المحبّة»، ع. س.
(وراجع وجوه التماثل بين الفن والتصوّف لدى محمد مصطفى حلمي، «ابن الفارض والحب الإلهي، الطبعة الأولى، لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٥).

(٣) Henri Sérouya, «Le Pensée arabe», Avicenne, op. cit.

(٤) وهي معرفة لدى الصوفيّة محمولة في الروح من النشأة الأولى، «وتسير بها في الآخرة للسعادة الكبرى التي هي النظر إلى وجه الله وأن تلك السعادة التي هي التجلّي هناك...» (راجع: أسعد علي، «فن المنتجب العاني وعرفانه»، المجلد الأول، «المحبّة»، ع. س. و «شفاء السائل لتهذيب المسائل» لابن خلدون، ط. أستنبول، ١٩٥٨).

(٥) راجع دراستنا «رمل وزبد»، 9، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

جزئيات الحقيقة المنبسطة على وسع المدى، رحبة كما اللانهاية الواجبة لتعانق ذاتها. وبهذا المعنى نراهم أبناء، ولو بالغين في يوم وآباء لاستمرار في الحياة جديد عبر بنيهم، نراهم كالبياذق[1] في رقعة شطرنج تعقّدت عند دور معيَّن، فاقتضت مثل هذا التأجيل لنقطة ولحظة وصول.

وفي ضوء آخر على اللوحة، يقول صاحب «رمل وزبد»: «ونظرت امرأة إلى وجهي، فعرفت آبائي وجدودي وقد ماتوا قبل أن تُولد»[2]، فإذا بالقضيّة هي قضيّة عالم بأسره في وحدته المتنوّعة ووضوحه الغامض، يراه جبران صخّاباً في دخيلاتنا، مفصحاً عن مختزنات حيوات وعصور، متدفّقاً بدائرية البحر والغيمة، مرة أخرى، فالجدول والبحر من جديد؛ وإذا بالإنسان يحيا في الظاهر دور المطارِد وهو المطارَد في الحقيقة بالناموس، وما الحياة يجتازها إلاّ مرحلة من مراحل عبوره العظيم إلى سهول الرجاء[3].

وإذا أنعمنا النظر في مرحلتي الرؤية، نجد أنّها قد تمّت باكتناهين مختلفين: فالمرأة لم تبصر أولادها الذين لم يولدوا وقد رآهم الكاتب؛ ثم الكاتب لم يدرك آباءه وجدوده وقد أخرجتهم المرأة من وجهه؛ ولكأنّه، في خواء الحياة وساح أحداثها غير المباحة للفهم، موقف غفلة مؤلم، على الرغم من أنّه يعلّق عالياً المجسَّم المستمرّ لكل احتمال بناء، في وقت نشعر فيه بالأسى لكرور الكون على غير المنحى الذي نشاء، ولكنّه من جهة ثانية، يُعوّض، بغفلته وإغفاله بالتسليم توضُّح الحقائق، خسارةَ الإنسان جولات كثيرة للعقل، لا حصر لها في كل شأن من شؤون الحياة والمعرفة.

ولعلّنا بهذه القناعة الأخيرة ننسب هؤلاء الأبناء إلى الشقاء على مقدار مساوٍ في المسافة لانتسابهم إلى أرض السعادة. فهم في أماكنهم كالميقات

---

(١) اقتباس من ميخائيل نعيمه. (راجع بهذا الصدد «مرداد» و«سبعون» الجزء الثاني، المجموعة الكاملة، دار العلم للملايين).

(٢) «رمل وزبد»، ع. س.

(٣) المصدر نفسه، قسم المقدّمات.

والزمان الوعاء، فيه تُستودع الأحزان والأفراح، وما السعيد في حالهم والتاعس إلاّ الناموس الأعظم للكون، تبعاً لانصياعهم وتمرّدهم عليه. ومرّة أخرى، يبرز أبناء في الأدب الجبراني كأنّهم المحطات الضرورة لتواصل سفر باتّجاه نهايات عظيمة، ترسمها حكمة الحياة ويحدّدها نظامها.

■ وهذا الوجه المنظور من السرّ الغامض يحرص جبران على الاكتفاء به سنّةً معلنةً لمرحلةٍ من حياة لا تنتهي إلاّ بنفاذ الغاية التي رسمتها لها الحكمة. يقول في مكان آخر من كتابه «رمل وزبد»: «قد وُلدتُ ثانية عندما وقع جسدي بحبّ نفسي وتزوَّجا معاً»[1]، وفي ذاك، ولا شكّ، عقيدة التقمُّص في المذهب الجبراني، زواج جسد ونفس لرحلة نقاء جديدة.

فالتحوّل الهائل في مظاهر الوجود، إنسانه وحيوانه وجماده، قد قاد كاتبنا إلى ابتداع الثبات وجهاً ماورائياً، بل مرتكزاً مقنعاً ليقينه الهارب باستمرار في الزمن المائت، ولكنّه في الحقيقة ثبات تطوّريّ[2]، كمثل ما يتعاظم نور الصباح كلّما دنت الشمس من أبراج الفلك المعهودة أو لامست الأرض مداراتها المرسومة لها منذ فجر الحركة.

وإذا بالإبن هنا، كاتباً راوياً مفكّراً أو مقلّداً، لا فرق، على مسافة من يقين مستسلم، على أمل سعادة بعيدة ربّما، ولكنها غير ممتنعة، ما دامت في بال الناموس الأعظم الذي يحوي كلّ الائتلافات الجميلة.

---

(١) «رمل وزبد»، 14، ع. س.

(٢) يرى متري بولس أن جبران كان من دعاة التطوّر غير الماديين، فقد آمن بنظرية التطوّر وأصل الأنواع الواحد، إلاّ أنّه جعل تطوّر المادة في خدمة التطوّر الروحي، ناقلاً بذلك نظرية النشوء والارتقاء من نطاق الكائنات إلى دائرة الروح ومراتب التكامل الروحي. (راجع: «في أدب النهضة الثانية»، «روافد الأدب الجبراني»، ع. س.).

وهذا الإبن، كاتباً راوياً مفكّراً أو مقلّداً، لا فرق هو النغمة المهموسة على هامش السمفونيّة الكونيّة، نظراً لظلّه الصغير في بقعة الزمان المتنقل فوق المساحة السرمديَّة، ولكنه، في الوقت نفسه، في حلّ من كلّ إحراج أو اتّهام بقصور إن لم تصل إلى كلّ المسامع، لأنه قد عرف كيف يتسلّح بنعمة الاقتناع بما قُسم له من حظّ الوجود.

وهذا الزواج بين جسد ونفس، على غير زماع من الكاتب، هو ارتضاء منه للمذلة والهزيمة في الموقع الزمنيّ، فوزاً بالرفعة والانتصار أمام عين الحقيقة السرمدية. فالأجر في النهاية هو براءة نقاء للنوع بأسره، تُسرّع رحلة خلاصه واستكماله دورة الحياة.

■ ومريم العذراء في كتاب «يسوع ابن الإنسان» تضطلع بدور بنويّ، هي التي رأيناها في الفصل الأول من هذا الجزء في عداد جيل من الأبناء فريد بانتمائه وخضوعه لناموس أعظم.

ففي شهادة «حنّة أم مريم» تروي حنّة، والدتها، ميلاد حفيدها، فتخبر أنّ رجالاً من الشرق نزلوا عندها في الناصرة وقدّموا للمسيح الوليد ذهباً وفضّة ومرّاً ولباناً، ثم سجدوا له. وقالت بأن الصبيّ كان ينمو بالجسد والروح ويميل إلى الوحدة وهجر الذات في كلّ عطاء. وروت أنّها كانت تقوده إلى فراشه فيعلمها بأن جسده وحده هو الذي ينام، أمّا فكره فيبقى رفيقاً لهم حتى يأتي «فكرهم إلى صباحي»، وبالمقابلة مع شخصها وشخص سواها كانت تعجب كيف أن مريم ابنتها لا تتكلّم على ابنها البكر أمامها، وتكتفي بأن تقف شاخصة أمام نور النهار كأنها تمثال من النحاس الصامت[1].

تقول حنّة: «ولكن، أليس من الغرابة العجيبة أنّ ابنتي لا تتكلم عن ابنها البكر أمامي أبداً؟»[2].

---

(١) راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، «حنة أم مريم»، قسم المقدّمات، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

وهو عجب في غير موقعه من مدى الحقيقة الكونيّة. وأنّى للشجرة أن تزهو بثمارها، أو ترسل الأرض غروسها وتتمنّن؟! ولكن حنّة الوالدة قاست ابنتها بمكيال شخصها هي، هي من أنجبت للعالمين رحماً اغتذته أشواق الإنسانية كلّها متجمّعة في شخص يسوع ابن الإنسان.

ولا تتكلّم مريم، لأنّ انحناءتها كابنة أمام الناموس الأعظم هي دربتها الملازمة لكيانها، تمهيداً لانصياع، يوماً، أكثر استحقاقاً وجلالاً، فينكسر حلمُ الزهو، حتّى قبل وقوعه، بأنها مُنجبة المخلّص ومُلحدتُه، تحييه هي الأرض وتصلبه في آن معاً[1].

وكم يلتبس الأمر على حنّة الأمّ، وتتّسع الهوّة بين جيل الآباء الذين تنتسب إليهم في عهودهم القديمة المأخوذة بظاهر العواطف الإنسانيّة، بفرحها والحزن؛ وجيل أبناء اصطفتهم السماء ليكونوا العلامة في جسد الأرض والنوع الإنساني، ولو ندبةَ جرحٍ عميق عميق. تروي فتقول: «وكثيراً ما يخطر لي أن شوقي إليه أعظمُ من شوقِها، لأنّها تقف شاخصة أمام نور النهار كأنها تمثال من النحاس الصامت في حين أنّ قلبي يذوب في صدري ويجري منسكباً كالجداول»[2]؛

ولكنّها ظنون في موقعها هذه المرة، فشوق مريم الإبنة أقلّ من شوق حنّة أمّها، وإلاّ فسوف يغدو انحداراً بالاختيار الإلهي عن جادته السميا، وتبديداً لابتهالات النوع الإنساني بأسره في ساح العواطف الإنسانيّة المسطّحة، ولا ارتفاع ولا سموّ إلى مصاف الفرادة الواجبة في أمّ المثال الكامل إلاّ بالشعور المتفوّق في حالتي الحبور والاكتئاب. ومريم هنا قد أصبحت الوعاء لتجلّي النور، ريثما تتمّ المشيئة الكونية في إبّانها، صارخة بوجوب الفداء وبلوغ المثال الإنساني تساميه الأعظم متجسّداً بيسوع[3].

---

(١) راجع المصدر نفسه، «سوسان الناصرية جارة مريم»، والفصل الأول من هذا الجزء.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) كأن العذراء مريم، بجمودها الرائع المقدّس، قد بلغت مقام الرضا في تعابير المتصوّفة، =

ومريم هنا، بالمقارنة مع حالها يوم تنفرد بمأساتها - النعمة، أمًّا من غير أمّ، هي ابنةٌ يتبرعم في أعماقها الوعد السماوي، آيةً بالقبول والانحناء، ومشدوهة لا تستطيع التصديق، على عظمتها الشقيّة، «أن السهل قد ولد الجبل»، وهي، في بياض قلبها، «لم تنظر أن حرف الجبل هو الطريق إلى قنّتِه»، كما تقول سوسان الناصرية، جارتها، في شهادتها[1].

وأنّى لحنّة أمّها أن تعلم حقيقة ما يجري! وهل لمن لم يحلَّ فيه روح الكون إلاّ أن يطلب التوضيح؟! تقول حنّة في شهادتها: «ومن يدري. فلعلّها تعلم ما لا أعلم. ويا ليتها تحدّثني بما تعرف من الأسرار الغامضة عليّ[2]».

وهكذا لم تعد مريم ابنة أمّها، وقد أصبحت والدة لأشواق كل الكائنات، والتنهيدة التي تمخّضت فأتت بكل الأفراح والوعود المحتملة للخليقة المجاهدة في سبيل الله؛

وهي ابنةٌ مؤتمنة على الأسرار، وتظنّ التي كانت أمّها أنها تخبّئها وتضنّ بها، وهي لا تدري أكثر من أن ابنها «كان ابناً للّه كما نحن أيضاً أبناء الله، وأنه قد وُلد من عذراء، كما نحن أيضاً ولدنا من الأرض التي لا زوج لها»[3]، تقول مريم المجدليّة في شهادتها بعد ثلاثين عاماً.

= وهو «تسليم للّه وتوكلٌ عليه في كل الأمور، واعتقاد مخلص بتوحيده بحيث يسلم العارف بأن الله وحده يحيط بالحكمة الخفيّة، ويملك الشفاء لما يعانيه العبد من ازدواج الروح والجسد، واختلاط الضياء بالدخان، وامتزاج الصفاء بالفكر، وتوالي الأيّام بالأحوال المتناقضة من سرور وهمّ، والعبد الذي بلغ مقام الرضا صابر على كل ذلك...» أما الغزالي فيرى أن الرضا ثمرة من ثمار المحبّة وهو من أعلى مقامات المقرّبين. (راجع الإحالات على كتاب «إحياء علوم الدين» وسواه لدى أسعد علي، «فنّ المنتجب العاني وعرفانه»، المجلد الأول، الباب الرابع، الفصل الثاني، ع. س.).

(١) راجع الفصل الأول من هذا الجزء.

(٢) «يسوع ابن الإنسان»، «حنّة أمّ مريم»، ع. س.

(٣) المصدر نفسه، «مريم المجدليّة».

ووجه بنويّ خاضع للناموس الأعظم، هذه هي العذراء مريم. وحالها في بنوّتها كحالها في أمومتها ـ الأبوّة، نبوّة تجاهد لتخرج المشيئة من القوة إلى الفعل، فلقد منحت، بصبرها الجميل وبانصياعها الذي ملؤه الكبر، أشواقَ الإنسانيّة فرصة التأنّس بجسد من رحمها، فقام منها الربّ قيامة الأرواح وقد أُنزلت في مدر الأرض تحييها وهي رميم.

■ وفي «التائه» وجهٌ بنويّ آخر لهُ وهج العالم والحياة ذاته الذي لمريم «يسوع ابن الإنسان». ففي لوحة «النبيّ والغلام» أن شاريا النبيّ التقى غلاماً في حديقة، وفهم منه أنه ضائع عن مربّيته منذ وقت طويل. ويعلم الغلام أنّ النبيّ ضائع بدوره، وبأنّه ستعثر عليه مربّيته خارجاً. وسمع في تلك اللحظة صوت امرأة تنادي الغلام باسمه وصوت آخر ينادي النبيّ[١].

وهل ضياع الغلام مبتعداً عن مربّيته أقلّ من اغتراب الجزء منفصلاً عن كلّه لدوام انجذاب وحركة؟ وما مغزى أن يكون الفتى فرحاً ضاحكاً وهو يجيب النبيّ: «لقد مضى عليّ وقت طويل وأنا ضائع عن مربّيتي، وهي تحسب أنّي وراء الوشائع. ولكن ألا ترى أنّني هنا؟»[٢].

ثم لماذا غلام ونبيّ تحدب عليهما المربّية ذاتها وبالمرتبة عينها لدوام انتظار منهما لعودتها واطّراد تطّلع من قبلها؟

وأيّ جيل من الأبناء يرمز إليه غلام وتنضوي في مسيرته الحياة بأكملها، وهو طريّ العود في مجال المعارف، تتنامى إليه داخل الحديقة[٣]، وبها يتنامى؟

---

(١) راجع دراستنا «التائه»، المقدمات، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
(٢) «التائه»، «النبي والغلام»، ع. س.
(٣) أتكون هذه الحديقة تمثيلاً للعالم بكائناتها الصغيرة؟

وأيّ تساوٍ هو بين عارف ومريد، نبيّ وغلام، في موكب هذا العالم الساعي بهدي من ناموسه الأعظم؟ يقول جبران في اللوحة: «ضرب الغلام يداً بيد وصاح: أنت إذن ضائع مثلي. أليس حسناً أن يكون الإنسان ضائعاً؟»[١]؛ وكأنما الضياع في فناء هذا الكون مرحلة واجبة لاكتمال دائرة السعي نحو النهايات السعيدة.

ونراه، هذا الغلام، وجهاً بنويًّا مدركاً ضياعه، ويرضى به لنفاذ خلاص، هو أحديّ في رحلة الكمال الجبرانيّة: «أجابه الرجل: . . . وأنت؟ قل لي من أنت؟ قال الغلام: أنا ذاتي وحدها. ومربّيتي تبحث عني، وهي لا تعرف أين أنا»[٢].

لذلك، ومع أن كتاب «التائه» ككلّ يسجّل تراجعاً في المعتقدات الجبرانيّة[٣]، فإنَّ لوحة «النبيّ والغلام» تمثّل خير تمثيل غلبة الأشياء المرسومة على ما عداها، حتّى ليغدو العقل الإنساني، داخل عالم الحضور الواعي زمانه ومكانه في نطاق من التاريخ، انتشاراً عبثيًّا في حديقة، لا بدّ له أن يتقلّص في النهاية في حدود لقيا أخيرة، بحضرة عناية ـ مربّية، ناموس أعظم غامر بائتلافه المحكم أقاليم الحياة كلّها، بساكنيها والمراحل. يقول الغلام: «وأنا أعرف أنّ مربّيتي ستجدني خارجاً أيضاً»[٤].

وإذ يُسمع صوت امرأة تنادي الغلام باسمه، وفي اللحظة ذاتها يسمع صوت آخر يقول: «أين أنت يا شاريا؟»؛ يقول النبيّ: «انظر يا ولدي! لقد وجدوني أنا أيضاً»[٥]، لنتيقّن نحن من أن كلّ التسليم للناموس في هذا المثل،

(١) «التائه»، «النبي والغلام»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فإنك معه على ضياع في الخيارات الأخيرة، لدرجة أنه يكاد يكون صرخة يأس أو أقلّه تنهيدة إنسان متروك لنواح عالم تحتضر منه القيم في داخله، وتتجاذبها الأهواء. (راجع «التائه»، قسم المقدّمات، ع. س.).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

ومن أنّ العناية الإلهيّة أو الكونية، وهي الذات الكبرى في المعتقد الجبراني، لا تترك لا الغلام الجاهل ولا النبيّ العارف، وإن كان لكلّ دوره. فهما يتساويان أمام الناموس الكونيّ الذي يمهر كلاًّ منهما بمهمّة في الحديقة داخل الوشائع، حدود الزمن والطين.

هؤلاء الأبناء، على تفاوت درجاتهم في الانتماء إلى الناموس الأعظم للكون، وانصياعهم لحكمته بتسليم وتوكّل، يؤكّدون أن الطريق إلى نعمة الاستكانة واليقين هي سبل متعدّدة «بعدد أنفاس الخلائق»[١]. فهم مرتسمات في نهر الزمان الجاري، حُفرت لوهلة في بال مسافر كاتب مفكّر فنّان هو جبران، وكلُّها تمثيل في المدى لحالة الانجذاب الأبديّ للكائنات إلى مصدر واحد هو الغاية في الوقت عينه، إخراجاً للشوق الإنسانيّ إلى حضور كريم.

وهذا الانجذاب بحدّ ذاته، أيًّا تكن مراحله ومراتب الوعي لدى الخلائق لحقيقته، هو بوجه من الوجوه تحقيق من أعماق الكيان وصميم الوجود لعلامة في التاريخ الإنساني، كما عند جبران، أو خارجه في نطاق الكون بأسره، كما في الفلسفة الإشراقية والأديان، لا فرق؛ علامة كأنها إله باسكال الواجب الوجود، «والذي من دونه لا أمل بقيامةٍ لصرح الحياة على أسسٍ متينة ومعقولة[٢].

ومتى علمنا أن المبتدَع الجبراني ليس في جوهره إلاّ تأويل فنّي للفكر الديني، أو هو تهجُّؤات جماليّة لحقائق ماورائية كما تتراءى في عالم الحضور

---

(١) ابن خلدون، «شفاء السائل لتهذيب المسائل»، ع. س. (وراجع: أسعد علي، «فن المنتجب العاني وعرفانه»، المجلّد الأول، الكتاب الرابع، في طريقة النعمة، ع. س.).

(٢) هذه العلامة تقودنا بل تجذبنا أفراداً وجماعات إلى سعادة نبحث عنها دون جدوى، مع أنها موجودة، ولو لم تكن كذلك لما كان بحثنا. يقول باسكال لإلهه: ما كنتَ لتبحثَ عني لو لم تجدني.

cité par Jean Lacroix, «La Sociologie d'Auguste comte», op. cit.

المادّي، عندها يصحُّ أن يُقال «في الدين ما قيل في اللسان من أنّ كلّ جديد فيه فهو قديم، وكلّ قديم فيه فهو جديد، وإنه منذ بداية العالم لم يوجد قطُّ دين كلّه مبتدَع. وإنَّا لنجد عناصر الدين وجراثيمه مهما سمونا في تاريخ الإنسانيَّة إلى أبعد مدًى مستطاع. وتاريخ الدين كتاريخ اللغة يُرينا في كلّ مكان ألواناً متتابعة من التأليف المستحدث بين عناصر أصلية قديمة»[1].

وهذا التأليف المستحدث هو، في البعد الأخير للحدث الكونيّ داخل السرمد، دأبٌ منذ الأزل حتّى الأبد، واطّراد جهد، للوصول بالحياة إلى شواطئها الأخيرة، عبرَ محاولات جادّة يشترك فيها الأموات والأحياء[2] نشداناً «للاَّ شيء الذي هو كلّ شيء، ومنه كلُّ شيء» كما يسمّيه ميخائيل نعيمة بلسان الدكتور صنبيم[3].

إنه الفراغ الممتلئ بكلّ الإضافات، والصمت الغنيّ بكلّ أنواع الكلام؛ العلامة الثابتة السابقة لكلّ حركة في هذا الكون، يصبو إليها الشخوص الجبرانيّون، ليس باختيارهم كلّ حين، بل بجاذب من عميق كياناتهم نحو علاها الذي هو في داخل النوع نفسه في عقيدة الحلول الجبرانيّة.

هكذا، يخال لنا أن هذه العلامة، النظام الأعظم للكون، المآل الأخير للكائنات في الأدب الجبرانيّ، يكاد يكون في كل مكان منه ومن شخوصه،

---

(١) راجع: محمّد مصطفى حلمي، «ابن الفارض والحبّ الإلهي»، ع. س.

(٢) يرى ألان أنّ الفرد يبقى حيواناً على شكل إنسانيّ إن لم يتّبع طقوس الاموات الكبار، وقوة البشرية تكمن في هذا الحشد منهم الذي لا يموت.

ويرى أوغست كونت أنّ البشرية هي مجموعة لإنسانيّين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وعدد الأموات فيها يفوق عدد الأحياء.

cité par Jean Lacroix, «La Sociologie d'Auguste comte», op. cit.

(٣) ميخائيل نعيمه، «يا ابن آدم»، المجموعة الكاملة، المجلد السابع. (وراجع: متري بولس، «الخوارق في روايات ميخائيل نعيمة وأقاصيصه»، الجزء الأوّل، الفصل الخامس، أغات، ١٩٨٥).

نبصره وراء الرجل، وراء المرأة، أمامه وأمامها وعن جانبيهما، لدرجة أنّ مجرَّد تركيز العين عليهما يشمل في حقل الرؤية دوافع ماوائيَّة كامنة، وتبدو دراسة كلّ منهما، وقتئذٍ، بمثابة عزل النتيجة عن السبب، أو إنعام نظر في طبيعة الغصن تبياناً للجذور وللثمار على حدٍّ سواء.

ومع كامل اعتقادنا بأنّ كلاًّ من الشخوص الجبرانيين، آباء وأبناء، يستجيب بصفاته الخاصة داخل هذه الثلاثية، «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني»، لما يسمّيه ألان «الكلّ المتحيّز»[١]؛

وانطلاقاً من أن الجسد الإنساني الواحد أساساً ممكنةٌ فيه كلّ الميول وحتّى الأخطاء، وبمقدار ما على كوكبنا من آدميّين توجد طرائق ليكون الواحد من هؤلاء شريراً وتاعساً؛

ومع يقيننا في المقابل بأنّ هناك سلاماً خاصاً بكل منهم، والقيم بهذا المعنى هي في متناول الناس جميعاً، وهي خاصة، في الوقت نفسه، بكلّ منهم بناحية من النواحي، ولذلك كلّ واحد هو إنسان؛

لهذه الأسباب نرى أنَّ البشريَّة في مسراها المطّرد إنَّما تلهث وراء كبير عظيم على اسمه كلّ السلام المنتظر تحدسه أشواقها، وإن بدت أحياناً كأنَّها نسيت ماذا يكون[٢].

وهذا الحلم المترامي بهذا الشكل العميم[٣] والمنبسط أملاً حيًّا فوق

(١) «Totalité partiale», cité par P. Ricœeur, «Finitude et culpabilité», T.I, Aubier, Philosophie de l'esprit, 1977.

(٢) يقول يونسكو: إنما نحن جميعنا في بحث عن شيء ذي أهميّة خارقة وقد نسينا ماذا يكون. راجع مقدّمة هذا الجزء..

Engène Ionesco, «Présent passé, passé présent», mercure de France éd., 1968.

(٣) قد يتناسب هذا الحلم وتعبير لأندريه مالرو: الوهم الغنائي Illusion lyrique

cité par G. Dingemans «Psychanalyse des peuples et des civilisations», op. cit.

فتتعطّش نفوس الأبناء إلى ما وراء حدود الرتوب اليومي في نزوع خفيّ إلى الكمال.

الهامات والقلوب، يبدو كأنّه التجربة الجماعيّة التي عاشها الشعب عبرَ اباء وأجداد، تعود فتستيقظ في الذاكرة الجماعيّة عشقاً للأرض وعطشاً هائلاً من خلالها إلى التغيير[١]؛

أو كأنما في هذا الحنين ذكرى «الأشياء العظيمة التي أنجزها الشعب بأجمعه في الماضي[٢]، وها هو من جديد يزمع على تنفيذها في المستقبل»، فحقوقه في السعادة المطلقة تظل مرسومة في قلبه وإن أُذلَّ في التاريخ[٣]، وعصفت بوجوده مغريات المادّة الآثمة.

لكننا، حيال هذا المبهم الكبير الذي اسمه الناموس الكوني تارة، وجنان الأديان وفراديسها تارات، وهو المطلقات، كلّ حين، المعادلةُ في أقصى أبعادها للّه تعالى جلّ جلاله؛

حياله، نرانا لم نُعدم أشخاصاً ورموزاً، أبويّة وبنويَّة، على حدّ سواء، داخل الأدب الجبراني عموماً والقصصيّ منه خصوصاً، قد عرفوا حقيقة هذا المرتجى البعيد للإنسانيّة، فما غفلوا عنه بل وقفوا داخل الزمان الغنيّ[٤] أعلاماً نبويّين ليقودوا المسيرة الإنسانيّة إلى شواطئها السعيدة، مؤكّدين الناحية الإصلاحية للفكر الجبرانيّ، على نطاقه الكونيّ الأرحب.

---

(١) مستوحى من قول دانجمنز.

G. Dingemans, «Psychanalyse des peuples et des civilisations, op. cit.

(٢) Mazzini G., cité par G. Dingemans, op. cit.

(٣) من قول لروبسبيير، السياسي الفرنسي في غير مناسبة ومكان.

cité par Fouad Matar, «La Souveraineté populaire dans l'héritage de J.J. Rousseau», Thèse pour le doctorat du 3è cycle présentée à Paris - Sorbonne, 1973.

(٤) يقول يونغ: «قد يكون من الأهمية الكبرى أن يدرك بعض الناس أو كلّهم أن هناك عوامل نفسيّة لا تخص الأنا بل تعتبر من خصائص «لا - أنا» نفسي (Non-moi psychique). ولهذه الغاية لدينا نماذج مفيدة ومثالية يقدّمها لنا الشعراء والفلاسفة بمثابة أنماط يمكن اعتبارها علاجاً للبشر والزمن».

C.G. Jung, «Psychologie et Alchimie», Buchet, chastel, Paris, 1970.

وهؤلاء، أشخاصاً ورموزاً، قد يبدون، داخل السياق الفنيّ، وأحياناً في الإطار اللغويّ، بتمايزات تصنّفهم في عداد أولئك الآباء أو أولئك الأبناء، وهم في البعد الأخير للموقف الكوني بخصال واحدة، حتّى لا يصحّ أخذهم بهذه الصفة إلاّ اتّفاقاً.

فمن يكون هؤلاء الأعلام النبويُّون؟ وإلامَ يدعون بإضاءتهم ذواتهم نبراساً لطريق؟

عدّة وزاد لفصل ثالث أخير في هذا الجزء الثالث «في طريق السماء»؛ وبعنوان «عطشاً إلى المطلقات»، وصولاً إلى قناعات أخيرة تختم ونقوّم بها الموضوع الأساس في ثلاثيّتنا الراهنة «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني».

*

الفصل الثالث
عطشاً إلى المطلقات

«أنا أبي وأمّي وابني وذاتي»، ذاك التصريح المذهل للشاعر والمسرحي الفرنسي أنطونان أرتو، لا يعبّر في الواقع عن الشعور بالإعجاب الذاتي الذي يظفر به الفنّان عندما ينجز أعماله[١]، بقدر ما هو اعتصار حقيقي لرغبة التسامي في النوع الآدمي كلّه ناهداً منذ فجر التاريخ إلى الوحدة الغنيّة بكل المدهشات، والمستجيبة لكل المطامح، منذ ما قدحت شرارة الرؤيا والتطلّع في الفكر الإنساني البائس، وسقط في حبائل عشقه الشقيّ للمطلقات[٢].

وكرّة طرفٍ أخرى إلى الأدب الجبرانيّ، حقل اختبارنا الأوّل في هذه الثلاثيّة، كافية لتزويدنا بضوع الكائن الإنساني، أباً وابناً، على هذا النحو المتصاعد من روث المادة بمعناها الخلقيّ حتّى أصفى المواقف والالتزامات على صعيد الكون الباحث عن كماله في سعي من الخطيئة إلى البرء[٣]، أي

---

(١) هذا ما يقول به منير شمعون في تصدير كتاب «شخصية جبران خليل جبران ـ دراسة نفسانية لسيرة حياته وأعماله»، لناهدة طويل فرزلي، ع. س.

(٢) مقتبس من قول لهيغل.

Voir: Yves Duplessis, Le Surréalisme, La synthèse surréaliste, op. cit.

(٣) يقول أندريه مالرو: كل عمل إبداع هو تطهير للعالم، ينتصر فيه الفن على قدر الإنسانية، والفن مضاد لنواميسه.

André Malraux, «Les voix du Silence», cité par Alexandre Beaujour, Littérature et Engagement, Hachette, 1975.

ويقول بيراندلو: العمل الفني يبقى إلى الأبد صورة للجمال والحقيقة والطهارة، =

بتعبير آخر من الشقاء إلى الغبطة بمعناها الاكتفائي العميم، المؤدّي في نهاية المطاف إلى نوع من الصمت اللاوتسي الممتلئ بكلّ التهجّؤات الساحرة.

وهؤلاء الآباء والأبناء رأيناهم، مسافةَ جزئين اثنين، ومدَّةَ فصلين من هذا الجزء الثالث، يترجّحون بين دمعة وابتسامة، وبمشاعر مختلفة، ومتناقضة أحياناً، من اعتزاز وخيبة، وعزوف ورغبة، تائهين في بحثهم عن «كبير رائع»، هو في البعد الأخير للكلمة، مستقرّ من الغنى القلبي الوجودي، يُصمتُ لهفة كياناتهم إلى هدوء الحركة و «حلاوة السكوت»، تشبّهاً بالصامت الأكبر أي الله قبل خلقه الكائنات[1].

وما رأيناهم، هؤلاء الآباء والأبناء، إلاّ فرحين في الندرة، متعضين على الغلبة، وفي كلّ موطئ من أحداثهم أثر خيبة أخيرة، وإحساس تقصير وتراجع عن مدّ الحياة الناهدة إلى أهدافها الرحيبة، يحدسونها في ذواتهم حدساً غامضاً، ولا يدركونها حقيقةً.

ولذلك، امتدَّت مدى جزئين اثنين رغبات هؤلاء الآباء والأبناء، حاولنا في خلالهما تبيان اهتماماتهم إبّان سعيهم كلّهم نحو السعادة بمعناها الاكتفائي الكامل، وما توقّفوا، فلقد ترامى خواء واسع على بقاع شاسعة من أقاليمهم، لم يملأه لا إحساس بفرح عابر، ولا لوى حدَّته انشغال بحزن قاهر، لدرجة بدا معها الإنسان الجبرانيّ طريد عدالة غير مفهومة، موسوماً بلعنة كيانيّة ركّبتْ في شخصه جحيمه، يحملها ويمشي، متقلّياً بلظاها، وعلى مسافة من مناه تتناهى هينمات الجنان الموعودة.

ولئن وقعنا داخل هذا الأدب على آباء وأبناء منصاعين لفكرة البهاء،

= ويعطي الإنسان فرصة نسيان واقعه وحنينه إلى ما لن يتحقّق.

cité par Bernard Dort, «Théâtre Public», Edition du Seuil, France, 1967.

(١) راجع: متري سليم بولس، «أدب الأعماق والأبعاد»، «السكوت والله في مذكرات الأرقش»، أغات، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.

النظام، المؤتلَف الجميل، أي العلامة النهائيّة لكون يسعى إلى الاكتناز بكلّ كامل، وإنْ بفرحٍ غافل أحياناً، مقرون بنعمة القبول والتوكُّل من غير تعليل، كما في حال مريم «يسوع ابن الإنسان»، وسوسان الناصرية جارتها؛

فإنّ لنا من هذا الأدب، في المقابل، محطّات كونيّة إنسانيّة أكثر تمثيلاً ودلالة على هذا التّوق الجميل إلى الصفر الجبرانيّ المسكون بكلّ الأرقام[1] على اعتبار أنّه ختام الحركة بمعناها التناقصيّ والعبثيّ غير المجدي؛

وهي محطات يقف على ناصيتها رموز وشخوص، بزادٍ من معرفة وحكمة، سِعـةَ أشواق الأزل والأبد معاً، وكأنّهم المحور في أمكنتهم لدائريّة الحركة في الكون، يصدرونها عن محبّة، منطلقها الذات ومنتهاها، في اعتقاد منهم مكين بأبديّة الرحلة من الوحدة إلى الوحدة، ما دام الله والإنسان والعالم شيئاً واحداً في المعتقد الحلولي.

فماذا من رموز العطش إلى المطلقات؟ وأيّ الشخوص يجسّد تلك الحالة من السعادة السميا في الأدب الجبراني؟

في الحق. . إنّ خير من يمثّل ذلك اثنان لكلّ فريق: الطبيعة والبحر من جهة، والنبيّ من ثانية، ثم يسوع ابن الإنسان.

١ ـ الطبيعة والبحر:

إذا كان من الثابت الأكيد، بمنظار علم التحليل النفسي، أنّ بعض

---

(١) في عودة إلى الصمت المطلق الذي اتصف به الله قبل نطقه «الكلمة» في معتقد نعيمة. فالضمير هو انعدام الشكل، والكلمة هي اتخاذ الضمير شكلاً. إنها عملية الخلق. وعمليّة الخلق هذه مرحلية لأن المخلوقات سترجع إلى اللاشكليّة: «وأنا الله، أيها الرهبان، هي كلمة الله الوحيدة منذ الأزل. إذ إن فيها وحدها يتجلّى الله أو الضمير الأسمى. ولولاها لكان الله صمتاً مطلقاً»، يقول في «مرداد». (راجع: المجموعة الكاملة، المجلّد السادس، ومتري بولس، «أدب الأعماق والأبعاد»، «السكوت والله في مذكرات الأرقش، ع. س.).

الحالات النفسيّة في سنّ النضوج تتكوّن، من حيث الشكل والمضمون على حدّ سواء، مؤتمرةً بحوادث ترجع إلى أيّام الطفولة، مع نزعة اضطراريّة إلى تكرار التجارب الأوليّة[1]؛

فإنّه لمن التابع البديهيّ أيضاً أن العلاقة بين الوالدين، وما يكتنفها من أسرار الجنس والميلاد، يرتبط بها، «منذ سنّ مبكرة، أهمّ أسرار الوجود وأهم مسائل المصدر والأصل والسبب. ويستمرّ هذا الترابط دائماً فيعمّم فيما بعد على مختلف المعضلات الميتافيزيقيّة والعلميّة والمعرفيّة»[2].

وقد أكّد جبران نفسه مبدأ التلازم هذا بين ذاته وصنيعه في أكثر من موضع ومناسبة. يقول على سبيل المثال: «إن رغبة المرء في الكشف عن ذاته أقوى من كافة أنواع الجوع وأعمق من أيّ عطش»[3].

لذلك يرى بعض الدارسين أن في الطبيعة والبحر صورة الأم المتسامية يشتاقها جبران، برغبة العودة إلى صدرها أوّل الأمر، ثم متجاوزاً الجاذب الجنسي فيه ولا وعيه الفردي، إلى صعيد الطبيعة الأمّ واللاوعي الجماعيّ الأموميّ وأسرار الخلق والوجود[4].

---

(١) Voir: Karl Abraham, «œuvres complètes», T.I., Payot, Paris, 1968.

(٢) راجع: مصطفى حجازي، «الفحص النفساني»، دار الطليعة، ط. ١، بيروت.
ويطول الأمر عالم الفنّ. يقول روزولاتو: «يجني الفنّ ذكرى القمع الذي يفرضه المجتمع، ولا شك، على الجنس».
Voir, Guy Rosolato, «Essais sur le Symbolique», Gallimard, 1969.

(٣) توفيق الصايغ، «أضواء جديدة على جبران»، المكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٦٦.
وفي مكان آخر يذكر: «اكتب النبي وارسم الصور المعدة له ليتسنّى لي، أثناء كتابتي ورسمي، أن أعيش ما أكتب وأرسم. إن الأفكار والمثل العليا هي الذات الواجب عليّ تحقيقها وليست حياتي إلاّ لتحقيق ذاتي. (راجع بهذا الصدد: فيرجينا حلو، «نبيّ الحبيب»، الجزء الثالث، المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٧٤).

(٤) راجع توضيحاً لهذه التفسيرات لدى ناهدة طويل فرزلي، «شخصية جبران خليل جبران ـ دراسة نفسانية لسيرة حياته وأعماله»، ع. س.

غير أنّ لكلّ من هذين الرمزين الوالديّين في الأدب الجبرانـي علامةَ النهائيات السكونيّة التي يحسن بكلّ حادث في الوجود ترسّمها، على اعتبار أنّها غاية الغايات، بل الغائيّة الأخيرة التي تتناهى عندها كلّ حركة في هذا الكون، وتتبخّر في ثباتها كلّ المفارقات والتمايزات العارضة داخل مسرح الحضور.

■ وفي لوحة «البنفسجة الطموح» من كتاب «العواصف»، ما نسترشد به دلالة على هذه الحالة السكونيّة التي منها كلّ غبطة على صعيد الكائن، بشرط انصياعه للناموس الأعظم، واكتفائه بالعطش إلى المطلقات سمةً كيانيّة، وعدّة طريق مؤيّدة بمشيئة ائتلافيّة محدّدة. فهي حكاية بنفسجة أرادت أن تتمرّد على واقعها، فتشرق من الغياب، وتشعّ ولو شعةً ثم تموت. فسألت الطبيعة أن تحوّلها إلى وردة، فحاولت هذه أن تثنيها عن عزمها فأصرَّت، وكان لها ما طلبت. وهبَّت العواصف فاقتلعت الأزهار المتشامخة، فلم تبقِ إلاّ على الرياحين الصغيرة. وإذ قامت مليكة البنفسج لتجعل من حادثة البنفسجة الوردة أمثولة لسائر بنات جنسها، جابهتها تلك وهي تحتضر بأنها حاولت أن تجعل من الوجود طموحاً إلى ما وراء الوجود كما يأمر العالم الأعلى، ويكفيها أنها عاشت ساعة كملكة، ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علويّة، هي ابتسامة النصر والتغلّب[1].

وكم يبدو الناموس الأعظم للكون بفحوى القناعة والتوكّل والتسليم، وبإرجاء حتّى الإسقاط لكلّ ما يتعارض والائتلاف المقدّر بين الكائنات، لغيبيّة من الحكمة الخفيّة وغير المعلنة، تستأثر بها الطبيعة، الأمّ الكبرى، التي نادراً ما تتكلّم. قالت الوردة للبنفسجة المتمرّدة على واقعها: «. . . فأنتِ في نعمة تجهلين قيمتها. فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه

---

(١) راجع دراستنا كتاب «العواصف»، قسم المقدّمات، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

لكثير من الرياحين. فخلّي عنك هذه الميول العوجاء والأماني الشريرة، وكوني قنوعاً بما قُسم لك واعلمي أن من خفض جناحه رفع قدره، وأنّ من طلب المزيد وقع في النقصان[1].

ولا يختلف كثيراً قول الطبيعة ـ المطلق السكوني عمّا قالته الوردة المكتفية بقدرها المرسوم. يقول جبران: «وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزّت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة: ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك شريفة بمسكنتك، فهل استهوتكِ المطامع القبيحة أم سلبت عقلك العظمة الفارغة؟»[2].

وإذا، في عُرف هذه الطبيعة، كلُّ محاولة للشذوذ استئثاراً بالحنين، أو للانحراف به خارج نطاق العمل الكوني الشامل، والمؤتلف بهدي حكمةٍ رُكّبت فيه، هو مخالفة خلقيّة، بل خطيئة من عميق التجربة الكونيّة في ما يشبه تمرّد كبير الملائكة على الله، سيّد الأرواح والأكوان والأزمان[3].

والطبيعة هنا، بصرف النظر عن شرعيّة ما ارتكبته البنفسجة وخلقيّته، تمثّل ذاك الرحيب من الشروط المتآلفة على نحوٍ ثابت رائع، والنشيد الشامل لحياة في رحلتها من ذاتها إلى ذاتها، وهي الأذن السامعة والعين الشاهدة على ما يخطر في فناء الأحداث، بصمتٍ وتغاضٍ وعدم إرباك، إلاّ لمرّة ربّما، كاد في خلالها زمن الغد يتأجّل أوانُه لعدول كائن عن مساره المرسوم.

ونراها طبيعة تجسّد جوانب المطلق المتقابلة على ترادف وتضاد في آن معاً، «كالأمّ العظيمة بجبروتها، الهائلة بحنانها»[4]، تقسو وتلين، لأنَّ بها

(١) «العواصف»، «البنفسجة الطموح»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) راجع ذلك في رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس ٣: ٦، وفي رؤيا القديس يوحنّا ١٢: ٩، وإنجيل متى ١٢: ٢٤ و ٢٥: ٤١، وفي إنجيل لوقا ١١: ١٥.

(٤) «العواصف»، «البنفسجة الطموح»، ع. س.

استقرار الحقيقة وديمومة السعي المواظب باتجاهها، في محافظة مكينة على شرعة نظام شامل لا تجوز مخالفته وانتهاك وصاياه. قالت للبنفسجة المتوسّلة بأن تصبح الوردة: «أنتِ لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفيّة، فإذا رفعتُ قامتك وبدّلتُ صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم»[1]. ثم أجابت طلب «البنفسجة الجاهلة المتمرّدة»، على غير زماع منها واقتناع، فمدَّت أصابعها الخفيّة السحرية ولمست عروقها فتحوَّلت بلحظة إلى وردة زاهية متعالية فوق الأزهار والرياحين. وكان أن هبَّت العناصر على الوردة البنفسجة، «وبعثرت أوراقها الرياح وألقتها على الأعشاب المبلّلة فبانت كقتيل أرداه العدوّ بسهم»؛ وكان أن لوت عنقها، وبصوت يكاد يكون لهاثاً قالت: «أنا أموت الآن. أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي. أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه»، وماتت «وعلى وجهها ابتسامة علويّة - ابتسامة من حقّقت الحياة أمانيه - ابتسامة النصر والتغلّب - ابتسامة الله»[2].

ولم تتكلّم الطبيعة مرّة ثانية، كأنّها فناء الحريّة لا يفعل أكثر من إرجاع صدى الأعمال، إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فمن مثله، أو كأنّها اللحظة الأبديّة[3]، الشكل النهائي للأشياء، إليه تعود مهما تعاظم مدّها أو تناهى في انقباض، وهي في كلّ حال تلك الوحدة الفيثاغوريّة التي عند موطئ ظلّها تعرّش كلّ الأعداد الآيلة في النهاية إلى سكون عظيم.

وإن كان من فرق بينها وبين البنفسجة فهو في صراع المعرفة، تراها الطبيعة لغاية انتصار شامل عن طريق المحبّة[4]، فيما البنفسجة تراها لهدف

---

(١) «العواصف»، «البنفسجة الطموح»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) راجع تفسيراً آخر لهذا التعبير في «أدب النهضة الثانية»، «روافد الأدب الجبراني»، لمتري بولس، ع. س.

(٤) إذا كان صحيحاً أن المعرفة سابقة للمحبّة، كما عند الغزالي وابن قيم الجوزيّة =

استئثار ولو أدّى الأمر إلى خلخلة نظام الأشياء وتراتبيّتها الخالية أساساً من كل الفوارق الخلقيّة أمام عين الحقيقة المطلقة [1].

هي الطبيعة الأم، على مدى هدوئها الحكيم الرحيب ترتسم المطلقات، ولا فرق معها بين وحدة وكثرة، ما دام سعيها بهذا الكلّ المتجانس هو من ذاتها إلى ذاتها في النهاية.

■ وهذا الإيثار للعام في الطبيعة الأمّ على كلّ نسبيّ خاص لدى أشيائها والأجزاء يفصح عنه جبران في كتاب «رمل وزبد»، وبشكل جليّ، فيبديها طبيعة منشغلة بآليّتها الحكيمة دونما التفات إلى ما عداها.

يقول في إحدى اللوحات: «لو أصغت الطبيعة إلى مواعظنا في القناعة لما جرى فيها نهر إلى البحر، ولما تحوّل شتاء إلى ربيع. ولو أصغت إلى كل نصائحنا في وجوب الاقتصاد، فكم كان بيننا الذين يتنشّقون هذا الهواء؟» [2].

= وأسبينوزا، فإنّه لمن الصحيح أيضاً أن الوجود كلّه والخلق كلّهم هم فيض المحبّة عن الجمال المطلق «فبذرة المحبّة التي ألقاها الله معرفة في خصوبة الروح لا تثمر إلّا المحبّة». (راجع: محمد مصطفى حلمي، «ابن الفارض والحبّ الإلهي»، ع. س. وأسعد علي، «فنّ المنتجب العاني وعرفانه»، المجلّد الأوّل، «المحبّة»، ع. س.).

(١) يقول جبران في «النبيّ» بهذا المعنى: «... إن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من اللهجة التي تخاطب بها أحقر أعشاب الأرض» (راجع دراستنا نص «العمل» في «النبيّ»، ع. س.).

وبهذا المعنى يصبح تمرّد البنفسجة الطموح، على حسن وقعه في نفوس الشباب، تجديفاً أرعن على الحقيقة، وخلخلة للائتلاف القائم في النشيد الشامل للحياة، وهو في أبسط تفسيراته وجه اعتراض على قصور في المعرفة، يودي بالكائن إلى الثورة على نظام بغية إفساده، ما دام لا يد له في قيامه أو تعديله.

(٢) راجع دراستنا كتاب «رمل وزبد»، 116، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

فإذا بالقناعة والاقتصاد بدعتان اجتماعيّتان ليستا من سنّة الطبيعة في شيء، وإذا المستهجن هنا ليس هذان بمعناهما التهذيبي المحبّ، بقدر ما هو تعليلاتنا في الوعظ وبراهيننا الخارجة عن ناموس الحياة، والأشياء بحقائقها الظاهرة والمعارف البشرية وسلطة العقل، هذه كلّها لا احتساب يقينيًّا لها نظراً للانقطاع المتمادي بين التراث الآدمي وحكمة الحياة، متجسّدة هنا بالطبيعة الأمّ.

وهذه الطبيعة كأنّها لحظة شعر بغوصها على لآلئها الخبيئة في خضمّ ذاتها، منها تبدأ كلّ الأنظمة الجميلة؛ أو هي الفكرة الناجزة، وجدت كذلك، ولا حاجة بها إلاّ لمسافة لغة تخرجها إلى العلن، ولا تقوى إلاّ بعد محاولات جادّة وتجريب كبير، تتنامى في خلالها المدارك وتتهذّب قدرات الكائن على الائتلاف مع بهائها الكامل وكمالها البهيّ.

وهي طبيعة مكتفية بسكونها المتردّد نحو التعاظم، أو كلامها التناقصيّ باتجاه اكتمال غايتها، إخراجاً لفكرتها إلى العلن، وانتقاصاً، في الوقت نفسه، من كلامها كلّما لفظت مرحلة من المراحل. وكأنّما التحوّل نحو الثبات هو منطقها والعقيدة، وبسواه لا اطّراح لشتاء ولا إقبال من ربيع[١]، ومن دونها لا نسم يُحيي ولا بعث يتحقّق على طريق المشيئة العظيمة، سائرةً من الحدث الذي يطوله الزمان والمكان، انطواءً نحو الإرادة التي في وجدانهما[٢]، مرةً أخرى، وهي التي قد أطلقت كلّ شيء لحكمةٍ خفيّة، في وقت من الدّهر السحيق.

■ وفي كتاب «النبيّ» تتجلّى هذه المشيئة المنطوية إلى داخل ذاتها من

(١) لا يفوتنا هنا ما في لفظتي شتاء وربيع من رمزيّة على صعيد الجمالية والخلقيّة في آن. فلكل بشاعة، كالشتاء هنا، أثر في مرآة الخير والشرّ؛ كما لكل خفقة ضوء وتنهيدة عطر من ربيع علاقة بروعة الانبعاث من سديم الخطيئة ورماد الأشياء المنتهية.

(٢) ما دامت إرادة الإله من قلب التاريخ، بوعائيه الزمانيّ المكانيّ، وليس من خارجهما، =

جديد، بعدما همست مرحلة من مراحل كلامها المتجسّد بالمصطفى. ففي فصل «الوداع» يقول جبران: «وكان المساء[1]، وما المساء إلاّ أوان الموت ـ الرحيل لولادة أخرى على معتقد التقمّص، أي الإيذان بإغلاق نور وإسدال ستار على اللقاء[2].

وإذ تُثني العرّافة المطرة على المكان الذي جمع أبناء أورفليس به، وتبارك روحه التي خاطبت أرواحهم، يجيب المصطفى: وهل أنا الذي تكلمت؟ ألم أكن أنا سامعاً نظيركم؟»[3]، لتبدو النبوّة لساناً للحكمة السرمدية، وكلاماً ماديًّا تاريخياً من وحي الحياة والحقائق مجهوراً به بشوقٍ إلى المطلقات، وبعميق رغبة في عودة الفرع إلى الأصل، وسكنى الحركة داخل سكونها المهيب.

ففي خاتمة جهد وجهاد، يخاطب النبيّ أبناء أورفليس قائلاً: «. . . فإنّني على أتمّ الأهبة للسفر. فقد وصل الجدول إلى البحر، وأتيح للأمّ العظيمة أن تضمّ ابنها إلى صدرها مرّة ثانية»[4]؛ لأنّها منه الرحلة ـ الكلام، قد استنفدت وقودها ـ المرحلة لغايتها المرسومة، فوصل المصطفى إلى أعلى درجة من المعرفة في مرقاة الحياة، وانقاد من جديد إلى سكون الأمّ العظيمة، البحر، رحابة الصمت المطلق السابق لأيّ فعل من الخليقة[5]، وكأنّما الأحداث والمراحل التي يعبرها الكون والإنسانيّة عودة على بدء، فيستقيم بهذا المعنى

= على مذهب الحلول الجبرانيّ، وما دامت هي الدورة الكاملة للحياة بوجه من الوجوه: في كل نهاية لها علامة ابتداء، ولكلّ بداية وعد بتكامل فاكتمال.

(١) راجع دراستنا «النبيّ»، «الوداع»، ع. س.

(٢) ويقول بهذا المعنى بعد حين: «فإن حجبني الموت عنكم الآن، وضمّني الصمت العظيم بين طيّات سكينته، فإنني سأنشد إدراككم مرة أخرى ولن تذهب أتعابي في ذلك الحين عبثاً».

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) نذكر هنا أنه في البدء كان الخواء وكانت الظلمات، وما كان إلاّ روح الله مرفرفاً فوق الغمر. (راجع: تك ١ : ١ ـ ٢).

قدر معدّ مسبقاً بعناية وحكمة إلهيّة لا حدّ لها[1].

وإذا كانت الطبيعة الأمّ في الأدب الجبرانيّ قد جاءت مع البحر رمزاً للمطلق الرحيب الذي تشتاقه كلّ الكائنات بتوقها إلى السكون المملوء بكلّ الاتجاهات الرائعة، فإنّ لنا من هذا الأدب منارات على هذه الطريق، يجسّدها إنسانيّون تألّهوا فبلغوا بنوعهم البائس سماء السعادة السميا، بعدما رسموا على غشاوة الجرح الإنساني احتمال برء من أوصابه الكثيرة، وإمكان وصول.

ولعلّ في شخصيّة المصطفى ثم في شخص يسوع ابن الإنسان ما يؤكّد ذاك الحنين الهائل الذي للنوع الإنساني عطشاً إلى المطلقات. فماذا في كليهما من مؤثّرات رياديّة في هذا السبيل؟

٢ ـ المصطفى:

نشير بادئ ذي بدء إلى أن اللوحة الأخيرة «الوداع» من كتاب «النبيّ» هي في الحقيقة استرجاع وإجمال لمحتواه، فجاءت صدى للصوت الداوي فيه. وكأنّها من الكاتب الوجه العمليّ لإعادته النظر في الكتاب واستعادته مراحله، تماماً كما يفعل الباحث إذ يضمّن خاتمته خطوطاً كبرى من أفكار سبق أن عرضها في متن عمله. فهي منه الخيط المنهجي بسياق شاعريّ غنائيّ[2].

وفي اللوحة هذه أن المساء قد حلّ. فأعلن النبيّ لأبناء أورفليس أن الريح تأمره بالرحيل، لأنه من البذور التي متى بلغت اكتمال نموّ قلوبها، وُهبت منحة للريح لتفرّقها على وجه الأرض. ووعدهم بأنه سيرجع إليهم مع المدّ، وقد كان بينهم كالضباب، في شوارعهم وأعماق قلوبهم، وأبصر فيهم الكائن غير

---

(١) وقد قال نبيّ جبران في مكان آخر: «وإنّني بملء الرغبة أودّ أن تتذكروني كبداءة» (المصدر نفسه، «الوداع») عليه، أيكون كتاب «النبي» لعين كاتبه بداية تكوّن جديد؟ وتالياً يغدو الفنّ عالماً آخر بل نسخة منقّحة عن العالم بمعناه التاريخي؟

(٢) المصدر نفسه، قسم المقدّمات.

المحدود فرأى حقيقتهم وأحبّهم، وعلم أنّهم ضعفاء كالسلسلة، ولكن أقوياء أيضاً كأقوى حلقة فيها. وخاطبهم بأنه ينقل إليهم بألفاظه ما يدركونه بأفكارهم، والنوعان أمواج تقذف بها بحيرة الذاكرة التي تحتفظ بدواوين الماضي. وإذا كان الحكماء الذين سبقوه، يقول، قد قدّموا إليكم حكمتهم، فإنني قد جئت لأغرف من معين حكمتكم. ووجد ما هو أعظم، أي الشوق في الروح الملتهبة، وشكرهم لأنهم أعطوه تعطّشه الشديد للحياة.

وإذا كان بعضهم قد ناداه بغير الألفاظ داعياً إياه ليسكن مجاعته بخبزهم ويخمد لظى عطشه بلذيذ خمرتهم، فإنهم كانوا يفتقرون إلى وحدة أعمق ليدركوا أنّه لم يكن يسعى إلاَّ إلى إدراك سرّ أفراحهم وآلامهم. وكلّمهم بأنهم ليسوا محصورين في سجون أجسادهم لأنّ الذات الخفيَّة التي تمثّل حقيقتهم تقطن فوق الجبال وتهيم مع الرياح.

ثمّ ودّعهم إذ وصل الجدول إلى البحر، وأُتيح للأم العظيمة أن تضمّ ابنها إلى صدرها مرة ثانية. ولكن وعدهم بأن امرأة أخرى ستلده. وصرخ الشعب. أما المطرة العرّافة فكانت صامتة وحدها تشيّع السفينة بنظرها حتى توارت في الضباب، وراحت تردّد في قلبها كلمات المصطفى الأخيرة: «قليلاً ولا تروونني، وقليلاً وتروونني، لأنّ امرأة أخرى ستلدني»[1].

فالمصطفى مسيح آخر، بعظة جبل آخر، أو عند سفينة مشابهة لسفينة الناصريّ، وكذلك بأتباع مريدين فوق شاطئ كشاطئ بحيرة طبريّا مأهولاً برسله، وهو مسيح آخر بمحبَّته وبذله النفس وضربه المثل، كما بانتقاله من أرض أورفليس التجسّد والرسالة، بعد تمام المشيئة.

وهو وجه بنويّ، ولكنْ على نطاق الكون بأسره، ينصاع لإيحاءات من ناموس أعظم فيه. يقول في وداعه: «يا أبناء أورفليس، إن الريح تأمرني أن أفارقكم. ومع أنّني لست كالريح عجولاً، فإنّني مرغم أن أطيع أوامرها»[2]؛

(١) «النبيّ»، قسم المقدّمات، ع. س.

(٢) المصدر نفسه، «الوداع».

ويمهر الآدميّين كعلامة فيهم، بنزوعه المطّرد، عنه وعنهم، إلى المطلقات، في رحلة تراقٍ دائمة، لأنه مع الهائمين نظرائه آية رائعة لتمام أشواقهم؛ يقول: «. . . لأننا، وإن نامت الأرض، مستيقظون نوالي مسيرنا. نحن بذور نبات غريب عجيب، وفي بلوغنا واكتمال نموّ قلوبنا قد وُهبنا منحة للريح فتفرقنا على وجه الأرض»[1]؛ وإذا به مع الأنبياء أنداده مشتعلون هياماً بالحقيقة والكمال، مرصودون للتوزّع بالريح، بالموت، بروح الفداء، في أرجاء الأرض، خميرة خلاص ووعد قيامة، على نحو الجسد المقدَّس في المسيحيّة، تتناوله الأنفس التائقة إلى ولادة بغير إثم.

ويعلن لهم، قُبيل اغترابه مرة أخرى ليضمّه «الصمت العظيم بين طيّات سكينته»، حتميّة التلازم بين الموت والحياة على نحو تواصليّ في أبديّة الاستمرار، لأنّ كلّ امتلاء بحقيقة الحياة أو اكتناه لنهارها يشمل حكماً معرفة الموت الذي هو جزء منها؛ «قليلة كانت أيّامي بينكم، وأقلّ منها كلماتي التي تركتها لكم. ولكن إذا تلاشى صوتي في آذانكم وزالت محبّتي من قلوبكم فحينئذ آتي إليكم سريعاً. وأخاطبكم ثانية بقلب أوفر عطفاً من قلبي وشفتين أجزل إثماراً للروح من شفتيّ»[2]، وفي ذاك وعد منه بالعودة عن طريق التقمّص، وكأنه الأرض لا يمكن أن تخلو من إمام يقود الناس إلى رجائهم.

ويكرّس لهم ديناً انحناءةَ الآدميين لمشيئة كونيّة في الزمن الوسيع، بخشعة مبتهجة لناموس أعظم تأتمر الكائنات بحكمته. يقول: «فإذا لم يكن هذا اليوم قد أكمل حاجاتكم وأفعمكم من محبّتي، فليكن موعداً ليوم آخر. فإنّ حاجات الإنسان تتبدّل ولكن محبّته لا تتغيّر ومثلها رغبته في أن تشبع المحبّة حاجاته»[3]. وهكذا تختزن ذواتنا المحبّة كصفة ملازمة لكياناتها، وتعمل بما يشبه الصلاة والتعبُّد، ويهدي من معرفة صامتة هاجعة في كلّ منّا، فيتسارع

(١) «النبيّ»، «الوداع»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

الجدول ـ الإنسان نحو المحيط، عودة النور إلى مناره، ويتواصل موكب الحياة جيلاً في إثر جيل، حاملاً رسالة كيانيّة هي بلوغ الناموس الكونيّ تمامه.

وتتجلّى في المصطفى هينمات كلّ العصور الآدميّة، صخّابة بنزواتها، هادئةً بحنينها المتسامي، ويرتسم على لحم سكينته ضحك الأطفال وتوق الشباب إلى ما هو أبعد من لحظاتهم اليوميّة. يقول في وداعه أبناء أورفليس: «نعم، قد عرفت فرحكم وحزنكم، وفي هجوعكم كانت أحلامكم أحلاماً لي. وكثيراً ما كنتُ بينكم بحيرة بين الجبال. فكانت ترتسم على صفحات مرآتي قننكم الشاهقة ومنحدراتكم المتعرّجة، حتى قطعان أفكاركم ورغباتكم العابرة عليها. وكان ضحك أولادكم يجري إلى سكينتي مع مياه الجداول، وكان حنين شبّانكم وشاباتكم يأتي إليّ مع مجاري الأنهار»[1]، فإذا بالمصطفى، وقد سكن الناس وارتدى حزنهم والفرح، فِعلَ الإله المتجسّد في المعتقد المسيحي، كأنه الأوج الحار قد تجمّعت عنده نار الشمعة الإنسانيّة لتخترق به كلّ حجاب يعتاق توقها والتسامي، وإذا بتجربة النبوّة في المعتقد الجبراني حدثُ ارتفاع كونيّ من قلب التاريخ الإنسانيّ وليس من خارجه.

ولكنّ هذا الانجذاب الكيانيّ إلى علٍ يواكبه جذبٌ من لدن كينونة قدوة، كأنها شيء من عالم المثل الأفلاطوني أو هي الصورة السميا لمادّة آثمة قد ندمت فراحت تبحث عن نقائها كما في فلسفة المسيحيّة. يقول المصطفى: «ولكن هنالك ما هو أحلى من الضحك وأعذب من الحنين بين من جاء إليّ منكم، ألا وهو الكائن غير المحدود فيكم... الإنسان البالغ العظمة فيكم... وأنتم لا تعرفون العظمة إلاّ بهذا الإنسان العظيم الذي فيكم»[2].

وكم يذكّرنا نعتُه إيّاه، أحياناً، الكنيسةَ ـ الجسد العظيم للمؤمنين

---

(١) «النبيّ»، «الوداع»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

ونشير إلى أنّ هذا الكائن هو من وصفه قبلُ بالذات الإلهيّة (راجع المصدر نفسه، «الجرائم والعقوبات»).

المتشاركين في الرحلة الخلاصية، إذ يقول: «أجل، إنّ هذا الإنسان العظيم هو بالحقيقة كالسنديانة الجبّارة المغطّاة ببراعم التفّاح»[1].

وقد يُبدي المصطفى الخليقة حلقات تتشابه في سلسلة طويلة، ليتهاوى معه مفهوم الأجيال المتتالية بتراتبيّة الأجداد فالآباء فالأبناء. واسمعه يخاطب أبناء أورفليس: «قد أُخبرتم فيما مضى أنكم كالسلسلة، ضعفاء كأضعف حلقة في كيانكم. غير أنّ هذا إنّما هو نصف الحقيقة. فأنتم أيضاً أقوياء كأقوى حلقة من سلسلتكم»[2]؛

وحتّى يراهم على تساوٍ بالمختزن المعرفي والمؤونة لاغترابهم الكونيّ، نقلاً للخلْيقة من القوّة إلى الفعل[3]، يقول: «فإنّني أنقل إليكم بألفاظي ما تدركونه أنتم بأفكاركم. وهل المعرفة اللفظيّة سوى ظلّ للمعرفة غير اللفظيّة؟ لأنّ أفكاركم وكلماتي ما هي عند التحقيق إلاّ أمواج تقذف بها بحيرة الذاكرة المختومة التي تحتفظ بدواوين ماضينا ومجرياته»[4]، وكأنّما كلّ أمرٍ معدّ مسبقاً، حتى الكلمة التي تزرعها اليد الخفيّة في الفم، إنّما أُعدّت لموسم معيّن من مدى القدر، لتبوح بشيء من ذكرى حيوات سابقة.

ويقرأ طريقه في عيون مشاركيه حدث الحياة، فينضوي مع المجدّين في

---

(١) «النبيّ»، ع. س.

وما تأويلنا إلاّ بالاستناد إلى قاعدة التداعي في الأفكار، وعبور بالمقولة إلى أبعد من ظاهرها. وبذاك تصبح المعادلة ممكنة بين الكنيسة ـ الجسر العظيم ورمز السنديانة أمام كلّ معبد مسيحيّ في الجبل اللبناني، وكلّها، في المنحى التفكيريّ لصاحب «النبي»، من أثر تربيته المسيحيّة العميقة الجذور.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يقول المصطفى بهذا المعنى في لوحة «الزواج»: «قد ولدتّم معاً وستظلّون معاً إلى الأبد»، وفي لوحة «العمل»: «أما أنا فأقول لكم إنكم بالعمل تحقّقون جزءاً من حلم الأرض البعيد، جزءاً خصص لكم عند ميلاد ذلك الحلم». (راجع اللوحتين في المصدر نفسه).

(٤) «النبيّ»، «الوداع»، ع. س.

درب العطش إلى المطلقات، واحداً من كلّ، ولكن فيه كلّ هذا الكلّ المؤتلف بنغمة موحّدة مرصودة للقاء وارتواء. يقول مخاطباً أبناء أورفليس: «. . . فقد أعطيتموني تعطّشي الشديد للحياة. فإنّني أصارحكم القول إنّه ما من عطيّة في هذا العالم أجزل فائدة للإنسان من العطيّة التي تحوّل كلّ ما في كيانه من الميول والرغبات إلى شفتين محترقتين عطشاً، وتجعل حياته جميعها ينبوعاً حيًّا باقياً. . . في أية ساعة جئت الينبوع متعطشاً أجد الماء الحيّ المتدفّق من فم الينبوع متعطّشاً أيضاً، فيشربني هذا الماء كما أشربه»[1] وهكذا تغدو الكائنات له في همّ واحد، متشاركة وحدة الوجود، ولو اختلفت مظهراً، منطلقاً ومقاييس؛ ويغدو الحدث الحياتي، المفضي إلى خلاص، جهداً يومياً وعطشاً متأهّباً باستمرار لانتهاء واكتفاء.

ويسعى في الزمان زاهداً متصوّفاً، بفعل اختيار نبويّ، يتآلف ورضى الناس بالعالم كيفما جاء، مجرّداً من إضافاته والنوافل، حتّى لينام في رواق الهيكل في حين أنّ كلّ واحد من مريديه كان يفرح لو يتاح له أن يؤويه في بيته؛ ويرتضيها من نظرائِه حياة تتصفّى شيئاً فشيئاً بانصياع رخيّ لناموس أعظم، تنساب فيه الأحداث انسياباً عفويًّا ومجّانيًّا، ككلّ منحة جميلة في الكون الجميل: «لأجل هذا أباركِكم من أعماق قلبي. لأنكم تعطون كثيراً ولا تعرفون أنّكم تعطون شيئاً. الحقّ أقول لكم: إنّ اللطف الذي ينظر إلى ذاته في مرآة ينقلب حجراً. والعمل الصالح الذي يسمّي نفسه بأسماء جميلة يصير والداً للعنةٍ كريهة»[2].

ويثني على سلوك غفلةٍ يختارها الكائن الآدميّ بحكمة ولكن بقبول: «ولكن لا تنظرون ولا تسمعون، وحسناً تفعلون. فإنّ الحجاب المسدول على عيونكم سترفعه اليد التي حاكته. والطين الذي يسدّ آذانكم ستنتزعه الأصابع التي جبلته. وحينئذ تبصرون، وحينئذ تسمعون. بيد أنكم لن تتحسّروا على

(١) «النبيّ»، «الوداع»، ع. س.
(٢) المصدر نفسه.

أنكم كنتم عمياً أو صمًّا. لأنكم في ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفيّة في كلّ شيء»[1]. فما دام التوكّل على هذا المستوى من القناعة والثقة بجدوى الحياة المؤتلفة الهادية، عندئذ ينتفي الشرّ ومعه الخير، أو لا يعود من حاجة إلى التمييز بينهما، «وستباركون الظلمة كما تباركون النور»[2]، فالإثنان متلازمان، وبهما يستمرّ بذل الجهد للتقدّم، وتطّرد محاولات الارتقاء والتسامي حتى أعلى قمم المعرفة والسعادة.

والنموذج القدوة في الشوق والانتظارات الهائلة لمثل هذه اللحظة المسكونة بكل الغنى المحتمل، يمثّله المصطفى بشخصه تمثيلاً، مستعيناً بما وسعت عيناه من آنه وحاضره، كما الأنبياء إذ يبشّرون بالرمز والرؤيا. قال قبيل شروعه في غياب عن أرض أورفليس: «إنّ ربّان سفينتي واسع الصدر جزيل الصبر. فإنّ الريح تهبّ بعنف، والأشرعة مضطربة. حتى إنّ السكّان نفسه يحتاج إلى من يديره. ومع كلّ هذا فإنّ ربّان سفينتي ينتظر سكوتي»[3].

فمع أنّ الحالة السميا في هذا الكون هي الانضواء في موكبه الشامل بصمت غير معترض، ووداد انحناء عاديّ بديهيّ، وكأنّه الذات قد قامت إلى الذات بعفوية وسليقة، فإنّ الربّان الأعظم لا يستعجل لحظة لم تتمّ، كما لا يطوي مسافة لم يستنفدها حنين؛ حتّى إذا أنفذ الكلامُ غايته ولامس السكوتَ ملامسةَ الجدول لجَّ البحر، لا ينتظر الملاّحون رفقاؤه ثانية واحدة، بعدما يكونون قد أصغوا إليه بطول أناة؛ ويُتاح «للأمّ العظيمة أن تضمّ ابنها إلى صدرها مرةً ثانية»، هو من بلغ أعلى درجة من درجات المعرفة في مرقاة الحياة[4].

---

(١) «النبيّ»، «الوداع»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) يقول أبو حامد الغزالي: «. . . وعلى الجملة، ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيّل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. . . بل الذي لابسته =

وإذا ما ينجزُه الواحد يكون عنه وعن الكلّ الإنساني الذي ينتمي إليه. يقول: «فكلُّ ما أُعطينا ههنا سنحتفظ به. وإذا لم يكن كافياً لسدّ حاجاتنا، فإنّنا نأتي ثانية إلى هذا المكان ونمدّ أيدينا معاً لمن أعطانا. . . فلن يمرّ زمن قليل حتّى يشرع حنيني في جمع الطين والزبد لجسد آخر. قليلاً ولا ترونني، وقليلاً وترونني، لأنّ امرأة أخرى ستلدني»[1]، فتحتسب الحيوات بالهنيهات، إزاء المدى الهائل للتراقي الذي تحتاجه الأنفس، ولا قيمة، من بعد، للانتظار النسبيّ، قياساً على الزمن السرمديّ الوسيع.

وكمثل إشراقيّة أفلاطون، وعلى خطى الإلهيّين من التوفيقيّين العرب، تبدو أرض الحضور في «النبيّ» هي أرض الأحلام، وأرض المثل هي أرض الحقيقة. يقول المصطفى: «وإن اجتمعت أيدينا في حلم ثانٍ[2] فهنالك سنبني برجاً آخر في السماء. وعندما قال هذا أشار إلى الملاّحين إشارة تؤذن بالسفر[3]، فرفعوا مرساة السفينة في الحال وحلّوا حبالها وساروا نحو الشرق»[4]؛ ولذلك، ما كلُّ حياةٍ مرتقبة، من بعد، سوى حلم ثانٍ، على رجاء اليقظة بالموت، ودواليك من الإنسان، حتى سنّ رشاده الكونيّ.

فمع المصطفى، غاية الحياة هي المعرفة. ولبلوغ هذه الغاية، على الخليقة أن تتجمّع في مشتهى إنسان ـ محطة كونيّة، كالمصطفى، وكلٌّ قادر أن

= تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول: وكان ما كان مما لستُ أذكره/ فظُنّ خيراً، ولا تسأل عن الخبر» («المنقذ من الضلال»، جميل صليبا وكامل عيّاد، الطبعة الخامسة، الجامعة السورية، ١٩٥٦) ولكنه، مع جبران، حلول، اتّحاد، وصول، للنوع الإنساني بأسره، في ما يشبه عودة البداية التي انطلقت منها الحياة.

(١) «النبيّ»، «الوداع»، ع. س.

(٢) استجابة لشوق لم يتحقّق، فاستدعى رحلة تقمصيّة جديدة.

(٣) السفر إلى بلاده، موطن الحكمة بل الفردوس المفقود. فهل يسكنها؟ (راجع دراستنا كتاب «حديقة النبي»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨).

(٤) «النبيّ»، «الوداع»، ع. س.

يكون هذه المحطة، نقطة التقاء الأشواق من النوع بأسرع، بنعمة التخلّي[١] المرادفة في معناها الأخير للمحبّة العظيمة، فيهجر ذاته إلى ذوات الآخرين، ويحمل عبء الكون الباحث عن هويّته الكاملة، فردوسه المفقود[٢].

وهي من جبران دعوة إلى التصوّف، بمعنى الممارسة لحياة المحبّة. وبذلك يلتقي هذا التصوّف «مع الدين والفنّ، ومع الفلسفة والعلم، ولكنّه يظل الغصن الأسمى في شجرة المعرفة[٣]»، وتبرز القضيّة «قضية الإنسان المحبّ الذي يسعى إلى المعرفة، فيحبّ الأرض والإنسانيّة والسماء وأسرارها، ويحاول الوصول بأشواقه إلى غايتها من مختلف الطرق، والكلّ سيصلون يوماً»[٤]، فأبناء الحياة أخوان في الغاية ولو تنوّعت وسائلهم.

وإذا كان صحيحاً أن جبران قد حاول عبر مصطفاه أن يحقّق بالتماهي البلوغ إلى أعلى درجات التسامي، وهو القائل بصدد أمثال «النبي»: «يكتب

---

(١) أي التنكّر لكل حنين ورغبة، بشيء من توجّه إلى النيرفانا «للكفّ عن الوجود» (من آخر حديث للكاتب الإيطالي ألبرتو مورافيا في شرحه موقف بوذا من الحياة الدنيا: جريدة النهار، عدد ١٥ ـ ١٢ ـ ١٩٩٠).

(٢) وجبران كابن الفارض بهذا المعنى، فالمحبة والمعرفة، عند كليهما، تسيران في خطين متوازيين، ولا تسبق إحداهما الأخرى. (راجع: محمد مصطفى حلمي، «ابن الفارض والحبّ الإلهيّ»، ع. س.).

(٣) أسعد علي، «فن المنتجب العاني وعرفانه»، المجلّد الأوّل، «المحبّة»، ع. س.

(٤) المرجع نفسه.

ونذكر أن صورة الموت ـ الحياة وعالم الألوهة الشمسيّة التي نجدها في تخيّلات جبران شديدة التقارب مع «أسطورة البطل» عند القدماء والكيماويين. وقد أثبت كارل يونغ أن المذهب الديني الذي يفرض على «البطل» اجتياز سلم الكواكب الإلهيّة السبع للوصول إلى الألوهة الشمسيّة ـ أي إلى مصدر الحياة ـ يتمثّل في تجربة نفسية أو حلم تتحقّق فيه الرغبة بإزالة الفاصل بين الوعي واللاوعي الجماعي والاتحاد بالأرض الأم. (راجع: ناهدة طويل فرزلي، «شخصية جبران...»، ع. س.، و

C. Jung, «Psychologie et Alchimie, Buchet, Paris, 1970.

الإنسان هذه الأشياء حتّى يجد فيها ذاته المتسامية»[1]؛

فإنّنا نراه، من ناحية ثانية، يقحم نفسه والإنسان في غمرة أحداث كونيّة مداها الزمان الرحيب، ولا قرار لها، فينهمك بالطبيعة وبالمطلقات عن قلق النفس والخوف من الموت[2]. وكتاب «حديقة النبيّ»، التتمّة، خير ما يجسّد هذا المتّجه الإنسانيّ الجبرانيّ بأجلى مظاهره.

ولكنّنا، انطلاقاً من القصيدة الأخيرة في هذا الأثر، نستطيع أن نذهب مذهباً تأويليًا آخر. فكتاب «حديقة النبي»[3] لا يوضح علاقة الإنسان بالعالم، بقدر ما يعمّق صلة الإنسان بنفسه داخل العالم. والحديقة، جزيرة القداسة والمشاهدة في الوطن، إنْ هي إلاّ رحم العالم الجديد، الذي حاول المصطفى أن يستعيد بواسطته الفردوس المفقود لإنسان رصد لولادات كثيرة، على مذهب التقمّص، حتى تنفذ الحكمة الأزليّة اختيارها، ويتحوّل العالم كلّه حديقة للأنبياء.

والمصطفى في كتاب الحديقة، كحاله في «النبيّ»:

ـ يحمل بشارة جبرانيّة بعالم موحّد، لا فرق فيه بين ما هو مادّي وما هو

(١) Annie S.otto, «the Letters of Khalil Gibran and Mary Haskell, Southern Printing company, Houston Texas, 1970.

(٢) يحضرنا هنا مذهب بيراندلو بهذا الصدد، فالإنسان أشقى الحيوانات لأنه عاقل، وهو بتحليله الحياة يقتلها بعقله، لأنه يسجنها ضمن قواعد محدّدة. وعلى الإنسان بغية التخلص من وسواس الموت وقلق العيش، أن يذوب في الطبيعة، ولا يهتمّ بسوى مشهد الخليقة.

Voir: G. Bosetti, «Pirandello», op. cit.

(٣) هو لوحات تواصلت اتفاقياً، على منوال «النبيّ»، فترابطت بخيط واه من قصص. تبدأ بمشهد المصطفى بين بحّارته على ظهر سفينته الآيبة به إلى وطنه من رحلة بعيدة، وتنتهي بعشاء مع تلامذته، كأنه العشاء السرّي للمسيح ورسله في الفصح، ومن ثمّ انضمامه إلى شقيقته الغمامة مرتفعاً عنهم كمثل ما صعد يسوع إلى السماء إثر تمام رسالته. (راجع ثبت المصادر في ملاحق هذا الجزء).

من طبيعة الشوق، حيث يحلّ الكبير في الصغير والعام في الخاص، وتتساعد الكائنات في مسيرها متهادية عبر الأحداث والأزمان، لتحقّق هدفاً مرسوماً و «نعيش بعضنا على بعض وفقاً للشريعة القديمة السرمديّة»[١].

ـ ونراه يبرز الحياة على أنها شجرة، والناس أوراق خضرٌ فيها، حيث لا وجود للمسافة بين جار وجار، ما داما على حبّ وتعاون واستجابة لإرادة الحكمة الخفيّة الهادية، باعثة نداء «العميق للعميق»[٢].

ـ ونراه يعلن ناموس البدايات المستمرّة في عقيدة التقمّص، فتتوالى الحيوات مدفوعة بنداء ملتهب من أعماق الحياة، وبأشواق هائلة إلى تنامي المدارك ومعرفة الأسرار اكتساباً للكمال[٣].

ـ ويكرز بخلاص أحديّ، ولا شفاعة من أحد بآخر بهذا المعنى. فوحيداً جئت و «ستمضي وحيداً في الضباب» ولكن دون إغفال لحركة الحياة المحيطة بكلّ منّا في الزمن الوسيع. فيجتمع جهدان: فرديّ واجب وجماعيّ لا بدّ منه ليقوم كمال الكون، والشعب الجديد الذي يحمل المصطفى وعده إليه[٤].

ـ وهو يقدّم ويؤثر الظمأ حالةً تعقب كلّ جميل طاهر. وما الزهد والوداعة وقبول العذاب، كالجذور الصامتة الواهية، إلّا كمثل «بداية أشجار سامقة جبّارة، ومستهلّ أرواح تناطح السحاب». وبذاك تتهيّأ النفس العارية للعيش في الشمس، و «الذي يضيع عن طريقه ألف مرّة، هو الوحيد الذي يبلغ منزلاً يطمئنّ فيه»[٥].

---

(١) راجع دراستنا كتاب «حديقة النبيّ»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨، قسم المقدّمات واللوحات ٤، ٧، ٨، ١٠ فيه.

(٢) المصدر نفسه، اللّوحتان: ٥ و ١٠.

(٣) المصدر نفسه، اللوحتان: ١ و ١٦.

(٤) المصدر نفسه، اللوحة: ٩.

(٥) المصدر نفسه، اللوحتان: ٩ و ١٢.

ـ ويشرح الكينونة في نطاق العمل الاجتماعي، كمثل الوصايا في طوباويّات عظة الجبل، فيتزاوج القلب والعقل في كلّ مسلك، ويتّصف المحدث الإنسانيّ بالاختيار الإراديّ لطريق الحبّ والوداعة، وتتأمّن بذلك عافية ضرورة لعبور سليم في الحياة[١].

ـ ويوقظ الشرق خصوصاً من غفلته العاهة، فيستنهض المصطفى جبران في الأمة كلّ راقد خانع، فتنبجس أمّة تنسج فتلبس، وتزرع فتأكل، ولا يعود سائسها ثعلباً ولا حكماؤها خرساً وهي أجزاء، ويقلّ كلامها على الله الذي لا نستطيع أن نفهمه، ويكثر حديث أفرادها بعضهم عن بعض[٢].

ـ ويدعو للاضطلاع بالجانب العملي من الدين عن طريق العمل الصالح والتحابّ بين الشعوب، فيغدو العطاء الحقيقي سيرة حياة، ويصبح الدّين انتماء إلى الآخرين وتناولاً للأثقال عن كواهل المتعبين[٣].

وفي جماع الكلام أنّ المصطفى ينادي في «حديقة النبيّ» بعودة إلى الطبيعة العارية المقدّسة إذ هي منزّهة من كلّ شائبة ودخيل مفسد للجوهر، فتتخلّى حضارة الإنسان من قشورها والنوافل. ويدرك سامعه، قارئ الكتاب، أنّ عبور الحياة ليس نزهة عمر، ويخشع لعظمة لها لا تفوقها إلاّ عظمة باريها «العليّ الأعلى».

ولا شكّ في أن مصطفى «حديقة النبيّ»، ومهما جارت على الكتاب أقوال[٤]، يبقى الأقرب إلى وجه جبران خليل جبران ووجدانه. فلقد اختزنت

(١) «حديقة النبيّ»، ع. س. اللوحة: ١٣.

(٢) المصدر نفسه، اللوحتان: ٣ و ١١.

(٣) المصدر نفسه، اللوحتان: ١١ و ١٥.

(٤) يرى متري بولس أن هذا الكتاب ليس لجبران تأليفاً ورؤيا، إذ مات جبران قبل أن ينجزه ليعبّر فيه عن نظرته إلى علاقة الإنسان بالطبيعة بعدما ضمّن كتاب «النبيّ» تصوّره لعلاقة الإنسان بالإنسان (يقول ميخائيل نعيمة في «جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، =

رؤياه الحياة والكون، عصارة المعتقدات الجبرانيّة في التقمّص والحلول والتوق الخلاصي ووحدة الوجود وانحناءة الآدميّين لناموس أعظم[1].

وقد نجده الأقرب إلى روح يسوع، فادي النصارى، وإنساناً متفوّقاً قد تمخّض عنه توق العصور الهائل إلى إنسان متألّه، أو الإله المتأنّس، لا فرق، كما في كتاب جبران «يسوع ابن الإنسان».

يقول المصطفى، مصطفى الحديقة، بعدما تألّم حتى اشتهى لو يكون شجرة بلا زهر ولا ثمر، وبئراً ناضبة جافّة، وقصبة يدوسها المارّة: «ليتني كنت بئراً ناضبة جافة، والناس يلقون بي الأحجار. فإنّ ذلك أجدى وأخفّ حملاً من أن أكون ينبوع ماء حيّ، يمرّ به الناس ولا يشربون. ليتني كنتُ قصبة يدوسها المارّة بأقدامهم. فإنّ ذاك خير من أن أكون عوداً ذا أوتار فضيّة في بيت ليس لصاحبه أنامل. وأولاده صمّ»[2]؛

فيذكّرنا حزن المصطفى هنا حزن المسيح وقوله لتلامذته في بستان الزيتون قبيل الصلب: «نفسي حزينة حتى الموت. امكثوا هنا واسهروا معي»[3]، بعد

= المجلد الثالث)، فأضافت بربارة يونغ إلى هذه الصفحات بعض الفصول التي كان قد سبق لجبران أن كتبها ونشرها بالعربية. (راجع: متري بولس، «في أدب النهضة الثانية»، جبران الوجه الآخر، ع. س.).

(١) نقول ذلك مع كامل اعتقادنا بأنّ كل نفاذ إلى حرم العمل المبدع يبقى محفوفاً بالمخاطر المنهجيّة، خصوصاً متى كان هذا العمل مسرفاً في الرمزيّة، مغالياً بحضرة الفكرة في تغليب الهمس والإيماء على كل إعلان ونداء. ولكنّ المسألة المعجزة تتذلّل صعابها متى أضيء الأثر ـ الإعجاز بقبس من كتب كبرى، أو قوبل بسواه، سابقاً أكان أم لاحقاً، أو أدرج في سياق حياة وسُبرت أبعاده. عندئذ تظهر كوى ـ منافذ، وتتوضّح معالم طريق. وبذاك جاء حكمنا في «حديقة النبيّ».

(٢) «حديقة النبيّ»، ع. س.

(٣) متى ٢٦ : ٣٨ ـ ٣٩. وقد نبصر في حزن المصطفى ألماً إذ يخامره شك في جدوى الرسالة التي اضطلع بمهامها، وهو في الحقيقة شكوك جبران نفسه في جدوى العناء الذي يبذله إذ يكرّس حياته للفنّ.

يقظة كلّ ما هو إنسانيّ فيه، أي معتاق بوصمة كيانيّة في المادة والنقص وخطيئة النوع وهاجس التخطّي الدائم نشداناً للكمال.

وبعد سبعة أيام وسبع ليالٍ، استغرق في خلالها المصطفى إلى ذكرياته وعذابه في المقبرة حيث رفات والدته، جاءته كريمة[1] بطعام تركته أمامه ومضت لشأنها، لتعود، من بعد، بصحبة الأشخاص التسعة، تلامذته، فلاقاهم بفرح، ثم أكلوا وشربوا معاً، وكانوا في سرور. وفيما كانت كريمة تسكب، «توجّهت للمعلّم برجاء قائلة: اسمح لي أن أذهب إلى المدينة، وأبحث عن خمر أملأ بها الأقداح من جديد، بعد أن نفذ ما لديّ منها. ونظر إليها، وكان في عينيه طيف رحلة وبلد بعيد، وقال: لا! إنّ هذا كافٍ حتى الساعة»[2]؛ وإذا في كلامه ما يحيلنا على عرس قانا، حيث صنع يسوع آيته الأولى بتحويله الماء إلى خمر[3]، وفيه إيماء إلى حياة سابقة للمصطفى كان فيها المسيح.

وقبلُ ذكّرنا انفراده في داخل حديقة أمّه وأبيه، مدّة أربعين يوماً وليلة وحده «ولم يفد عليه أحد، إذ كانت مقفلة، والكلّ يعرفون أنّه متفرّد، وحيد»[4]، انفرادَ يسوع في البريّة، وصيام موسى قبله، وكلاهما لمدة أربعين يوماً. وكأنّه يتهيّأ لعهد جديد يوازي عهود سابقيه من المحطات الأعلام في المسيرة الإنسانية بالوعد والقداسة.

وفي موقف آخر، وبهذا التصوُّر، يقول جبران: «وخرج المصطفى من حديقة أمه، وكانت خطواته هادئة، لا صوت لها. وما هي إلاّ لحظة، حتى انطلق مرتفعاً عنهم وابتعد، كورقة ممزّقة حملتها الزعازع، وأبصروا من أثره، كلّ ما أبصروه، نوراً شاحباً يتحرّك في أجواز السماء»[5]، وكأنّه المسيح بعد

(١) كريمة هذه في «حديقة النبي» كأنها المطرة في «النبيّ». فهل تكون بربارة يونغ هنا كاهنة «الحديقة» كما استُلهمت من قبل ماري هاسكل كاهنة «النبيّ»؟

(٢) «حديقة النبيّ»، ع. س.

(٣) راجع يوحنّا ٢: ١ ـ ١٢.

(٤) «حديقة النبيّ»، ع. س.

(٥) المصدر نفسه، ١٥.

قيامته فتجلّيه فصعوده[1].

وكما لوحة «الوداع» في كتاب «النبيّ» تمثّل إجمالاً عبقريًّا لأفكاره، كذلك لكتاب الحديقة لوحته ـ الضوء الأخير على محتوياته، فيما يشبه رجع الصدى، وكرّة العين لتمكين رؤية. فيناجي المصطفى الغمامة. يسمّيها أختاً له، وقد اجتمع بها من جديد ومعاً يبقيان حتى يوم الحياة الثانية. يقول: «أيّتها الغمامة، يا شقيقتي المجنّحة، نحن الآن معاً، وسنظل معاً إلى أن يُلقيك يومُ الحياة الثانية قطرات ندى، في الفجر، على حديقة. وأنا طفل في حضن امرأة، نتذكّر ماضينا معاً»[2]؛ وإذا في الموقف ما يفسّر الكتاب ويلقي ضوءاً على أبعاده: فالغمامة هي رمز الحياة السائرة في الزمن، أو الفكرة تبحث عن حيّز. وهي، ذات يوم، لرحم في الأرض هو الحديقة، كما هو لرحم امرأة. وهكذا يصبحان: هي الأرض القديمة الجديدة أو الفردوس المفقود، وهو الإنسان الجديد في رحلة نقاء كي يستعيد حديقته.

ويفصح، إذ عاد «قلباً يصغي إلى أعماقه» مطمئناً كقلبها، عن حالة غبطة ليس كمثلها همود كلّ حركة، مسكون بكلّ الأهبات، فيبلغ حدّ الامتلاء بالكون، غير مهتمّ بسوى الكلّ الجامع، المطلق الإله، النفس الكليّة في رؤى الإلهيّين من فلاسفة الشرق القديم، وبإقرار منه واستجابة لقدر ناموس أعظم وإرادة حكيمة تسيّر الكائنات بنسق جبريّ حكيم. يقول في مناجاته الغمامة: «وشفتاي مختومتان على الأغنية التي أمرتني أن أغنّيها. وأنا لم آتِك بثمرة، ولم أحمل إليك أصداء»[3].

وكم نجده العلامة التي تحفّز لدى أنداده، شركائه في حدث الوجود، كلَّ الاشتياقات الرحيبة. يقول المصطفى في اللوحة الأخيرة من «حديقة النبيّ»:

---

(١) لوقا ٢٤: ٥٠ ـ ٥٣.

(٢) «حديقة النبيّ»، ع. س.

(٣) المصدر نفسه.

«أيتها الغمامة، يا أختي! أحببتُ العالم كثيراً، والعالم أحبّني. لأنّ بسماتي كلّها كانت على شفاهه، وكلّ دموعي في عيونه. وكان، مع ذلك، بيننا برزخ من صمت لم يضع فوقه جسراً. ولم أستطع من جانبي أن أعبره»[١]؛ فهو قد أحبّ العالم، فكان شفة لفرحه وكان العين في دمعة. ومع ذاك فقد أحسّ أنه ظلّ وإيّاه على تباعد، وما الصمت في مناجاته إلّا تلك المسافة القاحلة بين كلامه والناس في العالم، وهي التي لم يقوَ على اجتيازها. دعوةٌ إلى كلّ من هؤلاء الأنداد أن تقوم ذاته إلى ذاته، من منطلق حلوليّ، جاهداً كي تتلاشى فوارق القسمات، وتحلّ الوحدة الكاملة الجميلة محلّ الكثرة المبعثرة الملامح على اضطراب وقباحة.

ويتزاوج الفنّ والمعرفة على نحوٍ ثابت، هنا أيضاً كما في كتاب «النبيّ»، فتُظهر نجوى المصطفى لوناً من الخصوصيّات الحميمة لدى الكاتب، في وقت تعلن الحقائق الخالدات: «. . . يا شقيقتي التي لا ينالها الموت، أنا أنشد الأناشيد العتيقة لأولادي الصغار. . . وهي، وإن كانت ليست لي، فإنّها بلغت فؤادي، وأقامت برهة على شفتيّ. أيتُها الغمامة، يا أختي، رغم أنّ كل ذلك مضى وانقضى، فإنّي في سلام. لقد كان كافياً أن أغنّي لمن ولدوا»[٢]، فإذا الفنّ مع المصطفى ـ جبران مسوّغ بقاء كما المعرفة، وترضيةُ وجود. فهو يكفيه أنّه غنّى، فكان رسولاً مؤتمناً على رسالة، هي واجب حمل الحياة إلى الأحياء نابعةً من أعماق الحقيقة الكونيّة؛

حتّى إذا أصبح مع الغمامة شيئاً واحداً، وانهارت الجدران، وانكسرت السلاسل، ثم ارتفع إليها ليبحرا معاً «إلى أن يأتي يوم الحياة الثانية»، يقول، «عندما يلقيك الفجر قطرات ندى في حديقة، ويقذف بي طفلاً في حضن امرأة»[٣]؛

---

(١) «حديقة النبي»، ع. س.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

عندئذ يكون الشوق قد حرّر المصطفى؛ وبانضمامه إلى أخته الغمامة، نظيره في حدث الحياة، تكون إرادة الحكمة قد تحقّقت واستجيب للناموس، وذات يوم تسقط الغمامة قطرات ندى في حديقة، وهو يُقذف به طفلاً في حضن امرأة.

وبذاك تتوضّح الحياة لدى جبران ـ المصطفى حركة مستمرّة وقيامة ولادات تعقب نهايات لا حدّ لها سوى التّوق إلى الكمال، كما الطفل إلى بلوغ؛

وبذاك يتوضّح كتاب «حديقة النبي» كتاب صلاة وبيعة: ـ كتاب صلاة لأنه لم يفصل بين السلوك أو العمل بحدّ ذاته ومردوده الإيماني، فكان المصطفى ـ جبران كالموارنة أجداده في الجبل اللبناني، تصلّي منهم الأيدي بحراثتهم الأرض، وتتسلّق عيونهم باتجاه الله كلّما دجّنوا وعراً فانقاد إليهم سموحاً خيّراً غفوراً؛ ـ وهو كتاب بيعة لأنه ينظّم العلائق بين أقانيم الثالوث الحلولي، الله والإنسان والعالم، فيأتمر الإنسان بدستور كونيّ حدوده الأخلاق وواجب التسامي، في ما يشبه قيامة وعد آخر لشعب مختار جديد، يستعيد نقاء الإنسان[1].

هو المصطفى في «النبيّ» ثم في «حديقة النبيّ» داخل اغترابه الأبدي؛ ما دام رمزاً للإنسان المتكامل؛ ارتحالاً من أورفليس، نقيض المدينة الفاضلة، نحو حديقة في الوطن الكبير، الجنّة الموعودة، اقتبالاً لنشوة التذرّي في الغمام، وكترجمة لأشواق الفناء في روح الكون، وكحالة من مراحل التحوّلات الرائعة من الماديّة إلى الشفافية إلى الصمت المملوء بكل الكلام[2]، ترصد له

---

(١) «حديقة النبيّ»، قسم المقدّمات.

(٢) يلتقي جبران ونعيمة في عدم الفصل بين ما هو مادّي وما هو روحي يقول نعيمة: «يتكثف الروح فيغدو مادة وتشفّ المادة فتعود روحاً. والروح في الحالين هو الحقيقة الأزلية ـ الأبديّة... والمادة ليست جوهراً قائماً بنفسه، إنها عرض، ولا وجود لها إلاّ بالروح وفي الروح». (راجع كتابه «يا ابن آدم»، المجموعة الكاملة، المجلّد السابع).

القيامات المقدّسة من طين الوجود ـ السقطة في دائرة المسافة وحركة الفعل الناقص، إلى أثيريَّة العدم المحيي للذات الكبرى داخل فراغها الكبير، نظاماً دائريًّا يلغي كل شيء إذ هو يحققه بغية النفاذ من خلاله إلى الصمت المطلق تشبهاً بالصامت الأكبر أي الله[1].

ولذلك يجسّد مصطفى جبران تلك الشعَّة في مدى السّرمد، وينطبق عليه وصف هايدغر بأنه كائن الأبعاد، فيما هذه الأبعاد المطلقات هي نهاية الأرب للكائن، وعلى ضوء من بهائها الجاذب قد نفهم ما ذهب إليه أرسطو من أنّ اللذة نوع من الاستراحة المؤقّتة، حتى إذا امتلكت الإنسان من بعد عواطف الكآبة يكون ذاك بسبب حالة نفس تعيش نقصاً في إتقان[2].

وإذا كان المصطفى في «النبيّ» قد مثّل أوّل الأمر تلك الاستراحة المؤقّتة للّذة بفرح عطائه وثنائه وإثابته على رصيف ميناء أورفليس؛ ثم تلك الكآبة في «حديقة النبيّ» التي عرفت، من بعد، غبطتها الكبرى بالفناء اللذيذ في روح الكون؛

فإنّ في «يسوع ابن الإنسان» ما ينقل المشتهى الخلاصي الذي تشتاقه الكائنات جمعاء من مستوى الكرازة والحلم إلى حيّز الفعل في التاريخ الإنسانيّ. فهل يكون يسوع هو المصطفى، أي عناقاً بين الحقيقة والفنّ، بين المعرفة والجمال داخل المدى المفضي إلى اجتماع أرض وسماء من جديد، وزواجهما مرة أخرى[3]، لقيامة من البؤس والأوجاع بشكل نهائي؟

---

(١) راجع البحث الرائع في الصمت والكلام لدى متري بولس، «أدب الأعماق والأبعاد»، «السكون والله في مذكّرات الأرقش»، ع. س.

(٢) Voir: P. Ricœur, «Finitude et culpabilité», op. cit.

(٣) وكأنه قصة الخلق الأولى، كما يرويها الإله الثاني في كتاب «آلهة الأرض»، يقول: «. . . متى جاء العصر السابع فزففنا في مدّ ظهيرته البحر عروساً للشمس. ومن مضجع هذا الزواج المقدّس أخرجنا الإنسان، الذي على رغم ضعفه وسقمه، ما برح يحمل شارة والديه». (راجع دراستنا كتاب «آلهة الأرض»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨).

٣ ـ يسوع ابن الإنسان:

إذا سلّمنا بما ذهب إليه دارسون، استناداً إلى علم التحليل النفسي، من أن شخصيّة المصطفى تعكس في جوهر قيامها شخصيّة جبران بجانبيها المتناقضين: الفاتر والناشط، فتعبّر في آن واحد عن مواقف نفسيّة فاترة تتمثّل في الرغبة بالعودة إلى صدر الأم والعالم الأمومي الإلهيّ، وكذلك عن مواقف عدوانيّة تتمثّل في الرغبة بتحطيم قيود الحياة البشرية وتحقيق الذات الفائقة في عالم الخلود[١]؛

فإنّه لمن الممكن النظر في شخصية يسوع ابن الإنسان، وبالمنظار نفسه، على أنها تسام من جبران خلقاً لصورة مثاليّة يمكن التماهي بها، لكنّه تماهٍ، ليس بصورة يسوع المسيحيّة كما توارثتها الأجيال المؤمنة في الجبل اللبناني وفي العالم، بل على نحو ما كوّنتها له تأثّراته بمطالعات ومواقف، وما أسفرت عنه قناعاته المتغيّرة في نفسه الشاعرة، عبر مسار تطوّره الحياتي والفكري.

والحقيقة أنّ جبران قد اعتبر يسوع المسيح إنساناً تألّه، ولم يعتبره إلهاً تأنسن[٢]، ووريثاً لجميع التجارب الروحيّة التي سبقته. فالتكاثف الروحي عبر الأجيال تجسّد في المسيح، والقول بإنسانيّة المسيح المتألّه نجده عند رينان، وقد اطّلع جبران على آرائه[٣]؛

والثابت، في حقيقة ثانية، «أنّ جبران، وقد أخضع حياته لعمليّة تحويل عمادها الأدب والفنّ، عاد وحوّل بالأدب والفنّ واقعه»[٤]، وهو القائل لماري هاسكل في إحدى رسائله: بعد أن أكملت صورة يسوع الحبيب هذه شعرت

---

(١) راجع بهذا الصدد ناهدة طويل فرزلي، «شخصية جبران خليل جبران..»، التوطئة، ع. س.

(٢) متري بولس، «في أدب النهضة الثانية»، «روافد الأدب الجبراني»، ع. س.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه، جبران الوجه الآخر.

بأنها كانت قريبة من نفسي كتعبير عنها أكثر من أية صورة أخرى»[١].

ولكن ما يجب أن يستأثر بانتباهنا في هذا القسم من الدراسة هو أنّ هذه الشخصيّة، شخصيّة يسوع ابن الإنسان، ذات حضور موضوعي في أدب الرجل، وقد تفتّقت عنها تأمُّلاته الحياة والكون، مع احتمال اعتبارها معرّشة الجذور في أرض أغواره النفسيّة، منبسطة الظلال على مدى أحداثه الحياتيّة المرتجلة[٢]؛

وهي شخصيّة عند الحدّ الفاصل بين الأبوّة والبنوّة، بل النقطة الفريدة في الأدب الجبراني، تتلاشى عندها كلّ التمايزات الفئوية والإنسانيّة، حتَّى ليغدو الشخص، الواقف عندها، شوقاً فقط، واعتقاداً فقط، وفعلاً فقط، تماماً كمسعى الحركة إلى تمام طاقتها، وكتنامي الزمان لملامسة اللانهايات، وكتراقي الكون بأسره في طريق المطلقات متكاملاً بالحلم والتوق وبالرغبة[٣].

وإذا كان كتاب «يسوع ابن الإنسان» قد ابتعد عن التكامل القصصيّ

(١) Annie S. otto, «The Letters of Kahlil Gibran and Mary Haskel, op. cit.

(٢) نقول ذلك معتقدين بأن كينونة يسوع، يسوع جبران، هي كينونة فنية من حطام عالم قديم، هو عالم جبران، وعالمنا نحن الآدميين، نتوارثه كل يوم، ما دامت الحياة على حركتها وتناميها بناءً وهدماً، بين ولادة وموت، وخير وشرّ وسائر المتضادات التي تشكّل الأطر لسعينا الإنساني؛ إذ العمل الفني لا يعدو كونه تجسيداً عملياً لتجربة شخصية بقيت غامضة لدى صاحبها، وطرحاً لمسألة تعبير وكشفاً أو إعادة اكتشاف للعالم بواسطة الفنان[١]، على نحو مبتكر بعيد عن التكرار، لأنّ الحياة الحيَّة لا يجوز أن تتكرّر[٢] بتفاصيلها الجزئيّة وإن تكررت بموضوعاتها الكبرى.

١ ـ Yves-Alain Favre, «L'écrivain et son moi», op. cit.

٢ ـ H. Bergson, «Le rire», P.U.F., 1971.

(٣) لعلّ هذه ناحية مشتركة بين مصطفى «النبيّ» ويسوع جبران. ولكن لا يسعنا إلاّ أن نسجّل فرقاً بينهما: فالأوّل وقف كارزاً مصلحاً ومبشّراً، فيما الثاني ظهر عبر شهادات، عددها =

والتبويب المقنع الملزم الذي في الإنجيل المقدّس، وما عاد سيرة عظيم طريق إلى خلاص، بل اقترب من مظهر الجداريّة، تلك التي طبعت الأدب الجبراني بكامله[1]، فاقتُلعت اللوحة لديه من فكرة التماثل والتواصل مع رفيقاتها، وتتالت معاً وما من غاية لها إلاّ الإيحاء بمسلك والهمس بسماء، كما في كلّ موقف فنّي، منقطع عن زمن الحقيقة الاجتماعيّة أو الحياتيّة الواقعة إلى ما يفوقها نقاءً وبهاء؛

مع ذلك، فإنّ لنا من الشهادة الأخيرة «رجل من لبنان»، هنا أيضاً على غرار لوحة «الوداع» في كتاب «النبي»، جماعاً للأفكار والمعتقدات الجبرانيّة، أو قل، منطلِقاً من المتّفق الفنّي، عرضاً فريداً للأوجاع والمآزق التاريخية الإنسانيّة، يبوح بها جبران متألماً عنه وعن أقرانه الآدميّين، يقابلها المرتجى يسوع، جاذبهم والعابر بهم صحارى البؤس والدمع، إلى جبل التوبات الكبرى، قيامةً للنوع في أبديَّة الاستمرار، وعلى خطاه، مرة أخرى، في طريق السماء، الدورة الكاملة للحياة بوجه من الوجوه، إذ كلّ نهاية لها علامة ابتداء، ولكل بداية وعدٌ بتكامل فاكتمال[2].

يناديه هذا الرجل الذي من لبنان بقوله: «يا سيّد المرنّمين. يا سيّد

= تسع وسبعون، يُدلي بها رجال ونساء كأنهم فئات الإنسانيّة أو مراحلها، تبوح باعترافات ومشتهيات النوع، ثمّ ساكبةً آمالها في رجل؛ وهذا أقرب إلى روح المعتقد الجبرانيّ في الجوهر، ويتوافق من حيث الشكل مع العرض القصصي الإنجيلي.

(١) راجع بوجه خاص دراستنا كتاب «دمعة وابتسامة»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

(٢) يقول «يوحنّا التلميذ الحبيب في شيخوخته»: «... إن يسوع الممسوح هو الكلمة الأولى التي خاطب بها الله العالم كما لو أنّ شجرة من التفاح في بستان تزهر وتعقد قبل بقيّة الأزهار بيوم واحد، وكان في بستان الله في ذلك اليوم عصر كامل». ويقول «بنيامين الكاتب»: «... وقد بكى كلّ ما لم نسكبه من الدموع، وتبسّم كل ثورتنا وتمرّدنا... فقد كان ابناً وحفيداً لجميع الملوك الذين بنوا مملكة الروح..» (راجع الشهادتين في دراستنا كتاب «يسوع ابن الإنسان»، ع. س.).

الكلمات التي لم ينطق بها»[1]؛ رائياً في يسوع سيّداً للدّهر، أي ربًّا للمقبل القابل لكل الاحتمالات الرائعة في الخلق، وكأنّه له ذاك المدى اللغوي بمعناه اللاهوتي، أي التجسيد لكل فكرة لم يفرج عنها من القوة إلى الفعل، وهي، بعدُ، خبيئة في وجدان النوع الإنسانيّ الناهد إلى المطلقات.

ونسمعه مجاهراً بالتقمُّص معتقَداً، وبتتابع الحيوات قصد التصفّي والكمال. يقول جبران: «سبع مرّات قد وُلدت، وسبع مرّات قد متّ بعد زيارتك المستعجلة وترحيبنا القصير. وها أنا أحيا ثانيةً، متذكّراً العهد الذي رفعنا فيه مذّك يوماً واحداً وليلة واحدة بين التلال»[2]؛ فيظهر ممتزج الشخصيّة بموضوع حلمه واشتياقه، يسوع، ويبدو كأنه قد وُلد في القرن العشرين ليشهد، متذكّراً العهد الذي رفع فيه مدّ «سيّد المرنّمين».

ويقدّم يسوع كمطلب حقيقي لكل فعل إنسانيّ، خفقةَ قلب أو ومضةَ عقل، لأنه فكرة الكمال الذي نشتاقه. يقول جبران: «... وبعد ذلك قد قطعتُ أرضاً كثيرة وبحاراً كثيرة. وحيثما حملتني خيول الأرض أو سفن البحر كنتُ أرى اسمك إمّا صلاة ترتفع من القلب أو موضوعاً لمجادلة يقوم بها الفكر»[3]. فتنطق اللوحة ـ الشهادة، ليس بواقع الاهتمام الوحيد الكامن وراء كل الأفعال في مداها الكونيّ الرحيب[4]، بل بلا جدوى كلّ فرار من الحضور الإلهي وهو

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

ونشير هنا إلى أن العدد (٧) هو رمز الحكمة والكمال في رموزية الأعداد، وفيه معنى الله المتدخّل في حياة البشر (٤ + ٣ أي الإنسان + الله).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) وكأنما من أهداف الخليقة بلوغ مرتبة الألوهية التي في فلسفة ابن عربي. وهذه عنده هي الذات الإلهية متصفة بالصفات والأسماء، وقد احتاجت إلى خلق الأشياء لكي ترى ذواتها فيها، فيكون الخلق امتداداً للذات، وبه تصير الذات موضوعاً. والصورة تلك يسمّيها ابن عربي «القابل»، كما يسمّيها «العين الثابتة». (راجع: نيكلسون، «الصوفية في الإسلام»، ترجمة نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، ١٩٥١، و «ابن عربي»، بحث لنهاد خياطة في جريدة النهار، الخميس ٣/ ١/ ١٩٩١).

في دائرة التاريخ الإنساني، لا جدوى يحمل وصمة التعب من الجهاد الأبديّ المطّرد حقاً، ولكن مع النشوة المرتقبة بوصول، على غرار الزهّاد المتصوّفين الباحثين في فناء ذواتهم عن معنى البقاء الحقيقي[1].

ويبصر عبره، وهو المآل الأخير للبشريّة المجاهدة وصولاً إلى كمالها، قصة المراحل الإنسانيّة مستعادة في كلّ جيل، وإن بأسماء مختلفة مغايرة، فتستمرّ التجاذبات بين المتضادّات بجدليّة متحوّلة أبداً، كأنّها المحتوى الحيّ المتغيّر في سفح ما هو ثابت دائم كنجمة معلّقة في أفق التّوق الإنسانيّ العظيم. يقول جبران مخاطباً يسوع ابن الإنسان: «إنّ أصدقاءك ما زالوا في وسطنا، لتعزيتنا وعضدنا. وأعداؤك أيضاً معنا، لتقويتنا وتثبيت إيماننا. وأمّك معنا، فقد رأيت نور وجهها في محيّا جميع الأمهات، إنّ يدها تهزّ الأسرة بلطف، وتطوي الأكفان بعطف. ومريم المجدليّة لا تزال في وسطنا. . . ويهوذا، رجل الآلام والمطامح الصغيرة، ما زال يمشي في أرضنا، وهو ما برح يصطاد نفسه إذا لم يجد غيرها صيداً، طالباً ذاته الكبرى بالانتحار»[2]؛ وإذا بالكون يخبط في دوّامة أحداث تتردّد أبد الدهر نشداناً لتمامه التكاملي الرائع، ما دام مؤجّلاً حلم الكثرة في أن تتوحّد، ويتمادى الخَلق قبساً من نور الحقّ الذي هو وحده الوجود بامتياز على حدّ تعبير ابن عربي[3].

ويسوع الذي ورّطه جبران توريطاً بمسائل الإنسان، فجعل طلوعه حتمياً من قلب الجنس البشريّ، وقدّمه إلهاً للفرح بعدما أخرجه من حداد العصور

---

(١) يقول ذو النون المصري: «إنّه بمقدار ما يعرف العبد من ربّه يكون إنكاره لنفسه، وتمام المعرفة بالله تمام إنكار للذات». (المرجع أعلاه).

(٢) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

(٣) لا نجد، في هذا المجال، كبير فرق عند جبران بين إيمانه بوحدة الوجود وإيمانه بالحلولية. وفي الحقيقة تتشابه العقيدتان باعتبارهما الله والعالم كينونة واحدة، وتفترقان في أن الحلولية تنفي ثنائية الحقّ والخلق، في حين أن وحدة الوجود تحافظ عليها في وحدة لا تنفصم، مانحةً الحقّ سبق القِدم على حدث الخلق أي العالم.

وبرك الدماء والدمع التي رمته في داخلها وثنيّة بعض الغلاة من أتباعه[1]، مقتبلاً باختياره أن يفتدي جنسه بكآبة «من النوع الذي ينهض إلى الشفتين ويتحوّل إلى ابتسامة»[2]؛

يسوع المسيحيّة، تبارك اسمه، أحاطه جبران في كتابه بالأشخاص التاريخيين أنفسهم الذين أسهموا في اتّساع الظلّ من دعوته، وترامي صداه داخل فناء المسعى الإنساني، إن سلباً أو إيجاباً؛ ولكن بتأويلات أخرى لحكاية مروره في الزمان والمكان تتّفق مع منحاه إلى اختزال الكون، ديناً ودنيا، بخفقة قلب ولحظة شعر.

فهذا سمعان بطرس، حواريّه الأوّل، وقد أنكره لتطول حياته في معرفته «هو أيضاً جالسٌ أمام مواقدنا»، وهو قد ينكره ثانية قبل مرور فجر يوم آخر، «بيد أنَّه أبداً مستعدٌ أن يصلب في سبيل مبادئك حاسباً نفسه غير مستحقّ لهذا الشرف»[3] يقول جبران. فإذا بصاحب «النبيّ» لبيعة جديدة، على رأسها سمعان بطرس آخر، لا يختلف شخصه كثيراً عن جوهره هو، آن يشتعل إيماناً بالسيّد، وهو الضعيف المستعدّ للتكامل، بإرادة تحمل اللوعة في القلب والانزعاج في الباطن[4].

وهذا قيافا ومعه حنَّان «ما زالا يتمتَّعان بنور يومهما ويحكمان على المجرم والبريء. وهما ينامان على فراش من الريش في حين أن الذي حكما عليه تلعب السياط على ظهره»[5]، فيؤخذان بالقشور والعرض، مستجيبين

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «مانوس من بومبي إلى يوناني»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه، «إحدى المريمات».

(٣) المصدر نفسه، «رجل من لبنان».

(٤) تعبير لأبي عليّ الدقاق في كتاب «الإحياء..» للغزالي، تعريفاً بإرادة المتصوّف. يقول: «الإرادة لوعة في القلب، غرامٌ في الضمير، انزعاج في الباطن، فهذه كلها صفات العاشق وبتمامها يتمّ صدق الإرادة».

(٥) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

للشرائع الجامدة إذ هما من الفرّيسيين، ويسقطان سجيني زمنهما الأرضي الصغير، فيما لم يأتِ يسوع لزمن محدّد.

وهذه هي «المرأة التي أمسكت بالزنى تمشي اليوم في شوارع مدننا وهي تجوع للخبز الذي لم يُخبز بعد، وتعيش وحيدة في بيتٍ فارغ»[1]؛

وهذا هو «بيلاطس البنطي هنا أيضاً، فهو واقفٌ باحترام أمامك، ولا يزال يسألك بيد أنه لا يجرؤ أن يعرّض بمركزه أو يقاوم أمّة أجنبيّة، وحتى الساعة لم يفرغ من غسل يديه، وحتّى الساعة تحمل أورشليم الطست ورومة الإبريق، وبين الإثنين تنتظر ألف ألف يد لتغسل»[2]، يقول جبران؛

مأزق على مستوى الوجود بأسره، فالرحلة الخلاصيّة داخل المؤسسة لم تنطلق بعد، على الرغم من وجود المؤسّس؛ وخللٌ في تركيبة الحياة إذ هي مقعدة في الظاهر، ولكنّهما مأزق وخلل لا بدّ منهما حافزين مرافقين للاعتياق الإنساني المبني على مبدإ القصور بالمعرفة[3] في المعتقد الجبراني، فترود الأعمار زمان الحياة الوسيع اكتساباً واغتناء، بل معاينةً لنهائيات خلاصيّة، يرسم طريقها عظيم طالع من عمق الوجع الإنساني، وحنين الأرض الهائل إلى التغيير، هو يسوع ابن الإنسان.

ويرى جبران يسوعه سيّداً للشعراء، و«سيّد ما قيل وما أُنشد من الكلام»[4]، فقدّمه ترجمةً في البال للمشتهى الكبير لعالم لا يتجزّأ فيه الكمال. فسموّ الدين كسموّ الفكرة الشعرية، وعظمة الحدس الواعي حقائق الوجود كنبل

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

وما الخبز المقصود هنا إلّا خبز الخلاص والعدالة. ثم ما أشبه هذه المرأة بـ «مرتا البانية»! (راجع دراستنا كتاب «عرائس المروج»، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) راجع في المصدر نفسه: «نيقوديموس الشاعر».

(٤) المصدر نفسه، «رجل من لبنان»، ع. س.

الطبيعة الساحرة، والموقف الشريف كسواه من الروائع التي تكوّن مجتمعة موضوع ذاك الحنين الذي يشتعل به الكاتب وهو عند باب الخلق، إبّان التجربة الفنيّة[1].

ولكنّ الأتباع، يقول، «. . . لا يحبّون أن يكرموا الرجل الذي لا يعرفونه. . . إنّهم لا يكرّمون الرجل، الرجل الحيّ، الرجل الأوّل الذي فتح عينيه ونظر إلى الشمس بأجفان غير مرتعشة»[2]، فظلّ لهم فكرة ولم يمارسوه عقيدة، ونأوا بفعلهم عن ذواتهم الساعية إلى ذواتهم، فلم يدركوا أنّ من يعبدون ليس إلاّ من حملته كياناتهم ثورة دائمة امتزجت بمعنى الجهد الإنسانيّ الدؤوب، متحرّراً كما في المسيحية الحقّ من صنميّة المعتقد الحالّ في مكان وزمان معيّنين، وطافراً داخل المساكن والطرقات، مع خفقات القلوب وبسطة الأكفّ المطلوقة من قبضاتها، وملء العيون التي تسع كوناً وتواريخ من العشق والشفقة والحنين. . إذ تنظر.

وكم يجدهم عبدةً لنفوسهم، ولو خابطين في جهل مطبق، فيمشون «في موكب غير المعروف»[3]، ويحملون الكآبة التي هي كآبتهم، غير راغبين في أن يجدوا تعزيةً في مسرّة يسوع، عابدين به ضعفهم، صانعينه على مقاس حلم أرضي، وهو نهائي الفكر الإنساني المتألّه. وهم، إن لم ينزلوه عميق

---

(١) بهذا المعنى نفهم هنا أيضاً، كما في كتاب «النبيّ»، امتزاج الدين بالشعر بالرؤيا بالفلسفة بالشوق إلى العدالة، في كلّ نص من نصوص الكتاب، ونتيقّن من أن ثورة جبران الأدبية قد علت فتعدّت الشكل بل القشرة الظاهرة للحياة الاجتماعية، إلى المضمون أي الجوهر الكوني الذي في أعماق الكائنات كلها، فشابهت العمل التوفيقي بين الدين والفلسفة على طريقة قدامى الإغريق والإشراقية العربيّة.

(٢) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

وهذا التحديق فيه صورة الموت ـ الحياة وعالم الألوهة الشمسيّة. وهي صورة شديدة التقارب مع «أسطورة البطل» عند القدماء والكيماويّين. (راجع: ٢ ـ المصطفى، القسم الثاني من هذا الفصل).

(٣) المصدر نفسه.

حدوسهم، ويعتنقوه حالةً متقدّمة مريدة واجدة لإنسانيّتهم البائسة، فلسوف يعيشون خائفين ولا صديق لهم، ولو بين أهلهم وأبناء أمّتهم، يقول: «. . . يدعونك ملكاً، ويريدون أن يجلسوا في بلاطك»[1]، مسقطين البيعة، بهذا الانحراف، في الزمن الأرضي القابل لكل التحوّلات المؤلمة، بعيداً عن طريق السماء.

إنّ يسوع ابن الإنسان، يسوع جبران، بهذا المعنى، اطّراح نهائي لفكرة الألوهية المستعلية داخل حضور فريد، بل ارتفاع بالجنس الآدميّ إلى دائرة الملأ الأعلى، كسيّد للزمان وللسرمد، وبين يديه ذاته يصنعها على شاكلة كلّ المطلقات الرحيبة، في رغبة جماعية بالفناء الساحر المسافر عبر الأعمار، اقتراباً ممّا يشبه البقاء الأثبت أو «الوجود بامتياز»[2]، ولكن في نطاق التاريخ الإنساني الذي لا اعتراف بسواه، على ما يبدو، في المعتقد الحلولي الجبرانيّ، ما دام الله والإنسان والعالم كينونة واحدة.

وكأنّنا نسمع، في هذا الإطار، رنين الذات الكبرى، منها وإليها، إذ نصغي إلى جبران يقول: «سبع مرّات قد ولدت، وسبع مرّات قد متُّ. وها أنا أحيا ثانية فأراك. محارباً بين المحاربين، وشاعر الشعراء، وملكاً فوق جميع الملوك، ورجلاً نصفه عارٍ بين رفاقك من عابري السبيل»[3]؛ فإذا به، والسبعة عدد رمزٌ للحكمة وللكمال، وفيه معنى الله المتدخّل في حياة البشر برموزية الأعداد، قد اجتاز حيوات ماضيات حتّى تصفّى، فعرف يسوع في كل مكان، سعةَ أماني الآدميّين وثمرة هي الأعلى في شجرتهم المعرّشة داخل الزمان، وذاق ذوقة العارف، فانكشفت له الحجب ونطق بالأسرار. يقول: «نحن نتوسّل بعضنا إلى بعض، ولكننا بالحقيقة لا نتوسّل لغيرك. . . فسواء كنّا عظماء أو وضعاء فإنّ اسمك على شفاهنا، أنت السيّد غير المتناهي، للعطف غير

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.
(٢) تعبير لابن عربي يصف به وجود الحقّ تعالى، إذ هو موجود أزلاً وموجود أبداً.
(٣) المصدر نفسه، «رجل من لبنان».

المتناهي»[1]؛ وكأنما جبران في «يسوع ابن الإنسان» قد غدا الصوفيّ القائل: «لا أرى شيئاً إلاّ وأرى الله فيه»، لأنه في حال وحدة وجود، وقبلُ، قد بدا في حال وحدة شهود وكأنه الصوفيّ عينه إذ يقول: «لا أرى شيئاً غير الله»[2].

ويكاد صاحب «النبيّ» ينسى يسوعه، نقطة الالتقاء الفريدة بين الأبوّة في الناس والبنوّة فيهم، بل بين نسائهم والرجال، لمجد الإنسان المجاهد في سبيل الكمال، مع أنه أخوه الصامت، وابن أمّه الأرض والفضاء. يقول: «... أرى إخوتك الصامتين... الرجال الأحرار غير المقيّدين، أبناء أمّك الأرض والفضاء... وهم يحيون حياتك ويفكرون تفكيرك... ولكن أيديهم فارغة، ولا يصلبون مع الصلب العظيم...»[3]؛ فيتكاثر المسحاء في الأرض بالعمل الصامت الدؤوب، وكلٌّ على منوال المخترَع الأعظم، يسوع، مجسّد الآمال نابعة من عميق الذات الإنسانية العامة، بالممارسة اليوميّة اضطلاعاً بمشروع حياة، والتزاماً بإنجيل تكتبه المسيرة الكونية بأسرها[4] منتميةً إلى زمنها الوسيع، وليس قولاً وُلد في مرحلة من مراحلها المنقضية.

ويتمادى في ما يشبه التطوير لروح الفداء، نأياً بالحدث العظيم عن حالة الفرادة والاستثنائيّة، وإدخالاً له في يوميّات أطهار أبرار، وفي دائرة ما سمّاه

---

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

(٢) راجع البحث في ابن عربي لنهاد خياطة، جريدة النهار، ٣/ ١/ ١٩٩١، وفيه عن «أبو العلاء عفيفي» أنّ العبد إذا انكشف له شمول القدرة والإرادة الإلهية والفعل الإلهي، اضمحلّت الرسوم والآثار الكونية في شهوده وتوارت إرادته وقدرته وفعله في إرادة الحق وقدرته وفعله، ووصل إلى الفناء الذي هو عين البقاء، لأنه يفنى عن نفسه وعن الخلق ويبقى بالله وحده.

(٣) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

(٤) لذلك نلمح في كتاب «يسوع ابن الإنسان» نحواً من سبعين شاهداً، بعضهم من زمن المسيح وقد ذكرهم الإنجيل، يستحضرهم جبران إلى الحاضر ليؤيدوا معتقده ومناحي إيمانه، وآخرون من اختلاق الكاتب وينقلون عمن عاصر السيّد فرآه أو سمع منه، وفي عدادهم جبران نفسه وقد أتى بعد تسعة عشر قرناً وحيوات سبع ليتذكر عهداً مضى.

«الظلام المنير» في أكثر من كتاب عربيّ له[1]، فيزداد ألق التضحية ويحضن التاريخ «الرجال الأحرار»، والكاتب في عدادهم، يُصلبون ولا أحد يشهد عذابهم، «ويديرون وجوههم إلى اليمين وإلى الشمال، فلا يجدون أحداً ليعدهم بمكان في ملكوته. بيد أنهم يريدون أن يصلبوا المرّة بعد المرّة، ليكون إلهك إلهاً لهم، وأبوك أباً لهم»[2]؛ فتبين خطورة ما يتّهم به، فالأرض بعد المسيح أقفرت من حرارة الدعوة، وغامت الرحمة، تلك التي استودعها يسوع هياكله أمانةً في أعناق سدنتها، واقتصرت العبادة على الشعائر مفرّغة من روح البرّ والتقوى.

ولذلك كلُّ ما قد تمّ لا يجب أن يوصد عليه باب الغياب، والثورة التي أطلقها المسيح لا يجوز أن يخبو أوارها، فلكلّ جيل مسحاؤه في الدعوة الجبرانيّة، ينبثقون من أوجاع الناس، في هرولة نحو الْتمام الحلم على جرح العدالة المفقودة، وفي انحناء نسم الألوهة مؤاسياً فوق بؤس المنتظرين على مفارق الأفراح المؤجَّلة. يقول الرجل الذي من لبنان مخاطباً يسوع: «يا سيّد المحبّة، إنّ الأميرة تنتظر مجيئك في عليّتها المعطّرة، والمرأة المتزوّجة في قفصها، والموسى التي تنشد خبزها في شوارع عارها، والراهبة التي لا زوج لها في صومعتها، والعاقر أيضاً، أمام نافذتها، تتأمّل صورة الغابة التي رسمها الصقيع على زجاج النافذة، فتجدك في تناسب خطوطها، فترضعك في أحلامها وتتعزّى»[3].

---

(١) راجع على سبيل المثال كتابيه «دمعة وابتسامة» و«العواصف»، منشورات مكتبة صادر، ١٩٨٨، في قسم المقدّمات.

(٢) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

وغنيّ عن الإشارة هنا ما في قوله من تذكير بلصّ اليمين الذي وعده المسيح بالفردوس وهو على الصليب (راجع لوقا ٢٣: ٤٢، ولوحة «سوسان الناصرية جارة مريم» ثم لوحة «باراباس» في المصدر نفسه).

(٣) المصدر نفسه.

ولكنّ الكاتب سرعان ما يرى يسوع فكرةً مستحيلة من حضيض الضعف البشريّ، فيكرّس، مرةً أخرى، ظاهرة الانفصام بين النظرية والتطبيق في واقع الحضور، وحقيقة البؤس الإنساني. فالإنسان معتاق لانجرافه في موكب الحضارة المواربة، وكأنما بذاك لسان حال جبران إذ يحاول أن يكون يسوعه ولا يقوى. يقول مخاطباً إيّاه: «يا سيّد رغباتنا الصامتة، إن قلب العالم يخفق مع نبضات قلبك، ولكنه لا يحترق مع أناشيدك، إن العالم يجلس ليصغي إلى صوتك بفرح وطمأنينة، ولكنه لا ينهض عن مجلسه ليزين حافات تلالك... وهو يريد أن يرى ببصيرتك، ولكنه لا يجرّ قدميه الثقيلتين إلى عرشك»[1]؛

فيؤثر بذاك روعة المجاهدة المتألّمة على ادّعاء الأدعياء من الأتباع المزيّفين، ونفاق من نصّبوا أنفسهم أوصياء على الضعف الإنساني باسم يسوع: «بيد أنّ كثيرين أُجلسوا على العروش باسمك، وتُوّجوا بقوّتك فحولوا زيارتك الذهبيّة إلى تيجان لرؤوسهم وصوالجة لأيديهم»[2]؛ فحلّوا سجناء أزمنتهم الصغيرة، وواجبهم أن يجدّوا في السير وراءه في رحلة الزمن الكبير، لقيامة الإنسان من تحت الأنقاض في هياكله المتداعية.

ويستوي الفكر الجبراني، في نهاية اللوحة ـ الشهادة، كعلامةٍ جليّة لطريق فوق صخرة اليقين، في ما نعتبره عودةً من جبران إلى المناخ الإنجيلي بمعناه العقديّ الصرف. فينظر إلى يسوع سيّداً للنور، «تقطن عيناه في أصابع العميان البصيرة»[3]، ويراه محتقراً يُهزأ به لأنه رجل يحول ضعفه وسقمه دون صيرورته إلهاً، وإله تحول إنسانيّته المتناهية دون حصوله على العبادة. فيخاطبه: «إنّ ما يقدّمه الناس أمام عرشك من القداديس والترانيم، والأسرار والذبائح، إنّما هو

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

وما أشبه التصريح بالضعف هنا بما جاء في خاتمة كتابه «التائه». (راجع دراستنا هذا الكتاب، ع. س.، قسم المقدمات).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

لأجل ذاتهم السجينة. فأنت وحدك ذاتهم البعيدة، وصراخهم الشاسع، وشوقهم وحنينهم»[1]؛ فيردّ الألوهة المستوحشة إلى الحضور الإنساني الآهل بكلّ التناقضات، راسماً لهذا مدى التمادي في الارتقاء على طريق التألّه، وإذا بيسوع، الذي لم يُفهم على أنه الإنسان ـ الله، يغدو الرؤيا الكونية في نهدة الجنس الآدمي بأسره إلى مآل أخير، يصمت في رحم التواريخ إلحاح كلّ الولادات الجديدة في رحلة الكمال.

وكمثل ما يعوّل العابد على ربّه الإله، مستسلماً لعنايته الملازمة لحكمة ناموسه، وكفعل ندامةٍ هو انعكاس في الحقيقة لأصداء من سرّ التوبة والمغفرة بمعناه الكنسي، يجثو جبران أمام عظمة مختزله الكوني، يسوع ابن الإنسان، وقدره الإلهيّ النافذ، ساخراً من غفلة النوع الإنسانيّ بأسره إذ يتخطّر أمام مرآة ذاته، ولا يبصر إلاّ طيفه وظلّه المتقلّص في مساحة بصره الضيّقة، فينادي ربّه: «أيها السيّد، أيها القلب السماوي، يا بطل أحلامنا الذهبيّة، إنّك ما زلت تتخطّر أمامنا في هذا اليوم، فلا السهام ولا الحراب تستطيع أن توقف خطواتك، لأنك تمشي بين جميع سهامنا وحرابنا. إنك تتبسّم لنا من أعاليك..»[2]؛

وإذا به، هذا الرجل الذي من لبنان، عائدٌ آخر إلى حلقة السجود المختارة بعد طول احتجاب وراء ذاته المتشبّهة بسيّد الشعراء و «سيّد رغباتنا الصامتة»، مقرّاً بأن يسوع «أصغر من جميعنا سنّاً»، ولكنّه «أبٌ لجميعنا»، فولادته الإلهيّة الإنسانيّة كانت لمرّة، فسبقنا بالأبوّة، في حين أن ولاداتنا، نحن المريدين المجاهدين في صحراء المراحل، هي لتقمّصات كثيرة، إذ هو دائماً أمامنا نحاول أن نصنع ذواتنا على مثاله الفتيّ أبداً[3]، وبذاك هو ابن أحلامنا كلّها

(١) «يسوع ابن الإنسان»، «رجل من لبنان»، ع. س.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نذكر هنا أن جبران في «يسوع ابن الإنسان» قد غيّب الحديث عن القيامة، وذكر الصلب فقط، لا عن رفض لها برأينا، بل لاعتقاده بحتميّتها كنتيجة لاحقة واجبة تلي الصلب، كمثل ما يتلازم الفعل والحركة الناتجة عنه: فالصلب لقيامة في النوع كله، والصلب انبجاس جديد للكون، معه يصبح لحنينه متّجه واضح الغايات.

(راجع «يسوع ابن الإنسان»، ع. س.، قسم المقدّمات).

والأصغر فينا، نلحق بشبابه الدائم، نزيل اللحظة السرمدية الكاملة التي لا تشيخ ولا تهرم.

إذاً. . في كتاب «يسوع ابن الإنسان» ما ينقل المشتهى الخلاصيّ الذي تشتاقه الكائنات من مستوى الكرازة والحلم، أي معناه النظريّ كما ورد في كتاب «النبي»، إلى حيّز الفعل والرغبة العمليّة المتحقّقة داخل التاريخ الإنسانيّ.

ومع شخصيّة يسوع في الكتاب يغدو الحضور الإلٰهي في دائرة هذا الوجود التاريخيّ نجمةً معلّقة في أفق التّوق الإنسانيّ العظيم، بل نهائيَّ الفكر الإنسانيّ المتألّه؛

ويصبح يسوع اطّراحاً نهائياً لفكرة الألوهة المستعلية داخل حضور استثنائيّ فريد، والرؤيا الكونيّة في نهدة الجنس الآدميّ بأسره إلى مآل أخير، يصمت في رحم التواريخ إلحاح كلّ الولادات الجديدة في رحلة الكمال.

وإذا كان من جانب مشترك بين ما يدعو إليه المصطفى في «النبيّ» و«حديقة النبيّ» من جهة، وما مارسه واضطلع به يسوع في حياته داخل شهادات السبعين رجلاً وامرأة في كتاب «يسوع ابن الإنسان»؛ فإننا نراه شخصيّةَ جبران نفسه وقد انطبعت في حبيبَيه: المصطفى ويسوع، كحالة كمالٍ وقداسة ثنائيّة المظهر، توفيقيّة المسعى بين الرائي والرؤيا، وعبرهما بين الحقيقة والمثال، بين المعرفة والجمال، بين التصوُّف والفنّ[1].

---

(١) يرى أسعد عليّ أن هذين التصوّف والفنّ أسلوبان في التعبير عن محبّة الجمال. (راجع: «فنّ المنتجب العاني وعرفانه»، الفصل الثالث، ««المحبّة»، ع. س.) واستطراداً نقول: إذا كان الأول عملياً «يستغرق حياة الصوفي الذي قطع مراحل الطريق وصار في غايتها»، وهذا ما فعله وعاشه يسوع الإنسان وما لم يقوَ عليه جبران، فإنّ الثاني نظريّ «يأخذ صاحبه في اللحظات الفائقة إلى ما يشبه ذهول الصوفي المستغرق»، وقد يرتفع الفنّان فى لحظاته الفائقة إلى سويّة الصوفي فتكون محبته متعلّقة بحقيقة الحقائق فيتصل =

ولعلّ جبران، وقد رأى الحقيقة المطلقة عصيّة المسالك، ورأى المعرفة المعرفة بمعناها الوسيع لأشواط وسيعة من الدّهر المهرول أبداً إلى أمام على حساب أعمارنا وذواتنا الصغرى، ورأى التصوّف بمعناه الانكفائي حالةً شاذة في عالم، من مواصفات عافيته أن يضجّ بالحضور الجدليّ للأضداد وبالتجاذبات، ومن يدري؟ فقد يتعارض في قناعته ويقين لديه بحتميّة الناموس الأعظم المسيّر للكائنات على نحو مرسوم؛

لعلّ جبران، إذ لاحظ هذه المعوقات، قد نقل إيمانه بالمستحيل المطلق الرائع من نطاق الواقع غير القابل للتسامي، إلى سماء الرؤيا الفنيّة، مرجئاً بذاك كل علاقة صراعيّة مع الوجود، محتمياً بحلم المصطفى، مؤيّداً الحقيقة بمثالها في يسوع.

فإذا بالفنّ يصنعه الكاتب المتأمّل الفنّان، ليعود فيصنعه بدوره، ويستصلح مناطق أخرى من حقوله غير الخصيبة على مستوى الروح، مغذّياً قدرة جناحه على التطواف وراء حلمه البعيد، ويتداخل المصطفى، المقترح الفنّي للكمال، وشخصيّة يسوع الطالع من بين أشواق الناس وأشواك الأرض، وهو من نتشارك جميعاً في نسج ألوهته، لنتّخذه طريقاً إلى الحق والحياة[1]، عابرين من ذاتنا الصغرى إلى ذاتنا العامة الكاملة الغبطة على نحو عميم.

وهكذا يصبح يسوع ابن الإنسان، في عرف جبران، حدث التلاقي الكوني بين الواقع والمثال، لاقتران جديد بين الأرض والسماء بعد طول هجر، وبه

= بالمطلق (المرجع نفسه)، وهذا ما استطاعه جبران وترجمه له مصطفاه في «النبيّ» وفي «الحديقة».

(١) استعادة للآية الإنجيلية «... أنا هو الطريق والحق والحياة. ولا أحد يأتي إلى أبي إلاّ بي». (راجع يوحنا: ١٤ : ٦) أو يغدو المعبر إلى «التآو» وإلى «ته» في تعاليم لاوتسو، معلّم الصين، وتعني الأولى: الطريق أو الطريق الروحي، وتعني الثانية: النعمة أو اللطف الإلهي. (عن «فن المنتجب العاني وعرفانه» لأسعد علي، الكتاب الرابع، ع. س.).

يطوي جبران الدهر إلى حدود فكرة وُلدت في حاضر أبدي على مبدإ الحلول، ثم أخرجت من القوّة إلى الفعل عبر مراحل وأجساد مختلفة، دونما تمييز بين آباء وأبناء، ولمجد النوع الإنساني، وإنْ استمرّت العلائق بين هؤلاء وأولئك اتفاقيّة واهية وعارضة بشكلها العبثيّ والفاجع أحياناً.

إنَّ مصطفى جبران ويسوعه، مع الطبيعة والبحر، لمحطّات في العقيدة الجبرانيّة على طريق التوق الجميل، تحقيقاً لهذا الرجاء.

وإذا كانت هذه الطبيعة في الأدب الجبراني تمثّل ذاك الرحيب من الشروط المتآلفة على نحو ثابت رائع، كأنها لحظة شعر، منها تبدأ كل الأنظمة الجميلة، وهي طبيعة تجسّد فناء الحريّة بحيث لا تفعل أكثر من إرجاع صدى الأعمال، فيما سعيها من ذاتها إلى ذاتها؛

فإنها تبقى مع البحر رمزاً للمطلق الأبعد، تشتاقه الكائنات إذ تصبو إلى السكون المملوء بكلّ الاتجاهات الرائعة.

ولا نغالي إذا قلنا إنَّها مع البحر الشكل الدائريّ والأفقي في آن لتلك الرحابة الواجبة لسفر الشوق، أي للمسافة الضرورة تجتازها الفكرة من القوّة إلى الفعل، فإلى المثال، حيث ملكوت الغبطة الباقية إلى الأبد، بعد عبورها للتصفّي، مرةً أخرى، الطريق إلى السماء.

بهذا الفنّ، بهذا الجمال، بهذه المثالية الصاعدة من جحيم البؤس الإنساني في صحارى الاغتراب القسريّ للنوع، حيث التنازع بين ما هو عليه الواحد منّا وما يتراءى له في أفق اليقظات الكبر؛ تبلغ البشريّة فرحها الأكبر. وما عذابها في نقش آمالها البعيدة على حجارة الواقع[1]، إلاّ كمثل ما تتناقص المراحل باتجاه أحلامها الموعودة، أو محاولات لاستعادة الفردوس المفقود بجعل الأرض جنّة بديلة يستضاف فيها الله.

---

(١) وهو نقشُ خلق متجلياً بالفن وباللغة في حال جبران.

إنّ أرض جبران، بهذا المعنى، قد غدت هي السماء، واسمها تارة «النبيّ» أو «حديقة النبيّ»، وأخرى «يسوع ابن الإنسان»، حيث لا آباء ولا أبناء، بل أطهار قد ولدوا معاً[١]، ثم ارتحلوا إلى «عالم الأوهام»[٢]، وآبوا بعد أن أسقطوا الباطل؛

وإذ «سقط الباطل، وهو اللازم بالأوهام، لم يبقَ إلاَّ الحقّ»[٣]، أي ما يشبه تلك الوحدة الفيثاغوريّة التي عند موطئ ظلها تعرّش كل الأعداد الآيلة في النهاية إلى سكون عظيم.

*

---

(١) «النبيّ»، «الزواج»، ع. س.
ويقول: «وستكونون معاً عندما تبدّد أيامكم أجنحة الموت البيضاء».

(٢) مستوحى من فلسفة ابن عربي، ومعتقده في هذا السبيل: أن الباري، جلّ وعلا، هو مجموع ما ظهر وما بطن، ولا شيء خلاف ذلك، وأن تعدد هذه الحقيقة المطلقة، والانية الجامعة التي هي عين كلّ إنية، والهوية التي هي عين كل هوية إنّما وقع بالأوهام: من الزمان، والمكان، والخلاف، والغيبة، والظهور، والآلام، واللذة، والوجود، والعدم؛ قالوا: وهذه كلها إذا حققت إنّما هي أوهام راجعة، إلى أخبار الضمير، وليس في الخارج شيء منها، فإذا أسقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما فيه واحداً، وذلك الواحد هو الحق... (راجع: أسعد علي، «فن المنتجب العاني وعرفانه»، «طريق المحبة»، ع. س.).

(٣) أسعد علي في شرحه رأي أصحاب الوحدة ومنهم ابن عربي. (راجع: «فن المنتجب العاني وعرفانه» «طريق المحبّة»، ع. س.).

خاتمة..

من كلّ ما تقدَّم، نسجِّل مقتطفات أخيرة تضيء ما توصّل إليه بحثنا في مدى أجزاء ثلاثة استغرقتها ثلاثيّتنا هذه «الآباء والأبناء في الأدب الجبراني».

ــ ففي الجزء الأوّل «الآباء» لحظنا فئاتٍ أربعاً من هؤلاء، يجمع بينهم نوع من النمط الصراعي مع الزمن غير الباقي لكائن، وبذلٌ مطّرد للانطباع في أشياء الحياة، فيسخّر هؤلاء كل شيء لرغبة قصيّة في أغوارهم النفسيّة عنوانها السعادة، كمثل ما يبحث كلّ هذا الجنس الآدمي عن فردوسه المفقود، على فروقات في السلوك والمسعى:

● فالتقليديون منهم يقتعدون اللحظة باختيارهم الركون إلى محيطهم الآمن، سعياً منهم وراء نجاحات متواصلة؛

● والعاطفيّون الخاضعون محبطون قدرياً، ويبدون كأنّهم قد استقالوا من كلّ جهد للتغيير؛

● والقساة المستبدّون يقلّصون بأثرتهم رقعة الخير في الإنسانيّة المتميّزة، ويقزّمون المدّ العظيم للحضارة المتسامية؛

● أمّا المجترئون المجدّدون فيجرحون أديم الاستكانة والوداعة بمعناهما الوجودي، فيما هم يباشرون باسترداد حقوقهم الضائعة.

ــ وفي الجزء الثاني «الأبناء» عاينّا أبناءً بفئات ثلاث، يوحّد فيما بينهم ما

يُشبه القسمات الكيانية المشتركة، وكأنَّهم نزلاء أشكال معدّة مسبقاً، بيدٍ من الآباء تارة، وإرادة من الحياة نفسها تارات:

● فالذين منهم في ظلال الآباء:

■ بعضهم لاستمرار وتخوير، يختزنون في ذواتهم وفعالهم فصولاً مرتقبة من ذاكرة آبائهم. فهم سجناء الثابت الباقي من قيم المجتمع الراسف بقيود التقليد والتزمُّت؛

■ وبعضهم الآخر لتثوير وتغيير، بانشغالات شخصانيّة ذاتيّة، مع اصطدام آنيّ أو دائم بهذا الثابت غير المتحوّل لدى معارضيهم؛

● والذين من هؤلاء الأبناء على حيرة في الانتماء يشكّلون في أماكنهم على مفترق الأيّام، وفي قلب الواقع الإنساني، حالة التجاذب حتّى حدود الانفصام، بين مرتكزات حضارة موروثة، ومرتجيات تسمو بهم إلى ما يفوق فراغات حاضرهم المنتهب بالزمن انتهاباً، وعلى حساب أعمارهم؛

● أمّا الذين تنهض بهم الثورة، معلنةً مجهورةً راعدة، بقبضة مشرَّعة لهدمٍ فبناء، فإنّنا نراهم في النهاية يؤثرون كسواهم امتلاك لحظة صنع أيديهم، علىٰ دهر تصطخب في فنائه سنواتهم على غير يقين من انتصار وراحة.

ـ وفي الجزء الثالث «في طريق السماء» رأينا ما يؤكّد متّجهات عمودية في الكائن، أباً وابناً، وأشواقاً تنهد به إلى سماء الغبطة الشاملة، وتستبقيه علامة فارقة داخل الأسرة الكونيّة الواحدة:

● فتبدو الطبيعة تمثيلاً لذاك الرحيب من الشروط المتآلفة على نحو ثابت رائع؛

● ويبقى البحر رمزاً للمطلق الأبعد، تشتاقه الكائنات إذ تصبو إلى السكون المملوء بكلّ الاتجاهات الرائعة،

● وإذا المصطفى في «النبيّ» تلك الاستراحة المؤقتة للذّة بفرح عطائه

والثناء، ثم تلك الكآبة في «حديقة النبي» التي عرفت، من بعد، غبطتها الكبرى بالفناء اللذيذ في روح الكون؛

● أمّا يسوع ابن الإنسان فهو حدث التلاقي الكوني بين الواقع والمثال، لاقتران جديد بين الأرض والسماء بعد طول هجر، وبه يطوي جبران الدهر إلى حدود فكرة وُلدت في حاضر أبديّ على مبدإ الحلول، ثم أخرجتْ من القوة إلى الفعل عبر مراحل وأجساد مختلفة، دونما تمييز بين آباء وأبناء، ولمجد النوع الإنساني.

وإذا كانت الأبوّة في الأدب الجبرانيّ قد توضّحت معضلةً من المعضلات، إذ هي محكومة بالتمادي وبالشطط، بسلبيّاتها والإيجابيّات، حتّى لتبدو صرخةً ضائعة في المدى يطلقها إنسانيّون معتاقون تسيّرهم إيحاءات من الأجزاء غير المنيرة في أغوار شخصيّاتهم؛

ولئن تراءى الأبناء الجبرانيّون يؤتون، داخل الحدث الحياتي، ما لا يتلاءم والأهداف البعيدة البهيّة المرتسمة في أفق نوعهم، حتى لنراهم مخترقين بشعاع قاتم من لوثة كيانيّة كأنّها الاعتياق الوجودي، فيخلقون حيثما مرّوا أثر المرارة إذ تعقب الأفراح المتبخّرة؛

وانطلاقاً من أنّ هؤلاء الآباء والأبناء الجبرانيّين يتشابهون في البعد الأخير لمعنى الشقاء خصوصاً، حتى لكأنّهم نزلاء أزمنة وبلاد غير مختارة أساساً، وينفقون جهودهم وأعمارهم للمصالحة معها، وحتى لنراهم، داخل هذا الأدب، محكوماً عليهم بالاضطلاع بلعبة كونيّة، سرعان ما يسدل الستار على شخوصهم فوق خشبتها المقدّسة، مفسحين في المجال لطبيعة أدوارهم فتبقى على حساب أسمائهم وكياناتهم المندثرة؛

حيال هذه الثوابت كلها في الأدب الجبراني، وتوكُّؤاً عليها في كرّةِ نظر

أخيرة إلى الموضوع، نؤكد ما خلصنا به الجزء الثالث من هذه الثلاثيّة، ومفاده أنّ جبران قد قدّم الأرض مآلاً نهائياً للمشتهى الإنساني، محوّلاً إيّاها إلى سماء، عبر مقترحات نظريّة اسمها تارة «النبيّ» أو «حديقة النبيّ»، وأخرى عمليّة تاريخية اسمها «يسوع ابن الإنسان» حيث لا آباء ولا أبناء، بل أطهار قد ولدوا معاً، ثم ارتحلوا إلى عالم الأوهام، ولن يؤوبوا إلاّ متى أسقطوا الباطل، وعندئذ لن يبقى إلاّ الحقّ، أي ما يشبه تلك الوحدة الفيثاغورية التي عند موطئ ظلّها تعرّش كل الأعداد الآيلة في النهاية إلى سكون عظيم.

ولهذه كلّها، نرى أَدب جبران خليل جبران متَّسماً بميزة الإنسانية والعالميّة:

ـ فهو أدب إنساني لأنّه، إلى جانب اضطلاعه بفكرة الجمال المؤتلفة بعمل توفيقي في النهاية مع فكرة الحقيقة، نحسبه سعياً في التاريخ من الكاتب، عنه وعنَّا نحن أنداده في حدث الوجود، كما تمشي على قدميك أو تملأ محيطك بابتسامة مشرقة أو تأسره بدمعةٍ مؤثّرة؛

ولأنّه، ككلّ عمل إبداعي، تسلُّقٌ في الحقيقة لجدار الكون، علّ عينين تبصران ما وراء الأسوار، وتسرّبان داخل شغاف الإنسان شعوراً بجدوى التسلّق، وارتياحاً لثبات عند مرساة، في غمرة من هبوب عواصف العمر الحائر وأنواء الضياع الإنساني.

ـ وهو أدب عالمي لأنه أرانا، بأجلى صور الرؤية، وعبر يسوع ابن الإنسان، قمَّة التسامي الإنساني في مشتهى العصور كلها، أرانا مملكةً للفداء وللمحبة، حيث يتوضّح أنّ السعادة الوحيدة الممكنة في هذا العالم الساعي من أزله إلى أزله هي سعادة نكران الذات[1]؛

---

(١) يتّفق هذا القول مع ما ذهب إليه بيراندلو من أن «السعادة الوحيدة الممكنة على الأرض تكون في نكران الذات».

= Voir: G. Bosetti, «Pirandello», op. cit.

ولأنه قد قدَّم للجامعة، على غرار الأعلام من المصلحين العالميّين، مقترحاً فنيًّا، دينيًّا وفكريًّا في آن معاً، في ما يُعتبر عودةً واضحة عن يأسه من حلول نهائيّة على الأرض[1]، فطرح، على مرأى من الشقاء الإنسانيّ في كلّ مراحل تاريخه، وللعصور كلّها، مثالاً قدوةً هو يسوع، بل صورة سميا لنظام إنسانيّ رفيع، تتعلّمه الأجيال، آباؤها كما الأبناء، مسترشدةً به إلى ذاتها وإلى الآخرين، وكأنّها الطفل لا يتعلّم الطبيعة إلاّ من خلال الإنسانيّة، يُرشد إليها وتُسمَّى له، فيُدرك كلّ شيء عبر النظام الإنساني، ومن خلال هذا النظام يكوّن فكرة عن نفسه[2] وعمّا يتراءى له منها في سواه من الإنسانيين.

الآباء والأبناء في الأدب الجبراني هم، في البعد الأخير للكلام، بعضُ هذا الكلّ الساعي من ذاته إلى ذاته، في أبديّة تعلُّم وإتقان لنشيد كونيّ رائع مختزن في أعماقنا صداه، وفي السامي من أشواقنا رؤاه، وأبدَ الدهر يراه بعضنا، ولا يراه.

هو النشيد الكونيّ الرائع، به وله تنبسط المسافة بين الشوق واللقيا، ومن أجل إتقانه تستمرّ الحياة.

* * *

= وبهذا المعنى يقول ألان: كلمة قلب تتضمن غموضاً رائعاً، لأنها تعني الحب والشجاعة معاً، وتذكرنا في الآن نفسه بارتباط القدرة على التفكير ببنية الجسد.

Voir: Jean Lacroix, «La sociologie d'Auguste comte», op. cit.

(١) هو يأس دفع جبران برأينا إلى امتطاء متن الشعر والسفر إلى ما وراء حدود الطبيعة، بحثاً عن الدفء لوجوده البائس، والعافية لنوعه الإنسانيّ المعتاق.

(٢) Alain, «Eléments de philosophie», cité par G. Berger, «caractère et personnalité», collection S.U.P., P.U.F., N° 8, France, 1971.

ثبت بالمصادر، كتب جبران
وفق الترتيب التاريخي
(يشمل رأياً موجزاً يضيء مغزاها، واقعاً ومرتجى)

أ ـ المصادر العربيّة.

ب ـ المصادر المعرَّبة عن الإنكليزيّة.

أ ـ المصادر العربيّة

١ ـ الموسيقى:

● كتيّب أقرب إلى المقالات منه إلى مفهوم العمل المطّرد المتلاحم الأجزاء. ولكنّه في موضوع الموسيقى، يراها الكاتب في خلاله:

ـ لغةً علويّةً تهزّ أوتار العواطف وتحرّك هاجع الذكريات؛

ـ ومصباحاً يكشف أسرار الذات ويعمّق انتماء الإنسان إلى كلّ جميل يتحرَّك حوله؛

ـ ونشيداً شاملاً للحياة تغنّيه كائناتها بأحداث متمايزة صغيرة.

● ويتناولها في مسيرتها التاريخيَّة، واقعاً وأسطورة؛ ثمّ يعدّد مزاياها في الحرب والسّلم، في الحلّ والترحال، في الزواج والفراق، في الولادة والموت؛ ويختم بمناجاة تضفي على «أوتربي المقدَّسة» سمة الوحدانيّة والفرادة في خلق كلّ بهاء.

● نرجّح أن يكون كتاب «الموسيقى» مقالات ـ ملاحظات، في فترات متباعدة بين عامي ١٩٠١ و ١٩٠٥، نتيجة لتأثّر جبران بالمناخ الموسيقي الذي تأمّن له في بوسطن. (راجع دراستنا «الموسيقى»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٢ ـ عرائس المروج:

● هو أقاصيص ثلاث:

ـ رماد الأجيال والنار الخالدة: وفكرتها الرئيسة عقيدة التقمُّص، حيث للإنسان عملان: عملٌ ظاهر يُشغل به، ولكنّه عارض لأنه مقتبس، والآخر خفيّ ولكنّه ثابت دائم الحضور، تُشغل به الحياة، ومن أجله تستكمل أسفار كثيرة.

ـ مرتا البانيّة: قصّة يتيمة أغواها فارس غنيّ فسقطت، ثم «انحدرت مع جرف المدينة الفاسدة» بين تلك المنازل البالية، إلى حيث «يرتكب الأشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة».

ـ يوحنّا المجنون: وهو جبران الانطواء ثم جبران الثورة. يخرجه الظلم من سكينة الأولياء، إلى غضب الديّانين المنتقمين، فيقف خطيباً في الدّير ثم في ساحة المدينة، متّهماً الأقوياء بالمال وبالشريعة بأنّهم السبب في كلّ ما يصيب الضعفاء ويمُضّهم برزايا الدّهر.

● وقد يكون من غايات جبران في «عرائس المروج» الثورة على الإنسان إذ ينشغل بقشور الحياة نفسها، ويشغله زمنه النسبيّ عمّا يختمر في ثنايا الدّهر من حقائق، فلا يتكلّف مشقّة في حمل الهمّ الذي تسبّبه.

● وهو يتعدّى بغايته جماليّة التعبير والأداء أو تجاور الأضداد وغناها أو سواها من أسرار البهاء الفنيّ. إنّه صوت اعتراض على مخالفات تُرتكب بحقّ الإنسان والحياة. (راجع دراستنا «عرائس المروج»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٣ ـ الأرواح المتمرّدة:

● هو أقاصيص أربع:

ـ وردة الهاني: قاصر في قائمة ممتلكات بعلها الثريّ الكهل، تنتفض على

ظلم القدر، مستجيبة لمشيئة علويّة، فيكتسب اختيارها لحبيبها الشاعر الفقير شرعيّة الحقيقة الخالدة.

ـ صراخ القبور: وفيها محاكمة لثلاثة مجرمين أبرياء، ينظر الأمير الديّان إلى أفعالهم لا إلى الدوافع.

ـ مضجع العروس: حيث ليلى كأنّها وردة الهاني في بعض خصالها، تزفّ إلى كهل خشن المنظر، وتبوح لسليم، حبيبها، بأنّ خطأها في الاختيار هو خطأ البيئة والشرائع. ولا يفوز بها على الرغم من حبّه الكبير لها، فتغمد خنجرها في صدره، لتلحق به بعد حين، إثر وقوفها خطيباً في المدعوّين ناعتةً إياهم بالجبناء الضعفاء.

ـ خليل الكافر: أو الأخ مبارك الذي تمرَّد على قانون الرهبان. يشابه المسيح في منحه ذاته لطالبيه من الجنود، ولكنّه يختلف عنه في رفضه الصمت إبَّان محاكمته، وتحريضه على الثورة بخطابيَّة وعظيَّة حادّة، حتى انتصاره كمثله على قوى الشرّ، ولكن انتصاراً بشريًّا.

● وهو دحرٌ عن طريق سلاح الفنّ لرموز القوّة والغلبة في البيئة الشرقيّة، متمثّلة على التوالي بالشرائع النافذة والحاكم الظالم، والإقطاعيّ الباغي، والراهب الذي انحرف عن طريق المصلوب لمنجًى يرومه التراب فيه.

● و «الأرواح المتمرّدة» نسخة منقّحة من الحقيقة، أو مقترح خلقيّ فنيّ، يحيي في قلوب الضعفاء أمل القيامة من الأحزان، ويقلّم أظافر التسلّط بإعلانه المخالفة فوق منابر المثقّفين. (راجع دراستنا «الأرواح المتمرّدة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، المقدّمات).

٤ ـ الأجنحة المتكسّرة:

● عملٌ روائيّ ـ محاولة لسرد قصة حبّ «بين طاهرين» هما جبران وفتاة ثريّة تدعى سلمى كرامة، غير أن القدر يعيث بقبضته، فيسلّط على بيت فارس،

أبيها، طاغية هو المطران بولس غالب فينتزع سلمى عروساً لابن أخيه. وترضخ سلمى لإرادة أبيها الضعيف.

● إنه، بوجه عام، قصائد ترابطت سداها بلحمة سرديّة مصطنعة، حتّى لكأنّ جبران، وهو الرسّام قبل أيّ اعتبار، هيّأ اللوحات ـ القصائد ثمّ نضّدها فوق جدران معرض أسماه قصة أو رواية.

● لكنّه دعوة إلى النظافة، تؤهّله للخلود بسبب من الحداثة المستمرّة في المبادئ الخلقيّة التي يبشّر بها مذهباً في الحياة، كالطهر والعدل والوفاء والشهامة وسواها. فيتواكب أدبه والأديان، مسهماً في ابتناء الغد الأمثل للإنسان. (راجع دراستنا «الأجنحة المتكسّرة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، المقدّمات).

٥ ـ دمعة وابتسامة:

● هو خواطر وجدانيّة (٣٠) ومشاهد قصصيّة (٢٦) نشرت على صفحات جريدة «المهاجر» بين سنتي ١٩٠٣ و١٩٠٨، ونقلتها مجلّة «المنار» في بيروت، لصاحبها قسطنطين ينّي تحت عنوان «دمعة وابتسامة».

● قام نسيب عريضة، صديق جبران وعضو «الرابطة القلميّة» بجمع هذه المقطوعات، وصدرت سنة ١٩١٤. والعنوان، يُقال، من كلام قالته حلا الضاهر «الباكية المبتسمة» لجبران يوم زارها مع منصور الفخري وهو، بعد، طالب في مدرسة الحكمة.

● ونجد شبهاً كبيراً بين موادّ «دمعة وابتسامة» وما احتضنته سائر كتبه، سابقها واللاحق، من نداءات قلبيّة، وحلول مثاليّة لمظالم الأقوياء وللمعضلات الاجتماعية، ولمظاهر الاختلال في العلائق الآدميّة، وكذلك بينها وبين ما اتّصف به أسلوبه على الجملة من رومنطيّة تداخلت وإيحائيّة الرمزيّين.

● وعلى الجملة فإنّ جبران يجعل كلّ تغيير مرتقب داخل «دمعة

وابتسامة» في صالح الضعفاء. فالسماء للمساكين، صيَّادين ومتسوّلين، ساقطات وفلاّحين. إنّه يطلع الله من رجاء العذاب الأرضيّ. (راجع دراستنا «دمعة وابتسامة»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٦ ـ المواكب:

● قصيدة طويلة أصدرها جبران مزيّنة بالرسوم في سنة ١٩١٩، وقدّم لها نسيب عريضة.

ـ هي أقرب إلى الموشَّح، فنرى لها ١٧ دوراً وعدّة أبيات مثنّاة، وخرجة.

ـ والدور قسمان: الأوّل، وهو القفل (رائيّة ووزنه البسيط)، صوت الإنسان المنتمي إلى عالم الحضور الإنساني، يعرض المسألة المعنّية المؤلمة؛

والثاني وهو البيت (رباعيّات ثم ثنائيات على وزن الرمل المجزوء) وفيه دواء الداء أو الحلّ للمسألة، يستمدّه الشاعر من الغاب، العالم البكر في الطبيعة السعيدة.

● ولكنّ هذه العودة إلى الطبيعة بقيت خطوة ناقصة في دنيا المثاليّات، بدليل خاتمة «المواكب»، حيثُ عذر الشاعر واعتذاره لقصوره في الانتماء إلى هذه الطبيعة بشكل نهائي، والحجَّة أنّ للأقدار سبلاً لا تغيّرها. ولكنّها في الوقت نفسه إشارة إلى أن للحقيقة، أيًّا تكن هذه الحقيقة، وجهاً غيبيًّا، لا بدَّ من التضحية بالآخر في سبيل الوصول إليه. (راجع دراستنا «المواكب»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٧ ـ العواصف:

● هو «مجموعة مقالات وحكايات وشعر منثور» كما يقول جبران نفسه في رسالة إلى إميل زيدان صاحب «دار الهلال» في مصر.

ـ والحقيقة أن الكتاب مجموعة كتابات (خواطر وقصص ومسرحية

ومقالات اجتماعية)، ظهرت تباعاً في الصحف والمجلّات، وصدرت سنة ١٩٢٠.

ـ وهو عصارة حلم بعالم آخر قياساً بحقيقة تختزن طاقات هائلة على التساؤل. فجاء مزيجاً من قبول ورفض، من رضى بما اطمأنّ إليه من الأشياء والكائنات، وانقلاب على ما أمضّه فاقتضى التعبير بالصراخ.

● وهو اضطلاع بمهمّة قوميّة انطلاقاً من أنّ التراث الآدميّ العالمي هو في الوجدان المثقّف بصداه ورجالاته. فتحدوه الرغبة في المحاكاة والمماثلة إلى أن يهيّئ صاحبه ليصبح محطة في تاريخ أمّته.

● وهو ككل كتاب، فعل حبّ. أولم يكن انزواء للكتابة وانفراداً لخلق؟ وهو بهذا المعنى مظهر حبّ للذات، انصرف به الكاتب عن الهمجيّ من التعبير ـ وكلّ حركة هي تعبير في الحقيقة ـ إلى الراقي الباقي في خزائن الناس. (راجع دراستنا كتاب «العواصف»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٨ ـ البدائع والطرائف:

● هو آخر كتاب صدر لجبران في اللغة العربيّة. يعود الفضل في جمع موادّه وإصدارها في مصر سنة ١٩٢٣ لـ «مكتبة العرب».

ـ فيه بعض من «دمعة وابتسامة»، و «العواصف»، ومقالات وقصائد كُتبت في عهود مختلفة ولم تُنشر.

ـ وفيه رسوم لمفكّرين مسلمين وعرب، وضع جبران أكثرها يوم كان طالباً في مدرسة الحكمة.

● وهو كلمات حرّة تفتح في جدار الواقع كوى على حضور آخر، أكثر بهاء، ربّما، إطاره الخيال الخالق، والعاطفة ـ الطريق إلى كلّ حدس صادق، والفكر الذي ينكت أديم الأشياء والكائنات مسرّباً إلى خفاياها نور الذات المشغوفة بالحقائق بحثاً عن يقين.

● و «البدائع والطرائف» ارتحال عبر اللغة في مشروع ريادة واكتشاف. أوتكـون حياة الآدميّين غير تلك الهجرة الحالمة من أرض دخائلهم باتجاه العالم، ليعودوا محمَّلين بما يجيب عن استفهامات كثيرة تحرج وجودهم؟ (راجع دراستنا «البدائع والطرائف»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

ب ـ المصادر المعرّبة عن الإنكليزيّة

١ ـ المجنون:

هو أوّل كتب جبران باللغة الإنكليزية، وقد صدر في أواسط تشرين الأول من عام ١٩١٨ عن دار الناشر ألفرد كنوف، مزيّناً بالرسوم وبحجم أسود صغير.

ـ وهو نوعان من الكلام: قصص وخواطر.

ـ وفكرة الكتاب، أي الجنون، ليست من الكائن الذي أوجده جبران، برأينا، بقدر ما هي تعبير عن عالم مجنون استوجب أن يُجنّ إنسان فيه. إنه رؤية بالمقلوب لما هو مقلوب، فيتعافى النظر وتسلم الحقيقة.

● فيه المزج بين مولّدات الفكر البشري: جنى كثير من فلسفة وشعر وعلوم. فمن الأولى الإشراقيّة والتقمّص وأصداء من فتوحات الفكر الشرقي، ومن الشعر حرارة الاندفاق الوجداني والعاطفة المتّقدة ووميض الخيال الفريد، ومن العلوم آثار من الفرويديّة والنسبيّة وثقل المادّة وكثافة العناصر.

● هو المجنون جبران، مجاهداً ليتبيَّن معالم طريق. نجد فيه حزن «دمعة وابتسامة»، وحيرة «البدائع والطرائف» وتشاؤمية «العواصف»، لكنّ فيه أيضاً تهيُّؤاً، على مكابرة إصرار، لمعاقبة الحياة الدنيا عن طريق الابتسام المجنون وخربشة منطق الأشياء. (راجع دراستنا «المجنون»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٢ ـ السابق:

كتاب خواطر وحكايات ـ أمثال قصصيّة باللغة الإنكليزيّة، صدر في سنة ١٩٢٠، تسود فيه فكرة الغرابة والإدهاش بالمفارقات المتجاذبة على اختراق كلّي للحقيقة الظاهرة في الكائنات.

ـ وهو نوعان من الكلام: قصص وخواطر.

ـ والعنوان مستمدّ، برأينا، من تأمّلات جبران في نصّين هما: «أنت سابق نفسك»، وهو النصّ الأول، و «اليقظة الأخيرة»، وبه ختم الكتاب.

● فيه الأسطوريّة عند اصطناع عالم بديل، حيث كائنات على غير ما تُقرّه يوميّات الناس، تمادياً في الكبر أو تناهياً في الصغر والحجم.

● وفيه الرموزيّة تدنيه في كلّ وقت من مختزنات تراثيّة ودينيّة وترسم في داخله آفاقاً شاعريّة.

● وفيه المزاوجة بين الخلقيّة والجماليّة، فترفد الواحدة الأخرى، كما في كل أدب تعليمي الغاية، ولو قدّم بحلّة غنائيّة أو قالب قصصي خفيّ المرامي. (راجع دراستنا «السابق»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٣ ـ النبيّ:

هو كتاب مواعظ شعرية، والشاعر الشاعر نبيّ عند الإغريق، كتبه جبران وأصدره سنة ١٩٢٣ في غلاف أسود حمل صورة للمصطفى المقترح، بقسمات، يقول الرسّام صليبا الدويهيّ، إنها من وجه ماري قهوجي، صديقة الكاتب.

ـ إنه جماع أفكار كثيرة احتوتها كتبه السابقة، ولكن كشرانق صغيرة لمعتقداته النهائية في الحياة والكون والفنّ، تقمّصاً وحلولية ووحدة وجود.

ـ وهو كتاب حُملت فيه الموضوعات ذات الواقعيّة الإنسانيّة إلى مثالها

عن طريق الرمزيّة، فتداخلت بذلك، عن طبع وقصد، تعليميّة وعظيّة وغنائيّة قلبيَّة في آن.

● إنّه كتاب الجماليّة الخلقيّة أيضاً. فأنت حيال عالم نظيف، سامي الأشواق، متفوّق بإنسانه واهتماماته على نحو يغري بالفرادة، صنو التأله في البعد الأخير للكلمة.

● ويحمل الكتاب دعوة هي انحناءة الآدميين للمشيئة الكونيّة، وخشعة مبتهجة لقدر ناموس تأتمر بحكمته الكائنات، فتعمل بما يشبه الصلاة والتعبُّد، وبمحبَّة عميقة تحرّرت من كلّ دخيل نافل شائب، ليتواصل بها موكب الحياة حتى بلوغ الناموس الكونيّ تمامه.

● وفيه دعوة إلى الخلاص الأحدي، فلكلّ وزنته، وكلّ اكتشاف للعالم، كلّ تسلّق لشجرة المعرفة، كلّ اجتياز لمسافة باتجاه الكمال، إنّما تتمّ أحداثها بواسطة الإنسان ذاته. (راجع دراستنا «النبي»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٤ ـ رمل وزبد:

هو كتاب خواطر مبتسرة، وأحياناً لوحات قصصيَّة بحوارات ينم كلّ منها عن موقف واحد. كتب جبران معظمه باللغة الإنكليزية بيده فترة، ثم إملاءً على صديقته «بربارة يونغ». ونقل الباقي عمّا وضع أصلاً باللغة العربيَّة، وتضمَّنته كتبه السابقة. صدر في كانون الأول ١٩٢٦.

ـ هذه الخواطر، خصوصاً، تبدو كأنها الفكر المهرول غير المستقرّ، كمثل تلك الشذرات ـ اللمعات من رؤى، تأتيك تداعياً، أو وحياً وإلهاماً، وأنت منصرف إلى أعمال يوميَّة تافهة.

ـ وهي، برأينا، كتبت في مراحل متباعدة، وظلّت الخزَّان الرئيس الذي ينهل منه تجاربه والتأملات، كمثل ما يفعل الموسيقيّ بآلته، قُبيل الثبات على نغمة معيَّنة.

● هو الوحدة المتنوّعة من اهتمامات التراب ومشتهيات القلب في جبران. وهل الرمل إلاّ إلحاح الشكل الواحد من الحبّة ومثيلاتها على نحو هائل؟ أويكـون الزبد غير أثيريّات على شكل رذاذيّ فيذكّر جسدك بالعري، وبأن الحقيقة لا يمكن أن تخفيها ثياب؟

● وهو مرآة للمخزون الثقافي لدى جبران كحصاد لمطالعاته المختلفة المنابع، ولما يتنامى إليه يومياً من فتوحات الفنّ والفكر والدين والفلسفة. وبهذا المعنى نفهم تأثّره بمدارس التحليل النفسيّ في أكثر من حُكم وخاطرة، وكذلك إقحامه الماورائيات في كلّ قياس جسمانيّ، وبراعته بالجدل متمثلاً بثنائيات تتلاقى بالتناقض، وقد تفترق بتآلفها التام. (راجع دراستنا «رمل وزبد»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٥ ـ يسوع ابن الإنسان:

هو كلمات ـ شهادات (عددها ٧٩) في يسوع وفي سواه ممّن هم على علاقة به في وجه من الوجوه، يُدلي بها سبعون رجلاً وامرأة، بعضهم من زمن المسيح وقد ذكرهم الإنجيل، وآخرون من اختلاق الكاتب، ينقلون عمَّن عاصر السيّد فرآه أو سمع منه، وفي عدادهم جبران نفسه، وقد أتى بعد تسعة عشر قرناً. صدر عام ١٩٢٨.

ـ نراه في أقسام ثلاثة، على فوضاه: شهادات مؤمنة بيسوع، شهادات غير مؤمنة به وبرسالته، وكلام في سوى يسوع.

ـ كأنه إنجيل جديد، بل هو توثيق ذاتي لشهادة إنجيليين هم معه أكثر من أربعة (سبعون في الحقيقة في واحد فرد هو جبران)، وقد حمل إلى المسيحيّة حرارة التفاعل الفرديّ مع حدثها العظيم.

● إنّه كتاب موضوعات قبل أن يكون كتاب أسماء، لذلك نُبصر في اللوحة ـ الشهادة، ما يشبه العنوانين: الأوّل تاريخي يحدّد هويّة وزمن الشاهد المارّ أمام منصَّة الحياة، والثاني فكري هو إضاءة للموضوع الذي استُدعي من أجله.

● وهو انتزاع ليسوع من حداد العصور، وبُرك الدماء والدمع التي رمته في داخلها وثنيّة بعض الغلاة من أتباعه، فقدّمه إلهاً للفرح، مقتبلاً باختياره أن يفتدي جنسه، بكآبة «من النوع الذي ينهض إلى الشفتين ويتحوّل إلى ابتسامة»، كما تقول «إحدى المريمات». (راجع دراستنا «يسوع ابن الإنسان»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٦ ـ آلهة الأرض:

كتاب بأصوات ثلاثة آلهة، صدر قبيل موت الكاتب في سنة ١٩٣١. وهو حوار شعري بين هؤلاء. وكلٌّ يمثل موقفاً إلهيًّا، ولكنه إنسانيّ في النهاية:

ـ الإله الأول: سئم الخليقة. إنّه الإله المكتفي بذاته المُعرض عن صنيعته.

ـ الإله الثاني: يرى أن الآلهة هم كلّ ما وراء هذا العالم وكلّ ما فوقه، وبأن لا قيمة لكل بشريّ إذا ظلّ بشريًّا.

ـ الإله الثالث: ظلّ صوتاً منفرداً حتى ما قُبيل نهاية الكتاب، فيما الحوار يجري بين الإلهين الأوّلين. وقد راقب شاباً في «الوادي» مترنماً بمكنونات قلبه، وحسناء ترقص وقد سكرت بخمرة إنشاده.

● والكتاب تصوير لحيرة جبران المفكّر الباحث عن انتماء بين خلاص في الأرض وآخر في الماوراء. فمن جهة يقتبل الدنيا كما هي، مستجيباً لناموسها، فيتغنّى بموقع «الشاب» وينشد غبطة «الفتاة» منقادَين راضخين للمشيئة، ومن ثانية يظهر بلغة الإله الثالث أن المعرفة يقظة على الهمّ الكونيّ، وخير منها انتماء إلى حركة الحياة الشاملة.

● وهو لغة جديدة في أدبنا المعاصر، تمزج الموقف الغنائي بالتعبير الملحمي، على خطى عمالقة الأدب العالمي، فتأتي الخاطرة مشبعةً بتجارب الماضي والحاضر، حافلة بالنبوءات الكبيرة، ترسم بواسطتها عوالم خارقة، ويكفي أنّها قد صنعت الآلهة على شاكلة الإنسانيّين. (راجع دراستنا «آلهة

الأرض»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٧ ـ التائه:

كتاب مخطوطة لجبران، طبع بعد موته، وصدر سنة ١٩٣٢. وهو كتاب حكايات وأمثال، إنسانيّة المغزى، بألسنة أشخاص أو بهائم وطيور، وحتى نباتات أحياناً، وقد ورد بعضها حوارات بين كائنات سميا كالملائكة والأنبياء وسواهم.

ـ هو، ككل عمل مستيقظ على الموقع الإنساني، ينشد الحقيقة، يحاورها ويتأمل. تعظه فيعلي الصوت بما يقول واعظاً بدوره مشاركيه حدث الحياة.

ـ وفيه جهرٌ بنسبيَّة المعرفة في حضارة إنسانيَّة لا تُعنى بالعالم الآخر الذي في أعماق كلّ منَّا، نأتمر به دون أن ندري.

● وفي الكتاب محاولة لإنقاذ العالم من غفلته بالتسليم لقدر الله، والانحناءة لمنطق الناموس الكونيّ الشامل. يرافقها هزء من استعلاء قويّ ضعيف فينا هو العقل، فيغلب صوت القلب ما عداه، ويُكتفى بشعور امتلاء بالكون، وبحدس انتماء إليه.

● ولكنّه، على الجملة، يسجّل تراجعاً في المعتقدات الجبرانية. ويكاد يكون صرخة يأس أو أقلّه تنهيدة إنسان متروك لنواح عالم تحتضر منه القيم في داخله، وتتجاذبها الأهواء. فهل يكون من الكاتب قولاً في ندامة عبور بلا جدوى ودمعة انكسار؟

(راجع دراستنا «التائه»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

٨ ـ حديقة النبيّ:

كتاب مواعظ شعرية، كتب جبران بعضه، وخلَّف تصميماً لبعض آخر، ثم أنجزته «بربارة يونغ» وطبعته سنة ١٩٣٣.

ـ هو لوحات تواصلت اتفاقياً فترابطت بخيط واهٍ من قصص.

ـ وهو لا يوضح علاقة الإنسان بالعالم، في رأينا، بقدر ما يعمّق صلة الإنسان بنفسه داخل العالم. فالحديقة رحم العالم الجديد الذي حاول المصطفى أن يستعيد بواسطته الفردوس المفقود لإنسان رصد لولادات كثيرة، على مذهب التقمّص، حتى تنفذ الحكمة الأزلية اختيارها، ويتحوَّل العالم كلّه حديقة للأنبياء.

● إنَّه بشارة جبرانيَّة بعالم موحّد، لا فرق فيه بين ما هو ماديّ وما هو من طبيعة الشوق، حيث يحلّ الكبير في الصغير والعام في الخاص، وتتساعد الكائنات في سيرها متهادية عبر الأحداث والأزمنة لتحقّق هدفاً مرسوماً.

● وهو إيقاظ للشرق خصوصاً من غفلته العاهة، فيستنهض المصطفى جبران في الأمة كلّ راقد خانع، فتنبجس أمّة تنسج فتلبس، وتزرع فتأكل، ولا يعود سائسها ثعلباً ولا حكماؤها خرساً، ويقلّ كلامها على الله الذي لا نستطيع أن نفهمه، ويكثر حديث أفرادها بعضهم عن بعض.

(راجع دراستنا «حديقة النبي»، منشورات مكتبة صادر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، المقدّمات).

*

مسحٌ سكّاني للقصص الجبرانيّ

(يشمل أسماء الأشخاص في قصص الآثار العربيّة والمعرّبة، على ضوء البيئة أو المهنة أو الطبقة التي ينتسبون إليها، مع تصنيف لهم بمظهر استقامةٍ أو انحراف أو رماديّة في المسعى الخلقي).

ملاحظة أولى:

وقفت للنساء القسم (١٢) من هذا العمل لأسباب منها:

- تسهيل البحث بتبسيط منطلقاته؛
- الاستجابة لواقع البيئة والمناخ العام الذي وضعت فيه هذه اللوحات القصصيّة، وهي بيئة شرقيّة، ومناخٌ لم يتساوَ فيه الجنسان في السلوك الاجتماعي والممارسة المدنيّة.

ملاحظة ثانية:

- أنزلتُ الحيوان في قائمة من رأيت أنّه يرمز إليه من الإنسانيّين، ومثله النبات والكائنات العلويّة، في كلّ ما يُسمّى قصصاً خرافيًّا.

ملاحظة ثالثة:

- اعتبرتُ رجال الدين، بشكل عام، من فئة «الساسة وأهل السلطان»،

بسبب التلازم الذي كان قائماً، زمن جبران، بين السلطة الدينيّة والإقطاع السياسي.

١ ـ الأطبَّاء:

● بمظهر استقامة:

الطبيب: الأجنحة المتكسّرة.

الطبيب: التائه، الطريق.

● **بمظهر رماديّة في المسعى:**

طبيب البلاط: السابق، الخلافات.

٢ ـ الأغنياء وأصحاب النفوذ:

● بمظهر استقامة:

رشيد بك نعمان: الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.

فارس كرامة: الأجنحة المتكسّرة.

فارس رحَّال: العواصف، السمّ في الدَّسم.

لاوي: يسوع ابن الإنسان، لاوي غنيّ بجوار الناصرة.

جاورجيوس: يسوع ابن الإنسان، جاورجيوس البيروتي.

أفراييم: يسوع ابن الإنسان، أفراييم من أريحا.

الغنيّ: التائه، المبادلة.

● بمظهر انحراف:

الفارس: عرائس المروج، مرتا البانيّة.

الغنيّ: دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة.

أهل القصر: دمعة وابتسامة، بين الكوخ والقصر.

الغنيّ: دمعة وابتسامة، منيّتان.

سلمان أفندي: العواصف، السرجين المفضَّض.

الغنيّ: يسوع ابن الإنسان، بطرس.

يفتاح: يسوع ابن الإنسان، يفتاح في قيصريَّة.

الغنيّ: يسوع ابن الإنسان، رجل غنيّ.

● بمظهر رماديَّة في المسعى:

عريس ليلى: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.

الغنيّ: دمعة وابتسامة، في مدينة الأموات.

الأب، الزوج: دمعة وابتسامة، مخبّآت الصدور.

جلال باشا: العواصف، الصلبان.

الغنيّ: النبيّ.

الغنيّ: التائه، الخمرة العتيقة العتيقة.

الغنيّ: التائه، المبادلة.

٣ ـ أهل المهن والصناعات:

● بمظهر استقامة:

الفلكيّ الأعمى: المجنون، الفلكيّ.

النبيّ العرّاف: السابق، الخلافات.

فيلمون الصيدليّ: يسوع ابن الإنسان، الصيدليّ اليونانيّ.

ملاخي: يسوع ابن الإنسان، ملاخي الفلكيّ البابليّ.

آحاز: يسوع ابن الإنسان، آحاز صاحب الفندق.

العرّاف: التائه، أحلام.

الإسكاف: التائه، الفيلسوف والإسكافي.

● بمظهر انحراف:

الحائك: المجنون، العدالة.

الحائك، النجّار: المجنون، الطموح.

العرّاف: المجنون، اللغة الأخرى.

الصيارفة: يسوع ابن الإنسان، نتنائيل.

● بمظهر رماديّة في المسعى:

الصيرفي، الإسكاف: المجنون، العدالة.

الفندقيّ، البنّاء، الحائك، التاجر، الفلكيّ: النبيّ.

برقا: يسوع ابن الإنسان، برقا التاجر الصوري.

الإسكاف: يسوع ابن الإنسان، إسكاف في أورشليم.

الكاتب: التائه، الشرائع.

البحّار: حديقة النبيّ.

٤ ـ الجنود:

● بمظهر استقامة:

الجنديّ: دمعة وابتسامة، بنات البحر.

الجنديّ: دمعة وابتسامة، السّلم.

ابن الصعبي: دمعة وابتسامة، رجوع الحبيب.

كلوديوس: يسوع ابن الإنسان، كلوديوس قائد المئة.

● بمظهر انحراف:

القائد: الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.

● بمظهر رماديّة في المسعى:

الجنود: السابق، البهلول.

٥ ـ الخدم والعبيد:

● بمظهر استقامة:

الخادم المقدام: يسوع ابن الإنسان، برقا التاجر الصوري.

● بمظهر انحراف:

العبيد الأربعة: السابق، بنت الأسد.

الخادم الجبان: يسوع ابن الإنسان، برقا التاجر الصوري.

● بمظهر رماديّة في المسعى:

خادم المطران، خدم فارس كرامة ومنصور بك: الأجنحة المتكسّرة.

الخادمة: العواصف، الصلبان.

خدم محافظ البندقيّة: البدائع والطرائف، سفينة في ضباب.

الخادم: يسوع ابن الإنسان، بطرس.

الطبقة المكدونة: يسوع ابن الإنسان، كاهن شاب في كفرناحوم.

ـ الساسة وأهل السلطان:

● بمظهر استقامة:

ناثان (عليّ الحسينيّ): عرائس المروج، رماد الأجيال.

الأمير: العواصف، الشاعر البعلبكيّ.

الملك، الوزير: المجنون، الملك الحكيم.

الملك: السابق، الملك الناسك.

نفسيبعل: السابق، الذات العظمى.

ملوك الشرق: يسوع ابن الإنسان، حنّة أمّ مريم.

عسّاف: يسوع ابن الإنسان، عسّاف الملقّب بخطيب صور.

منسّى: يسوع ابن الإنسان، منسّى المحامي الأورشليمي.

مانوس: يسوع ابن الإنسان، مانوس من بومبي إلى يونانيّ.

الملك: التائه، الملك.

الأمير: التائه، الهدايا الثلاث.

الملك: التائه، الشرائع.

الملاك الأعلى: التائه، الملاكان الحارسان.

ملاك الطريق: التائه، المبادلة.

● بمظهر انحراف:

الحاكم، رهبان دير أليشاع: عرائس المروج، يوحنّا المجنون.

الأمير: الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.
الكاهن: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.
رهبان الدير، الشيخ عبّاس، الخوري الياس: الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.
المطران، الكهّان: الأجنحة المتكسّرة.
الخيال الأوّل: دمعة وابتسامة، بين الخرائب.
الأمير: دمعة وابتسامة، طفلان.
الأمير: دمعة وابتسامة، المجرم.
الكاهن (ذو الملابس السوداء): العواصف، على باب الهيكل.
فريد بك دعيبس: العواصف، السّرجين المفضّض.
الخوري سمعان: العواصف، الشيطان.
الخوري أسطفان: العواصف، السمّ في الدَّسم.
الأمير: البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قطّ في التاريخ.
كبير السنانير: المجنون، الكلب الحكيم.
قره قوش: المجنون، العدالة.
الكاهن: المجنون، اللغة الأخرى.
القاضي: السابق، البهلول.
الوزير: السابق، الملك الناسك.
النسران: السابق، الحرب والأمم الصغيرة.
الملك، الوزير: السابق، ملك أردوسة.
الملك: السابق، الخلافات.
كهنة أورشليم، القياصرة: يسوع ابن الإنسان، يوسف الذي من الرامة.
بيلاطس: يسوع ابن الإنسان، بيلاطس البنطي.
قيافا: يسوع ابن الإنسان، قيافا رئيس الكهنة.
أوريّا: يسوع ابن الإنسان، أوريّا الشيخ الناصريّ.
حنانيا: يسوع ابن الإنسان، حنانيا رئيس الكهنة.

شاوول الطرسوسي: يسوع ابن الإنسان، سابا الأنطاكي.
النّسر: التائه، النّسر والقبّرة.
الوالي، الأسقف: التائه، الملك.
السياسيّ، الكاهن: التائه، الضفادع.
الملك أنطوخيوس الثاني: التائه، بناة الجسور.
الأمير: التائه، الراقصة.
الملك: التائه، الصولجان.
الأسقف: التائه، وميض البرق.
الكلب: التائه، البدر الكامل.

● بمظهر رماديّة في المسعى:
الزعيم: دمعة وابتسامة، رجوع الحبيب.
محافظ البندقيّة: البدائع والطرائف، سفينة في ضباب.
شيوخ أورفليس، الكهّان، القاضي،
الخطيب، أحد الشيوخ في الخير والشرّ، الكاهن،
السائل في الدين: النبيّ.
المطران: التائه، الهدايا الثلاث.
الكاهن: التائه، الطريق.

٧ ـ **الشعراء، الكتّاب وأهل الفنّ**:

● بمظهر استقامة:
الشاعر: دمعة وابتسامة، موت الشاعر حياته.
جبران: دمعة وابتسامة، أمام عرش الجمال.
جبران: دمعة وابتسامة، زيارة الحكمة.
الكاتب: دمعة وابتسامة، مناحة في الحقل.
الكاتب: دمعة وابتسامة، بيت السعادة.

الكاتب: دمعة وابتسامة، مدينة الماضي.
الكاتب: دمعة وابتسامة، الحيوان الأبكم.
الراوي: العواصف، حفّار القبور.
الشاب حامل القيثارة: العواصف، على باب الهيكل.
الشاعر: العواصف، الشاعر البعلبكيّ.
بولس الصلبان، سليم معوّض: العواصف، الصلبان.
المجنون: المجنون، الليل المجنون.
الشاعر الرابع: السابق، الشعراء.
رومانوس: يسوع ابن الإنسان، رومانوس الشاعر اليونانيّ.
نيقوديموس: يسوع ابن الإنسان، نيقوديموس الشاعر.
الشاب المرنّم: آلهة الأرض.
الشاعر: التائه، أغنية الحب.
الشاري: التائه، التمثال.
شاعر الطفولة: التائه، القصيدتان.
الشاعر: التائه، الفأرة والهرّ.
الشاعر: التائه، الموت والفراشة.
الشاعر: التائه، سبعون.

● بمظهر انحراف:
آديب أفندي: العواصف، السرجين المفضّض.
الشعراء الثلاثة: السابق، الشعراء.
صحيفة الورق: السابق، الصحيفة البيضاء.
الحيّة: السابق، العالم والشاعر.
الرجل: التائه، الرمّانات.
الشاعر: التائه، جسد وروح.
شاعر زوش: التائه، القصيدتان.
الشاعر: التائه، المبادلة.

● بمظهر رماديّة في المسعى:
الشاعر: الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.
الكاتب المجنون: المجنون، اللغة الأخرى.
الشاعر السائل في الجمال: النبيّ.

٨ ـ الصبية والأولاد:

● بمظهر استقامة:
فؤاد: عرائس المروج، مرتا البانيّة.
ابن الأرملة: دمعة وابتسامة، الأرملة وابنها.
ابن الأرملة: دمعة وابتسامة، طفلان.
أطفال الراوي: العواصف، حفّار القبور.
الطفل ابن الخمس: العواصف، على باب الهيكل.
الأطفال: المجنون، المدينة المباركة.
بترولينة ابنة بطرس: يسوع ابن الإنسان، سمعان بطرس.
ابنة آحاز الفندقي: يسوع ابن الإنسان، آحاز صاحب الفندق.
أولاد الراوي: التائه، التائه.
الطفل: التائه، القصيدتان.
الغلام: التائه، النبيّ والغلام.

● بمظهر انحراف:
الفتى: المجنون، كيف صرت مجنوناً.
الأولاد: السابق، البهلول.
ابن الملك: السابق، الخلافات.

● بمظهر رماديّة في المسعى:
ابن سلمى: الأجنحة المتكسّرة.
ابن الأمير: دمعة وابتسامة، طفلان.
ابن صاحب الحان: المجنون، الطموح.

٩ ـ عامة الشعب، الرعاة والفلاّحون:

● بمظهر استقامة:

علي الحسيني (ناثان): عرائس المروج، رماد الأجيال.
والد مرتا بالتبنّي: عرائس المروج، مرتا البانيَّة.
الشاب الشهيد، الكهل الشهيد: الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.
سمعان الرامي، القويّ البنية،
الشاب الذي فكّ القيود: الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.
الفقير: دمعة وابتسامة، في مدينة الأموات.
الفقير: دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة.
الراعي: دمعة وابتسامة، الأمس واليوم.
الفقير: دمعة وابتسامة، بين الكوخ والقصر.
الفقير: دمعة وابتسامة، منيّتان.
الكلب: دمعة وابتسامة، الحيوان الأبكم.
حبيب سعادة: العواصف، الصلبان.
مريم العذراء: المجنون، اطلبوا تجدوا.
النعجة، الحمل: السابق، الحرب والأمم الصغيرة.
الراعي، غملائيل: يسوع ابن الإنسان، راعٍ في جنوب لبنان.
سمعان: يسوع ابن الإنسان، سمعان القيرواني.
القبَّرة: التائه، النّسر والقبَّرة.
الفلاّح: التائه، الفأرة والهرّ.

● بمظهر انحراف:

والد يوحنَّا: عرائس المروج، يوحنَّا المجنون.
البنفسجة: العواصف، البنفسجة الطموح.
حفَّار القبور: المجنون، الطموح.
الفلاّح: السابق، الأثمان.

السوريّون: يسوع ابن الإنسان، فيلمون الصيدليّ.
سركيس: يسوع ابن الإنسان، سركيس الراعي اليونانيّ.
الفقير: التائه، الهدايا الثلاث.

- بمظهر رماديّة في المسعى:

والد جبران، حفّار القبور: الأجنحة المتكسّرة.
الزرّاع عاشق الأميرة: دمعة وابتسامة، حكاية.
العاشق الفقير: دمعة وابتسامة، مخبّآت الصدور.
الفتى: البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قطّ في التاريخ.
صاحب الدكّان: المجنون، الطموح.
الفلاح، الشعب من أبناء أورفليس: النبيّ.
السلحفاة: التائه، النّسر والقبّرة.
البغال: التائه، بناة الجسور.
الفلاّحون: التائه، الخمرة العتيقة العتيقة.

١٠ ـ الغافلون، التائهون والمتسكّعون:

- بمظهر استقامة:

سليم حبيب ليلى: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.
الشاب: دمعة وابتسامة، حكاية صديق.
الكاتب: المجنون، كيف صرتُ مجنوناً.
الكاتب: المجنون، الله.
الشاب: المجنون، الناسكان.
الكاتب: المجنون، الرمانة.
الأسد، الزرزور: المجنون، القفصان.
النملة الثالثة: المجنون، النملات الثلاث.
توما، سمعان بطرس: يسوع ابن الإنسان، يعقوب بن زبدى.
ابن سوسان: يسوع ابن الإنسان، سوسان الناصرية جارة مريم.

الضبع، التمساح: التائه، دموع وضحكات.
الشاب: التائه، المجنون.
الغصنان: التائه، السّلم يعدي.
الصيَّاد الثاني: التائه، الصيَّادان.
التائه، التائه الآخر: التائه، التائه الآخر.

● بمظهر انحراف:

الكهل المخمور: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.
منصور بك غالب: الأجنحة المتكسّرة.
المتسوّل: دمعة وابتسامة، المجرم.
سليم أفندي: العواصف، فلسفة المنطق.
نجيب مالك: العواصف، السمّ في الدَّسم.
الكاهن: العواصف، ما وراء الرداء.
المنقطع عن الدنيا: البدائع والطرائف، سفينة في ضباب.
هو، صديقه: البدائع والطرائف، بالأمس واليوم وغداً.
المتشائم، المتفائل، المتصوّف، الخياليّ، الدهريّ، التقيّ: البدائع والطرائف، البحر الأعظم.
زين العابدين النهاوندي: البدائع والطرائف، إرم ذات العماد.
الكهل: المجنون، الناسكان.
الكلب: المجنون، الكلب الحكيم.
الرجل: المجنون، اطلبوا تجدوا.
الثعلب: المجنون، الثعلب.
الكاتب: المجنون، اللذة الجديدة.
النملتان الأوليان: المجنون، النملات الثلاث.
الرجلان: المجنون، على درجات الهيكل.
الورقتان: المجنون، وريقة عشب وورقة خريف.
العين، الأذن، اليد، الأنف: المجنون، العين.

البهلول: السابق، البهلول.

اللص: السابق، القدّيس.

الوحش: السابق، الطمع.

الناقدون: السابق، الناقدون.

دوّارة الريح: السابق، دوّارة الريح.

الضفادع الثلاث: السابق، المعرفة ونصف المعرفة.

الحسُّون: السابق، العالم والشاعر.

السمكتان: السابق، البحار الأخرى.

السارق: السابق، التوبة.

يهوّذا: يسوع ابن الإنسان، يعقوب بن زبدى.

باراباس: يسوع ابن الإنسان، باراباس.

الجمال، القبح: التائه، ملابس.

المحارتان: التائه، اللؤلؤة.

الكلاب الثلاثة: التائه، السّلم والحرب.

الصديقان: التائه، أمس واليوم وغداً.

البحّار الوالد: التائه، اللعنة.

الرجل الأوّل: التائه، العثور على الله.

الرجل: التائه، التمثال.

الرجل الأوّل: التائه، على الرمل.

الملاك الأول، الملاك الثاني: التائه، الملاكان الحارسان.

الرجال الثلاثة: التائه، حقل زاآد.

الرجل الماهر: التائه، الحزام الذهبيّ.

الكلاب: التائه، البدر الكامل.

الرجال الثلاثة: التائه، الليدي روث.

الرجال الأربعة: التائه، الله والآلهة العديدة.

الفيلسوفان: التائه، المسألة.

العصافير: التائه، السّلم يعدي.

العشب، الظلّ: التائه، الظلّ.

الجدولان: التائه، النهر..

الصيّاد الأوّل: التائه، الصيّادان.

● بمظهر رماديّة في المسعى:

الكهل، الهرم المنحني الظهر، الأعمى: العواصف، على باب الهيكل.

الرجل النائم: المجنون، النملات الثلاث.

الرجل السائل في معرفة النفس، رجل الصداقة: النبيّ.

الشاب: التائه، تلك التي كانت صمّاء.

الرجل الآخر: التائه، العثور على الله.

الرجل الحالم: التائه، أحلام.

المسافر: التائه، حقل زاآد.

الرجال الثلاثة: التائه، النبيّ الناسك.

١١ ـ المثقّفون والمصلحون:

● بمظهر استقامة:

جبران: عرائس المروج، مرتا البانيّة.

يوحنّا: عرائس المروج، يوحنّا المجنون.

جبران: الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.

جبران: الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.

خليل: الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.

جبران: الأجنحة المتكسّرة.

الخيال الثاني: دمعة وابتسامة، بين الخرائب.

جبران: دمعة وابتسامة، رؤيا.

الشيخ: دمعة وابتسامة، الدهر والأمّة.

فتى لبنان: دمعة وابتسامة، اللقاء.

الشاب العاشق: دمعة وابتسامة، حديث الحبّ.
الرجل ذو الوجه الصبيح: العواصف، على باب الهيكل.
الكاتب، الأشباح الثلاثة: العواصف، رؤيا.
الكاتب، يسوع: العواصف، مساء العيد.
يوسف الفخري: العواصف، العاصفة.
يوسف مسرّة: العواصف، الصلبان.
نفسُ هو: البدائع والطرائف، البحر الأعظم.
الكاتب: المجنون، اللعين.
الكاتب، حفَّار القبور: المجنون، حفَّار القبور.
الشيخ: المجنون، المدينة المباركة.
الليل: المجنون، الليل المجنون.
المصلوب: المجنون، المصلوب.
الرجل العادي: السابق، الذات العظمى.
المسافر: السابق، الناقدون.
الشيوخ: السابق، ملك أردوسة.
الضفدعة الرابعة: السابق، المعرفة ونصف المعرفة.
المشتري: السابق، الأثمان.
المصطفى: النبيّ.
يسوع: يسوع ابن الإنسان، عسَّاف الملقَّب بخطيب صور.
يوحنَّا: يسوع ابن الإنسان، يوحنَّا بن زبدى.
نتنائيل: يسوع ابن الإنسان، نتنائيل.
يوثام: يسوع ابن الإنسان، يوثام الناصري.
يوسف: يسوع ابن الإنسان، يوسف الملقّب بيوستوس.
يعقوب: يسوع ابن الإنسان، يعقوب بن زبدى.
الفيلسوف: يسوع ابن الإنسان، فيلسوف فارسيّ في دمشق.
لوقا: يسوع ابن الإنسان، لوقا في المرائين.

متّى: يسوع ابن الإنسان، العظة على الجبل.
يوحنَّا: يسوع ابن الإنسان، يوحنَّا المعمدان.
يوسف: يسوع ابن الإنسان، يوسف الذي في الرامة.
كلاوبا: يسوع ابن الإنسان، كلاوبا البتروني.
الفيلسوف: يسوع ابن الإنسان، فيلسوف.
بنيامين: يسوع ابن الإنسان، بنيامين الكاتب.
زكّا: يسوع ابن الإنسان، في مصير يسوع.
برثلماوس: يسوع ابن الإنسان، برثلماوس في أفسس.
فيلبّس: يسوع ابن الإنسان، فيلبّس.
يعقوب: يسوع ابن الإنسان، يعقوب أخو الربّ.
داود: يسوع ابن الإنسان، داود أحد أتباعه.
سابا: يسوع ابن الإنسان، سابا الأنطاكي.
استفانوس: يسوع ابن الإنسان، نعمان الغداريني.
توما: يسوع ابن الإنسان، توما.
يوناثان: يسوع ابن الإنسان، رجل من لبنان.
التائه: التائه، التائه.
السرطان المائي: التائه، اللؤلؤة.
الرجل: التائه، حبّ وبغض.
الشاب: التائه، بناة الجسور.
الناسك: التائه، العثور على الله.
الراهب: التائه، الراهب والوحوش.
النبيّ: التائه، النبيّ والغلام.
الرجل الثاني: التائه، على الرمل.
الرجل العجوز: التائه، حقل زاآد.
الرجل غير الماهر: التائه، الحزام الذهبي.
الرجل: التائه، التراب الأحمر.

الرجل العجوز: التائه، الليدي روث.
الغريب الساذج: التائه، المسألة.
النّهر: التائه، النهر.
السرور، الحزن، : التائه، الصيّادان.
المصطفى، تلاميذه التسعة ومنهم:
حافظ، سركيس، مأنوس، فردروس
وربّان السفينة: التائه، حديقة النبيّ.

● بمظهر انحراف:
الجبّار: العواصف، حفّار القبور.
خليل بك تامر: العواصف، الصلبان.
هو: البدائع والطرائف، البحر الأعظم.
نجيب رحمة: البدائع والطرائف، إرم ذات العماد.
اللعين: المجنون، اللعين.
جبران: المجنون، المدينة المباركة.
الكاتب: المجنون، عندما ولدت كآبتي.
الكاتب: المجنون، عندما ولدت مسرّتي.
الناسك: السابق، القدّيس.
الناسك السائل في اللذّة: النبيّ.
المقدّم المنطقيّ: يسوع ابن الإنسان، يسوع الخارجي.
الحكماء الألف: التائه، الشرائع.
الفيلسوف: التائه، الفيلسوف والإسكافي.
الناسك: التائه، النبيّ الناسك.

● بمظهر رماديّة في المسعى:
الكاتب: المجنون، الذوات السبع.
المشترع، المعلّم، العالم: النبيّ.

الرجل: يسوع ابن الإنسان، رجل من الصحراء.
نعمان: يسوع ابن الإنسان، نعمان الغداريني.
المشترع جدّ توما: يسوع ابن الإنسان، توما.
الكاتب: التائه، المجنون.
الضفدعتان: التائه، الضفادع.

١٢ ـ النساء:

ـ التائهات والغافلات:

● بمظهر استقامة:

مرتا: عرائس المروج، مرتا البانيّة.
ليلى: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.
سلمى: الأجنحة المتكسّرة.
الزوجة الصبيّة: دمعة وابتسامة، مخبّآت الصدور.
راحيل: يسوع ابن الإنسان، راحيل إحدى التلميذات.

● بمظهر انحراف:

نجيبة: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.
المرأة الكئيبة: العواصف، على باب الهيكل.
فهيمة أرملة بطرس نعمان: العواصف، السرجين المفضّض.
سوسان زوجة فارس رحّال: السمّ في الدّسم.
المرأة: البدائع والطرائف، بالأمس واليوم وغداً.
الزوجة الصمّاء: التائه، تلك التي كانت صمّاء.
المرأة: التائه، وميض البرق.

● بمظهر رماديّة في المسعى:

راحيل: العواصف، ما وراء الرداء.
الأم، ابنتها: المجنون، بين هجعة ويقظة.
المرأة السائلة في الفرح والترح،

المرأة السّائلة في الألم: النبيّ.
حنّة: يسوع ابن الإنسان، حنّة من بيت صيدا سنة ٧٣.
نساء أورشليم، بنات المزارع: يسوع ابن الإنسان، كاهن شاب في كفرناحوم.
أميرة شواكيس: التائه، الأميرتان.
الفتاة: التائه، في السّوق.
الأمّ الثكلى: التائه، الطريق.
المرأة المسافرة: التائه، الحوت والفراشة.

ـ الحالمات:

● بمظهر استقامة:

الصبيّة الشهيدة: الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.
مريم بنت سمعان الرامي: الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.
الأمير عاشقة الزرع: دمعة وابتسامة، حكاية.
ابنة مصر: دمعة وابتسامة، اللقاء.
الأميرة: البدائع والطرائف، في سنة لم تكن قطّ في التاريخ.
آمنة العلويّة: البدائع والطرائف، إرم ذات العماد.
المرأة: المجنون، على درجات الهيكل.
المطرة، العرّافة الثانية: النبيّ.
مريم: يسوع ابن الإنسان، حنّة أم مريم.
إحدى المريمات: يسوع ابن الإنسان، إحدى المريمات.
بربارة: يسوع ابن الإنسان، بربارة اليمونيّة.
زوجة بطرس، حماته: يسوع ابن الإنسان، سمعان بطرس.
رفقة: يسوع ابن الإنسان، رفقة عروس قانا.
فومية: يسوع ابن الإنسان، رئيسة كاهنات صيدا.
عمّة حنّة: يسوع ابن الإنسان، حنّة في بيت صيدا سنة ٧٣.

حبيبة يوناثان: يسوع ابن الإنسان، يوناثان.
الراثية: يسوع ابن الإنسان، امرأة من جارات مريم.
المرأة: يسوع ابن الإنسان، امرأة من جبيل.
الراقصة الحسناء: يسوع ابن الإنسان، آلهة الأرض.
زوجة الراوي: التائه، التائه.
العجوز: التائه، الطريق.
الأميرة: التائه، سبعون.
كريمة: حديقة النبيّ.

● بمظهر انحراف:
الفتاة: دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة.

● بمظهر رماديّة في المسعى:
الصبيّة: عرائس المروج، رماد الأجيال.
الصبيّة: دمعة وابتسامة، السّلم.
الصبيّة المورّدة الخدّين: العواصف، على باب الهيكل.
زوجة بيلاطس: يسوع ابن الإنسان، بيلاطس البنطي.

ـ النساء ـ الرجال:

● بمظهر انحراف:
الملكة: السابق، بنت الأسد.
الأميرة: التائه، الملك.
الليدي روث: التائه، الليدي روث.

ـ العاملات والخادمات:

● بمظهر استقامة:
الراعية: دمعة وابتسامة، الدهر والأمة.
سوسان: يسوع ابن الإنسان، سوسان الناصرية جارة مريم.

● بمظهر رماديّة في المسعى:

القابلة: الأجنحة المتكسّرة.

المرضع: المجنون، اللغة الأخرى.

الجواري، الوصيفة المصرية: يسوع ابن الإنسان، مريم المجدليّة.

العاملات في الكرم: يسوع ابن الإنسان، أوريّا الشيخ الناصريّ.

القابلة مرتا: يسوع ابن الإنسان، سوسان الناصريّة جارة مريم.

ـ الغانيات:

● بمظهر استقامة:

المجدليّة: يسوع ابن الإنسان، مريم المجدليّة.

سالومة: يسوع ابن الإنسان، سالومة إلى صديقة لها.

الراقصة: التائه، الراقصة.

● بمظهر انحراف:

الأرملة، عشيقة الشاعر: الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.

المرأة التي تغامز رجلاً، المرأة

المنتهزة سكر زوجها: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.

أمّ سالومة: يسوع ابن الإنسان، سالومة إلى صديقة لها.

المرأة: التائه، أمس واليوم وغداً.

ـ المتحرّرات:

● بمظهر استقامة:

وردة: الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.

سوسان: الأرواح المتمرّدة، مضجع العروس.

المرأة التي تحدّث الشيخ: الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.

حبيبة الجنديّ: دمعة وابتسامة، بنات البحر.

ابنة الأحراج: دمعة وابتسامة، أمام عرش الجمال.

الحكمة: دمعة وابتسامة، زيارة الحكمة.

الآنسة هيلانة: العواصف، الصلبان.

● بمظهر انحراف:

يونا: يسوع ابن الإنسان، يونا امرأة حافظ هيرودوس.

● بمظهر رماديّة في المسعى:

الملكة: التائه، الصولجان.

ـ المحافظات:

● بمظهر استقامة:

راحيل: الأرواح المتمرّدة، خليل الكافر.

الأرملة: دمعة وابتسامة، الأرملة وابنها.

الأرملة: دمعة وابتسامة، طفلان.

حنّة: يسوع ابن الإنسان، حنّة أمّ مريم.

المرأة: التائه، جسد وروح.

المربّية: التائه، النبيّ والغلام.

● بمظهر انحراف:

نساء يشرين بأموال الأغنياء: الأرواح المتمرّدة، وردة الهاني.

المرأة الضعيفة أرملة الكهل: الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.

الأرملة: يسوع ابن الإنسان، أرملة الجليل.

صديقة الأميرة: التائه، الأميرتان.

المرأة: التائه، حبّ وبغض.

المرأة الثرثارة: التائه، الضفادع.

المرأة: التائه، أغنية الحبّ.

● بمظهر رماديّة في المسعى:

أم يوحنّا: عرائس المروج، يوحنّا المجنون.

خطيبة الشهيد الأول: الأرواح المتمرّدة، صراخ القبور.

والدة سلمى: الأجنحة المتكسّرة.
الفتاة حبيبة الفقير: دمعة وابتسامة، ابتسامة ودمعة.
مريم أخت هيلانة: العواصف، الصلبان.
الأمّ: المجنون، اللغة الأخرى.
المرأة التي تحمل طفلها: النبيّ.
سيبورية: يسوع ابن الإنسان، سيبورية أمّ يهوّذا.
الفهدة: التائه، الراهب والوحوش.

*

مسرد الأعلام

(ويشمل أسماء نساء ورجال فنّ وأدب ونقد وتاريخ ودين ومجتمع وسياسة وأسماء صحف ومجلّات وجمعيّات وبلاد ومواقع).

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

— ز —

— س —

— ش —

— ص —

*

ثبت بالمصادر والمراجع . .

(ويشمل)

أ - المصادر: كتب جبران خليل جبران.

ب - المراجع: عربيّة وأجنبيّة.

ج - الصحف والمجلاّت والمعاجم والموسوعات.

أ ـ المصادر

١ ـ جبران، جبران خليل: ـ الموسيقى، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٢ ـ جبران، جبران خليل: ـ عرائس المروج، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٣ ـ جبران، جبران خليل: ـ الأرواح المتمرّدة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٧.

٤ ـ جبران، جبران خليل: ـ الأجنحة المتكسّرة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٧.

٥ ـ جبران، جبران خليل: ـ دمعة وابتسامة، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٦ ـ جبران، جبران خليل: ـ المواكب، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٧ ـ جبران، جبران خليل: ـ العواصف، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٨ ـ جبران، جبران خليل: ـ البدائع والطرائف، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

٩ ـ جبران، جبران خليل: ـ المجنون، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

١٠ ـ جبران، جبران خليل: ـ السابق، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١١ ـ جبران، جبران خليل: ـ النبيّ، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٢ ـ جبران، جبران خليل: ـ رمل وزبد، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٣ ـ جبران، جبران خليل: ـ يسوع ابن الإنسان، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٤ ـ جبران، جبران خليل: ـ آلهة الأرض، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٥ ـ جبران، جبران خليل: ـ التائه، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.
١٦ ـ جبران، جبران خليل: ـ حديقة النبيّ، منشورات مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٨.

ب ـ المراجع

● العربيّة:

١٧ ـ بولس، متري سليم: ـ أدب الأعماق والأبعاد، أغات، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.

١٨ ـ بولس، متري سليم: ـ الخوارق في روايات ميخائيل نعيمه وأقاصيصه، الجزء الأول، أغات، ١٩٨٥.

١٩ ـ بولس، متري سليم: ـ في أدب النهضة الثانية، أغات، ١٩٨٥.

٢٠ ـ جبر، جميل: ـ جبران: سيرته، أدبه، فلسفته ورسمه، دار الريحاني، بيروت.

٢١ ـ جبر، جميل: ـ رسائل جبران، دار بيروت، ١٩٥١.

٢٢ ـ جبر، جميل: ـ ميّ وجبران، بيروت، ١٩٥٠.

٢٣ ـ حجازي، مصطفى: ـ الفحص النفساني، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت.

٢٤ ـ الحكيم، توفيق: ـ مسرح المجتمع، مكتبة الآداب بالجماميز.

٢٥ ـ الحكيم، توفيق: المسرح المنوّع، مكتبة الآداب بالجماميز.

٢٦ ـ حلمي، محمد مصطفى: ـ ابن الفارض والحب الإلٰهي، الطبعة الأولى، لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٥.

٢٧ ـ حلو، فيرجينا: ـ نبيّ الحبيب، الجزء الثالث، المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٧٤.

٢٨ ـ سكيك، عدنان: ـ النزعة الإنسانيّة عند جبران، الهيئة المصريّة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.
٢٩ ـ شيبوب، أدفيك: ـ يوسف الحويك: ذكرياتي مع جبران، دار الأحد، بيروت، ١٩٥٧.
٣٠ ـ الصايغ، توفيق: ـ أضواء جديدة على جبران، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٦.
٣١ ـ صليبا، جميل.
وعيّاد، كامل: ـ المنقذ من الضلال، الطبعة الخامسة، الجامعة السورية، ١٩٥٦.
٣٢ ـ الطوسي، أبو نصر السرّاج: ـ اللمع في التصوّف، ليدن، ١٩١٤.
٣٣ ـ عليّ، أسعد: ـ فنّ المنتجب العاني وعرفانه، المجلّد الأوّل، دار النعمان، ١٩٦٨.
٣٤ ـ فرزلي، ناهدة طويل: ـ شخصيّة جبران خليل جبران، بيروت، ١٩٨٣.
٣٥ ـ كبا، إميل: ـ تحقيق المجموعتين الجبرانيّتين: العربية والإنكليزية، مكتبة صادر، بيروت.
٣٦ ـ كبا، إميل: ـ النزوع الطبقي في مسرحيّات توفيق الحكيم، أطروحة دكتوراه من جامعة القدّيس يوسف، بيروت.
٣٧ ـ كرم، أنطوان غطّاس: ـ محاضرات عن جبران خليل جبران، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٤.
٣٨ ـ نعيمة، ميخائيل: ـ المجموعة الكاملة، دار العلم للملايين، وفيها خصوصاً: المراحل، سبعون ج ٢، جبران خليل جبران، مرداد، يا ابن آدم.
٣٩ ـ نيكلسون: ـ الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، ١٩٥١.
٤٠ ـ يونغ، بربارة: ـ هذا الرجل من لبنان، ترجمة سعيد عفيف بابا، دار الأندلس، بيروت، ١٩٥٣.

● الأجنبية:

41 - Abraham Karl: Oeuvres complètes, T.I., Payot, Paris, 1968.

42 - Adler, Alfred: Le tempérament nerveux, P.B.P., 151, 1976.

43 - Beaujour, Alexandre: Littérature et engagement, classiques, Hachette 1975.

44 - Berger, Gaston: Caractère et personnalité, collection S.U.P., P.U.F., N° 8, 1971.

45 - Bergson, Henri: Le rire, P.U.F., 1971.

46 - Bosetti, Gilbert: Pirandello, Bordas, N° 802, u.l.b., 1971.

47 - Corvin, Michel: Le théâtre nouveau en France, P.U.F., Que sais-je?, N° 1072, 1974.

48 - Dingemans, Guy: Psychanalyse des peuples et des civilisations, Librairie Armand Colin, Paris, 1971.

49 - Dort, Bernard: Théâtre public: Essais de critique, Pierres vives, Edition du Seuil, France, 1967.

50 - Duplessis, Yves: Le Surréalisme, P.U.F., 1950.

51 - Favres Yves - Alain: L'écrivain et son moi, thèmes et parcours littéraires, classiques Hachette, 1973.

52 - Ionesco, Eugène: Présent passé, Passé présent, Mercure de France éd., 1968.

53 - Jung, C.G.: Psychologie et Alchimie, Buchet, Paris, 1970.

54 - Karam, A. Ghattas: La vie et l'oeuvre littéraire de Gibran Khalil Gibran, Dar an-Nahar, Beyrouth, 1981.

55 - Lacroix, Jean: La Sociologie d'Auguste Comte, S.U.P., N° 21, France, 1967.

56- Marcuse, Herbert: Eros et civilisations, Edition de minuit, 1971.

57 - Matar, Fouad: La souveraineté populaire dans l'héritage de J.J.Rousseau, Thèse pour le doctorat du 3ème cycle présentée à Paris - Sorbonne, 1973.

58 - Otto, Annie S: The Letters of Khalil Gibran and Mary Haskell, Southern printing company, Houston, Texas, 1970.

59- Renan: Vie de Jésus, Gallimard, France, 1974.

60 - Ricoeur, Paul: Finitude et culpabilité, T.I., Aubier, philosophie de l'esprit, 1977.

61 - Rosolato, Guy: Essais sur le Symbolique, Gallimard, 1969.

62 - Sérouya, Henri: La Pensée arabe, P.U.F., 1960.

ج ـ الصحف والمجلّات والمعاجم والموسوعات

● الصحف والمجلّات:

٦٣ ـ العصبة: جبران كما يحدّثنا عنه عبد المسيح حدّاد، يوسف البعيني، جريدة ٩، ٥، ١٩٤٨.

٦٤ ـ المكشوف: ـ أقوال لأجانب في جبران، ع ١١١، سنة ١٩٣٧.

٦٥ ـ المكشوف: ـ على ذكر جبران، فؤاد أفرام البستاني، حزيران، ١٩٣٩.

٦٦ ـ المنارة: مسيحيّ يقرأ، ساسين عسّاف، ع ٣، ١٩٨١.

٦٧ ـ النهار: ـ آخر حديث لألبرتو مورافيا، ١٥ ـ ١٢ ـ ١٩٩٠.

٦٨ ـ النهار: ـ ابن عربي، نهاد خياطة، ٣ ـ ١ ـ ١٩٩١.

● المعاجم والموسوعات:

٦٩ ـ صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، جزءان، (دار الكتاب اللبناني)، بيروت.

٧٠ ـ عبد النور، جبُّور/ إدريس، سهيل: المنهل، قاموس عربي ـ فرنسي (دار العلم للملايين)، (دار الآداب)، الطبعة الثامنة، ١٩٨٥.

● الموسوعات:

71 - Encyclopédia universalis: Vols: 4,5,6,11,12,13.

72 - Encyclopédie Larousse: Histoire générale des peuples, Tomes I.

* * *

للمؤلّف..

هي كتب بعضها طبع، والآخر وثائق، مثبتة تبعاً لتواريخ تأليفها

ـ قصائد مراهقة (شعر)	١٩٦٠ ـ ١٩٦٢
ـ قصائد معذّبة (شعر)	١٩٦٣ ـ ١٩٦٤
ـ طريق السّراب (شعر)	١٩٦٠ ـ ١٩٦٤
ـ في كلمات.. أنا وأنت والكائن (قصص ـ رسائل)	١٩٦٤ ـ ١٩٦٧
ـ ذيل لرأس (رواية)	١٩٦٤
ـ وتُنحر السكينة (شعر)	١٩٦٧ ـ ١٩٦٨
ـ قدم لفتح (رواية)	١٩٦٧ ـ ١٩٦٨
ـ أنا المدينة الحزينة (شعر)	١٩٦٨ ـ ١٩٦٩
ـ تارا (شعر)	١٩٦٨ ـ ١٩٦٩
ـ أحبُّك.. لفظة تكفي. ولتنسَني لغتي المباركة (خواطر)	١٩٦٨ ـ ١٩٧٠
ـ غلوريا (شعر)	١٩٦٩ ـ ١٩٧٤
ـ أمّي وأمّتي (شعر)	١٩٦٩ ـ ١٩٧٨
ـ أيّامك البيروتيّة (شعر)	١٩٧٠ ـ ١٩٧٣
ـ ثلاثية في الحبّ والحرام الحزين (كلام شعر)	١٩٧٣ ـ ١٩٧٤
ـ خواطر في الريح والسكينة (كلام شعر)	١٩٧٦
ـ وطني.. هل يكون دائماً على حقّ؟ (قصص)	١٩٧٦
ـ أصوات تسلّقت أعلى البرج (قصص)	١٩٧٦
الديريّات (خواطر)	١٩٨١ ـ ١٩٨٥

ـ فنّ الإضحاك في مسرحيَّات توفيق الحكيم (رسالة ماجستير)	١٩٨١
ـ سلسلة أسرة السّماح: ١٣ جزءاً (قصص)	١٩٨٤
ـ في الضحى المبصر: جزآن (كلام شعر)	١٩٨٤ ـ ١٩٨٨
ـ جبران على خشبة (ثلاث مسرحيّات)	١٩٨٣ ـ ١٩٨٥
ـ خبزي تحت الموائد (كلام شعر)	١٩٨٥ ـ ١٩٨٦
ـ النزوع الطبقيّ في مسرحيات توفيق الحكيم (أطروحة دكتوراه)	١٩٨٦
ـ دراسة وتحقيق مجموعة جبران الكاملة (١٦ جزءاً)	١٩٨٧ ـ ١٩٨٨
ـ دراسة وتحقيق مجموعة صلاح لبكي الكاملة (٧ أجزاء)	١٩٨٨
ـ سلسلة «إلى الأبد» (أعمال روائية في أطر تاريخية ـ ١٢ جزءاً) وتشمل: جبران، فيروز، أم كلثوم، سلفادور دالي، أفلاطون، الفارابي، أبو العلاء المعرّي، الغزالي، المتنبّي، ابن الرومي، المعتمد ابن عبَّاد، أبو فراس الحمداني.	١٩٨٩ ـ ١٩٩٠
ـ دراسات في الإرث الجبراني (مجلّدان)	١٩٩٠ ـ ١٩٩١
ـ دراسة وتحقيق «الشوقيات» لأحمد شوقي	١٩٩٢ ـ ١٩٩٣
ـ قصائد الخمسين ـ إلى حبيبتي	١٩٩٣ ـ ١٩٩٤
ـ أشياء، أو أنايَ منداحةً في الزمان	١٩٩٤



فهرست المحتويات

* * *